

کتاب

الحجۃ والصلیۃ

سید علی احمد شری

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد لله رب العالمين . الذي جعل تاريخ الأولين عبرة للآخرين . ومראה لكل عاقل فطين . أحمد على ما أسبغ من الانعام والافضال . ومن به من الاحسان والنوال . ونصلي على رسوله ونبيه . وخيرته من خلقه وصفيه . سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ . والفضل الشامخ . والعلم الراسخ . صلى الله عليه وعلى ملائكة المقربين . وعلى الانبياء والمرسلين . ما طلع كوكب وبرز هلال . وعلى آله وصحبه وعترته أجمعين . صلاة وسلاماً دائماً متلازمين الى يوم الدين . أما بعد فانه لا يخفى على كل انسان أهمية الحروب الصليبية التي جرت في الاجيال الغابرة . وتحريضات البابوات والأكليروس أهل أوروبا بمحاربة المسلمين وما جرى للصليبيين من اغتصاب بلاد الشام بحجة تخليص القدس من ايدي الاسلام وما أعقب ذلك من اتحاد المسلمين واستخلاص البلاد من الصليبيين وما جرى لأولئك الصليبيين من المصائب والهلاك والفشل والارتباك

وحيث ان ملوك أوروبا الآن حصل منهم تعصب على دولتنا العلية حرسها الله بما يشابه ما فعلوه اولئك الفايرون حتى قال سلاطنتنا الاعظم وخاقاننا الانخم المحفوظ بالسبع المثاني (عبد الحميد الثاني) ان أوروبا تحاربنا الآن حرباً صليبية تحت شكل سياسي وحيث اننا معشر قراء اللغة العربية لم يوجد باعتنا كتاب يحتوي على الحروب الصليبية لمعرفة حقيقتها بل اننا نجد البعض منها موجوداً في كتب التواريخ خالياً عن معرفة أسبابها والمحرضين عليها وكيفية نتائجها ولذلك باشرت تأليف هذا الكتاب وسميته (الاخبار السنية في الحروب الصليبية) وقد عنيت في ضبط هذا الكتاب المشتمل على الثمانية حروب صليبية ميئناً كل حرب منها على حدة موضحاً أسبابها والمحرضين عليها وسفر عساكرها وما فعله الصليبيون من المحاربات مع الملوك المسلمين وقد أوضحت أيضاً تواريخ ملوك الاسلام المعاصرين لهذه الحروب الذين لهم شأن مع

الصليبيين من ابتداء سنة ٤٩٠ هجرية التي فيها دخل الصليبيون سوريا لغاية سنة ٦٩٠ هجرية التي انقضى فيها الصليبيون من سوريا بأسلوب بسيط خالياً من التعقيد والتطويل الممل

غير اني وان كنت لست من رجال هذا الفن ولكن طمعي في فضل حضرات أساتذته هو الذي شجعتني على تقديم كتابي هذا بين أيديهم ليكون مشمولاً بنظرهم السامي واقتبساً لهم تأليفي هذا بصدر رحب ونظرهم اليه بعين الرضا اذ العصمة لاني وحده معترفاً امامهم باني جمعة من جملة كتب مطولة مثل تاريخ مصر الحديث وابن الاثير وابي الفدا والروضتين وتاريخ الحروب المقدسة الذي عرّبه مكسيموس مظلوم وتاريخ سوريا وغيره . ولكني أرغب الى من يعثر لي على خطئه ان ينبهني اليه فاشكر سعيه وأثني عليه . أو يعذرني فان أعقل الناس أعذرهم للناس ولا أقول ان كل خطئه سهو جرى به القلم بل اعترف ان ما أجهل أكثر مما أعلم وما تمام العلم الا لله وحده الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم

واني اتضرع الى الله فاطر السموات والارض من فؤاد مخلص وقاب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الابدية والنصر السرمدي ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة وأن يحفظ لنا حامي حماها جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازي (عبد الحميد الثاني) وان يحفظ لمصر في ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الخديوي (عباس حامي باشا الثاني) وولي عهده المكرم محمد عبد المنعم ان ربي سميع مجيب

تحريراً بمصر القاهرة في شهر ربيع الاول سنة ١٣١٧ وشهر يولييه سنة ١٨٩٩

كاتبه

سيد علي الحريري





أسباب الحروب الصليبية

كان رجل فقير يسمى بطرس من أهالي بيكارديه إحدى مقاطعات مملكة فرانسـا قد انقطع للتعبـد ولبس ثوباً رهبانياً من الصوف الحشن وأقام بمغارة يتعبد فيها ثم تركها وتوجه مع جماعة يقصد زيارة بيت المقدس فلما وصلوا إلى المدينة المقدسة ووجدوها في حكم المسلمين صار بطرس يبكي ويتحـب ثم تقابل مع البطريرك سـمعان وتحدثا ملياً فأخبره البطريرك عن كيفية استيلاء المسلمين على بيت المقدس الذي هو قبر المسيح وأن الحكم منهم طالما ظلموا قومه ثم تعانقا وهما يبكيان ووعد بطرس السائح البطريرك بأنه سيعمل جهده في حمل أهل أوروبا لتخليص بيت المقدس من المسلمين

ثم غادر بيت المقدس راجعاً إلى روميه وهناك طلب مقابلة البابا أوربانس الثاني ولما مثل بين يديه وأخبره بما قاله بطريرك القدس وعده بالمساعدة التامة أمراً إياه بالتوجه إلى جميع بلاد أوروبا لأجل تحريض الأهالي على ذلك وخرج هذا الرجل من لدن البابا وأخذ يجول في بلاد فرانسـا وبعض ممالك أوروبا راكباً على بغل قابضاً بيديه على الصليب منادياً بحرب الصليب في الطرقات والأزقة والكنائس والأديرة منادياً بأن مسيحي الشرق يقاسون العذاب الوائناً تحت حكم المسلمين مزكياً أقواله بوصفه جبل صهيون ومكان الجلجلة وبيتان الزيتون وقد كان أحياناً يستصحب بعض مسيحي الشرق الذين كان يقابلهم ببلاد أوروبا

وكانت الناس تتقاطر إليه مزدحمين حوله مقبلين أريدته فارشين الأعشاب في الأرض لير عليها متخاطفين أجزاء وشاح بغله بمنزلة ذخائر لهم ملقيه بقديس ونبي باكين معه على شقاء أورشليم (بيت المقدس) متعهدين بصرف موجوداتهم وخيراتهم وحياتهم لأجل انقاذها من الأسر والهوان

وفي أثناء ذلك أرسل ملك القسطنطينية المدعو اليكسيوس كومينوس وفداً الى البابا اوربانس الثاني يطلب منه الاغاثة لان الاتراك أغاروا على بلاده وكان قد ارسل وفوداً الى ملوك اوربا بخصوص ذلك أيضاً طالباً منهم المبادرة لحمايته مقررراً لهم في نظير ذلك جميع ما بخزان مدينته

﴿ مؤتمر مدينة بلاصانس بايطاليا ﴾

ولما تحقق جناب البابا من استمرار دعوة بطرس الساجح أمر بالانعقاد مؤتمر بمدينة بلاصانس حيث اجتمع مئتا اسقف مع رؤساء أساقفة وأربعة آلاف اكليريكي وثلاثون ألفاً من العلمانيين وهذا المؤتمر انعقدت جلساته في البريه في مكان سهل واسع بالقرب من المدينة وكانت أعين الشعوب متجهة الى وفد الملك اليكسيوس متعججين للملابس الفاخرة الشرقية وصباغين الى أصواتهم الملتزمة المعونة من ملوك المغرب بان يوجهوا قوة أسلحتهم لمعاودة القسطنطينية ولانقاذ بيت المقدس وشرع البابا بتحريض الجميع باتحاد قواهم واتفاق عزائمهم نحو هذه القضية المقدسة فقبلوا جميعاً الاوامر واعدين بانهم بعد أيام قليلة يجتمعون تحت بيارق الصليب لذهابهم الى بلاد فلسطين للحرب المقدسة باتفاق عام بينهم

ثم لم تمض أيام قليلة على هذا المؤتمر حتى سكن ثأرهم لانه اعتراهم الخوف من ترك بلادهم وأوطانهم والذهاب الى بلاد وأقاليم مجهولة عندهم وهكذا لم تحصل ثمرة من المؤتمر لانه لم يتقرر فيه تحديد كيفية محاربة المسلمين ولان البابا لم يبق في استطاعته تحريض وحث الشعوب التي حوله لانقسام أهالي بلاد النمسا وقام فريق منهم ضد الكرسي الرسولي . وأهالي الاقاليم الشمالية كانوا منشغلين باهتمام في صد البربر عنهم وكانوا قليلي الميل الى هذه الحروب ومملكة اسبانيا كانت تحت حكم المسلمين . وبلاد الانكليز كانت وقتئذ ضعيفة محتاجة لحماية بلادها التي فتحها ملكها غوليالموس بعساكره الموجودة في ولايته ولذلك لم يجد البابا أمامه غير بلاد فرانس

﴿ مؤتمر مدينة كليرمون بفرانسا ﴾

فاجتاز البابا بلاد ايطاليا ودخل مملكة فرانس وعقد مؤتمراً في مدينة كليرمون في شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ فقاطرت اليه جميع الشعوب من أمراء ورؤساء كنائس ووفود ملوك وغيرهم حتى امتلأت المدن والقرى حول تلك المدينة بوفود الشعوب وكانت الخيام والمضارب منصوبة في الحقول لماوى الكثيرين منهم وكان ذلك في فصل الشتاء

والبرد شديد الزمهرير وفي الجلسة العاشرة من هذا المؤتمر اجتمعوا في قصر المدينة وكان بطرس السايح جالساً بجانب البابا وهو الذي فتح الخطاب معدداً الشدائد التي يعانيها أهالي بيت المقدس قائلاً انه شاهد هناك المسيحيين مقيدين بالسلاسل الحديدية وانه نظر قبر المسيح محتقراً مهاناً وان زواره يتكبدون الذل ثم قام البابا وخطب قائلاً (أيها المسيحيون ان تلك الارض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا وذاك الحبل الذي عليه تلّم ومات من أجلنا وذلك الضريح الذي تنازل لأن يدفن فيه نحية للموت كلها أنحت ميراثاً لشعب غريب وغاب كل بهاءها الاصلي وهياكلها قد خربت وأشعة نورها الساطعة تحولت الى ظلام حالك وهي تستحق الذب الشديد والبكاء . ولم يعد لله من معبد داخل المدينة المقدسة الخصوصية والمشرق الذي هو المهد والنبوع المقدس لايماننا لم يعد مشهداً الا لاقتحارات أعمال المسلمين وجهات أسيا الاكثر ثروة وغناء قد التحقت بالظلام الى الكره والفقر المهين . وانطاكيه وافسس ونيقية قد صارت مدن الاسماعيليين والاراك قد مدوا ولايتهم الى حدود هاليبوتوس لابل الى أبواب القسطنطينية . ومن هناك ذراع هؤلاء الشعوب الشديد يتهدد بان يستولى على كل ممالك الغرب)

ثم ان البابا وجه خطابه الى الحاضرين من وفود الطوائف قائلاً لهم هل ان مشهداً مثل هذا يترك قلوبهم بارده وغير حساسه . ثم وجه خطابه الى أهل فرانساً قائلاً أيها الطائفة الفرنسية العزيزة لدى الله . ان كنيسة المسيحيين قد وضعت رجاها مسنداً على شجاعتكم فانا الذي أعرف جيداً تقواكم وكفائتكم بالشجاعة والغيرة . وقد اجتزت الجبال الالبية وحضرت لكي انذر بكلام الله في وسط بلادكم . وهكذا أخذ يحثهم مذكراً ايهم بشجاعتهم القديمة وما أتم كلامه حتى وضع ضباط العساكر أيديهم على سيوفهم وأقسموا بان يبادروا الى انقاذ المسيحيين

فلما تأكد البابا من نجاح مرغوبه اردف خطابه بقوله . لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الاسلام تلك الاسلحة التي اتخذتموها حتى الآن ضد بعضكم لاخذ الثار لانفسكم من أبناء جنسكم عن بعض اهانات فالجرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هي لاخذ النار عن الاهانات ضد البشر بل عن الاهانات الصادرة ضد الله . وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي أقاليم أسيا بمجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى فاتخذوا محجة القبر المقدس . وخلصوا الاراضي المقدسة من أيادي المحتلسين وأنتم أملكوها لذواتكم فهذه الارض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً الخ . ثم قال

يأبها الشجعان اذهبوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية واكتسبوا بها لذواتكم خزان المكافات السماوية الابدية . قاذاً أنتم انتصرتكم على أعدائكم فالملك الشرقي يكون لكم قسماً وميراثاً . وأما اذا قتلتم فلنكم المجد لأنكم تموتون في المكان الذي فيه مات يسوع المسيح . وهكذا صار يخطب ويبحث

ثم اخرج علامة الفدا المقدسة (صليب الخلاص) وقال احملوه على عواقبكم أو على صدوركم وليشرف فوق أسلحتكم وفي رؤوس سناجقكم (أي اعلامكم) ثم قام الكردينال غريغوريوس تالياً بصوت عال صورة اعتراف عام وعند نهايتها مد البابا يديه ومنح الجميع البركة

ثم قام ادھار دي مونتيل اسقف مدينة بوي وطلب الى البابا الاذن له بان يكون أول من يجاهد في سبيل الله ثم استلم من يد البابا سنجق الصليب فاتبعه عدد عظيم من رؤساء الكنائس ومن القواد المختلفي الرتب متحالفين على المحاربة وكذلك الامراء استلموا من البابا سنجق صليب آخر ثم ان جميع الذين كانوا حاضرين في هذا الجمع علقوا على صدورهم صليباً حمراء واتخذوا أنفسهم اسم (صليبيين) كما انهم لقبوا الحرب التي شرعوا فيها (حرب الصليب المقدس) وأظهر البابا اعتمامه من عدم مسيره بشخصه أمامهم وقال انه اناب عنه اسقف بوي المتقدم ذكره

وقرر الجمع أيضاً عدة امتيازات للصليبيين كاعفائهم من دفع العوايد وغيره وقرر اشهار الحرب على بلاد فلسطين . ولما عاد الاساقفة الى ابرشياتهم اجتهدوا في صنع سناجق الصليب وكانوا يقدمونها الى جواهر المسافرين الى هذه الحرب واخذ البابا أوربانس يتقل في بعض أقاليم فرانس وعقد الجمعيات في مدن روان وطورس ونسياس باذلا غنيته في نجاح هذه الحروب وامتدت هذه الدعوة الى البلاد الاورباوية الاخرى فاخذ الناس يرسلون أولادهم مع العساكر من الانكليز والنمسا وايطاليا واسبانيا .

ومما ساعد على ذلك أيضاً انه حصل قحط ببلاد أوروبا عدة سنوات مترادفه نتج عنه فيها مجاعة عظيمة وكثرت اللصوص وصارت مدنهم وقراهم لاتحملهم فلذلك بادروا نحو أراضي المشرق المخصبة التي يشير اليها الكتاب المقدس بقوله تدر لنا وعسلاً وخصوصاً لانهم سمعوا عن كثرة غناء بلاد آسيا وخزائنها فاضحت بلادهم أمامهم كأنها منفي وصار المشرق أمامهم كأنه وطن وكان للرؤساء يومئذ غايات فدعوا الناس الى الغزو فبادروا اليه جاهلين ما وراء ذلك واجتمعوا ليسيروا ناعجا الى الذبح في بلاد غربيه

﴿ الحروب الصليبية الأولى ﴾

كان المجمع المنعقد في مدينة كليرمون قد ضرب ميعاداً لسفر العساكر الصليبية الى الحرب عهد السيده في ١٥ اغسطس سنة ١٠٩٦ وعند حلول شهر مارس أخذوا باعداد العدد ونصب الخيام وتجهيز الخيول والبغال والاسلحة والسناجق فتألفوا كتائب وجيوشاً وساروا على غير ترتيب ولا نظام وكان فيهم من يحمل المزاريق ومنهم من يحمل الحراب وكثيرون عزل بلا سلاح وأكثرهم مشاة ومعهم عائلتهم من نساء وأولاد وكانوا بلا قائد يسير أمامهم لان الامراء والرؤساء الذين كانوا يلزمهم ان يقودوهم أعطوهم ميعاداً للمقابلة في القسطنطينية فسارت الجيوش وأمامها قائدها بطرس السائح راكباً بغلته ثم انه قسم جيشه الى قسمين أحدهما سار بقيادته والثاني عين عليه أحد ضباط فرنسا المسمى ولتر أو (غوتيار)

وسار قسم غوتيار مجتازاً بلاد فرنسا ثم بلاد المانيا ليأتي هنكاريًا طريقاً للقسطنطينية عاصمة الروم فلما تبطنوا بلغاريا قل زادهم فطفقوا يعيثون في البلاد ينهبون ويسلبون وهم في أمن مما يحذرون حتى بلغوا بلغراد العاصمة فهاجوها ولكن الاهلين نشطوا لمقاتلتهم وقتلوا منهم كثيرين وبددوهم وكان ما فعلوه في أهل بلغاريا شاهد عدل على ان مقصدهم بمحاربة الاسلام ليس الا النهب والسلب وان كان ظاهره لغايات دينية يأبى التقي أن يعترف بها ثم ان ولتر المذكور جمع باقي جيشه وخرج من بلغاريا الى القسطنطينية التي بلغوها بعد شهرين بعد ما قاسوا اتعاباً ومشقات وهناك الملك اليكسيوس أقامهم عنده حين حضور الآخرين

وسار الجيش الذي بقيادة بطرس السائح ولما وصل الى حدود هنكاريًا بلغه ما جرى للقائد غوتيار فحزن لذلك وعزم على الانتقام فهجم على مدينة ساملين وقتل أربعة آلاف من أهاليها . ولما بلغ خبر هذه المقتلة أهل هنكاريًا استعدوا لقتاله بقيادة ملكهم لولومان . وعند وصول جيش بطرس اليهم هجموا على هذا الجيش الصليبي وبددوه وقتلوا أكثره ولجأ بطرس الى الفرار هو ومن نجا من القتل ودخلوا بلاد بلغاريا وهناك عند مدينة ينصا هجم عليهم البلغاريون وشتوهم وهكذا ساروا هاربين الى مدينة القسطنطينية

ثم انه سار أيضاً جيش صليبي آخر من بلاد النمسا تحت قيادة غوشالك الكاهن بالاطنيات يتبع بطرس السائح وأخذوا يعتدون على الاهالي في مسيرهم فسوقبوا بمثل ما عوقب به الذين تقدموهم

ثم سار أيضاً جيش صليبي رابع من بلاد ريزوموسيل تحت رئاسة الكونت اميلوك وهذا الجيش لم يبرح وطنه الا بعد ان قتل جميع اليهود ظلماً وعمل أعمالاً فاحشة لا تحتملها الانسانية التي يدعون بزخفهم لنجدتها ولما وصل الى هنكاريما هجم عليهم الهنكاريون وقتلوا معظمهم وهرب الباقي الى القسطنطينية .

﴿ دخول الصليبيين اسيا وهلاك هذه الجيوش في نيقية ﴾

لما وصلت بقايا جميع الجيوش المذكورة الى مدينة القسطنطينية اجتمعت لدى الملك اليكسيوس كومنينوس وكان عددهم مائة الف محارب نقلهم بمراكبه من القسطنطينية الى وراء البوسفور وهناك تفرقت كلهم واختلفوا في أمرهم فلذلك تركهم بطرس ورجع الى القسطنطينية ثم بلغ أمرهم الى قليسج ارسلان بن سليمان بن قطلمش صاحب قونية وبلاد الروم فجمع عسكر الاسلام واحتاط بهم من كل جهة فاعمل المسلمون فيهم السيف حتى أفدوهم عن آخرهم وكان ذلك بالقرب من مدينة قونية ولم ينج منهم بالهرب الا قليل وكذلك قتل القائد ولتر او (غوتيار) الفرنساوي مجروحاً سبعة جراح في نخذه وهكذا لم يبق من هذه الجيوش التي نقلت من اوروبا الى اسيا في سهل قونية الا أجسام باليه من طوائف مختلفة وهذه كانت النهاية التعيسة لعساكر أخلافتها رديئة كما قاله المؤرخ (برزدوس الخازن الفرنساوي)

وأما بطرس الساج فانه لما رجع الى القسطنطينية أخذ يشكو بمرارة من الصليبيين لعدم اطاعتهم اوامره ولذلك صار يسميهم اموصاً وقد أقسم بأنه لا يفتقر عن عزمه حتى يشاهد حروباً صليبية أخرى .

﴿ الحملة الثانية من الحروب الصليبية الاولى ﴾

لما بلغ سكان أوروبا ما حلّ بالحملة الاولى شاملهم الحزن والغم الشديد وافتكروا في الانتقام واعتمدوا على السفر الى البلاد الشرقية تحت رئاسة غودافرو دي بوليون دوك دي لورين السفلى المولود في براينت وكان هذا الرئيس مبعجلاً معظماً عندهم شجاعاً ذا رأي ومعه عسدد وافر من قواد فرنسا وبلاد النمسا كاؤسلاكيوس (من بلونيا) وبودوين واخوته وأولاد عمه بودوين روبروك وبودوين حاكم هانوت وعزئيل حاكم دي هاش وجرارد وبطرس دي طول وهوكر دي سانبول وابن انجلران دوك دي لوران وساروا جميعاً برأ قاصدين القسطنطينية وكان مسيرهم من بلاد المانيا بغاية الادب والقناعة ولذلك لم يتعرض لهم احد في طريقهم

وسار جيش آخر عن طريق ايطاليا تحت رئاسة هوكر حاكم فرمندواس أخي ملك فرانسا ومعه روبرتوس الملقب بكورتهوز حاكم ولاية نور منديا . وروبارتوس أكد والي مقاطعة فلا ندره الملقب بحربة المسيحيين . واستفانس دالي بلاوز وكاتريز الذي كان مستمداً في ديوان شوري الحرب لفطنته وسار هذا الجيش متأخراً عن سابقه فاجتاز جبال الالب نحو بلاد ايطاليا ولما وصلوا مقاطعة لوكا قابلهم البابا اوربانس الثاني وباركهم ومن هناك ساروا الى بوليا يقصدون سفرهم بحراً ومروورهم بايطاليا الحياء الايطاليين الى السفر غيرة وبمقدمتهم بوهيمند أمير تارانت فاشترك في المسير مع الجيش البحري وكان بقيادة اهالي بوليا وغيرهم من بلاد كلابريا وسيسيليا ومعه ريكاردوس أمير سالارنوس وأخوه رانولف وروبارتوس دي هوس وروبارتوس دي سوروقال وهم مفرو دي مونتياك

وسار جيش ثالث من اقليم فرانسا الجنوبي تحت رئاسة ادهمار دي مونتيسل (اسقف بوى) وبقيادة رايوند كونت دي سات ودي طولوز وكان ادهمار هذا قد اقامه البابا رئيساً كنائسيا على الحيوش الصليبية وهو اول من استلم سنجق الصليب وكان هذا القسم من اهالي غازكونيا ولانكادوك ولیموزين وافرنيا والبروفانس وبصحبته ايضا هرقل كنت دي بولنيك وغوليافوس دي ساريان وروجار كونت دي فواكس وغولياموس سيد مونت بلير ورايموند بالات وريمون كونت دي اورانج وغيرهم كثيرون وأساقفة ابنت ولورين واورانج مع رئيس اساقفة طوليد وكانوا حملة الصليبان وكان مسير هذا الجيش من جبال الالب وبلاد لومبارديا والفريول متقدماً نحو حدود المملكة اليونانية بمشقات عظيمة من اقليم دالماسيا

﴿ ماجرى للصليبيين في القسطنطينية ﴾

كان الملك اليكسيوس ملك القسطنطينية قد ارسل وفوداً الى ملوك أوروبا يستغيث بهم لمساعدته ضد المسلمين ولما بلغه قرب حضور هذه الحيوش الكثيفة خاف منهم على بلاده وندم على ما فرط منه ثم ابتدا بتدبير الخيل لكيد الصليبيين وكان الجيش البحري برئاسة هوكر حاكم فرمندواس اخي ملك فرانسا قد قرب ولكن هذا القائد غرق مركبه على شواطئ الايروس فخرج سالماً فارسل اليه حاكم دورانيوس احد عماله لاجل ان يهتبه بالسلامة ولما قرب للقسطنطينية بالاكرايم والاحتفال امر بسجن هذا القائد بصفته أسيراً ظاناً انه مجسس أخي ملك فرانسا عنده بصفة رهينة يأمن غائله الحيوش القادمة

وكان غودافرو رئيس الجيش البري الاول قد بلغ مدينة فليوبوليس وسمع
بأسر اخي سلطان فرانسوا وحبسها فاعتناظ غيظاً شديداً وأخذ يعامل اهل البلاد
بصفة اعداء محاريين ففر أكثرهم الى القسطنطينية للاحتباء بها ولما علم الملك بما
جرى لبلاده خاف خوفاً شديداً وارسل يطلب من قائد الجيوش الصليبية الكف
عن القتال متعهداً له بما يطلب وانه يفك اسر المسجون عنده ولذلك رضي قائد
الجيوش وكف عن الحرب وسار قاصداً القسطنطينية بصفة سلميه
اما الملك الكسيوس فانه احضر هو كز لديه واخذ يعتذر اليه وبهاديه تملقاً
حتى انه جذب قلبه وطلب منه القسم على الطاعة له وحفظ الامانة بالخضوع
لاوامره وبعدم الانحراف ضده وبذلك اشترى عتقه من الاسر وانطلق الى الجيوش
الصليبية فعند اجتماعهم أخبرهم بقسمه فلما علموا بانه يلزم الاطاعة بموجب هذه
الشروط للملك غريب اعتناظوا غيظاً شديداً ورفضوا هذا الامر معتمدين على
مقاومتهم

وهذا الرفض أغضب الملك الكسيوس الذي عزم على ان يجمعهم يطيمونه
غصباً بواسطة الجوع ولذلك أمر بقطع العلائق مع الجيوش الصليبية وأمر بمنع
الاهالي من بيع الماء كولات لهم غير ان هذا الرأي لم يأت بفائدة لان القائد
غودافرو اتحد مع باقي رؤساء جيشه وقرروا الهجوم على جميع القرى وأخذ
ما يوجد فيها من القوات وهكذا كانت الجيوش الصليبية تهجم بشراسة كلية على اهل
القرى وتنهب موجوداتهم حتى امتلأت مضاربيهم من كل نوع . وحيث انه كان
قد قرب عيد الميلاد فاجلالا له كفوا عن القتال ودارت الخابرة بامر الصالح الذي
تم على ان الملك يقدم لهم المؤونة

وكان بوهموند أمير تارانتا قد سولت له نفسه محاربة القسطنطينية والاستيلاء
عليها ولذلك زحف نحوها بعساكره ولما قرب من مدينة دوراتسيوس بعث
رسولا الى غودافرو القائد العام بما عزم عليه وبعزمه على الاتحاد معه غير ان
هذا القائد رفض هذا الرأي ووجه عليه . ولما علم ملك الروم بما دبره بوهموند
اجتهد بان يكتسب صداقة غودافرو ومحبة الامراء الذين برفقته لينجو من الغائلة
ولنع الريبة به قد أرسل ابنه يوحنا الى معسكر الصليبيين كرهن وحينئذ آمن
غودافرو ودخل القسطنطينية ونزل في قصر الملك وأعجب غودافرو وأمرأؤه
بالقسطنطينية وبنياتها الفاخرة وزيناتها كما أعجب الملك وأهل المدينة بحسن ملابس

الامراء الصليبيين الفاخرة المزينة بالذهب والماس ثم ان الملك قابلهم ببشاشة تامة معانقا ايهم الواحد بعد الواحد وكانوا ينتحنون أمام العرش الملوكي الشرقي ويسلمون جاثين على ركبهم باحترام ثم خاطبهم الملك قائلا أرغب منكم يا حماة المسيحيين ان تحموا بلادني من الاعداء فوعده هؤلاء الامراء بان يردوا له جميع البلاد التي كانت تحت حكمه وبان يعطوه كل ما يستولون عليه وفي نظير ذلك حلف الملك لهم بانه يسعف الصليبيين بكل الوسائل الممكنة له ودليلا على ذلك أهداهم هدايا فاخرة وأصدر أوامره الى جميع رعاياه بان يقابلوا الصليبيين بالمودعة ويقدموا الى مضاربهم المؤن وبهذه التصرفات حصل السرور للطرفين ولكن الملك كان الخوف لم يزل في نفسه فلذلك أشار على غودافرو بان يكون مسير الجيش الى آسيا من وراء البوسفور وهكذا سافرت العساكر الصليبية من طرق وعرة أضاعت فيها زمانا طويلا ذهب بحماسة منهم.

❦ الصليبيون في آسيا واستيلاؤهم على قونية ❦

لما انتقلت العساكر الصليبية الى آسيا ساروا في سهول الاراضي الشرقية التي كانت مخضرة يانعة بالاثمار في زمن الربيع فزحفت الى مدينة قونية عاصمة بلاد الروم وكانت تحت حكم قليج ارسلان بن سليمان وكان شجاعا عاقلا فلما بلغه خبر قدوم هؤلاء الصليبيين جمع عساكر كثيرة لرد هجماتهم وكان من جمعهم من العساكر يبلغ مائة الف وأما عدد الصليبيين فكان مائة الف من الحيلة وخمسة الف من المشاة وكانت قونية محاطة بجبال عالية ومحاطة من جهتيها القبلية والغربية ببحيرة اسكانيوس فلما بلغت الجيوش الصليبية حاصرتها من كل جهة وانصبوا مضاربهم حولها وكانت كل طائفة منهم على حدة تميزا لها ولها سنجق صليبي وبعد حصار المدينة عدة أيام خرج قليج ارسلان المذكور بعساكره من جهة الجبال مهاجما الصليبيين وكانت هجماته المذكورة على جيش غودافرو القائد العام وعلى جيش رايوند دي طولوز حتى انه قهرهم الى آخر مضاربهم وحينئذ هجمت عليهم باقي طوائف الصليبيين واشتد القتال الى آخر النهار وانهمزمت العساكر الاسلامية الى الجبال وكان ذلك في سنة ٤٩٠ هـ جريه.

وفي صباح اليوم الثاني لهذه الواقعة هجم قليج ارسلان بعساكره على الصليبيين واستمروا في قتال عظيم وقد أظهرت العساكر الاسلامية من الشجاعة والحيل الحريسة ما أدهش الصليبيين كما رواه مؤرخوهم ولكن الكثرة تغلبت على الشجاعة فانتهصر الصليبيون على المسلمين في هذا اليوم وهربت عساكر الاسلام الى الحدود والاستعداد

للمهاجرة والمدافعة وكانت المدينة لم تزل محصورة بعساكر الافرنج الذين ركبوا عليها المنجنيقات وأخذوا يرشقونها تباعاً بسرعة الى ان هدموا سورها وكانت العساكر الاسلامية من داخل المدينة ترميهم بنبال مسمومة وكانت ترمي أيضاً الصليبيين الذين كانوا يطلعون فوق السور بحبال مرشوقة بكلايب حديد وبذلك قتلوا كثيرين من الصليبيين وكان يوجد رجل شركسي كل يوم يظهر فوق السور ويرمي الصليبيين بالنشاب الذي كان يصيبهم ويهلكهم حتى أزعجهم وفي يوم من الايام عند ظهور هذا الشجاع على السور جاءت نبله من يد غودافرو فدخلت صدره فاماتته في الحال وكانت المدينة لم تزل في حصار لان جهتيها القبلية والغربية كانتا في مأمن من الصليبيين ثم رأوا البحيرة قد امتلأت بمراكب الصليبيين الواردة من القسطنطينية وحينئذ وقع الرعب في عساكر الاسلام وفرح الصليبيون وشددوا الحصار وكانت زوجة قليج ارسلان داخل البلد فخرجت هاربة مع ولديها في مركب صغير فشعر بهم الصليبيون ولحقوهم حتى قبضوا عليهم ولما بلغ هذا الخبر الى عساكر الاسلام خافوا وكان الملك اليكسيوس قد أرسل فرقة من جيشه صحبة الصليبيين لحصار قونية ولكونه لم يزل خائفاً منهم أرسل فرقة أخرى سرية تحت رئاسة أحد قواده المسمى بوطوميت لاجل الاستيلاء على قونية لتكون له فهذا القائد عمل كل جهده حتى دخل المدينة وهناك اجتمع مع الامراء المسلمين وعرفهم بان هؤلاء الصليبيين اذا امتلكوا المدينة يقتلونهم عن آخرهم واستحسن لهم ان يسلموها الى الملك اليكسيوس وفعلا تم هذا الاتفاق .

وأما الصليبيون فكانوا قد عزموا على الهجوم على المدينة بكل قوتهم لاجل استيلائهم عليها فاشعروا الا وسناجق الملك اليكسيوس على أسوار المدينة فانبغثوا لذلك واشتدوا غيظاً من معاملة هذا الملك المخادع خصوصاً لكونه أمر بالافراج عن زوجة ملك المسلمين وولديها وأحسن معاملة الاسرى المحبوسين ولكن الصليبيين كتموا غيظهم وكان مدة حصار قونية ما ينوف عن الخمسين يوم وأقاموا مدة يسيرة حول مدينة قونية للاستراحة وبعدها قسموا الجيش قسمين سارا بين القسم الاول والثاني مسافة قليلة واجتازوا جبال أفريجييه الصغيرة تأهبين في الوديان قاصدين سوريا ولعدم معرفتهم الاراضي حصل لهم مشقة عظيمة وخصوصاً لعدم المياه وحرارة الجو

وكان القسم الاول تحت رياسته بوهيموند وتانكريد ودوك نرمنديا انتهى الى وادي

مخضب عند نهر غورغوني وأقام مضاربه للاستراحة وفي صباح اليوم الثاني وجدوا غباراً قد علا وثار وانكشف عن عساكر الاسلام بقيادة ملكهم قليج أرسلان فاستعد هذا القسم للمدافعة فجمع الاولاد والنساء في القلب والعساكر المشاة محتاطة بهم وأما الحيلة فانقسموا ثلاث فرق فاحدهم كان برئاسة تنكريد والثاني برئاسة دوك دي نورمنديا والثالث دي شاتريز والثالث كان برئاسة بوهيموند أمير تارانتا رئيس هذا القسم . ولما تقاربت العساكر الاسلامية اصطفت صفوفها وهجمت على الصليبيين هجمة شديدة ثم تكاثر عليهم الصليبيون وزحزحوهم عن مواقفهم ثم انهم ارتدوا عليهم وأخذوا يرمونهم بالنشاب حتى ان خيولهم كانت تتساقط من الجراح وهجموا بقوة على الصليبيين حتى بددوهم واستولوا على مرأسهم وأخذوا منهم نسائهم وصاروا يقتلون فيهم قتلاً شديداً حتى أفنوا أكثرهم وقتل غويابوم أخو تنكريد وغيره من الامراء مع ما أظهره من الشجاعة خصوصاً بوهيموند الذي كان هجم على ملك المسلمين يريد قتله ولكن الملك هجم عليهم وأختهم بالجراح والقتل ثم ان أحد قواد الصليبيين المدعو روبرتوس دوك دي نورمنديا استجمع بعض عساكره وهجم على المسلمين وتبعه تنكريد وريكارد أمير سلارنو واسطفانوس كونت دي بلواز وباقي القواد واستخلصوا منهم النساء وصارت الطائفتان في قتال ونزال وهجوم ودفاع الى ان كل الصليبيون وفروا هاربين وحلبهم عطش شديد من ارتفاع الحرارة وهكذا كانت الدائرة على الصليبيين

ثم علا الغبار وبان عن عساكر القسم الثاني للصليبيين الذي كان تحت رئاسة غودافرو دي لورين القائد العام ورايموند وغيره الذي بلغهم خبر القسم الاول فاسرعوا بالمسير حتى لحقوهم على آخر رمق من الحياة وحينئذ اصطفت عساكرهم قلب وجناحين فكان على الميمنة غودافرو وكونت دي فلاندو وكونت دي نافار وعلى الميسرة بوهيموند وتنكريد وروبارتوس دي نورمنديا وكان على القلب رايموند وحملوا على عساكر المسلمين حملة شديدة انتهت بفرار العساكر الاسلامية الى الجبال واستولى الصليبيون على مضاربهم وأخذوا ذخائرهم وقد اشتهرت هذه الواقعة بواقعة رويله ونهر غورغوني

ثم سار جميع الصليبيين جيشاً واحداً قاصدين سوريا مارين في الجبال والوديان المعطشة وكان قليج أرسلان قد سبقهم ببقايا جيشه يحرق المزروعات والكروم لئلا يجدوا شيئاً يأكلونه وهكذا حصل فان مأكولاتهم قد فرغت وصاروا يأكلون

البقول الناشئة التي يلتقطونها من الارض وعدموا المياه بالكلية حتى ان البهائم ماتت منهم في الطريق وكنت تجد الرجل منهم ماشياً على أقدامه حاملاً أمتعته على ظهره وكذلك آلات الحرب فان العساكر حملتها على ظهورها وكاد العطش يهلكهم لانه كان يموت منهم في اليوم الواحد نحو الخمسة من العطش والجوع وكذلك قد عدم منهم ما كان معهم من كلاب وخنازير وطيور كاسرة وساروا كذلك الى ان وصلوا الى وديان بسيديا وأقاموا للاستراحة وهم في غاية الظمأ . وكان لاحدهم كلب فغاب عنه يبحث على ماء ثم رجع الكلب وجسده مبلول فعلموا بأنه وجد ماء فاتبعوا الناحية التي رأوا الكلب عابداً منها وهناك وجدوا نهراً جارياً ولشدة عطشهم انكبوا على النهر يشربون بغير حساب حتى ان البعض منهم مات من ذلك والبعض مرض ثم ساروا في طريقهم مارين ببلاد الارمن

﴿ وصول الصليبيين الى طرسوس واختلافهم ﴾

ففي أثناء مسير الصليبيين حصلت لهم بعض مصائب منها ان غودافرو كان خرج من جيشه للنزهة وفما هو سائر اذ سمع صوت رجل يستغيث من خلفه فالتفت اليه فوجده رجلاً صليبياً جالماً متاعه على ظهره ويتبعه دب هائل فنزل هذا القائد عن فرسه لاجل ان يقتل الدب فسل سيفه وأراد الهجوم على الدب الذي بادنه واراد ان يفرسه ووقع القائد تحته ثم انتصب قائماً ورفع يده بالسيف يزيد قتله فخرجه السيف جرحاً بليغاً ثم لحقه احد القواد وقتل الدب وحمل غودافرو الى المعسكر ولكن لكثرة الدم الذي سال منه حصل له مرض شديد كاد يهلكه ومنها انه كان انفصل من الجيش الصليبي قائدان وهما تنكريد وبودوين أخو غودافرو لاجل ان يلاحقوا عساكر المسلمين الهاربين وهكذا ساروا مفترقين حتى وصلوا مدينة طرسوس وكان السابق تنكريد وكان أهل المدينة أكثرهم من المسيحيين وحين سمعوا باخبار الصليبيين فرحوا بهم ولما وصل اليهم تنكريد ففتحوا له ابواب المدينة التي دخلها بدون حرب ووضع على أسوارها سناجقه ثم وصل بودوين الى المدينة ووجد اعلام تنكريد عليها فحصل له غيظ شديد وأمر برفع علم تنكريد ووضع علمه ولذلك حصلت بينهما محاربة وأخيراً قررا ان يجعلا الرأي في ذلك لانتخاب أهل البلد ولكون تنكريد هو أول من وصل الى البلد ودخلها فلذلك انتخبوه ثم ان بودوين هددهم وخوفهم بالعقاب ففتحوا له أبواب البلد فطرح علم تنكريد في الحندق ووضع علمه على السور فحصل مخرج عظيم بين

الجيشين اي الجيش الايطالي الذي تحت قيادة تنكريد والجيش الفرنسي الذي بقيادة بودوين وكادوا ان يقتلوا لولا ان تنكريد كتم غيظه وطلب من جيشه المساحة والكف عن المحاصرة والمقاتلة ثم اخذ جيشه وسار الى ان وصل الى مدينة موبسواسطيه وكان بوهيموند قد أرسل شزيمة من عساكره تبلغ الثلاثة نفر في أثر تنكريد فلما وصلت هذه الشزيمة الى طرسوس ووجدوا علم بودوين طلبوا المبيت داخل المدينة وفي الصباح يرحلون الى تنكريد فابى بودوين مبيتهم داخل البلد ولذلك نصبوا خيامهم خارج البلد وباتوا هناك وفي منتصف الليل هجمت عليهم جماعة من الاتراك فافقوهم عن آخرهم ولما بلغ هذا الخبر الى داخل المدينة اجتمع المسيحيون سكان البلد وانقضوا على المسلمين وذبحوهم بدون شفقة وأما بودوين فانه خاف من هذا الحادث الفظيع خصوصاً لكونه هو السبب في ذلك فابقى بطرسوس جانباً من عساكره لاجل حمايتها وأخذ الباقي سائراً في أثر القائد تنكريد الى ان بلغ مدينة موبسواسطيه ولما اقتربت الجيوش من بعضها وكان خبر مقتلة الثلاثة ايطالي بلغ جيش تنكريد طلبوا محاربة بودوين فنعهم قائدهم فاوسعوه شتاً وسباً ونسبوا له الحين وأخيراً التعم الحيشان واقتلا وانجلت الواقعة عن انهزام تنكريد وجيشه لقلته وكثرة عدوه ودخلوا المدينة

ولما أصبح الصباح تناسوا ما جرى لهم بالامس وطلبوا الصلح الذي تم بينهم بمعاينة تنكريد وبودوين بعضهم امام جيوشهم وتحالفاماً ثم ان تنكريد صار يضع يده على البلاد التي يمر عليها حتى بلغ حكم اسكندرونه ومنها رجع الى المعسكر العام ظافراً منصوراً غانماً أسلاباً كثيرة فاقبله الجيش العام بالاكرام والاحترام وهناك وأما بودوين فانه لما وصل الى المعسكر العام قوبل بفتور ولا موه على أفعاله خصوصاً أخوه القائد العام فانه أنبسه خصوصاً لقتل الشزيمة البادية الذكر وكان بودوين قد تصاحب مع أمير أرمني اسمه فانكراس الذي كان دائماً يصحبه مفضلاً له عدم السير مع الصليبيين والاستقلال بمملكة أسيوية مخبراً إياه بان البلاد الكائنة على شطوط نهر الفرات مخصصة جداً وأكثر سكانها مسيحيون والجميع مستعدون لتسليمها الى من يحضر من قواد الصليبيين ولذلك عزم في نفسه على انفصاله من الصليبيين والاستقلال بهذه البلاد وانهز فرصة لومه من الجيش وترذيله وانفصل عنهم ومعه الف و ٥٠٠ عسكري مشاة ومائتا فارس

﴿ اخبار بودوين على شطوط نهر الفرات ﴾

لما انفصل بودوين من الصليبيين وصحبته انكراس الارمني لم تدم صحبتهما لان انكراس الارمني لما وجد ان بودوين قد امتلك مدينة طورباسال ومدينة رافاندال واختص بهما لنفسه يئس وانفصل عن بودوين الذي كان كلما يصل الى بلد من شطوط نهر الفرات كانوا يقابلونه ويعظمونه حتى انه امتلك أكثر البلاد بدون حرب وترك بعض عساكره حفظاً لسيادته الى ان وصل الى مدينة (الرها) التي هي كانت تحت حكم أمير يوناني اسمه تاودورس من لدن ملك الروم وكان يدفع الجزية في كل سنة الى المسلمين . ولما بلغ سكان هذه المدينة قرب وصول الصليبيين اليهم فرحوا فرحاً شديداً وخرجوا للاقاء بودوين ومن معه (لان الباقي معه من عساكره كان مائة خيال فقط) متوسلين اليه ومحاضيه بالدخول الى مدينتهم وحمايتهم من المسلمين فهذا القائد قبل مطلوبهم وسار معهم الى ان دخل المدينة

وكان الامير تاودورس حاكم المدينة لا يريد دخول هذا القائد الى مدينته ولكن خوفه من عصيان رعيته الجاه على الترحاب به والتراف له . وأما بودوين فلما وجد أهل المدينة يطلبون حمايته ولم يقرؤا على امتلاكه لما قال انه لا يمكنه ان يحمي بلداً لم تكن له ولذلك ستركها . فلما علم أهل البلد بذلك اجتمعوا لديه وطلبوا منه عدم ترك مدينتهم ولما نظر ذلك تاودورس قال له اني رجل كبير مسن ولم يكن لي ولداً وارث فارجو ان تكون بصفة ابن لي وتكون وريثي الوحيد ولما سمع ذلك بودوين وعلم بانه سيكون بعد موت تاودورس وريثاً لمدينة الرها بل لجميع شطوط الفرات فرح فرحاً شديداً ووعد بان يحمي تحت سيفه مقاطعة قد أفضت ميراثاً له بعد زمان قليل ثم انه اتفق مع أهل البلد وقتلوا تاودورس بعد محاصرته بالقاعة وطلبه الامان منهم فخافوه ورموه من فوق السور ثم قطعوه قطعاً

﴿ محاصرة الصليبيين انطاكية وامتلاكها ﴾

سارت الحيوش الصليبية قاصدة سوريا مارة بالمدن الآتية وهي . ليكاونيا وهيراكليا . وقيسارية كياروكيا . وتيانا . وفوزقون . ومرعش وكان أهالي هذه المدن اذا وصلت اليهم اخبار الصليبيين يخرجون من مدنهم ويقابلونهم بالأكرام

ويسلمون لهم مدتهم بدون حرب . وكانت شدة الحرارة وصعوبة الطريق قد
أتعبتهم خصوصاً في جبال الشيطان التي هي فيما بين فوزقون ومرعش ثم بلغوا
جبل طاوروس وجبل أمانوس الى ان وصلوا انطاكية في سنة ١٠٩٧ الموافقة سنة ٤٩١
هجرية وكان الحاكم على هذه المدينة باغيسيان أصغر أولاد الملك شاه السلجوقي فلما
بلغه خبر الصليبيين أمر باقفال المدينة والاستعداد للحصار وكان الممر الوحيد الى
سهل انطاكية على جسر فوق نهر العاصي وعلى جانبي ذلك الجسر برجان محصنان
فيهما كثير من الرجال فحاربهما الافرنج أولاً وأخذوهما ثم دنوا من انطاكية ونصبوا
خيامهم فكان القائدان بوهيموند وتنكريد على العساكر الإيطالية امام باب القديس
بولص وعلى يمينهم العساكر الزماندية والبريطونية والفلامندية وأما الفرنسيون
الذين بقيادة روبرتوس هوكز دي فارمنديا وروبارتوس كونت دي شارتييه فكانوا
بالجهة البحرية امام باب الكاب وأما غودافرو والكونت دي طولوز وادهماردي
مونتيل فانهم كانوا على جسر نهر العاصي ففقدوا مجسماً حكموا فيه بوجوب محاصرة
انطاكية وأخذوا الاهبة للقتال وأما عساكر الاسلام المحصورون داخل الاسوار
فلم يبدوا حراكاً ولم يظهر منهم مقاتل واحد فوق الاسوار والابراج ولذلك استخف
بهم الافرنج وأخذوا ينبذون التحفظ وانعكفوا جميعاً على التلذذ بالملاهي وبنضارة
ذلك المكان وطفقوا يرتكبون كل القبائح والرزائل بينما كان المحصورون في المدينة
يتأهبون للدفاع عن دمارهم ويستعدون كل الاستعداد حتى غنموا فرصة انشغال
أعدائهم باللذات والمعاصي وخرجوا من المدينة وأولئك متفرقون في القرى فهجم
المسلمون عليهم هجمة الاسود فانكسر الافرنج انكساراً كبيراً وبعد ذلك حدثت
معارك كثيرة بين الحارين كان النصر فيها حليفاً للمحصورين وفقدت مؤونة
الافرنج فظهر عدم درايتهم للعيان بسوء الادارة التي أخذت تؤثر فيهم وشعروا حينئذ
بنقص الاهبة الحربية فاقاموا أبراجاً لصدم الابراج التي على المدينة وصمموا على
تدقيق الحصار وتشديده بحيث يقطعون المدد عن المدينة ولم يتمكنوا من تنفيذ
ما ربههم الى ان وقعوا في الارتباك ودهمهم فصل الشتاء وحل بهم مرض البرداء
واشتد فيهم حتى مات كثيرون واشتد الحال جداً حتى كثيرين من الذين وسعوا
أنفسهم ظاهراً بسمة دينية مقدسة وباطناً بفكار النهب والسلب وارتكاب ما ظهر
نموذجه فروا هاربين للتخلص من مشاق الحروب الشرقية ومن غريب الامور
ان بطرس السايح المنادي بتلك الحرب كان اول الهاربين الا ان الامير تنكريد

أدركه وأعادته وأقسم بدوام مرافقة الذين قادهم للحرب أما المحصورون فاقاموا بكل أنواع الحسنة واصول الدفاع وكان لهم جواسيس من السريان يعرفون بواسطتهم كل ما يحدث في معسكر الاعداء ولذلك قرر بوهيموند ان يصير التدقيق بالبحث عن الجواسيس ومق وجد واحداً منهم يذبح ويطبخ لحمه أو يشوي ويؤكل ولا شك ان هذا الامر في غاية البربرية وبذلك قد انقطعت الاخبار عن المسلمين وفي اثناء ذلك بعث المستعلى بالله العلوي من مصر وفداً الى الافرنج يعرض عليهم الصالح والمسالمة وانه يرجع اليهم الكنائس التي شيدها المسيحيون وان يحامي عنهم ويفتح أبواب بيت المقدس للزوار بشرط ان يدخلوها بلا سلاح ولا يقيم الواحد منهم فيها أكثر من شهر واذا رفضوا ذلك فالخليفة مستعد لان يعقد مخالفة من المسلمين لصددهم فلم يحتفل الافرنج بعقد الصالح مع انه خولهم المقصد الذي ادعوا انهم يحاربون لاجله ولم يرغبوا حجب دماء العباد والرجوع الى اوطانهم سالمين بل أجابوا الوفد باستعدادهم للحرب غير مباليين بما يصادفونه من قوة الاسلام وكان صاحب حاب وغيره من أمراء البلاد قد بعثوا بالامداد من الجنود لخدمة انطاكية وعلم الافرنج بذلك فساروا اليهم قبل ان يدركوا المدينة وحاربوهم فانكسر المدد وقتل الافرنج منهم عدداً غفيراً وبعثوا برؤوس كثيرين منهم الى الوفد المصري ورهوا رؤوس أخرى الى المدينة وجرت مواقع كثيرة كان النصر فيها تارة للمسلمين وطوراً للصليبيين وأخيراً طاب أهل المدينة هدنة فجددوا فيها الذخائر والمهمات وتمادى الحال ولم ينل الافرنج أرباباً سيمالان الشقاق كان سائداً بينهم وكان بوهيموند يودان يتولى على انطاكية لغيرته من بودوين والي الرها وبذل في ذلك عناية عظيمة حتى اسعفه شخص اسمه فيروز أصالة أرمني واعتنق الديانة الاسلامية وكان يحبه باغسيان ولذلك تلبه أميراً على ثلاثة أبراج كبيرة وكان هذا الرجل من الثقل وحب الرفعة والمال على جانب عظيم ولذلك عقد مع بوهيموند شروط التسليم بالحياة وكشف كل منهما مكنونات ضميره ثم جمع بوهيموند الامراء وقواد الحيش واعلمهم بانه يلزمهم أخذ المدينة بنزع الحياة والرشوة بالمال فمارضه القواد خصوصاً الكونت دي طولوز وبعد ذلك ببضعة أيام شاعت الاخبار بقدم كروبغاصاحب الموصل بالوف من الرجال لخدمة المدينة فخاف الافرنج وخطب فيهم بوهيموند بوجوب استعمال الحياة لامتلاك المدينة فاذعنوا لذلك وفي تلك الليلة اجتمع بوهيموند وفيروز الحائض واتفقا على وقت تسليم المدينة وانفصلا وفي آخر اليوم الثاني جمع

الافرنج خيامهم وانسحبوا عن ساحتهم بالطبول والصريح نحو بيت المقدس حتى تواروا عن العيون ثم قفلوا راجعين يهدو حتى بلغوا البرج الذي كان فيه فيروز فاقام ذلك الخائن بفظائعه حتى قتل بيده أخاه الذي لم يكن عالماً باتفاقه وخاف منه ان يشعر بالصليبيين فيصيح على الحفرا فبادر بقتله ثم ادلى سلم من جلد فتعلق به شخص اسمه بايان من عساكر بوهيموند الى ان صعد البرج وأراه جثة أخيه المقتول ثم اتبعه بوهيموند وكونت دي فلاندر وغيره وامتلكوا الثلاثة أبراج بعد ان امرهم فيروز بقتل أخيه الثالث الذي كان على برج آخر وامتلكوا سبعة غيرها بعد ان قتلوا حراسها وكسروا الابواب ودخلوا المدينة فملكوها وكان ذلك في ٣ يونيو سنة ١٠٩٨ بعد حصار تسعة شهور وقتك الصليبيون بالاهالي فتكا ذريعاً ليلاً ونهاراً حتى انهم كانوا يهجمون على البيوت ويقتلون من فيها ما عدا بيوت المسيحيين الذين كانوا يضعون عليها الصليب للتمييز ومن فر من عساكر الاسلام كانوا يلحقونهم في الحقول والاحراش ويقتلونهم (وهكذا تكون حياة الانسانية) وفر باغيسيان فقتله بعض الارمن وجاؤا برأيه الى انطاكية أما القلعة فكانت لم تزل بيد المسلمين واقام بوهيموند رايته في أعلى برج في المدينة دلالة على استيلائه عليها ومن هذا الوقت قد استنصر فيروز الخائن وأحبه بوهيموند

﴿ محاصرة المسلمين انطاكية وظهور الحرب المقدسة ﴾

أقام الصليبيون بانطاكية ثلاثة أيام وعلى قول ابن خلدون ثلاثة عشر يوماً وهم في فرح وسرور لاستيلائهم على المدينة فاولموا الولائم وصرفوا أوقاتهم بالملذات والملاهي وفي اليوم الرابع من حلولهم فيها جاء قوام الدين كربوغا صاحب الموصل الى مرج دابق بالشام واجتمعت عليه العساكر فكان معه دقاق بن تثن وطغرل تكين اتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار وسقمان بن ارتق وغيرهم من الامراء المسلمين وجمعوا ما كان هناك من الترك والعرب وبادروا الى انطاكية وحصروها واضطرب الافرنج وخافوا وأخذ الضيق منهم كل مأخذ فلم يعد عندهم زاد ولم يكن لهم يد لاستجلاب المدد لان القرى الواقعة بجوار انطاكية كانت قد باتت مدمرة من نتائج الحرب ولذلك تضايق المحصورون جداً وامسى حاطم تقيساً وبمدة وجيزة نفد كل القوت والذخيرة حتى التزم الافرنج ان يأكلوا البهائم واضطر كثير منهم الى الشحاذة فكنت ترى كثيرين من الامراء منهم كونت دي فلاندر يطوف الازقة يطلب الصدقة وفر كثير من المحصورين طلباً للنجاة

من الموت جوعاً وهكناً مضت مدة أيام على هذا المنوال فخارت قوى الجنود وضعفت
وكان المسلمون يعلمون ذلك فلما رأى الأمير بوهيموند أمير ترانتا وانطاكية
كسل أصحابه وتقاعدهم أحرق دورهم قصاصاً لهم ولكن لسان اللهيب تجاوز حده
فامتد الى جهات ساء الأمير حرقها الا ان تلك النار لم تحرك حماسة قوم اقعدهم الجوع
الشديد والضعف ولذلك صارت الكهنة والامراء وبعض الناس يقصون انهم رأوا
أحلاماً ونبوءات تفيد ان الصليبيين سيغلبون أعداهم وذلك لتدب الحمية في قلوب
أوائل الكسالى وتوصلوا لما يريدون قال كاهن من أهل مرسيليا جنوبي فرنسا
اسمه بطرس برتولوني ان القديس اندراوس الرسول ظهر له في الحلم ثلاث مرات
وقال له : اذهب الى كنيسة أخي بطرس بانطاكية وهناك بقرب الهيكل الملوكي تجد
الحربة الحديد التي طعن بها جنب المسيح مدفونة في الارض وانه بمجرد حمل هذه
الحربة أمام جيش الصليبيين يحصل له النصر :

ثم انتخب اثني عشر شخصاً من الاعيان والكهنة ليكونوا شهوداً على اكتشافها
ولم يسمح لاحد من الجند والاهالي بحضور الحفر الذي اشتغلوا به طول النهار
وهم يدقون البحث فلم يجدوا شيئاً والابواب مغلقة عليهم وبعد الغروب نزل
الكاهن بنفسه وأحضرها

أما الحربة ففيها أقوال لان المؤرخين الاكليزيكيين يقولون انها معجزة الهية
وغيرهم يقولون ان الافرنج لما رأوا وهن عزائم جنودهم وانهم لا ينشطون بالتحرك
فعال دبوا هذه الحيلة فنجحت نجاحاً عظيماً على انه بعد حين يسيراً انكشف الغطاء
عن أعين كثيرين وبات جمهور غفير من الناس لا يركنون اليها ولا يصدقون بها
(نقلنا هذا بدون ابداء رأينا فيه وهو مجمل ما كتبه حضرة الفاضل جورجى افندي
يني في كتابه تاريخ سوريا وكذلك ما جاء بكتاب (الحروب المقدسة جزء اول)
وحينئذ فرح الصليبيون بهذه الحربة واجتمعوا في الكنائس واقسموا جميعاً بمداومتهم
على الحروب وارسلوا بطرس السائح الى صاحب الموصل يطلبوا منه المقاتلة في الحرب
فوعدهم بالحرب وفي ثاني يوم خرج الصليبيون جميعاً وهجموا على جيش الاسلام
وكان كربوغا جالساً في خيمته ظاناً بان المسيحيين قادمين الى طاب الصلح ثم التفت الى
القلعة فوجد الراية التي عليها سوداء فعرف بان القوم جاؤا مهاجمين فانذهل واذا بكثيرين
من جماعته ركضون مرتعشين وأخبروه بان الصليبيين خرخوا عليهم مرتين جنودهم
اثني عشر فرقة تحت رئاسة قوادهم هوكر وغودافرو وروبارتوس دي نورمنديا وادهار

دي مونتيك وتنكريد وبوهيموند وان رايموند دي اجيلاس يحمل الحرية أمامهم فامر
الامير كروبغا بترتيب الجيش وأمر كل من صاحب حلب والشام ونيقية بان يكمنوا
وراء عساكر العدو ليمنعوهم عن انطاكية وبعد قتال شديد وهجوم ودفاع كاد يتصر
فيه المسلمون ولما كان في الاسلام من النفر لصاحب الموصل تمت هزيمتهم وكان كروبغا في
أوائهم وذلك في ٢٩ يونيه سنة ١٠٩٨ وغنم الافرنج غنائم لا تحصى وجمعوا مالا غزيراً
فعادوا الى انطاكية بثروة عظيمة ثم ان كان في القاعة لما علموا بهزيمة الجيوش الاسلامية
القوا سلاحهم وساموها فوقع بين بوهيموند أمير انطاكية وبين الكونت دي طولوز
نفور وخصام بشأن تملكها ثم انتشبت في الصليبيين الامراض الوبائية حتى مات
منهم كثيرون ومات أيضاً القائد هاردي مونتيك أسقف بوي ودفن في كنيسة ماري
بطرس محل وجود الحرية ثم ساروا الصليبيون الى معرة النعمان وحاصروها حتى
كلوا ثم امتلكوها واخشوا في استباحتها

﴿ مسير الصليبيين من انطاكية قاصدين بيت المقدس ﴾

بعد مضي نحو الستة شهور من استيلائهم على انطاكية ساروا الى جهة سوريا
العليا واجتازوا مقاطعة قيسارية وحماه وحصن وكانت أهالي البلاد تقابلهم بالترحاب
تلافياً لعدائهم وهكذا ساروا مسرعين الى ان وصلوا مدينة اركاس الكائنة عند
سفح جبل لبنان فرفض أهلها تسليمها ولذلك حاصرها قسم من الصليبيين تحت
قيادة رايموند وتنكريد والدوك دي نورماندي وعساكر الكونت دي طولوز
وقسم آخر من عساكر فلاندر و هولاندا وانكلترا وبوهيموند سار الى ان
وصل الى اللاذقية وهناك رجع بوهيموند الى انطاكية ولايته واعدأ اياهم بان
يتبعهم فيما بعد ويدركهم عند أسوار بيت المقدس
وقسم ثالث برئاسة غودافرو واسطاكيوس سار الى ان وصل الى جبله التي
على شط البحر قريبة من اللاذقية وحاصرها بقوة

وقسم رابع برئاسة رايموند دي طوران حاصر طرطوز وامتلكها بعد هروب
أهلها فالقسم الاول بعد محاصرته مدينة اركاس كما ذكر لم يتمكن من أخذها ففي
آخر شهر مايو سنة ١٠٩٩ فقد صبرهم فساروا نحو فلسطين فقابلهم أمير مدينة
طرابلس وبعد ان حاربوه وتغلبوا عليه صالحهم على مال وساروا قاصدين بيت
المقدس ثم تقابل جميع الصليبيين وساروا معاً الى ان وصلوا الى عكا وحينئذ
خرج إليها الذي كان تابعاً لحليفة مصر وأعلمهم بأنه مستعد لتسليمهم المدينة

عندما يستولون على بيت المقدس ولذلك تركوه الى ان وصلوا عمواس القديمة وهناك قابلهم وفد من اهالي بيت لحم وطلبوا اغاثتهم فتوجه معهم الامير تنكريد ليلا ومعه ثلثمائة نفر الى ان دخلها ليلا ووضع رايته عليهم ارجع ولحق بقومه وهكذا ساروا الى ان وصلوا الى مدينة اوروشليم

محاصرة الصليبيين لبيت المقدس واستيلاؤهم عليه

كان بيت المقدس تابعا لمملكة مصر السعيدة وكان الحاكم عليه افتخار الدولة من قبل الخليفة المستعلي بالله العلوي وكان قد أمر ببناء ما تهدم من السور وقت استيلاء الافضل بن بدر الدين قائد الحيوش المصرية من الامير سقمان بن ارتق واستعدادا بما يلزم للحصار ولما وصلت الصليبيون الى المدينة انعقد مجلس مشورتهم وقرر حصار بيت المقدس فكان كما يأتي في شمال المدينة دوك دي نورمنداوكونت دي فلاندر و تنكريد اي من باب هيردوس الى باب القديس اسطفانوس وكان غودافرو واسطاكيوس وبودوين دي بورغ حول جبل الجبله من باب دمشق الى باب يافا وكان الكونت دي طولوز ورايمود دي أورانج وغليوم دي مونت بلير وغاسطون دي بير على يمين غدافرو على جبل صهيون قبلي المدينة الى الغرب وهكذا أقيم الحصار مدة من الايام ثم انهم هجموا هجمة قوية على سور المدينة القديم بقصد هدمه فاخذ فريق منهم يهدم السور وفريق يدافع الى ان هدموا معظمه ودخلوا منه وارادوا هدم السور الداخلي فما أمكنهم ثم افتكروا في كيفية استيلائهم على المدينة وأخيراً قرروا بان يتسلقوا السور بالسلام الجلد والجلال التي معهم بكثرة وأخذوا يرمون السلام على شرافات السور فتعلق به وبهذه الوسطة صعد الى السور منهم كثيرون ولما نظروهم عساكر الاسلام هجموا عليهم باعلى السور واقتلوا الفريقان ودائرة الدائرة على الصليبيين الذين فروا الى معسكرهم بواسطة السلام أيضاً ومن هذا الوقت افتكروا بانه يلزمهم منجانيقات للقذف بها على السور والمدينة فاخذوا يبعثون على الاخشاب اللازمة لذلك حتى انهم هدموا منازل القرى المجاورة للمدينة وأخذوا أخشاب السقوف وكان ذلك في فصل الصيف وفي شدة الحر وعدم وجود مياه كافية لسقيهم لان حاكم المدينة كان امر بهدم الصهاريج التي بالخارج قنابهم ظمأ شديد لان نهري سلوان الذي كانوا يستقون منه كانت مياهه شحيحة ولم تكن تجري دائماً

وكانت قد وردت أخبار للصليبيين تبشرهم بان قد جاءتهم المراكب تحمل ذخائر

وغيرها من جنوى فشماتهم الفرخ والسرور وسار منهم قسم لاجل استحضار ذلك ولما توجهوا الى ناحية جوبه وجدوا مراكب الاسلام قد داهمت مراكبهم وحرقتها وكان ذلك بعد اخراج الذخائر الى البر ثم انهم نقلوا هذه الذخائر مع آلات الحرب ومن حضر معهم من المهندسين وتوجهوا الى بيت المقدس وكان أيضاً احد اهالي سوريا قد دل الصليبيين على حرش بعيد عن المدينة بمسافة ثلاثين ميلا في جبل بين وادي شخيم ووادي السامر فانطلق منهم قسم الى هناك وقطعوا اخشاب الحرش وجعلوها على عربات تجرها البقر ولذلك صنعوا ثلاثة ابراج من الخشب كل برج ثلاث طبقات حتى صارت الابراج أعلى من سور البلد وعمل على الابراج جسر ولذلك فرح الصليبيون فرحا شديداً ثم عقدوا مجلس مشورتهم ليعينوا يوم الهجوم وكيفيته وهذا المجلس قرر تغيير مواضع الحصار فنقلوا الابراج الخشبية الى شرقي المدينة عند باب سيدر تحت رئاسة دوك دي لورين وأقاموا المنجانيقات والاكباش تحت رئاسة تنكريد وروبارتوس من باب دمشق والبرج المقرن الذي دعى فيما بعد بـ برج تنكريد

وفي يوم الخميس ١٤ يولييه سنة ١٠٩٩ هجم الصليبيون هجمة شديدة على كل جهات المدينة خصوصاً الابراج الخشبية التي كانوا يجرونها بعجل الى أي جهة يريدونها وكانت مملوءة بالمحار بين تحت رئاسة غودافرو وأخيه اسطاكوس وبودوين دي بورغ اللذين كانا بالبرج الأعلى وكانوا يصرون أوامر الحرب من أعلا هذا البرج فيهمجمون بالابراج على أسوار المدينة وكذلك رؤساء المنجانيقات كانوا يابعون الرمي بها بسرعة وعساكر الاسلام تقابلهم كالاسود ولا يبالون من هذه الهجمات وكانوا يرمون الصليبيين بالمواد المثمية ومشتعلة بالزيت وكانت مركبة على الابراج آلات حربية كبيرة لصدهجمات الصليبيين وظل الفريقان في هجوم ودفاع طول اليوم المذكور بدون ان يظهر النصر لفريق منهم

وفي صباح اليوم الثاني بادر الفريقان للمحاربة واشتدت هجمات الصليبيين على المدينة ولكن حسن دفاع المسلمين منهم من التقدم الى السور فكان المسلمون قد وجهوا قوتهم ضد من في البرج الأعلى الذي كان فيه غودافرو ومن معه حتى انهم قتلوا اكثر عساكر دوك دي لورين وكان رايوندي من ناحية المدينة القباية مع جماعة يباشروا أعمالهم الحربية بصورة عديمة الوصف وكان تنكريد وروبارتوس من الجهة الشمالية وهكذا صار القتال منتشبا بينهم وكان الانتصار لحيش المسلمين الا ان

الصليبيين رموا ناراً من الابراج الحشيشية على آلات الحرب المركبة على السور فالتهمت وزادها الريح التهاباً وتطاير الشرار والدخان على عساكر الاسلام فاضطربوا للتأخر عن الاسوار ولذلك نزل دوك دي لورين وغودافرو من الابراج ومعهم عساكرهم الى الاسوار وصاروا يقتلون من المسلمين من يجذوه ثم اتبعهم كثير من عساكر الصليبيين الذين كسروا باب القديس اسطفانوس بالقوس والمعاول ودخلت منه باقي العساكر الصليبية وكان ذلك في ١٥ يوليوسنة ١٠٩٩ لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ وكانت مدة حصار المدينة اربعين يوماً. ثم ان العساكر الصليبية فتكوا بالمسلمين فتكا ذريعاً وصاروا يقتلون الرجال والنساء والكبار والصغار والبنين والبنات وقتلوا داخل المسجد ما ينرف عن سبعين الفاً من المجاورين فيهم العلماء والزهاد والعباد حتى كانت الجثث ملقاة في الازقة والاسواق وأخذوا من المسجد نيفاً واربعين قنديلاً من الفضة زنة كل واحد ثلاثة آلاف وستمئة درهم و ١٥٠ قنديلاً من الصغار وتنوراً من الفضة زنته اربعون رطلاً شامياً وغير ذلك مما لا يحصى واعتصم باقي الاسلام بمحراب داود عليه السلام حتى استأنوا وخرجوا ليلاً الى عسقلان وكان السبب في ذلك انه انعقد مجلس مشورة الصليبيين وقرر بان يقتل كل مسلم أو يهودي باق في المدينة فخرج المسلمون بعد الاستئمان والتجأ اليهود الى كنيسهم فحرقوا الصليبيون جميع الحي بما فيه الكنيس ومن فيها

وبعد ذلك انعقد مجلس مشورتهم لانتخاب أحدهم ليكون ملكاً على بيت المقدس وبعد مجادلات ومعارضات تم انتخاب أربعة وهم غودافرو ورايوند ودوك نورمانديا وتسكريد وأخيراً عينوا لجنة من الكهنة وغيرهم عددها عشرة لاجل ان يتخبوا واحداً من الاربعة المذكورين فانهقدت اللجنة وقررت انتخاب القائد غودافرو ولما أرادوا تنويجه ليكون ملكاً على بيت المقدس أبى ان يلبس التاج قائلاً لا يمكنه ان يضع على رأسه تاجاً من ذهب مرصعاً بحجارة كريمة في بلد توج فيها المسيح باكليل من شوك وأبى ان يلقب بملك القدس بل (بمحامي قبر المسيح)

❖ واقعة عسقلان وانتصار الصليبيين فيها ❖

بعد ان تملك الصليبيون بيت المقدس وصل صريح الاسلام الى الخليفة المقتدي ببغداد مستغيثين به فارسل وفداً الى السلطان بركيارق مؤلف من أبي محمد الدامغاني وأبي بكر الشاشي وأبي القاسم الزنجاني وأبي الوفاء بن عقيد وأبي سعد الحلواني وأبي الحسين بن السماك فساروا الى بركيارق يستصرخونه للمسلمين فاتهموا الى حلوان

(غير حلوان مصر) وبلغهم مقتل نجل الملك البارسلان وفنشة بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا وكانت قد وصلت الاخبار الى مصر فاضطربت وأصبحت تخشى أن يصيبها مثل ذلك فسار أمير الحيوش الأفضل الى سوريا لمحاربة الصليبيين وكانت أخباره وصلت الى بيت المقدس فخرج غودافرو ومعه تنكريدو الكونت دي فلاندر وروبارتوس دي نورمنديا ورايموند دي طولوز وبطريق اورشليم الجديد ارنول وساروا قاصدين الحيوش المصرية الذين قابلوهم بجوار مدينة عسقلان وهناك اقام كل من الفريقين خيامه واصطفت العساكر لكل فريق قلباً وجناحين واقتتل الجيشان قتالاً شديداً كان النصر فيه للصليبيين وانهمزمت العساكر الاسلامية بعد ان قتل اكثرها ودخلت مدينة عسقلان ثم بعد انتهاء هذه المعركة رجعت الحيوش الصليبية الى اورشليم مسرورة لحصولهم على النصر وأمامهم الطبول تعزف

﴿انتهاء الحروب الصليبية الاولى وسفرهم الى اوطانهم﴾

بعد النصر الذي حصل للصليبيين في سهل عسقلان ورجوعهم الى بيت المقدس حصل شقاق بين أمراء الاسلام على أنه كان الواجب في مثل هذه الاحوال ان يتحدوا يداً واحدة لمقاومة الاغراب لكنهم جازأ بالعكس فانقسمت الآراء وتشتت القوات تحارب بعضها بعضاً لاسباب واهية . و علم الصليبيون بأنه لم يوجد أحد من المسلمين يحاربهم طلبوا الرحيل الى اوطانهم تاركين مدينة اورشليم وفيها غودافرو والامير تنكريد الذين رغبوا ان تكون وطناً جديداً لهم يقضوا فيه باقي أيام حياتهم وهكذا انقضت الحروب الصليبية الاولى التي استمرت أربع سنوات استولوا فيها على بلاد الروم الشرقية اي بر الاناضول والارمن وانطاكية وبيت المقدس واكثر بلاد سوريا وبلاد ما بين النهرين (أي حكومة بودوين المستقلة) ولما رجع باقي الحيوش الصليبية الى ممالكهم باوروبا ومقاطعاتهم جاءت أهاليها اليهم فرحين بمقاتلتهم ولما علموا بان الصليبيين جميعهم (ما عدا البعض الذي سافر الى وطنه) قد قتلوا ودفنوا في أسيا أخذوا يندبون ويولولون حتى انه لم تخل عائلة من نواح وبكاء وكذلك سافر بطرس السائح الى دير على نهر موزا واقام هناك الى ان مات

﴿الحروب الصليبية الجديدة﴾

بعد وصول الصليبيين الاول الى بلادهم اتقدت الغيرة بين رؤساء العساكر الذين كانوا اقاموا باوروبا ولم يسافروا معهم ولذلك عزموا على تجريد حملة ثانية والتوجه

الى البلاد الشرقية كي يتحصلوا على الانتصار والامتلاك مثل من سبقوهم فلذلك حملوا الصليبان كما دتھم وتجمعوا من كل مملكة فكان من مملكة فرانسأ أخو سلطانها واسطفانوس كونت دي بولوز تحت رئاسة غويليوم التاسع كونت دي بواير ومن ايطاليا الكونت دي بلاندراس البرتوس وانسلموس رئيس أساقفة مدبولان بجيوشهم الكثيرة العدد ومن مملكة النمسا الكونت كوزاد قائد جيوش الملك انريكوس وفواف الرابع دوك دي بافيرا والامير ايضا ومرغراي اوستريا وغيرهم وسار الجميع بجيوشهم الكثيفة الى ان وصلوا الى القسطنطينية فلك القسطنطينية الكسيوس خاف من غوائل الصليبيين فاستدعى رايمود دي طولوز الذي كان وقتئذ والياً على اللاذقية من قبله ولما حضر رايمود المذكور منع الصليبيين من العبث ووعدهم بأنه سيكون رائدھم في طريق أسيا الصغرى ثم انھم عبروا الى البر الثاني وهناك انقسموا ثلاثة أقسام

فالقسم الاول كان برئاسة رايمود دي سان جيلاس ودوك دي بورغونيا والكونت دي شارتراس ورئيس أساقفة مدبولان والكونت دي بلاندراس وكان رئيس أساقفة مدبولان حاملاً الذخيرة المقدسة وهي ذراع القديس امبراتيوس التي جاء بها من أوروبا ورايمود كان أخذ معه الحربة المقدسة التي وجدوها بانطاكية فهذا القسم الذي كان مؤلفاً من مائة الف عسكري بعد ان أخذ مدينة ايكوريه قام لمقاتلته سلطان نيقية وبلاد الروم الامير قليسج أرسلان وبصحبته صاحب الموصل الامير كربوغا فجمعوا جيوشهم وهجموا على هؤلاء الصليبيين هجمة صادقة واشتبكت المعركة بين الجهتين في أرض هاليس وبعد قتال شديد فازت العساكر الاسلامية بالنصر وشتوا الصليبيين وبددوهم ففروا هاربين في القفار الى قرب مدينة سينوبيا حيث تقابل كل من الكونت دي بلواز وفرايمود دي سان جيلاس ودوك بورغونيا وجمعوا حولهم فضلات قليلة من باقي جيوشهم . وأما القسم الثاني فكان برئاسة الكونت دي نافار وسار متقدماً في المسير الى مدينة اينكوريا قاصدين مدينة هيراكليا وهناك صادفهم عساكر الاتراك المذكورون قبله وحملوا عليهم الى ان بددوهم عن آخرهم

وأما القسم الثالث البالغ قدره مائة وخمسين الف مقاتل تحت رئاسة الكونت دي بواير والدوك دي بافيرا وهو كزدي فرمندوس فبعد ان امتلكوا مدينتي فيلومليوم وساماليا ساروا نحو مدينة سنكون مجتهدين في اتحادهم بعسكر القسم الثاني واذا

بعساكر قليج ارسلان وعساكر الامير كربولغا الاسلاميه قد حملوا عليهم واقتتل
الفريقان وكانت معركة مخيفه لان عساكر الاسلام اعملوا في الصليبيين السيف حتى
قتلوه عن آخرهم ولم ينج منهم اكثر من الف شخص وفر الكونت دي فرمندوس
من هذه المعركة بجروحا الى ترسوس حيث مات هناك واما دوك دي بافيراو كونت دي بواير
فتاها هاربين من مكان لآخر حتى دخلا انطاكيه التي كان قد سبقهم اليها كونت
دي نافار هاربا وهناك اجتمع بقايا الصليبيين الذين نجوا من هذه الوقائع وكان عددهم
عشرة آلاف قاصدين مدينة اورشليم أي القدس ثم حصلت لهم وقائع أخرى
باراضي فلسطين بقرب مدينة الرمله انكسر فيها الصليبيون بأيدي عساكر الاسلام
وفي هذه الواقعة قتل دوك بورغونيا والكونت دي بلواز ثم ساروا قاصدين اوطانهم
مخذولين وسيأتي بيان هذه الواقعة سنة ٤٩٦ هـ وسنة ١١٠٢ أفرنكيه مع العساكر المصرية

﴿ محاصرة غودافرو مدينة ارسور ﴾

بعد ان تملك القدس غودافرو كما تقدم صار يرتب احكامه كما يترأى له وصدر
أمره بان كل شخص يضع يده على منزل أو أرض يحرقها سنة كاملة ويوماً تكون
له ملكاً طلقاً شرعياً وكذلك كل من غاب عن عقاراته سنة ويوماً توخذ منه ولا
يكون له حق فيها مطلقاً ثم انه رتب جزية على الامراء المسلمين الذين كانوا قد خضعوا
له مثل أمراء قيساريه وغيرها وأيضاً صد قوة العرب شمالي نهر الاردن ثم سار الى
مدينة ارسور وحاصرها حصاراً شديداً لانها لم تخضع له ولما كان الحصار صعباً
جداً على المدينة وكان أهل المدينة أخذوا جيران دي افلسانس أسيراً ثم انهم أدلوه
بجبل أمام غودافرو وصرخ طالباً من غودافرو ان يبتقي حياته بواسطة رجوعه
عن هذه المدينة وعدم حصارها فاجابه غودافرو على الفور بانه لو كان أخوه
اسطاكيوس نفسه وطلب ذلك ما أمكنه قط وقال له الاحسن ان تسلم نفسك
للموت بدل اخوانك الصليبيين ثم بعد ذلك قتلوه . ثم ان غودافرو شدد الحصار
على المدينة ولكن هذا الحصار لم يكسبه شيئاً لان آلات حربه حرقت عن آخرها
بواسطة النار التي قذفت عليهم من داخل المدينة وحينئذ غودافرو قطع الامل
من الاستيلاء على هذه المدينة ورفع الحصار عنها ورجع الى القدس

﴿ اجتماع الامراء الصليبيين بالقدس وانتخاب قانون لحكومتها ﴾

بعد رجوع غودافرو الى القدس اتته الاخبار بان عدداً عظيماً من أهل بيزا

وجنوى التابعين لاطاليا برفقة رئيس أساقفة بيزا ديارتوس بصفته نائب بابوي والاسقف اريانوس قاصدين القدس للزيارة في عيد الميلاد ثم حضراً أيضاً الى القدس كل من بوهيموند أمير انطاكية وبودوين أمير الرها ورايموند دي طولوز وكثيرون من القواد والرؤساء ثم ان غودافرو اقتكر بان يعمل قانوناً لحكومته لترتيبها وتنسيقها فاغتنم فرصة وجود الامراء المذكورين فمقد جمعية في قصره السكان في جبل صهيون بالقرب من كنيسة قبر المسيح وأعلمهم بما أصر عليه من ترتيب الحكومة بقانون يبين حقوق السلطان والموظفين والاشراف (القواد) والرعية كلا منهم بما يخصه ويلزمه فعينوا ثلاثة دواوين فالديوان الاول يعقد برئاسة السلطان وتكون أعضاؤه القواد لاصدار الاحكام والترتيبات الشاملة لجميع الرعية . والديوان الثاني يكون رئيسه قائمقام القدس وأعضائه أعيان المدن الكبار لكل مدينة عضو ويكون اختصاصه النظر في الإيرادات والمصروفات وترتيب الحقوق والتدابير المدنية . والديوان الثالث للقضاء وهو يختص بالدعوي التي ترفع على الشرقيين ويكون رئيسه أحد قضاة البلاد لاصدار أحكامه بما يطابق عوائدهم وهكذا انتهى هذا المجلس وقد حفظوا أصل القرار داخل كنيسة القيامة ثم تمين ديارتوس رئيس أساقفة بيزا بطريركا على القدس خلفاً لارنولد بطريركها المتوفي ﴿ موت غودافرو سلطان القدس ﴾

بعد انتهاء مجلس الامراء المذكور سافر كل منهم الى محله ثم توجه غودافرو مع تنكريد بجيشهما الى طبرية وامتلكوها واقام تنكريد حاكماً عليها ثم رجع غودافرو الى القدس وبعد أيام قليلة حصل له مرض شديد فجمع حوله القواد والكنهنة وحرصهم على اتمام واجباتهم وأخذ عليهم الاقسام بدوام محاربتهم المسلمين ودوام محاماتهم عن البلاد التي امتلكوها لآخر حياتهم وبعد أيام قليلة فاضت روحه في ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ فبكاه الجميع لما كان موصوفاً به من العدل واحتفلوا بجنائزته ودفنوه باكرام بمخاء جبل الجبلجبل بكنيسة القيامة بالقرب من قبر المسيح (كاعتقادهم) وقبره هناك يزوره الزوار الغربيون الآن

﴿ انتخاب بودوين سلطاناً للقدس ﴾

بعد موت غودافرو طمع في هذه الوظيفة ديارتوس البطريرك وارسل الى بوهيموند بانطاكية لمساعدته على ذلك ثم جمع القواد والرؤساء وعقدوا مجلساً

لأجل انتخاب سلطان عليهم بدل المتوفي مقدماً نفسه لهذه الوظيفة السامية وحينئذ
أهل المجلس رفضوا تعيينه عليهم سلطاناً وكذلك بوهيموند أرسل إليه برفض
المساعدة ثم إن هذا المجلس قرر بإحاد الآراء انتخاب بودوين ملك الرها وشقيق
غودافرو ليكون سلطاناً عليهم ثم أعلموه بذلك فقبل هذا الانتخاب وعين بدله
ابن عمه بودوين دي بورغ ملكاً على ما بين النهرين (الرها) وسار هو قاصداً القدس
ومعه جيشه فقابل مع دقاق أمير دمشق وجناح الدولة أمير حمص بعيداً عن
بيروت بمقدار تسعة أميال وتحاربوا وانتهت الحرب بهزيمة المسلمين وسار بودوين
إلى أن وصل إلى القدس ودخلها باحتفال عظيم أقامه له أهل المدينة

ثم إن بودوين أراد أن يوسع مملكته فأخذ جيشه وسار قاصداً مدينة عسقلان ليمتلكها
وبعد قتالها انهزم راجعاً إلى القدس وشرع في تنويعه بيت لحم ولبس التاج الملوكي
وكان الأمير تنكريد والي طبرية لم يعترف بتملك بودوين على القدس لما بينهما
من العداوة القديمة التي ظهرت بناحية طرسوس كما تقدم وكان بودوين يرغب
مصالحة تنكريد ولكونه سلطاناً لم يسمح بالتنازل وطلب الصلح من تنكريد
غير أن المصالحة تمت بينهما عند مقابلهما معاً بميناء حيفا فتصافحا وتعانقا ولكون
بوهيموند أمير انطاكية قد وقع أسيراً في يد المسلمين كما يأتي في أخباره وظلت
انطاكية خالية من حاكم فحينئذ تعين تنكريد حاكماً على انطاكية

ثم إنه جاءت سراكب من ناحية جنوى مشحونة بالعساكر الذين وعدهم بودوين
بأنه يحارب معهم وكل ما يمتلكه من الغنائم يعطيهم ثلثه وكل بلد يمتلكها يجعل لهم
فيها طريقاً باسم أهالي جنوى ثم سار معهم وامتلك مدينة ارسور (أعلمها ارسوف)
سنة ١١٠١ التي لم يقدر أخوه غودافرو على امتلاكها ثم سار وانتصر على مدينتي
أوباريدا وقيسارية ثم سار قاصداً عسقلان وكانت مصر قد أرسلت جيشاً بقيادة
سعد الدولة فسار الجيش وما زالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبية عند أسوار
عسقلان فحاربوها فارجعوها على أعقابها

﴿ خلافة الأمر بأحكام الله وواقعة عسقلان ﴾

في يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٤٠٥ هـ توفي الخليفة العلوي المستعلي بالله
بالقاهرة بعد أن حكم سبع سنوات وشهرين وله ولد اسمه المنصور لم يبلغ السادسة
من عمره بوصاية شاهين الذي كان وصياً على المستعلي أيضاً وكان قد عهد إليه
أن يلتزمه عند مبايعته بالأمر بأحكام الله ففعل وكان ذلك موافق سنة ١١٠١

افرنكيه ثم بعث الافضل أمير الحيوش بمصر ابنه شرف المعالي بالعساكر الى عسقلان
فتقابل مع بودوين ملك القدس بالرملة وكان معه بقايا الحيوش الصليبية الثانية الذي كان قد
هلكهم قليج ارسلان وكر بوغا كما تقدم برئاسة كل من فولف الرابع دوك دي بافيرا
وغيلوم التاسع كونت دي بوانسير وجفرو دي باندوم وهو كزدي لوزينان
وادواس دوك دي بورغونيا واستفانوس كونت دي بلواز واورين كونت دي باري
واشتبك بينهم الحرب وقتل من الصليبيين في الحرب استفانوس كونت دي بلواز
وادواس دوك دي بورغونيا واورين دي باري وقع أسيراً ثم مات واختفى بودوين
في الشجر ونجا الى الرملة مع جماعة من زعماء الافرنج فحاصروهم شرف المعالي
خمسة عشر يوماً حتى أخذهم فقتل منهم اربعمائة وبعث ثلثمائة الى مصر ونجا بودوين
الى يافا ووصل في البحر جموع من الافرنج للزيارة فندبهم بودوين للغزو وسار بهم
الى عسقلان وهناك حاربوا الرملة التي كانت استولت عليها عساكر الاسلام
وامتلكوها ورجع بودوين الى القدس

﴿ بوهيموند أمير انطاكية وما جرى له ﴾

في سنة ١١٠١ وقع بوهيموند أسيراً بيد الاسلام وصارت انطاكية خالية من
حاكم الى ان حصل الصالح بين بودوين وتنكريد كما تقدم وتعيين تنكريد حاكماً على
انطاكية ثم في سنة ١١٠٣ نجا بوهيموند من الاسر بعد ان أقام بالاسر سنتين ونصفاً
وأتى الى انطاكية وكان بوهيموند مستقلاً بانطاكية لا يعترف بسيادة القدس على
مدينته ولذلك تحارب مع الملك الكسبيوس ملك الروم مرات كثيرة كان النصر
بينهم سجالاً تارة الى بوهيموند وتارة الى ملك الروم ثم ان بوهيموند اتحد مع
بودوين دي بورغ ملك الرها وجوساين دي كورتناي وتنكريد لكي يحاربوا
مدينة حران الكائنة بين النهرين وساروا الى أن وصلوا حران وكادوا يملكونها
فحينئذ وقع الخلاف بينهم لان كلا منهم كان يريد امتلاكها باسمه حتى كادوا ان يحارب
بعضهم بعضاً وبينما كانوا في هذه المخاصمة واذا بعساكر اسلامية أتتهم من الموصل
وماردين فضربوا عليهم حصاراً من كل الجهات وحملوا عليهم حملة صادقة كادت أن
تبيدهم عن آخرهم فوقع بودوين دي بورغ أسيراً وكذلك جوساين عند الأمير سقمان
وأما بوهيموند وتنكريد ففروا من الموت هاربين الى ان وصلوا مع القليلين الذين
نجاوا من الذبح الى انطاكية . ثم ان بوهيموند وجد نفسه واقعاً بين قوتين لا قدرة
له عليهما ولا يمكن ان يحمي نفسه منهما وهما الكسبيوس ملك الروم من جهة

والعساكر الاسلامية من جهة أخرى فاضطر الى الهرب الى أوروبا كي يحرك أهل الغرب الى معونته ولكي يخفي عن أعدائه هذا التدبير الذي عزم عليه قد أشاع عن نفسه بأنه مات واختفى في مكان مجهول في سنة ١١٠٤ وبعد ذلك لبس ثوباً مخزناً ونزل في مركب وسار من وسط مراكب ملك الروم بدون معلومية أحد به الى ان وصل مدينة كورفو وصعد من المركب الى البر وأرسل يقول الى القائد الرومي بان يخبر ملكه بان بوهيموند قد قام من الموت وعن قريب يشاهده في القتال ثم وصل الى ايطاليا وانطرح على اقدام البابا بسكوال الثاني وطالب منه المعونة والمساعدة فقبله البابا وسامه سنجق (علم) القديس بطرس الرسول ووعدته بالاسعاف ثم سار بوهيموند الى ان وصل الى مملكة فرنسا فصادف في البلاط الملوكي استقبالا عظيما وأكرمه ملك فرنسا فيليب الاول اكراما زائداً وزوجه ابنته قسطنسا سنة ١١٠٦ ثم جهزه ملك فرنسا بجيوش كثيرة وقد استحصل أيضاً على جيوش اسبانية ثم سار الى ان وصل ايطاليا فتبعه جيش عظيم ثم انه نزل بالمراكب من مدينة باري باقليم نابولي التابع لمملكة ايطاليا ثم انه طلع على بلاد الروم وحاصر مدينة دورالمسيوس سنة ١١١١ وأما بودوين دي بورغ ونسيبه جوسلين فبعدها أسرها خمس سنوات رجعا الى ولايتهما وكان أخذهما جكرمس من سقمان الذي أسرها ثم أخذها جولي ملك الموصل وأطلقهما بشروط منها ان يطلقا الاسرى المسلمين الذين ببلادها وان يمدوه بنفسهما وبمساكرهما متى احتاج الى ذلك وعلى مال دفعاه قدره ثلاثون الف دينار

﴿ استيلاء الافرنج على عكا ﴾

ان بودوين اراد اتساع مملكته خصوصاً ببلاد الساحل لتتصل ببلاد أوروبا فلذلك عزم على محاربة مدينة عكا وامتلاكها فجمع جيشه وجيش جنوى الذي كان قادماً للزيارة بمراكبه وطلب اليهم بودوين المساعدة في الحرب ولهم ثلث المكسب فسار بهم وبرجاله قاصداً مدينة عكا فلما وصل حاصرها برأ بجيشه وحاصرها بحراً بمراكب الجنويين البالغ عددها سبعين مركباً وكان ذلك سنة ١١٠٤ الموافقة سنة ٤٩٧ هجرية وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالحيوشي لانه كان من اتباع امير الجيوش وطال امد الحصار حتى مل الصليبيون الانتظار وبعد حصول معارك كثيرة اظهر فيها المسلمون شجاعة عجيبة وانتهى الامر بان طلب الامير زاهر الى بودوين الصالح على تسليم المدينة بشرط ان يخرج المسلمون

بامتعتهم فقبل بودوين ذلك منهم واعطاهم اماناً ولذلك رهوا له مفاتيح المدينة من فوق السور واما الجنويون الذين كانوا بالمرأكب فانهم لما نظروا غنى اهل المدينة لم يعتبروا الامان الذي اعطاه بودوين وهجموا على اهل البلديسابون ويقتلون واخذ بودوين يتوسل الى الجنويين ليتنعوا عن الفتك باهل المدينة فما أمكنه وفر الامير زاهر الى مدينة دمشق ومنها الى مصر

﴿ محاصرة مدينة طرابلس ﴾

كان رايوندي دي طولوز (مؤرخو العرب يقولون صنجيل) قد لازم حصار طرابلس وزحف اليه قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فظفر به وعاد رايوندي مهزوما وفي سنة ٤٩٥ هـ الموافقة سنة ١١٠١ م حاصر المدينة رايوندي وشدد الحصار وأعانه أهل الجبل والمسيحيون من أهل سوادها ثم صالحه الأمير نجر الدولة ابن عمار صاحبها على مال وخيل ورحل عنها رايوندي الى طرسوس فحاصرها وملكها عنوة واستباحها ثم سار الى حصن الطومار وصاحبه ابن العريض فامتنع عابهم وقتلهم رايوندي فهزموا عسكره وأسروا زعيما من زعماء الافرنج افنداه رايوندي بعشرة آلاف دينار والى أسير

وفي سنة ٤٩٧ هـ الموافقة ١١٠٣ م سار رايوندي وقد جاءته أمداد الافرنج بجرأ الى طرابلس فحاصرها برأ وبجرأ فلم يجد فيها مطلقاً فماد عنها الى جيبيل وتسلمها بالامان من صاحبها ابن صليحه ثم سار رايوندي المعروف عند العرب بصنجيل الى طرابلس فحاصرها وبني بالقرب منها حصناً وبني تحته ريبضاً وهو المعروف بحصن صنجيل فخرج ابن عمار صاحب طرابلس فأحرق الريبض ووقف رايوندي على بعض سقوفه المحروقة فانخسف به ففرض وبقي عشرة أيام ومات فحمل الى القدس ودفن فيه ودامت الحرب بين أهل طرابلس والافرنج خمس سنين وظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم الى ان قتل الاقوات وافقر الاغنياء

وفي سنة ٥٠١ هـ الموافقة سنة ١١٠٧ م توجه نجر الدولة ابو علي بن عمار من طرابلس الى بغداد مستنفرأ لما حل بطرابلس وبالشام من الافرنج واجتمع بالسلطان محمد ملك شاه وبالحليفة المقتدر فلم يتحصل منهما على فائدة فماد الى دمشق وأقام عند طغتكين ثم احتفى أهل طرابلس بخليفة مصر الأمر بأحكام الله فخماهم وبعث الافضل الى طرابلس احد أوليائه وتملكها باسم خليفة مصر وأرسل اليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع عنها الصليبيين فأنخر وصولها لمعاكسة الريح لها الى ان أتى

بارتراند بن راييموند من أوروبا بعمارة يجرية قوية فحاصر المدينة ودخلها عنوة في ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٣ الموافق ٢ يولييه ١١١٠ وقتل قسما من أهلها واستعبد القسم الآخر وصارت طرابلس ملكا لبارتراند بن راييموند دي طولوز

﴿ باقي ولاية بودوين الاول على القدس ﴾

استقر بودوين في مملكته بعد سفر أهل بيزا وجنوى بمرأهم مستقلا ببلاده مدافعا عنها صاداً هجمات المسلمين الذين كانوا قد استولوا على بلاده وكادت أن تنصب أعلامهم فوق جبل صهيون نفسه ولكن جاءت امداد الصليبيين الى بودوين فأسمفته وردت المسلمين عن بلاده ثم سار بودوين الى بيروت وحاصرها براً وبحراً شهرين في سنة ١١١٠ فملكها بالسيف وقتل منها نفراً كثيراً وطارت شهرة الانتصارات الصليبية الى أقصى بلاد أوروبا حتى جاء الى القدس مايتوف عن عشرة آلاف عسكري تروحي بقيادة ملكهم سيفور بن مائوس الثالث في عمارة مؤلفه من مئتي مركب وكانت قد خرجت هذه العمارة من مملكة نروج في شمالي أوروبا وسارت في البحر المحيط (لعله الاوقيانوس الاطلانطيكي) تأتية ثلاث سنوات الى ان وصلت الى مدينة يافا سنة ١١١٠ فلما علم بودوين بوصولهم ذهب لملاقاتهم واستحلفهم بأن يجاهدوا معه فقبل سيفور طلبه هذا بدون مكافئة سوى قطعة من خشب صليب الصابوت وساروا الى ان وصلوا الى القدس وبعد أيام قاموا قاصدين مدينة صيدا فحاصروها مدة ستة أسابيع أظهر أهلها في أثناءها الشجاعة والقوة وأخيراً امتلكها الصليبيون وغنموا منها غنائم عظيمة اقتسموها كل من بودوين ملك القدس وسيفور ملك النروج وأخذ الملك سيفور قطعة من صليب الصابوت وسافر الى بلاده فرحاً مسروراً بهذه الذخيرة المقدسة التي وضعها في كنيسة دورتيم ولما رجع بودوين الى عاصمة مملكته علم بان جيرفيز حاكم طبرية قد وقع أسيراً في أيدي المسلمين فشملة الحزن الشديد لانه كان يحبه محبة عظيمة وبعد ذلك وردت رسل من عسكر المسلمين الى بودوين يطلبون منه فدية حبيبه المذكور وان تكون الفدية ان يرد اليهم عكا ويافا وغيرها فرد بودوين الجواب اليهم قائلاً انني بطيب خاطر أفديه منكم بمال عظيم أدفعه لكم وأما البلاد فلا أعطيها لكم ولو كانت فدية عن أخي نفسه أو عن جميع الاسماء الصليبيين ولما رجعت الرسل الى دمشق بهذا الجواب قتلوا جيرفيز ومن معه

وفي سنة ١١١٢ مات تنكريد قائمقام انطاكية فزن عايسه بودوين وباقي

الامراء الصليبيين ثم حصل تغيير في الجو ونزل ضباب هبي أحرق المزروعات
وبسبب ذلك حصل قحط ومجاعة ثم حصلت زلازل شديدة هدمت جملة مدن من
أقليم كايكا وكذلك الابراج التي حول سور مدينة الرها وقاعة مدينة حلب قد
اندكت وهدمت باندفاع مخيف وقد هدمت كنائس وعمارات شاهقة في مدينة
انطاكية من أساسها وكذلك الباب البحري وأبراجه وفي أواخر سنة ٥١١ خرج
بودوين ملك القدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح
أهلها وأحرق جوامعها وهم إلى مصر فداهمه مرض حمله على العود واجتمعت
حوله جميع الامراء والقواد فآخذ يشجعهم ثم حلفهم بأن لا يدفعوه في أرض
غريبة وطلب منهم نقل جثته ودفنها بالقدس بجوار أخيه ثم أمر خدامه بكيفية
دفنه وسألوه عن يكون عليهم سلطاناً بعده فاجابهم بأنه قد ترك هذا الشئ لشقيقه
اسطاكوس اذا كان يرغب في الإقامة بفلسطين والا يكون لابن عمه بودوين
دي بورغ أمير الرها ومات في سنة ١١١٨ وهو راجع إلى القدس قبل ادراك
العريش فنزعوا أحشاءه ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العريش في وسط
أرض رملية وأقاموا على قبره حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً إلى
أيامنا هذه باسم رمال بردويل (وهو تحريف لفظ بودوين والبعض يقول بغدوين)
أما جثته فحملوها إلى بيت المقدس ودفنوها هناك بجوار أخيه غودافرو

﴿ جمعيات الرهبان الصليبيين ﴾

كانت قبل استيلاء الصليبيين على القدس جمعية هناك باسم (ضياف الغربا)
وهذه الجمعية تمتلك نزلاً أو فندقاً لأجل إقامة الغرباء من زوار القدس وكانت هذه
الجمعية تقدم للزوار الماء كل ولما استولى الصليبيون على المدينة أوسعوا نطاق هذه
الجمعية واكتبوا لها بمبالغ مالية وأضافوا على عملها معالجة الجرحى وتنازل كثير
من الشبان عن ميراثهم لهذه الجمعية مثل رايوندي دي بوي ودودون دي كومباس
من أهالي دوفينه وغسطن من مدينة بردواس وكونون دي مونته من مدينة
أوفرينا ثم تشكلت بالمدينة جمعية باسم الهيكلين كما سيأتي بيانه

ثم أنشئت كنيسة عظيمة باسم القديس يوحنا المعمدان تابعة لجمعية ضياف الغربا
وأنشئت أيضاً فنادق لأجل إقامة المرضى والجرحى ومنازل لأجل سكن أعضاء
الجمعية الذين من وظيفتهم معالجة المرضى والجرحى الذين تلقبوا باسم رهبان
القديس يوحنا المعمدان وكانوا يقبلون فقراء الزوار بهذه الفنادق ويقدمون لهم ما

يلزمهم من أكل ولبس وغيره من أنواع الخدم بغاية الشرف والممنونية ببشاشة تامة وفي سنة ١١٠٤ حينما كانت هذه الجمعية تحت رئاسة رايوند دي بوي أضيف على شروطها بأنه يجب على الاعضاء الخدمة العسكرية فكانت هذه الجمعية من أكبر الجمعيات وساعدت حكومة الصليبيين المساعدة التامة لان أعضاءها كانوا يحاربون في وسط صفوف الصليبيين برأية خصوصية شقتين بيضاء وسوداء ثم يتوجهون الى الفنادق لاجل عيادة المرضى وخدمة الزوار الفقراء وبهذه الصفة انتشرت هذه الجمعية في ممالك اوروبا وعين من أعضائها من يتجول في اوروبا لاجل جمع الصدقات والتبرعات وآخرين لاجل تحصيل ايراداتها الخصوصية وذلك جميعه للاتفاق على الجمعيه ومستلزماتها . أما الجمعية الثانية المسماة بجمعية الهيكلين فانها تأسست سنة ١١١٨ من تسعة أشخاص فرساويين وكانت شروط هذه الجمعيه هي ان تحمي جميع الزوار الواردين من اوروبا الى القدس ومحاربة المسلمين ثم تبهم عدد وافر وثأيت هذه الجمعية من الامراء والملوك وتخصص لها انعامات سامية من الاحبار الرومانيين وصارت جمعية رهبانية عسكرية وكان السبب في تسميتهم هيكلين هو ان بودوين الثاني الذي سيأتي ذكره شيد لها منزلاً كبيراً كبير فوق دثار هيكل سليمان وكان علم هذه الجمعية مكتوبة عليه هذه الالفاظ الداوودية (. . لا لنا يارب . . لا لنا . . لكن لاسمك أعط المجد) وكان لهذه الجمعية شأن كبير في محاربة الاسلام

﴿ في ولاية بودوين الثاني ﴾

بعد دفن جثة بودوين الاول اجتمع جميع قواد العساكر ورؤساء الكنائس وقرروا تعيين بودوين دي بورغ أمير الرها سلطاناً عليهم حسب وصية بودوين الاول وأعلنوا بودوين المذكور في الرها فقبل هذا التعيين وتنازل عن أماره الرها الى جوسلين دي كورتناي وترك أمرها وسافر الى القدس فقابلوه باحترام عظيم وأجلسوه على تخت ملكه وتسمى باسم بودوين الثاني

﴿ وفاة الامام المستظهر بالله العباسي وخلافة ولده المسترشد بالله ﴾

في سادس عشر ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس احمد بن المقتدي بامر الله وكان عمره ٤١ سنة و ٦ اشهر و ٦ أيام وخلافته اربع وعشرون سنه وثلاثة أشهر واحدى عشر يوماً وحكم في

أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغداد من السلاجوقيين وهم أخو ملكشاه تاج الدولة تنش وركن الدولة تكياروق بن ملكشاه وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان المستظهر كريم الاخلاق لين الجانب مشكور المساعي يحب العلم والعلماء وكان يسارع الى اعمال البر حسن الخط جيد التوقيع ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله وبعد دفنه بويغ لولده المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن أبي العباس احمد بن المستظهر وكان ولي عهد قد خطب له ثلاث وعشرين سنة فبايعه أخواه وهما أبو عبد الله محمد وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدي بأمر الله وغيرهم من العلماء والامراء والقضاة والاعيان وكان المتولي لآخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغاني وكان نائباً عن الوزارة فآقره المسترشد بالله عليها ثم عزله عن نيابة الوزارة واستوزر أباشجاع محمد بن الربيب أبي منصور وزير السلطان محمود ﴿واقعة ايلغازي مع الصليبيين بمحدود انطاكية﴾

في سنة ١١٣ هـ سار الافرنج الى نواحي حلب ونازلوها واخربوها ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً وخافهم أهلها ولو مكثوا من القتال لم يبق بها احد لكنهم منعوا من ذلك وصانعوها الافرنج أهل حلب على ان يقاسموهم املاكهم التي بباب حلب وكان الامير ايلغازي صاحب حلب ببلد ماردين يجمع العساكر والمتطوعة للغزاة فاجتمع عليه نحو عشرين الفا وكان معه اسامة بن المبارك ابن شبل الكلالي والامير طغان ارسلان بن المكر صاحب بدليس وارزن فسار بهم الى الشام عازماً على قتال الافرنج بناحية انطاكية فلما علم بذلك روجار دي سيسليا الوصي على ابن بوهيموند صاحب انطاكية ارسل اليه بودوين الثاني ملك القدس يطلب مساعدته ولكن قبل ورود ملك القدس اليه سار بجيشه البالغ ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل فزلوا قريباً من الاثارب بموضع يقال له تل عفرين بين جبال ليس لها طريق الا من ثلاث جهات وقد ظن الافرنج بانه لا يمكن للمسلمين السلوك اليهم لضيق الطريق فاخذوا الى المطاولة وارسلوا الى ايلغازي يقولون له لاتعب نفسك بالمسير الينا فنحن واصلون اليك فاعلم اصحابه بما قالوه واستشارهم فيما يفعل فاشاروا بالركوب من وقته ففعل ذلك وسار اليهم ودخل الناس من الطرق الثلاثة فلم يشعر الافرنج الا وائل المسلمين قد غشيتهم فحمل الافرنج حملة منكراً وجري بينهم حرب شديدة وأحاطوا الافرنج من جميع جهاتهم وأخذهم السيف من سائر نواحيهم فلم يفلت منهم غير نفر

يسير وقتل الجميع واسروا وكان في جملة الاسرى ما ينيف عن سبعين فارساً من مقدميهم حملوا الى حلب فبذلوا في نفوسهم ثلثماية الف دينار فلم يقبل منهم وقتل روجار وحمل رأسه وكان ذلك في منتصف شهر ربيع اول سنة ٥١٣ هـ موافقة سنة ١١٢٠ م

ثم جاءت الحيوش الصليبية التي كان طلب روجار مساعدتها كما ذكر تحت رئاسة بودوين الثاني ملك القدس ومعه أمير الرها وطرابلس فهجموا على العساكر الاسلامية هجمه شديدة خصوصاً رجال جمعية يوحنا المعمدان انتهت بهزيمة العساكر الاسلامية وبعد ذلك رجع بودوين الى القدس وكذلك جوسلين سار الى جهة طبرية فكبس طائفة من طي يعرفون ببني خالد فاخذهم واخذ غنائمهم وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة فاخبروه انهم من وراء الحزن بوادي السلالة بين دمشق وطبرية فقدم جوسلين مائة وخمسون فارساً من أصحابه وسار هو في خمسين فارس على طريق آخر ووعدهم الصبح ليكبسوا بني ربيعة فوصلهم الخبر بذلك فارادوا الرجيل فتمهم أميرهم وكانوا في مائة وخمسين فارساً فوصلهم المائة وخمسون من الافرنج معتقدين ان جوسلين قد سبقهم او سيدركهم فاضل الطريق وتساوت القوتان فاقتتلوا وطعنت العرب خيولهم فجعلوا اكثرهم رجالة فقتل من الافرنج سبعون واسرائنا عشر من مقدميهم بذل كل واحد في فساد نفسه مالا حزيلاً وعدة من الاسرى واما جوسلين فبلغه خبر الواقعة وهو ضال الطريق فسار الى طرابلس فجمع بها جمعاً وسار الى عسقلان فاغار على بلدها فهزمه المسلمون هناك فعاد مغلولاً

﴿ قتل الافضل بن بدر الجمالي وزير مصر ﴾

في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥١٥ هـ قتل أمير الحيوش الافضل بن بدر الجمالي وهو وزير الحاكم بأمر الله خليفة مصر وكان قد ركب الى خزانة السلاح ليفرقه على الجنود على جاري العادة في الاعياد فسار معه عالم كثير من الرجالة والخيالة فتأذى بالغبار فامر بالبعد عنه وسار منفرداً ومعه رجلا فصادف رجلين يسوق الصباقله فضرباه بالسكاكين فخرجاه وجاء ثالث من ورائه فضربه بسكين في خصره فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه الى داره فدخل عليه الخليفة وتوجع له وسأله عن الاموال فادله عليها فلما توفي الافضل بقي الخليفة في داره نحو اربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً

ووجد له من الاعلاق النفيسة والاشياء القليلة الوجود ما لا يوجد مثله لتفسيره واعتقل اولاده وكان عمره ٥٧ سنة وكانت وزارته ثمانيا وعشرين سنة منها آخر أيام المستضي وجميع أيام الأمر بأحكام الله ثم ولي بعده أبو عبد الله بن البطاحي ولقب المأمون وتحكم في الدولة

﴿ محاربة بلط ابن بهرام مع جوسلين أمير الرها وأسرهم ﴾

في سنة ١١٥ هـ الموافقة سنة ١١٢١ م سار بلط ابن بهرام ولد اخي ايلغازي الى مدينة الرها فحصرها وبها الافرنج وبقي على حصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها فجاءه رجل تركاني واعلمه ان جوسلين صاحب الرها وسروج قد جمع الافرنج وهو عازم على كبسه وكان قد تفرق عن بلط اصحابه وبقي في اربعمائة فارس فوقف مستعداً لقتالهم واقبل الافرنج ولكن من لطف الله ان الافرنج وصلوا الى أرض قد نضب عنها الماء فصارت وحلا ففاقت خيولهم فيها فلم تتمكن من الاسراع مع ثقل السلاح والفرسان فرماهم اصحاب بلط بالنشاب فلم يفلت منهم احد وأسر جوسلين وصهره غاليران واكلوهم بالحديد وطلب من جوسلين أن يسلم الرها فلم يفعل وبذل في فداء نفسه اموالا جزيلة واسرى كثيرة فلم يجبه الى ذلك وحملوها الى قلعة خربت وسجنوها بها وأسر أيضاً جماعة من فرسانهم المشهورين فسجنوا معهم

﴿ محاربة بلط مع بغدوين ملك القدس وأسرهم ﴾

في سنة ١١٧ هـ الموافقة سنة ١١٢٣ م جمع بغدوين رجاله وسار قاصداً مدينة خربت بديار بكر للاستيلاء عليها وتخلص جوسلين من الاسر وكان بلط محاصراً قلعة كركر فباغته مجيء بغدوين فرحل اليه والتقى واقتتلا فانهزم الافرنج واسر ملكهم بغدوين ومعه جماعة من اعيان فرسانهم وسجنوا بقلعة خربت مع جوسلين ومن معه

ثم اجتمع نحو خمسين ارمياً وتحالفوا على تخليص ملك القدس من الاسر فغيروا ملابسهم واخفوا سلاحهم تحتها ودخلوا قلعة خربت منفردين الى أن ساروا من الداخل وهناك اظهروا سلاحهم وأخذوا يقتلون العساكر حراس السجن وكسروا قيود المسجونين وأرادو خلاصهم ونصبوا علم الصليبيين على القلعة فباغتهم العساكر الاسلامية وحاصروا القلعة بما فيها ولم يتمكن أحد من الهرب الا جوسلين أمير

الرها وظل بودوين ومن معه في السجن وأما الخمسون ارمينياً فذبحوا عن آخرهم وكان بلك صاحب القلاع قد توجه الى حران ولما بلغه ماجرى بالقلاع عاد في عساكره اليها وحصرها كما ذكر وأما جوسيلين فانه اقسم بان لا يحاق ولا يشرب الخمر حتى يتوجه لزيارة القدس ويسعى في تخليص الاسرى

﴿ ورود أهل البندقيه الاشتراك مع الصليبيين ﴾

لم يشترك أهل البندقيه في الحاربات الماضية مع الصليبيين لكونهم يشتغلون بالتجارة ولما رأوا ان أهل بيزا وجنوى قد توجهوا الى بلاد فلسطين وانحصروا وربحوا غنائم كثيرة تفوق على ارباح التجارة أخذتهم الغيرة واستعدوا وتجمعوا تحت رياسة اللوك مخايل مقدم مشيخة البندقيه بعمارة بحرية مركبة من واحد وعشرين مركباً وساروا الى أن وصلوا الى عكا وهناك طلعوا وساروا في البر قاصدين القدس فاحتفل بهم ثم عقد مجلس المشورة وقرر محاربة العساكر الاسلامية فحاصروا مدينة صور وذلك بعد مداوات كثيرة لعدم اتفاقهم على المحاصرة هل تكون على صور أو على مدينة عسقلان فاخيرا اقرروا على محاصرة صور كما تقدم

﴿ استيلاء الصليبيين على مدينة صور ﴾

كانت مدينة صور للخلفاء العلويين بمصر الى سنة ٥٠٦ هـ فلما عزم ملك الافرنج علي محاصرتها خافه اهلها فارسلوا الى اتابك طغتكين صاحب دمشق يطلبون منه ان يرسل اليهم اميراً من عنده يتولى امرهم ويحميهم وتكون البلد له فسير اليهم عسكرياً وجعل عليهم والياً اسمه مسعود وكان شهماً شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها وسير اليهم ميرة ومالا فرقه عليهم فطابت نفوس أهل البلد ولم تزل الخطبة للخليفة الأمر وكتب الى الافضل بمصر يعلمه بما كان ويقول انه متى وصل اليها من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها اليه ويطلب ان الاسطول لا ينقطع عنها بالرجال والقوة فشكره الافضل على ذلك واتفق عليه وصوب رأيه وجهاز اسطولا وسيره الى صور فاستقامت احوال اهلها الى سنة ٥١٦ هـ بعد قتل الافضل فسير اليها اسطولا وأمر المقدم على الاسطول أن يقبض على الامير مسعود والي صور ويتسلم البلد منه وكان السبب في ذلك ان اهل صور اكثروا من الشكوى منه الى الأمر بإحكام الله فصار الاسطول الى ان رسا عند صور فخرج مسعود اليه للسلام فلما صعد الى مركب المقدم قبض عليه واعتقله ونزل الى المدينة وتسلمها وعاد الاسطول الى مصر وفيه

الامير مسعود فاكرم واحسن اليه واعيد الى دمشق واما الوالي المصري فانه راسل طغتكين يخدمه بالدعاء والاعتضاد وان سبب ما فعله هو شكوى اهل صور فاحسن طغتكين الجواب وبذل له نفس المساعدة وفي ربيع أول سنة ٥١٨ قدم الصليبيون تحت رياسة غوبليوم وكيل سلطنة القدس وبطريك القدس ويونص صاحب طرابلس والدوك مخايل المقدم على أهالي مشيخة البندقيه وحاصروا مدينة صور برأ وجاءت سراكب البندقيه وحاصرتها بحراً ولم يكن لاهالي صور من الحمية والنشاط ما كان لسلفائهم او لمسلمي المدن الاخرى لان الغنى الذي حازته صور من تجارتها قاد أهلها الى التعمات والرخاء فكانوا يصرفون أيامهم بالسرور والملاهي دون الاعتناء بالتمرن على الحرب والقتال ولولا بسالة الجنود الشامية والمصرية لما بقيت المدينة أمام الافرنج يوماً واحداً وكتب اهل المدينة الى خليفة مصر يطلبون منه المدد وكذلك طغتكين صاحب دمشق فلم يأثم أحد قنابروا على الدفاع وكانت الافرنج محيطة بها من كل جانب ونصبوا عليها ابراجاً من خشب ومنجانيقات وأخذوا يضربونها ليلاً ونهاراً وأهل المدينة يقاتلون ويدافعون عن انفسهم وأرسلوا ثابته يطلبون النجدة من خليفة مصر وملك دمشق فلم ينجدهم لان الافرنج أرسلوا أمير البندقيه للمحافظة من جهة البحر لمنع خليفة مصر عن ارسال النجدة وأرسلوا صاحب طرابلس يترصد طريق البر فجاء طغتكين بالجيوش الشامية فصد عن عبور النهر ولازم من بالمدينة القتال فقلت الاقوات وكان الجوع قد بلغ من المحصورين مبلغاً عظيماً فراسل حينئذ طغتكين أمراء الصليبيين في الصلح وقرر الامر على ان يسلم المدينة اليهم ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما يقدر عليهم من أموالهم ورحلهم وفتحت ابواب المدينة وملكها الافرنج بعد حصار خمسة شهور وفارقها أهلها ونصبت اعلام الافرنج على المدينة وزينوها باغصان الزيتون والاقشة وكان ذلك في سنة ١١٢٤ م

﴿ محاصرة الصليبيين لمدينة حلب واستيلاء البرسقي عليها ﴾

بعد استيلاء الصليبيين على مدينة صور كما تقدم طمعوا وقويت نفوسهم ورأوا الاستيلاء على بلاد الشام وأكثروا من حشد الجيوش ثم وصل اليهم ديس بن صدقه صاحب الحلة فأطعمهم في حلب وقال لهم ان أهلها شبيعة وهم يميلون الي من أجل المذهب فتم رأوني سلموا لي البلد وقال لهم اني أكون نائباً عنكم ومطيعاً لكم فساروا معه اليها وحاصروها وقتلوا قتلاً شديداً وبنوا لهم بيوتاً تقيم

من الحر والبرد فلما رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك وظهر لهم من صاحبها تمرناش الوهن والعجز وقلت المؤمن عندهم فأروا ان يكتبوا البرسقي صاحب الموصل لاجل ان يحميهم لما وجدوا فيه من القوة فأرسلوا اليه يستجدونه ويسألونه المجيء اليهم ليسلموا البلد اليه فجمع عساكره وقصدهم وأرسل الى من بالبلد وهو في الطريق يقول انني لا أقدر على الوصول اليكم والافرنج يقاتلونكم الا اذا سلمتم القلعة الى نوابي وصار أختابي فيها لانني لا أدري ما يقدره الله تعالى اذا انا لقيت الافرنج فان انهزمنا منهم وليست حلب بيد أختابي حتى أحتمي انا وعسكري بها لم يبق منا احد وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها فاجابوه الى ذلك وسلموا القلعة الى نوابه فلما استقروا فيها واستولوا عليها سار بعساكره فلما اشرف عليها ونظره الافرنج رحلوا عن البلد بدون حرب فاراد من في مقدمة عسكره ان يحمل عليهم فنعهم وهكذا صارت حلب تبعاً للبرسقي صاحب الموصل من عمال السلطان محمود وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٥١٨

﴿ في خلوص بودوين الثاني ملك القدس من الاسر ﴾

وفي هذه السنة أيضاً تم الاتفاق على فك أسر بودوين الثاني ملك القدس بمال عظيم دفعه وتوجه الى مملكته وأقام بها وكان هو أحسن الافرنج حظاً بهذه المملكة لكثرة توافد أهل اوربا لمساعدته ضد المسلمين من سكان المانيا والنمسا وبلاد البندقيه وأهل بيزا وجنوى وخصوصاً أهل فرنسا ولما قامت به جمعيات الرهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان التي كان رجالها يلبسون الثياب الحمراء وجمعية الهيكليين التي كان رجالها يلبسون الثياب البيضاء

﴿ استيلاء البرسقي على كفرطاب ﴾

في سنة ٥١٩ جمع البرسقي عساكره وسار الى الشام وقصد كفرطاب وحصرها فملكها من الافرنج وسار الى قلعة عزاز وهي من أعمال حلب من جهة الشمال وصاحبها جوسلين فحصرها فكتب جوسلين الافرنج فاجتمعوا عن آخرهم من فارس وراجل فلقبيهم البرسقي واقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه المسلمون وقتل منهم ما ينوف عن الف وأسروا كثير وعاد البرسقي الى حلب فخلف بها ابنه مسعود وعبر الفرات الى الموصل ليجمع العساكر ويعود الى القتال

﴿ قتل المأمون بن البطائحي وزير خليفة مصر الأمر ﴾

في رمضان سنة ١١٩ هـ اتفق المأمون بن البطائحي وزير الخليفة بمصر مع الأمير جعفر أخى الخليفة الأمر بأحكام الله ليقول أخاه الأمر ويجمعه هو خليفة وتقررت القاعدة بينهما على ذلك فسمع بذلك أبو الحسن بن أبي اسامة وكان خضياً بالأمر مقرباً منه وقد ناله من الوزير أذى واطراح فحضر عند الأمر وأعلمه الحال فقبض على وزيره أبا عبد الله البطائحي الملقب بالمأمون وصلبه وأخوته وهذا جزاء من قابل الاحسان بالاساءة وكان هذا الوزير كريماً واسع الصدر قتلاً سفاكاً للدماء وكان شديد التحرز كثير التطالع الى أحوال الناس من العامة والخاصة من سائر بلاد مصر والشام والعراق وفي أيامه كثر الغمازون

﴿ اخبار الاسماعيليين وامتلاكهم قلعة بانياس ﴾

في أثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم كانوا يكثر من تدخين الحشيش ويدعوهم البعض بالاسماعيليين نسبة الى اسماعيل رئيسهم وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان اسماعيل يترصده فرصة للغزو والنهب فلما رأى الدول القوية منشغلة بالحرب في أنحاء المشرق وضع يده على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين في حاربهم تارة ويصالحهم أخرى الى ان انتهى به الأمر فقام حكومته بين ظهرانهم وابتنى حصوناً منيعة أرهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع جزية معلومة وقاية من فتنهم لانهم كان متفناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله الدهاة وفي سنة ١١٩ هـ كان الرئيس عليهم بهرام بن أخت الاسد اباضي بعد قتل خاله المذكور وكان طغتكين صاحب دمشق قد أخذه عنده لاجل المعاضدة به واتباعه حينئذ أعلن عداوته فكثير أتباعه من كل من يريد الشر والفساد وأعانه الوزير ابو طاهر بن سعد المرغيناني قصداً للاعتقاد به على ما يريد فمعظم شره واستفحل أمره وصار أتباعه اضعافاً مما كانوا ثم ان بهرام رأى من أهل دمشق فظاظاً وغلظة عليه نخاف عاديته فطلب من طغتكين حصناً يأوى اليه هو ومن اتبعه فإشار الوزير بتسليم قلعة بانياس اليه فسلمت له فلما صار اليها اجتمع اليه أصحابه من كل ناحية فمعظم حينئذ خطبه وحلت الخنة بظهوره

﴿ محاربة طغتكين أتاك مع بودوين الثاني ﴾

في سنة ٥٢٠ هـ اجتمع بودوين الثاني ملك القدس بجميع عسكره وعساكر الجمعيات الرهبانية المار ذكرهم وساروا الى نواحي دمشق فنزلوا بمريج الصفر عند قرية يقال لها شقحب بالقرب من دمشق فعظم الاسر على المسلمين واشتد خوفهم وكاتب طغتكين أتاك أمراء التركان من ديار بكر وغيرها وجمعهم وكان هو قد سار عن دمشق الى جهة الافرنج واستخاف بها ابنه تاج الملوك بوري فكان بها وكما جاءت طائفة أحسن ضيافتها وسيرها الى أبيه فلما اجتمعوا سار بهم طغتكين الى الافرنج فالتقوا أواخر ذي الحجة واقتلوا واشتد القتال فسقط طغتكين عن فرسه فظن أصحابه انه قتل فانهزموا وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الافرنج وبقي التركان فلم يقدروا ان يلاحقوا المسلمين في الهزيمة فتخلفوا فلما رأوا فرسان الافرنج قد تبعوا المهزمين وان معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولا حام حملوا على الرجالة فقتلوه ولم يسلم منهم الا الشريد ونهبوا معسكر الافرنج وخيامهم وأموالهم وجميع مالههم وعادوا الى دمشق سالمين لم يفقد منهم أحد ولما رجع فرسان الافرنج من أثر المهزومين ورأوا رجالهم قتلوا وأموالهم منهوبة ساروا منهزمين ليلوي الاخ على أخيه وكان هذا من أغرب الحروب اذ ان طائفتين نهزما كل واحدة من صاحبتها

﴿ في الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله العباسي والسلطان محمود ﴾

في هذه السنة حصل نفور بين يرئس الزكوي شيخنكية بغداد (محافظ المدينة) وبين نواب الخليفة وتهديده الخليفة فيها نخاف الزكوي على نفسه فسار عن بغداد الى السلطان محمود في رجب وشكا اليه وحذره من الخليفة واعلمه بأنه قد قاد العساكر ورأى الحروب وقويت نفسه ومقى لم تعاجله زاد قوة وجمعاً وحينئذ يتعذر عليك ما هو سهل الآن فتوجه السلطان نحو العراق فارسل اليه الخليفة يخبره بضعف البلاد وأهلها بسبب ديس وافساد عسكره فيها وان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والاقوات ويطلب منه ان يتأخر في هذه المرة الى ان تنصلح حال البلاد ثم يعود اليها وبذل له على ذلك مالا كثيراً فلما سمع السلطان هذه الرسالة قوي عنده ما قرره الزكوي وأبى ان يتأخر وسار اليها مجدداً فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء الى الجانب الغربي في ذي القعدة مظهر الغضب والانتزاح

عن بغداد ان قصدھا السلطان فلما خرج من داره بكى الناس جميعهم بكاء عظيما لم يشاهد مثله فلما علم السلطان ذلك اشتد عليه فارسل يستعطف الخليفة ويسأله العود الى داره فاعاد الجواب انه لا بد من عودك هذه الدفعة فان الناس هلكوا بشدة الغلاء وخراب البلاد وانه لا يرى في دينه ان يزداد ما بهم وهو يشاهدھم فان عاد السلطان والا رحل هوى عن العراق فغضب السلطان لقوله ورحل نحو بغداد واقام الخليفة بالجانب الغربي فلما حضر عيد الاضحى خطب الناس وصلى بهم فبكى الناس لخطبته وارسل عقيفا خادمه وهو من خواصه في عسكر الى واسط لينع عنها نواب السلطان فارسل اليه عماد الدين زنكي بن اقسنقر فاقتتلوا وانهزم عسكر عفيف وقتل منهم مقتلة عظيمة واسر مثلهم وتعافل عماد الدين زنكي عن عفيف حتى نجح المودة كانت بينهما ثم ان الخليفة جمع السفن وسد بها أبواب دار الخلافة سوى باب النوبي وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام فيه لحفظ الدار ووصل السلطان بغداد في عشرين الحجة ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس فشكا الناس الى السلطان قاصر بخروجهم وصارت المخابرة بين السلطان والخليفة بشأن الصلح والعسكران أمام بعضهم ولم يحصل منهم خلاف مناوشات صغيرة ثم ان جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة أول المحرم سنة ٥٢١ هـ وضع أهل بغداد من ذلك فاجتمعوا ونادوا الغزاة فاقبلوا من كل ناحية ولما رأهم الخليفة خرج من السراشق والشمسية فوق رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب الكوسات والبوقات ونادى بأعلا صوته (يالهاشم) وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة وكان له في الدار الف رجل محتفين في السراذيب فظهروا وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب فاسر منهم جماعة من الامراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الامراء ودار عزيز الدين المستوفي وقتل منهم خلق كثير في الدروب (الحواري والازقة) ثم عبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون الف مقاتل من أهل بغداد وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الامر عليهم وكان القتال كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطئ الدجلة وعزم عسكر الخليفة على ان يكبسوا عسكر السلطان فقدر بهم الامير ابو الهيجاء الكردي صاحب اربل وخرج كانه يريد القتال فالتحق هو وعسكره بالسلطان وكان السلطان قد أرسل الى عماد الدين بواسط بالحضور اليه ومعه جميع العساكر في السفن وعلى الدواب في

البر فلما قارب بغداد أمر كل من معه في السفن وفي البر باللبس السلاح واظهار ما عندهم من الجلود فانتشرت العساكر وملؤا الارض برأ وبجراً فقتلهم السلطان وفرح بعماد الدين وعزم على قتال بغداد والجد في ذلك في البر والبحر فلما رأى الخليفة المسترشد بالله ذلك وخروج أبي الهيجاء من عسكره أجاب الى الصلح وترددت الرسل بينهما فاصطاحا واعتذر السلطان مما جرى وكان حليماً يسمع سبه باذنه فلا يعاقب عليه وعفا عن أهل بغداد جميعهم وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال ان الدنيا لا تساوي فعل مثل هذا ولما عزم السلطان على المسير من بغداد نظر فيمن يصلح ان يتولى شحنة العراق يأمن معه من الخليفة فاختبر أمراءه واعيان دولته فلم ير فيهم من يقوم بهذا الامر الا عماد الدين زنكي فاستشارهم في ذلك فصدقوا عليه وقالوا (لا يصلح لذلك واعادة ناموس العراق ولا تقوى نفس احد على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين) فاسند اليه الولاية مضافة الى ماله من الاقطاع وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٥٢١ هجرية

﴿ وفاة عز الدين البرسقي وولاية عماد الدين زنكي الموصل ﴾

﴿ ومحاصرة الصليبيين حلب ﴾

في سنة ٥٢١ هـ توفي الامير عز الدين مسعود بن البرسقي وهو صاحب الموصل وكان موته بعد محاصرة مدينة الرحبة واستيلاءه عليها بساعة واحدة وقام بعده أخ له صغير واستولى على البلاد مملوك للبرسقي يعرف بالجاولي ودبر أمر الصبي وأرسل للسلطان يطلب ان يقرر البلاد على ابن البرسقي وبذل الاموال الكثيرة في ذلك وكان الرسول القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد أمير حاجب البرسقي وكانا يخافان جاولي ولا يرضيان بطاعته وتصرفه ولما وصلا الى السلطان اجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر النائب عن عماد الدين وكان بينهما مصاهرة وذكر له صلاح الدين ما ورد بخصوصه وأفشى سره نخوفه نصير الدين من جاولي وقبح له فعله وتحدث معه في ولاية عماد الدين ثم توجهوا الى السلطان وأبلغوه ان ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها فاستولوا على أكثرها وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين الى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين وكان البرسقي مع شجاعته يرد تعديهم على البلاد الاسلامية وهذا قتل ازداد طمعهم وان ولده صغير ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ولذلك قد انهيها الحال لمنع اللوم

عنا خوفاً من حصول خلل فاستشارهما السلطان فيمن يصلح للولاية فذكر اعماد الدين فاجاب السلطان الى توليته لما يعلمه من كفايته فاحضره وولاه البلاد كلها وكتب له منشوراً بذلك وسار وامتلك البلاد وفي اثناء ذلك كانت قد ضعفت ولاية حلب بعد البرسقي فسمع الافرنج بذلك فسار اليها جوسلين صاحب الرها بمساكره وحاصر حلب فصونع بمال فعاد عنها ثم وصل بعده صاحب انطاكية في جمع من الافرنج فحمدق الحلبيون حول القلعة فنع الداخل والخارج اليها من ظاهر البلد وأشرف الناس على الخطر العظيم الى منتصف ذي الحجة سنة ٥٢١ وكان عماد الدين قد ملك الموصل والجزيرة فسير الى حلب الامير سنقر دراز والامير حسن قراقوش وأقام الامير حسن قراقوش والياً عليها ولاية مستعارة الى ان وصلها عماد الدين زنكي فخرج الى أهل حلب فالتقوه واستبشروا بقدومه ودخل المدينة واستولى عليها ورتب أمورها وكان ذلك في شهر محرم سنة ٥٢٢ وجعل عماد الدين في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق ولولا ان الله تعالى من على المسلمين بملك أتابك عماد الدين زنكي ببلاد الشام لملكها الافرنج لانهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية واذا علم ظهر الدين طغتكين بذلك جمع عساكره وقصد بلادهم وحصرها وأغار عليها فيضطر الافرنج الى الرحيل للدفاع عن بلادهم فقدر الله تعالى انه توفي هذه السنة في ٨ صفر سنة ٥٢٢ فخلاهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين

﴿ قتل الاسماعيلية بدمشق واتحادهم بالافرنج ﴾

في هذه الاثناء قد زاد أمر الاسماعيليين أو الباطنيين وملك رئيسهم بهرام عدة حصون منها القدموس وغيره وكان بوادي التيم من أعمال بعلبك أصحاب مذاهب أخر مختلفة من النصيرية والدرزية والجوس وأميرهم اسمه الضحاك فسار اليهم بهرام سنة ٥٢٢ وحصرهم وقتلهم فخرج اليه الضحاك في ألف رجل وكبس عسكر بهرام ووضع السيف فيهم وقتل منهم عدداً عظيماً وقتل بهرام وانهزم الباقون وعادوا الى بانياس على أقبح صورة وكان بهرام قد استخلف في بانياس رجلاً اسمه اسماعيل فقام بعده وجمع شمل من عاد اليه وعاضده المزدقاني ثم انه أقام بدمشق انساناً اسمه ابو الوفاء بديل بهرام فقوي أمره وعلا شأنه حتى صار نفوذه أكثر من نفوذ صاحبها تاج الملوك ثم ان المزدقاني راسل الافرنج ليسلم المدينة دمشق

ويسلموا اليه مدينة صور واستقر الامر بينهم على ذلك وتقرر بينهم ميعاد لتنفيذ ذلك وهو يوم جمعه ذكروه وقرر المزدقاني مع الاسماعيلية ان يحتاطوا ذلك اليوم بابواب الجامع فلا يمكنون أحداً ان يخرج منه ليحيى الافرنج ويملكوا البلد فباغ الخبر تاج الملوك فاستدعى المزدقاني اليه فحضر وخلا معه فقتله تاج الملوك وعاق رأسه على باب القلعة ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف نفس وكان ذلك في منتصف رمضان سنة ٥٢٣ وكفى الله المسلمين شرهم ولما تمت هذه الحادثة بدمشق على الاسماعيلية خاف اسماعيل والي بانياس ان يشوربه ويمن معه الناس فيها فهاكوا فراسل الفرنج وبذل لهم تسليم بانياس اليهم والانتقال الى بلادهم فاجابوه فسلم القلعة اليهم وانتقل هو ومن معه الى بلادهم ولقوا ذلوا وهواناً وتوفي اسماعيل في أوائل سنة ٥٢٤ وكفى الله المسلمين شرهم

﴿ محاصرة الصليبيين دمشق وانهمزاهم ﴾

لما باغ الفرنج قتل المزدقاني والاسماعليه بدمشق عظم عليهم ذلك وتأسفوا لعدم تماسكهم دمشق وعمتهم المصيبة فاجتمع بودوين الثاني ملك القدس وصاحب طرابلس وصاحب انطاكية وغيرهم ومن وصل اليهم في البحر من التجار والزوار ورهبان الجمليات وزحفوا بجيش عظيم على دمشق ليعحصروها ولما سمع تاج الملوك صاحبها جمع العرب والتركمان ووصل الافرنج الى المدينة ونازلوها وأرسلوا الى اعمال دمشق لجمع الميرة والاغارة على البلاد فلما سمع تاج الملوك ان جمعاً كثيراً سار الى حوران لنهبه سير أميراً من أمرائه اسمه شمس الخواص في جمع من المسلمين اليهم وكان خروجهم في ليلة شائية كثيرة المطر ولقوا الافرنج في الصباح فواقعوهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوه فلم يفلت منهم غير مقدمهم واربعمائة رجل وأخذوا ما معهم وهي عشرة آلاف دابة موقرة وثلاثمائة أسير وعادوا الى دمشق ولم يمسهم جرح فلما علم بذلك بودوين ومن معه القى الله في قلوبهم الرعب فرحلوا عنها شبه المهزمين واحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وميرة وغير ذلك وتبعهم المسلمون والمطر شديد والبرد عظيم يقتلون كل من تخلف منهم فكثرت قتلهم وكان نزولهم ورحيلهم في شهر ذي الحجة سنة ٥٢٣

﴿ فتح عماد الدين زنكي حصن الاثارب ومحاصرة قلعة حارم ﴾

في سنة ٥٢٤ سار عماد الدين زنكي بعسكره قاصداً حصن الاثارب ومحاصرته

اشدة ضرره على المسلمين وهذا الحصن بينه وبين حلب ثلاثة فراسخ وكان من به من الافرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية وكان أهل حلب معهم في ضر وضيق شديدين فقد كانوا يغيرون عليهم وينهبون أموالهم فلما رأى عماد الدين ذلك صمم على حصر هذا الحصن فسار اليه لينازله فلما علم الافرنج جمعوا فارسهم ورجالهم لما يعرفوه من قوة عماد الدين وشدة بأسه ولم يتركوا مما بطاقتهم شيئاً الا استنفذوه فلما فرغوا من أمرهم ساروا نحو عماد الدين فاستشار أصحابه فيما يفعل فاشاروا كلهم بالعود عن الحصن لان لقاء الافرنج في بلادهم خطر فقال لهم عماد الدين ان الافرنج متى رأونا قد عدنا من وجههم طمعوا وساروا في أثرتنا وخربوا بلادنا ولا بد من لقاءهم على كل حال ثم ترك الحصن وتقدم اليهم فالتقوا واصطفوا للقتال وصبر كل فريق لحصمه واشتد الامر بينهم الى ان انهزم الافرنج شر هزيمة ووقع كثير من فرسانهم في الاسر وقتل منهم خلق كثير وظفر المسلمون وتقدم عماد الدين الى عسكره بالانحياز وقال هذا أول مصاف عملناه معهم فلندقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم ففعلوا ما أمرهم ولما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا الى الحصن فتسلموه غنوة وقتلوا وأسروا كل من فيه وأخبره عماد الدين ثم سار منه الى قلعة حارم وهي بالقرب من انطاكية وكانت للافرنج تحصرها فبذل له أهلها نصف دخل بلد حارم وهادنوه فاجابهم الى ذلك وعاد عنهم وقد فرح المسلمون بتلك الاعمال وضعفت قوى الافرنج وعلموا ان البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب وصار منتهى قصدهم حفظ ما بأيديهم بعد ان كانوا قد طمعوا بملك جميع البلاد

﴿ وفاة الأمير باحكام الله وخلافة الخافض لدين الله بمصر ﴾

في ثاني ذي القعدة سنة ٥٢٤ خرج خليفة مصر الملوي الأمير باحكام الله أبو علي بن المستعلي الى منزله له فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه وكانت مدة ولايته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان عمره نيفاً وأربعاً وثلاثين سنة وهو الماشر من الخلفاء العلويين أو المهديين ونسبتهم بذلك لانهم أولاد المهدي عبيد الله الذي ظهر بسلاجماسه وبني المهدي بافريقيا ولما قتل لم يكن له أولاد ذكر فبكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم بن محمد وبما ان أرملة الخليفة المتوفي كانت حاملاً لقب عبيد المجيد بنائب الملك الى ان يروا ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبوبع بالخلافة عبيد المجيد ولقب بالخافض لدين الله وكان مولد الخافض بمسقلان

فاستوزر أبا علي أحمد بن الفضل بن بدر الجمالي فاستبد بالامروتنلب على الحافظ
وقام بالوزارة حق القيام

﴿ وفاة جوسلين صاحب الرها ﴾

كان جوسلين من الافرنج الذي حاربهم عماد الدين زنكي بخصن الانارب
حتى امتلكه منهم عنوة فاصابه حجر من أحد أبراج الحصن فجرحه ولما عاد الى
الرها بلغه ان الامير مسعود أتى بمساكره وحاصر أحد حصونه التابعة له فامر
بجمع عساكره وسار بهم محمولا على عرببة وقبل ان ينزل على الحصن المحصور
بلغه ان الامير مسعود قد رفع الحصار وعاد الى بلاده وبعد هنية مات جوسلين
وهو بالعربية فارجموه الى الرها ودفنوه هناك وكان ذلك في سنة ٥٢٥ الموافقة
سنة ١١٣١ م فحزنوا عليه حزناً شديداً

﴿ وفاة بودوين الثاني ملك القدس ﴾

وفي تلك السنة أيضاً مرض بودوين الثاني ملك القدس فمربان ينقل الى جوار قبر
المسيح وهناك مات بين ذراعي ابنته ميليسيندا وزوجها فولك الذي أوصى له بالملك
بعدم فحزن عليه الصليبيون جميعهم لما كان له من المنزلة العظيمة عندهم وكانوا
يحبونه كثيراً لعدله بينهم ولكونه كان آخر الامراء الصليبيين الذين جاءوا فلسطين مع
غودافرو من مملكة فرانسا وكان هذا الملك قد حكم الرها مدة ثماني عشرة سنة
وحكم القدس بعد ذلك اثني عشرة سنة وكان شجاعاً ووقع في الاسر مرتين

﴿ في تملك فولك دي الينو على القدس ﴾

بعد وفاة بودوين الثاني ملك القدس كما تقدم احتفلوا بتتويج فولك دي الينو
ملكاً على ولاية القدس حسب وصية حميه المذكور وكان فولك قد قدم من بلاد
فرنسا على عهد بودوين بعد الزيارة وهو ابن فولك ريشين بارتراد دي مونت
فورت ففي أثناء اقامته في القدس انفق على مائة محارب من ماله وكان يترأسهم في أثناء
محاربة المسلمين فيظهر في القتال شجاعة عظيمة فلذلك أحبه بودوين الثاني
وازوجه ابنته ميليسيندا ولم يكن لبودوين ولد ذكر يرث الملك فوعده بأنه بعد
مماته يكون هو الورث الوحيد لمملكة القدس فحصل لهذا الشاب سرور عظيم
لزوجاه ولورائته هذا الملك الذي تم له في سنة ١١٣١ م و سنة ٥٢٥ هـ

﴿ وفاة السلطان محمود ﴾

في هذه السنة أيضاً توفي السلطان محمود بن محمد همذان وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة وكانت ولايته أربعة عشرة سنة تقريباً وكان حليماً كريماً عاقلاً عادلاً كثير الاحتمال وطلب السلطنة بعده ولده داود بن محمود وأخوه مسعود وسلاجوق شاه ابنا محمد وعمهما سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان محمد فحرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان واصفهان والري وسائر بلاد الخيل

﴿ استيلاء شمس الملوك على بانياس ﴾

في سنة ٥٢٧ طمع الافرنج في شمس الملوك صاحب دمشق ابن تاج الملوك وعزموا على نقض الهدنة التي بينهم فعرضوا لاموال جماعة من تجار دمشق في مدينة بيروت وأخذوها فشكا التجار الى شمس الملوك فراسلهم في اعادة ما أخذوه وكرر القول فيه فلم يردوا شيئاً فجماعته الانفة من هذه الحالة والغيط فجمع عسكره وتأهب ولا يعلم أحد مراده ثم سار وسبق خبره أواخر المحرم ونزل على بانياس أول صفر وقاتله لساعته وزحف اليه زحفاً متتابعاً وكانوا غير متأهبين وليس فيه من المقاتلة من يقوم به وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه وتبعه الناس من الفارس والراجل ووصلوا الى السور فنقبوه ودخلوا البلد عنوة والتجأ من كان من جند الافرنج الى الحصن وتحصنوا به فقتل في البلد كثيراً من الافرنج وأسروا كثيراً ونهبت الاموال وقاتل القلعة قتلاً شديداً ليلاً ونهاراً فلما رابع صفر بالامان وعاد الى دمشق فوصلها في سادسه ولما علم فولك ملك القدس بحصار بانياس أمر بجمع جيشه ليسير لنجدتها فأتاه خبر فتحها فالتى أمره السالف

﴿ محاربة فولك ملك القدس نائب حلب ﴾

في صفر سنة ٥٢٧ سار فولك ملك القدس بجيوشه الى أطراف حلب فتوجه اليه الامير اسوار نائب حلب فيمن عنده من العسكر وانضاف اليه كثير من التركان فاقتلوا عند قنسرين فقتل من الطائفتين جماعات كثيرة وانهمزم المسلمون الى حلب وتردد ملكهم في أعمال حلب فعاد اسوار وخرج اليه فيمن معه من العسكر فوقع على طائفة منهم فوقع بهم وأكثر فيهم القتل والاسر فعاد من سلم منهزماً الى بلاده وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر ودخل اسوار حلب ومعه الاسرى ورؤوس

القتلى وكان يوماً مشهوداً ثم خرج بعد ذلك طائفة من الافرنج من الرها وقصدوا أعمال حلب الاغارة عليها فسمع بهم اسوار نخرج اليهم ومعه الامير حسان البعلبكي فاوقفوا بهم وقتلوا منهم عن آخرهم واسروا من لم يقتل ورجعوا الى حلب سالمين ﴿ استيلاء شمس الملوك على حصن شقيف تيرون ونهبه بلاد الافرنج ﴾

في شهر محرم سنة ٥٢٨ هـ سار شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق الى حصن شقيف تيرون وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامنع به والضحاك المذكور هو رئيس النصيرية والادريه والمجوسيه وكان يلاعب المسلمين والافرنج ويحتجى بكل طائفة على الاخرى فسار شمس الملوك اليه وأخذ منه عنوة فعظم أخذه على الافرنج لان الضحاك لا يتعرض لشيء من بلادهم المجاورة له فخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم فلما اجتمعت ساروا الى حوران وأخذوا يخربون وينهبون القرى وكان شمس الملوك لما بلغه تجمع الافرنج قد جمع الجموع وحشد الجيوش والتف عليه جمع كثير من التركان ونزل بازاء الافرنج وجرت مناوشات ثم ان شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقي قبالة الافرنج وهم لا يشعرون وقصد بلاد طبرية والناصره وعكا وما جاورها التابعة للافرنج فنهب وخرب واحرق وامتلأت ايدي من معه من الغنائم واتصل الخبر بالفرنجة فانزعجوا ورحلوا في الحال بقتة وطلبوا بلادهم وأما شمس الملوك فانه عاد الى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الافرنج فوصل سالماً وأما الافرنج فلما رأوا بلادهم خراباً أرسلوا الى شمس الملوك بتجديد الهدنة فهادتهم

﴿ قتل الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله ﴾

في شهر محرم سنة ٥٢٩ هـ توفي السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه فخرج السلطان مسعود بجيشه وخرج الخليفة المسترشد بالله بجيشه والنقيا عاشر رمضان وتجاربا فانهزم جيش الخليفة وأخذ هو اسيراً ومعه جماعة كثيرة منهم وزيره وقاضي القضاة والامراء وسير السلطان الامير بك ايه الحمودي شحنة الى بغداد فوصلها في آخر رمضان واستولى على جميع املاك الخليفة فهاجت عامة بغداد وجاربوهم ثم ترددت الرسل بين الخليفة والسلطان مسعود على تقرير قواعد الصلح فتصالحا على مال يؤديه الخليفة وان لا يعود الى جمع العساكر وأن لا يخرج من داره ثم وصل

خبر بقدم الامير قزان خوان رسولا من السلطان سنجر فتأخر مسير الخليفة وخرج الناس مع السلطان مسعود الى لقاء الامير وفارق الخليفة بعض من كان موكلا به فقصده اربعة وعشرون رجلا من الباطنة ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه وطعنوه نحواً من عشرين طعنة ومثلوا به فجدعوا انفه واذنيه وقتل معه نفر من اصحابه كان ذلك في يوم الاحد ١٧ من شهر القعدة من السنة المذكورة وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة اشهر وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وستة اشهر وعشرين يوماً وكان شهماً شجاعاً فصيحاً حسن الخط جيد الفكر وبعد وفاته بويع بالخلافة ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور وكان ابوه قد بايع له بولاية العهد في حياته وجددت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر القعدة المذكور وكتب السلطان مسعود الى شحنة بغداد ان يبائع له بالخلافة وحضر الناس البيعة وكان حاضراً بيعته واحد وعشرون رجلاً من اولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبلغ في الموعظة

﴿ غزو العساكر الاتابكية بلاد الافرنج ﴾

في شعبان سنة ٥٣٠ اجتمعت عساكر اتابك زنكي تحت قيادة الامير اسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الافرنج على حين غفلة منهم ففاجأوا اللاذقية ولم يتمكن اهلها من الانتقال عنها والاحتراز فهبوا منها ما لا يحيط به الوصف وقتلوا وأسروا وكان الاسرى سبعة آلاف اسير مابين رجل وامرأة ومائة الف رأس من الدواب وما بين فرس وبغل وغيره وأما ماسوى ذلك من الاقش والحلي فيخرج عن الحد وأحرقوا بلد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها الا القليل وخرجوا الى شيز بما معهم من الغنائم سالمين وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً ولم يقدر الافرنج على شيء يأخذون به التار

﴿ خلع الخليفة الراشد بالله وخلافة المقتدى لأمير الله ﴾

في سنة ٥٣٠ اجتمع على الخليفة الراشد جماعة وحسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود فاجابهم الى ذلك وظهر منه تنقل في الاحوال وتلون في الاراء وقبض على جماعة من اعيان اصحابه وخافه الباقون ثم تقدم السلطان مسعود وحصر بغداد واستظهر عليها فخرج الخليفة الراشد ملتجئاً الى زنكي في البر الغربي فسار به الى الموصل ودخل السلطان مسعود بغداد واستقر بها وأمر

فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلفها الراشد بالله للسلطان مسمود وفيها بخط يده (اني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من اصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الامر) فافتوا بخروجه من الخلافة فعملوا محضراً وذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الاوال واشياء تقدح في الامامة وكتبوا الفتوى بخلمه واحضروا القاضي أبا طاهر الكرخي فشهدوا امامه بذلك فحكم بنفسه وخلعه ثم ان شرف الدين الوزير ذكر للسلطان ابي عبد الله محمد بن المستظهر فامر باحضاره من المكان الذي يسكنه ولما حضر جلس في الميمنة واتفق معه السلطان والوزير ثم حضر الامراء وارباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه بالخلافة وكان ذلك في ثامن عشر ذي الحجة ولقب (المقتني لامر الله) وسبب هذا اللقب انه كان رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يولى الخلافة بستة أيام وهو يقول له ان هذا الامر يصير اليك فاقبني بي فلقب بذلك

﴿ استلاء المسلمين على حصن وادي ابن الاحر ﴾

في رجب سنة ٥٣١ سار الامير نزاوش مقدم عسكر دمشق الى طرابلس الشام فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان فلما سمع بهم الدوك يونس صاحب طرابلس سار اليهم في جموعه وحشوده فقاتلهم فانهزم وعاد الفرنج الى طرابلس في حالة سيئة لان فرسانهم وشجعانهم قتلوا فلما عادوا نهب المسلمون من بلادهم أكثرها وحاصروا حصن وادي ابن الاحر وضيقوا عليه فملكوه عنوة ونهبوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وأسروا الرجال فافندوا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون الى دمشق

﴿ استلاء زنكي على قلعة بعين ﴾

في شوال سنة ٥٣١ سار اتابك زنكي من حمص وحاصر قلعة بعين وهي للافرنج تقارب مدينة حماه وهي من أمنع الحصون وأعزها فلما نزل عليها قاتلها فجمع الافرنج فارسهم وراجلهم وساروا بقضيمهم وقضيضهم وملوكهم الى اتابك زنكي ليرحلوه عن بعين فلم ير حل وصبر لهم الى ان وصلوا اليه فلقبهم وقتلهم أشد قتال رآه الناس وصبرا الفريقان وانجبت الواقعة عن هزيمة الافرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتفى منلوكم بحصن بعين لقربه منهم فحصرهم المسلمون ومنع اتابك زنكي كل شيء حتى الاخبار فكانوا من داخله لا يعلمون شيئاً من

أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده ثم أن القيسيين والرهبان ساروا الى بلاد الروم وجميع بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين وأعلموهم أن زنكي إذا أخذ بعين ومن فيها من الافرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت وإن المسلمين ليس لهم منه الا قصد البيت المقدس فخرج ملك الروم (بالقسطنطينية) ومعه كثير من عساكره ومن النصرانية وساروا على الصعب وقصدوا الشام لتخليص حصن بعين وأما زنكي فإنه صبر في قتال الافرنج فصبروا وقلت عليهم الميرة والذخيرة لانهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا معتقدين أن أحداً يقدر عليهم بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد الشامية فلما قلت الذخيرة طلبوا الامان والتسليم ولما سمع زنكي بقرب ملك الروم واجتماعه بمن بقي من الافرنج أعطى لمن في الحصن الامان وقرر عليهم تسليم الحصن ودفع ٥٠ الف دينار يحملونها اليه فاجابوه الى ذلك فخرجوا وسلموا اليه فلما فارقه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فقدموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم وكان زنكي في مدة حصاره فتح المعرة وكفرطاب من الافرنج

﴿ في مسير ملك الروم يوحنا كومنينوس الى بلاد الشام ﴾

في سنة ٥٣١ هـ خرج الملك يوحنا كومنينوس ملك الروم بالقسطنطينية قاصداً بلاد الشام لنجدة الافرنج كما تقدم فزار من البحر الى ان وصل بلاد الارمن التابعة لابن ليون الارمني فاستولى على بعضها ثم صار الى انطاكية فوصلها في شهر القعدة سنة ٥٣١ هـ فحصرها وضيق عليها وبها صاحبها الامير رايونند ثم تردت الرسل بينها فتصالحا ورحل عنها ولما دخلت سنة ٥٣٢ هـ سار الملك يوحنا المذكور الى بلاد الشام وقصد بزاعه فحصرها وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب فغضى جماعة من اعيان حلب الى اتابك زنكي وهو محاصر حصن فاستعاثوا به واستنصروه فسير معهم قسماً من عساكره فدخلوا حلب لينعموها من الروم ان حاصروها ثم ان ملك الروم قاتل بزاعه ونصب عليها المتجانيقات وامتلكتها بالامان في الخامس والعشرين من رجب ثم غدر باهلها فقتل منهم وأسرى وسبي وكان عدد من جرح فيها من اهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس وتنصر قاضيا وجماعة من اهلها عددهم نحو اربعماية نفس وأقام ملك الروم عشرة أيام يطالب من اختفى فقبيل له ان جمعاً كثيراً من الاهالي قد اختبأ بالمغار فاشعل على فوهات النار وأهلكهم ضيقاً بالدخان ثم رحلوا الى حلب بخيلهم ورجلهم فخرج اليهم احداث حلب فتقاتلوا

قتالا شديداً فقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم وعادوا خاسرين فرحلوا الى قلعة الاثارب نخاف من فيها من المسلمين في التاسع من شعبان فهربوا عنها فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعه والاسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا فلما سمع الامير اسوار نائب حلب بذلك رحل فيمن عنده من العساكر الى الاثارب فوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الاسرى والسبي وعاد الى حلب وأما الملك يوحنا فانه قصد قلعة شيزر لانها من امنع الحصون وحصرها لعلمه بانها لم تكن لزنيكي فلا يكون له في حفظها اهتمام لانها كانت للامير أبي العساكر سلطان بن علي منقذ الكناني فنصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً فارسل صاحبها الى زنيكي يستجده فصار اليه فنزل على نهر العاصي بينها وبين حماة فكان يركب كل يوم في عساكره ويسير الى شيزر بحيث يراه ملك الروم ويرسل السرايا تخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ثم يعود آخر النهار وكان الروم والافرنج قد نزلوا شرقي شيزر فارسل اليهم زنيكي يقول لهم انكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها الى الصحراء حتى نلتقي فان ظفرتم اخذتم شيزر وغيرها وان ظفرت بكم ارحت المسلمين من شركم وكان لم يكن له بهم مطمع لكثرتهم وانما كان يفعل هذا ترهيباً لهم فاشار الافرنج على الملك يوحنا بلقائه وقتاله وهونوا أمره فقال لهم الملك اتظنون ان معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة وانما هو يريدكم قلة من معه لتطعموا وتصحروا له (أي تخرجوا له في الصحراء) فيئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم وكان اتابك زنيكي مع هذا يرسل افرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم انه ان ملك بالشام حصناً واحداً اخذ البلاد التي بأيديهم منهم وكان يرسل ملك الروم يهدده ويوهمه ان الافرنج معه فاستشعر كل واحد من الافرنج والروم بالخوف من صاحبه فرحل ملك الروم عنها في رمضان سنة ٥٣٢ وكان مقامه عليها اربعة وعشرين يوماً وترك المنجنيقات وآلات الحصار بحالها فسار زنيكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقه العسكر فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعهم الى قلعة حلب وكفى الله المؤمنين القتال وكان المسلمون بالشام قد اشد خوفهم وعلموا ان الروم ان ملكوا حصن شيزر لا يبقى لمسلم معهم مقام لاسيما مدينة حماة لقربها ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء اتابك زنيكي فاكثروا منهم أبو الحجد المسلم بن الحضر بن المسلم بن قسيم الحموي بقصيدة منها

بعزمك أيها الملك العظيم تذلل لك الصماب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلاً كأن الجحفل الليل البهيم
وقد ترك الزمان على رضاء فكان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك في خميس تيقن أن ذلك لا يدوم

ولما عاد ملك الروم إلى بلاده نزل أتابك إلى حصن عرقه وهو من أعمال
طرابلس فحصره وفتح عنة ونهب ما فيه وأسر حاميته من الأفرنج وخبره
وعاد سالماً غانماً

﴿ محاصرة زنكي دمشق واستيلاء الأفرنج على بانياس ﴾

في سنة ٥٣٤ هـ سار عماد الدين أتابك زنكي في ربيع الأول إلى دمشق فنزل
بالبقاع وأرسل إلى جمال الدين محمد صاحبها يطلب منه تسليم دمشق واختيار أي بلد
بدله فلم يجبه إلى ذلك فرحل وقصد دمشق فنزل على داريا في ثالث عشر
ربيع الأول فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لعسكر زنكي وعاد الدمشقيون
منهزمين وقتل كثير منهم ثم تقدم زنكي إلى الموصل فنزل هناك ولقيه جمع كثير
من جند دمشق فقاتلوه فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف فقتل منهم وأكثر
وأسر كذلك ومن سلم عاد جريحاً وهدد البلد ذلك اليوم بالآخذ وإن يملك لكن
زنكي أمسك عنه عشرة أيام وتابع الرسل إلى صاحب دمشق وبذل له بعابك
وحصن وغيرها مما يختاره من البلاد فقال إلى التسليم فنعاه أصحابه وخوفوه عاقبة
فعلمه فلما لم يسلموا عاد القتال والزحف ثم إن جمال الدين مرض وتوفي ثامن
شعبان فطمع زنكي حينئذ في البلد وزحف عليه زحفاً شديداً ظاناً وقوع الخلاف
بين المتقدمين فبلغ غرضه وكان ما آمله بعيداً وتولى بعد جمال الدين مجير الدين
أبى ولده وتولى ترتيب دولته معين الدين أنز فاحسن التدبير ولما رأى أن زنكي
لا يفارقهم راسل فولك ملك القدس واستدعاه إلى نصرته لدفع زنكي عن
دمشق واعدأ إياه بأنه يحصر بانياس ويسلمها للأفرنج وخوفه من زنكي إذا ملك
دمشق فأيقن بصحة قوله وعلموا أن ملكها لا يبقى لهم معه بالشام مقام فلما سمع
بذلك زنكي سار إلى حوران خامس رمضان عازماً على قتال الأفرنج قبل وصولهم
دمشق ولما سمعت الأفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم ولما رآهم كذلك عاد إلى حصر
دمشق ونزل بعسكراً شمالها سادس شوال وأحرق عدة قرى من المريج والنوطة

ورحل عائداً الى بلاده ثم وصلت الافرنج الى دمشق واجتمعوا بصاحبها فصار معين الدين آنز بعسكره الى قلعة بانياس وهي في طاعة زنكي ليحصرها ويسلمها للافرنج وكان واليها قد سار قبل ذلك منها بأسبوع الى مدينة صور للاغارة عليها فنازلها معين الدين وقتلها وضيق على من بها ومعه طائفة من الافرنج فاستولى عليها وسلمها الى الافرنج فلما سمع بذلك زنكي فرق عساكره للاغارة على حوران وأعمال دمشق وسار هو فنازل دمشق سحراً ولم يعلم به احد من أهلها فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتجت البلاد واجتمع المسكر والعامّة على السور وفتحت الابواب وخرج الجند فقاتلوه فلم يتمكن زنكي من الاقدام في القتال لقلّة جنوده لان عساكره كانت متفرقة ولما اجتمعت عاد بها الى بلاده

﴿ وفاة فولك ملك القدس وتولية ولده بودوين الثالث ﴾

في سنة ٥٣٧ هـ الموافقة سنة ١١٤٢ توفي فولك دي الينو ملك القدس وكانت وفاته في سهل مدينة عكا حيث كان راكباً جواده فسقط عن ظهره عند جماعه فبات وله ولدان أكبرهما اسمه بودوين وعمره ثلاث عشرة سنة والثاني اسمه امورى فاستحق ولده الاكبر الولاية وتسمي بودوين الثالث تحت وصاية والدته ميليسيندا الى ان بلغ الرابعة عشرة سن رشده حسب عادتهم وأصبح بعدئذ بودوين ملكاً حراً

﴿ فتح زنكي مدينة الرها والبلاد الجزرية ﴾

كان صاحب مدينة الرها جوسلين الاول قد توفي فجلس على تختها ولده جوسلين الثاني وكان شجاعاً ما كراً يغير على البلاد الجزرية ويمتلكها فاراد اتابك زنكي محاصرة مدينة الرها ولعلمه بأنه متى قصد حصرها اجتمع فيها الافرنج فيمنعوه ويتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة فاشتغل بمحاربة ديار بكر ليوهم الافرنج انه غير متفرغ لقصد بلادهم فلما رآه جوسلين الثاني مشغولاً بمحاربة ملوك ديار بكر اطمأن على بلاده وفارق مدينة الرها وعبر الفرات الى البلاد الغربية فجاءت عيون اتابك اليه وأخبروه بما كان فنادى في معسكره بالرحيل وان لا يتخلف عن الرها أحد من غداً يومه وسار بالمسار الى ان وصل الى مدينة الرها فحاصرها ونازلها وقتلها ثمانية عشر يوماً بالآلات الحصار التي كان قد أحضرها من حلب وكان معه أبراج خشبية تعلو عن سور المدينة وقدم النقابين فنقبوا سور البلد ولح في القتال

خوفاً من اجتماع الافرنج والمسير اليه واستنقاذ البلد منه فسقطت البدنه التي قتها
النقابون وأخذ البلد عنوة وقهراً وحصر قلعتهما فلكهما أيضاً ونهب الناس الاموال
وتلوا الرجال فلما رأى اتابك البلد أعجبت به ورأى انه لا يجوز تخريب بلد مثلها
فأمر بالمناداة في العساكر برد ما أخذوه من الاسرى من رجال ونساء الى بيوتهم
واعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا جميع ذلك عن آخره ولم يفقد منه
شيء فعادت البلد على حالها الاول وجعل فيها عسكراً يحفظها ثم سار اتابك زنكي
فتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الافرنج شرقي الفرات ما عدا
البيره فانها حصينة منيعة وعلى شاطئ النهر فسار اليها وحصرها وكانوا قد أكثروا
ميرتها ورجالها فبقى على حصارها الى ان وصله خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل
فرحل عنها وأرسل نائباً الى الموصل وأقام ينتظر الخبر يخاف من بالبيره من الفرنج
ان يعود اليهم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً فأرسلوا الى نجم الدين صاحب ماردين
وسلموها اليه فلكها المسلمون

﴿ قتل اتابك عماد الدين زنكي وتولية اولاده ﴾

في سنة ٥٤١ هـ حاصر اتابك زنكي حصن جمبر وهو مطل على الفرات وكان
بيد سالم مالك المقيلي ففي اليوم الخامس من شهر ربيع آخر قتل الشهيد اتابك
عماد الدين زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل وبلاد الشام ومدينة الرها وبلاد
الفرات الشرقية قتله جماعة من ممالكة ليل غيلة وهربوا الى قلعة جمبر فصاحوا على
من بها من أهلها من العسكر يعلمونهم بقتله وأظهروا الفرح فدخل
أصحابه اليه فأدركوه وبه رمق وفاقت نفسه رحمه الله وكان حسن الصورة أسمر
اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان عمره يزيد عن الستين ودفن بالرقه
وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة وكان يمنع القوى من ظلم
الضعيف محباً لعمار البلاد وكان أشجع خالق الله ورائه الحكيم ابي الحكم المغربي
بقصيدة منها

عين لا تدخري المدامع وابكي واستهلي دمعاً على فقيد زنكي
لم يهب شيخه الردى بعد ان كانت له هيبة على كل تركي
خير ملك ذي هبة وبهاء وعظيم بين الانام بزرک
يحب المال والحياد لمن يسمه مادحاً بغير تلکي
أي فلك جرى له في الاعادي بعد ما استفتح الرها أي فلك

بعد ما كاد ان تدين له الروم ويحوي البلاد من غير شك وخلف من الاولاد سيف الدين غازي ونور الدين محمود الملك العادل وقطب الدين مودود وهو ابو الملوك ونصرة الدين أمير أميران وبتناً وبعد وفاته أخذ خاتمه من يده نور الدين محمود الملك العادل وكان حاضراً معه وسار الى حلب فملكها وكان ذلك بإشارة أسد الدين شيركوه وكان حينئذ يتولى ديوان زنكي ويحكم في دولته جمال الدين محمد بن علي وهو المنفرد بالحكم ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الباغي سياني فاتفقا على حفظ الدولة وكان مع الشهيد أتابك الملك الب أرسلان ابن الساططان مسعود فسيره الى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه وقال لهم ان وصل أخي سيف الدين غازي الى الموصل فهي له وأنتم في خدمته وان تأخر فانا أقرر أمور الشام وأوجه اليكم وكان سيف الدين غازي بناحية شهرزور وهي اقطاعه من أبيه وساعده على ذلك جمال الدين واستقر أمر سيف الدين غازي بالموصل وجعل جمال الدين وزيره وأرسلوا الى الساططان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين خاف له وأقره على البلاد وأرسل له الخاتم وكان سيف الدين هذا قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه وكان السلطان يحبه ولذلك لم يتوقف في تقرير اليه له

﴿ عصيان أهل الرها واستيلاء نور الدين عليها ﴾

لما قتل أتابك زنكي كان جوسلين الثاني صاحب الرها بناحية تل بامر وما يجاورها من ولايته فراسل أهلها وعامتهم وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد اليه فاجابوه الى ذلك وواعدتهم على يوم يصل اليهم فيه وسار في عساكره الى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم وأرسل الى جميع الصليبيين بالشام يستنجدهم على المسلمين فبلغ الخبر الى نور الدين محمود بن زنكي وهو بحلب فسار مجداً اليها في عسكره فلما قاربها خاف منه جوسلين خصوصاً لعدم ورود احد من الافرنج لنجده فخرج هارباً عائداً الى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبي أهلها ففي هذه الدفعة نهب وخت من أهلها ولم يبق بها منهم الا القليل وكان ذلك في سنة ٥٤١ هـ وكان قد بلغ خبر عصيانها الى سيف الدين غازي بن الشهيد أتابك زنكي فسير اليها العساكر وفي أثناء سيرهم اليها بلغهم خبر استيلاء الملك العادل نور الدين عليها فمادوا

﴿ ابتداء الحروب الصليبية الثانية ﴾

﴿ طلب الصليبيين النجدة من البابا ومن ملوك أوروبا ﴾

في سنة ٥٤٢ هـ فتح الملك العادل نور الدين (ارتاج) بالسيف (وحصن باراه وبصر فوت وكفر لاثا) وأخذها من الأفرنج الذين كانوا قد طمعوا فظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردون ما أخذ منهم فلما رأوا قوة وبطش نور الدين علموا أن ما أملوه بعيد وخافوا منه أن يأخذ جميع بلادهم فلذلك اجتمعت رؤساءهم في مدينة القدس وقرروا طلب الإعانة والنجدة من البابا ومن ملوك أوروبا جميعاً ثم أرسلوا وفداً إلى البابا أوجانيوس الثالث الذي كان مقيماً في مدينة فيتاريو ولما وصل إليه الوفد وقابله فأعلمه بما جرى على المسيحيين بالشام وأن نور الدين إذا دام على قتالهم أفناهم خصوصاً استيلاء المسلمين على مدينة الرها تلك المدينة عظيمة القدر عندهم فبكى البابا وتذكر ما فعله سلفه البابا أوربانوس الثاني وبما فاز به من ثمرة أعماله فشرع في تحرير الرسائل إلى ملوك أوروبا مملوءة بالتحريض والاستحلاف بأن ينهضوا لأجل نجدة أخوتهم المسيحيين الذين في المشرق ويخص بالتحريض ملك فرنسا لويس السابع وكذلك أرسل إلى القديس برنردوس معلمه رئيس دير كلارفوكس كامبروسوس وأعلمهم بأن مدينة القدس في خطر من سيوف المسلمين فلما وردت رسالة البابا على الملك لويس السابع ملك فرنسا عقد جمعية في مدينة بورغاس من الرؤساء الكنائسيين ومن أشرف المملكة وأبلغهم اعتياده على الحرب المقدسة ثم أنه عمل بمشورة القديس برنردوس فأرسل وفداً إلى روميه لمقابلة البابا الذي قابله بمسرة ودعا للملك لويس بالنصر وأرسل منشوراً رسولياً إلى المسيحيين جميعهم يحرضهم فيه ويمنحهم الانعامات والاختصاصات جميعها الممنوحة من سلفه أوربانوس الثاني للصليبيين. الأولين وقد أناب عنه معلمه القديس برنردوس فأقامه رئيساً رسولياً للجيش الصليبية وفوض إليه دعوة جميع المسيحيين إلى هذه الحرب المقدسة

﴿ جمعية فينزالاي بفرنسا ﴾

أمر الملك لويس بجمع جمعية أخرى في مدينة (فينزالاي) الصغيرة من إقليم بورغونيا تحت رياسته ورئاسة القديس برنردوس وحضر هذه الجمعية عسدد عظيم من الكليروس والأشراف والرجال من كل سن ورتبة وكان اجتماع هذه الجمعية

في يوم حد الشعانين في سنة ١١٤٦ ميلاديه موافقة سنة ٤١ هـ هجريه امام باب
المدينة المذكوره وهناك ظهر الملك بالزينة الماسكه وبرزدوس بثوبه الرهباني وجلسا
فوق تخت نصب لهذه الغاية ثم انه وقف برزدوس وقرأ بصوت عال المنشور
البابوي وأخبر الشعوب بسقوط اماره الرها بيد المسلمين فشمّل الحاضرين الكدر
وسلوا سيوفهم واعتمدوا على الحرب ولاجل أن يوطدهم على هذه العزم
ويحميهم بالغيرة الدينية خطب فيهم الخطبة الآتية بحروفها قائلًا (أيها السامعون
أقوالي لاتتمسوا بعد الآن بالتهند والدموع صلاحي الله التماساً باطلا ولا تلبسوا
المسوح بل تدرعوا بالاسلحه التي تغلب فقمعه آلات الحرب واضامات السفر
والمشقات والاضرار الزمنية ومعركت الحرب اناهي اعمال التوبة التي يرسمها الله
عاليكم فاذهبوا افدوا خطاياكم بالانتصار واستخلاصكم الاماكن المقدسة من الاخطار
الملمه بها هو ثمن ندامتكم وتوبتكم عن زلاتكم فلواتاكم مخبر قائلًا لكم ان الاعداء
قد استولوا على مدينتكم أو حصونكم أو اراضيكم واختطفوا نسائكم وبناتكم
للسبي ودنسوا معابدكم فمن منكم عند هذا السماع لا يركض متنبلاً لاساخته للمحاربة
فهذه المصائب كلها احقت باخوتكم وشروع اعظم منها مزمنة أن تحل على الآخرين
أيضاً من اخوتكم عليه يسوع المسيح التي هي عيلتكم فاي شيء اذاً انتم تنظرون
لكي تصلحوا هذا المقدار العظيم من الشرور ولكي تنتقموا عن اهانات مثل هذه
كلية الانواع فحينما الرب يستدعيكم الى حماية ميراثه افهل تظنون ان ذراعه الالهي
افحي الآن اقل قوة من ذي قبل واضعف اقتداراً مما سلف أو انه تعالى لا يستطيع
أن يرسل اثني عشر طغمة من الملائكة او يقول كلمة واحدة بها يكرس اعداءه الى
التراب وانتم ايها النبلاء الشرفاء المحامون عن الصليب المقدس تذكروا نموذجات
ابائكم الذين استنقذوا اورشليم من العبودية واسماهم مكتوبة في السماء فاهملوا
نظيرهم الخيرات البايده لكم تأخذوا رايات الغلبة العديمة الفساد وتكتسبوا ملكاً
عديم النهاية) . اهـ

فصرخوا جميعاً قائلين . الله يريد هذا . الله يريد هذا . وقد أثرت فيهم هذه
الخطبة كما أثرت خطبة البابا أوربانوس الثاني في مؤتمر كلارمون . ثم انطرح الملك
لويس على اقدام هذا القديس ملتصقاً منه صليب الحرب وقد حرض جميع رعاياه
الفرساويين على اتباع اثره فيها وكذلك زوجته (اليونوره) فانها استلمت صليب
حرب فاتبعتها كونت دي سان جيلاس وطولوز . وانريكو بن طيو كونت

دي شامبانيا وتيادي كونت دي فلاندرو وغليوم دي نافارورانود كونت دي طوتار وانياس كونت دي سواسون وارشامبود دي بوربون وهو كوز دي لوزنيان ثم الكونت دي دروكس أخو السلطان والكونت دي بوريان عمه واساقفة نويون ولانكراس . وأراس وليزيو وآخرون كثيرون من الرؤساء الكنائسيين على محاربة المسلمين وفرح القديس برزدوس من تنويع أعماله بالنجاح وصار يتنقل في مملكة فرنسا من مدينة الى أخرى محرضاً على الحروب الصليبية في مدينة شارتراس تجمعت العساكر والاشراف وطلبوا منه أن يكون قائدهم في الحرب ولما تفكر هذا القديس ماجري لبطرس السائح رفض طلبهم هذا وخوفه ان يلزموه بذلك حرر رسالة الى البابا أوجانيوس يناشده بان يعفيه من ذلك فاتاه الجواب حسب مرغوبه

﴿ تحريض الملك كونراد ملك المانيا باتحاده مع الصليبيين ﴾

ثم ان القديس برزدوس المذكور سافر من مملكة فرنسا قاصداً مملكة النمسا يتجول في كل اقليم منادياً بالحروب الصليبية ثم سار الى سيبيريا الالمانية وكان منعقداً هناك مجلس عام للمملكة باصر الملك كونراد الثالث فدخل القديس الكنيسة التي بها الملك وعظماء دولته وشرع بتقديم الذبيحة الالهية ثم ابتداءً في القداس وصور المسيح حاضراً والصليب في يده مخاطب الملك كونراد بتوبيخ صارم على قنوره فحجل الملك وأقسم بان يلبس ثوب الصليبيين منادياً بالحرب المقدسة وكذلك اشرف المملكة ثم اجتمعت جمعية من الرؤساء الكنائسيين في مدينة (راتيسبون) فقرروا قبول الرسائل المحررة لهم من القديس برزدوس بالتحريض على الحروب الصليبية المقدسة وكان من هؤلاء اساقفة ياصاف وراتيسبون وفريزيجان ومن العظماء لاديسلاس دوك دي بوهومبا واوداكر أمير ستريا وراناد كونت دي كارينتينيا وفريدريكوس نسيب الملك كونراد اما القديس برزدوس فانه عاد من المانيا الى بلاد فرنسا

﴿ جمعية مدينة اتامبيس بفرنسا والاستعداد لسفر الصليبيين ﴾

لما عقد ملك فرنسا الانية على السفر أمر باجتماع جمعية المملكة العامة في اتامبيس في شهر فبراير سنة ١١٤٧ لانتخاب نائباً عنه يدير امور المملكة في غيابه فانتخبوا الانبا سوجار رئيس كنيسة القديس ديونيسيوس فرفض سوجار قبول هذه الوظيفة ولكن طاعته للاوامر الباباوية والملوكية الزمته بقبولها ثم انه حضر هذه الجمعية

رسل من الملك روجار ملك بوليا وسيسيليا واعدين بان يرسلوا الى الصليبيين
مراكب بحرية مع الذخيرة والمؤن وان ابن الملك يذهب معهم في المراكب الى
الاراضي المقدسة وبناء على هذه المواعيد قرروا بعد تردد السفر براً
﴿ سفر الصليبيين واجتماعهم بالقسطنطينية ﴾

ثم ارسل القديس برنردوس الاوامر فكانت تعلق في المدين على الجدران
وتتلى فوق المنابر بالكنائس بخصوص السفر فاجتمع امير مونت فارّات والكونت
دي مورياما خال لويس السابع وجها العساكر الصليبية واجتازا بهم الجبال الالية
وحدود رونا ولومبارديا ونيومونت وكذلك الصليبيون الانكليز فانهم نزلوا في
المراكب من مينامايكا وساروا قاصدين الشرق واما العساكر الفرنساوية فكان
موعد اجتماعهم بمدينة مايطنس والعساكر الالمانية والنساوية بمدينة راتيسبون
وقد نزل الملك كونراد بعساكره في المراكب النهرية مجتازاً نهر الدانوب ذاهباً الى
مدينة راتيسبون لاجل تتويج ابنه بتسمية سلطان الرومانيين وترك تدبير المملكة في غيابه
الى الانبا كوربي وسار قسم من عساكره في البر لابساً الخوذات مزينة بريش
النعام والزررد بالحديد اللامع ومدحجون بالاسلحة الذهبية

وأما الملك لويس السابع فانه قبل سفره توجه الى كنيسة القديس ديونيسيوس
ليستلم السنجق الشايح الصيت الذي كان ملوك فرانسيس يسيرونه مرفوعاً امامهم في
ذهابهم الى الحروب وكان البابا أوجانيوس الثالث قد حضر الى فرانسيس وحضر
الاحتفال ويده سلم الملك لويس السنجق القديم مع دبوس وغداره علامة لسفره في
الحرب المقدسة ثم ودع سوجار وأوصاه بالمملكة وسار هو وزوجته وفريق من
بلاطه من باريس متوجهاً نحو مدينة مايطنس حيث اجتمع بعساكره ثم سار منها الى
بلاد المانيا ومنها قاصداً القسطنطينية المحل المعين لاجتماع جميع الصليبيين تحت سناجق
الحرب المقدسة لينطلقوا منها الى مقابلة الاخطار العظيمة وطاب الانتصار

﴿ اخبار الصليبيين في القسطنطينية ﴾

كان جالساً في ذلك الزمان على تخت مملكة الروم التي عاصمتها القسطنطينية الملك عمانوئيل
الشاب ابن الملك اليكسيوس الاول وأخو الملك يوحنا السابق ذكره فجاءته أخبار
ورود العساكر الصليبية الثانية يخاف منهم على مملكته وليس له قوة على ممانعتهم
ثم وصل الملك كونراد ملك المانيا والنسا بعساكره وجميع من تبعه من الصليبيين

فأخذ عمانويل كل الطرق والحيل لمنعه فحصل بينهما خصام أفضى إلى الحرب فكانت
الحاربة بين مدينة نيكوبولي ومدينة ادرينوبولي ثم دارت المحاربة بينهما بواسطة
معتمدين من الجهتين ولكن خوف الملك عمانويل من الصليبيين وكدر كوزراد من
خيانة الروم جعلت المحاربة بدون فائدة إلى أن عقد الصلح فأخذ ملك
الروم يتدبر حيلة يهلك بها عساكر الصليبيين فأمر بخياط الدقيق المطحون وغشه
بالكلس الأبيض ليبيع إلى الصليبيين ثم ضرب نقوداً مغشوشة تشبه الذهب والفضة
وأمر أن يشتري بها من عساكر كوزراد جميع ما يرغبون ببعه أما الملك كوزراد
وعساكره فأنهم كانوا ناصيين خيائهم في سهول (ساليفريا) بالقرب من القسطنطينية
فهبت عواصف شديدة وأعقبها أمطار غزيرة فجرت المياه من الجبال على المعسكر
حتى غرقت خيامهم وامتعتهم ورحلوا قاصدين أراضي آسيا

ثم وردت الأخبار إلى الملك عمانويل بقسودوم الملك لويس السابع ملك فرنسا
نخرج للملاقاة وفد من عند ملك الروم وقد وادوا له الاحترام اللائق بمقامه فتوجه
معه إلى قصر الملك بالقسطنطينية ثم تبعه قواده وكان ملك الروم يقدم كل يوم
للصليبيين عهوداً وموائيق في الظاهر ويرسل إلى ملك ايقونية ببلاد الاسلام
يخبره عليهم مبيناً له نوايا الصليبيين وأنهم قادرون لاخذ باقي البلاد من المسلمين
فשמعوا بذلك فقرر مجلس شوراهم بأن البلاد التي يملكونها وتكون من مملكة الروم
لا يساموها إلى ذلك الملك ولكثرة خوف الملك عمانويل من الصليبيين ومن
اقامتهم ببلاده أشاع في مدينته بأن الصليبيين الذين بصحبة الملك كوزراد قد انتصروا
على المسلمين فاتبعاً لهذه الاشاعة الكاذبة فرح الصليبيون وأمرؤا جيشهم بالمسير
حالا لمشاركة اخوانهم ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى بحيرة اسكانوس بقرب مدينة نيقية
وأناء اقامتهم هناك انكسفت الشمس فتشاءموا وخافوا واتفق أن خوفهم هذا صادف
مجهله لأنه وردت لهم الأخبار بأن الملك كوزراد وعساكره كسروهم المسلمون شركسة

﴿ مسير العساكر النمساوية والالمانية ﴾

وكان الملك كوزراد ومن معه من الصليبيين قد استصحب من الروم من يده
على الطريق في بلاد آسيا فسار الروم أمامهم وأرادوا توصيلهم من نيقية إلى
ايقونيا فساروا بهم في الجبال بغسر الطريق الحقيقي حتى فرغ ما معهم من الزاد
وحيث علمت الأفرنج بأن الروم قد خانوهم ومكروا بهم وأضلواهم بطريق وعرة

المسلوك بدون زاد ولا ماء ففر الروم وتركوهم عند جبل طاوروس فسار الافرنج بعد ذلك ثلاثة ايام بحال يرثى لها من التعب والمشقات وعدم الاكل والشرب فظلمت عليهم العساكر الاسلامية وكانوا كامنين لهم بالجيل وانقضوا عليهم كالصواعق من كل ناحية فاحتارت العساكر الصليبية وهي لا تقدر لا على الرجوع ولا على التقدم وبعد قتل أكثرهم هرب الملك كونراد وتبعه باقي عساكره ومن سلم من الصليبيين الاخر الى مدينة نيقية فنبههم المسلمون وقتلوا معظمهم وهم منهزمون ولما وصلوا الى مدينة نيقية قابلهم الملك لويس ملك فرنسا بجيشه ثم جددا التحالف بمحاربة المسلمين ولكون الملك كونراد لم يكن له قوة بالمسير بحجة ملك فرنسا فرجع الى القسطنطينية وطلب من ملك الروم مساعدته بمراكبه الى القدس كما يأتي

﴿ سفر العساكر الفرنسية ﴾

سار الملك لويس بعسكره حتى بلغ أراضي برغاما وازمير حيث وردت اليه رسل ملك الروم فلم يلتفت اليهم وسار بعسكره نحو المشرق وضرب خيامه في واد بالقرب من كابسترا (وهو الآن وادي الغزلان) واحتفلوا هناك بعيد ميلاد المسيح ثم ساروا بطريق اللاذقية الى ان بلغوا فم نهر ليكوس وهناك أرادت العساكر الاسلامية منعهم من عبور النهر ولكن الملك لويس شجع عساكره ورتبهم وسار بهم بدون مبالاة الى ان وجدوا سهلا فيه اجتياز النهر فدفعوا أنفسهم برئاسة الكونت انريكوس وتادوريكوس فعبروا النهر وكذلك اجتاز النهر الملك لويس وهجموا على العساكر الاسلامية فانهمزموها من امامهم وسمع بذلك اهل اللاذقية القريبة من محل الواقعة فخافوا وأخلو المدينة ثم سار الملك لويس وعسكره الى ان وصل الى مدينة ساطاليا مجتازين في طرقات جبل كادموس مع جبال آخر مخيفه (التي سموها جبال اللعنه) وهناك وجدوا العساكر الاسلامية واقفة لهم بالمرصاد فخاف الملك لويس وارسل قسما من عسكره تحت رئاسة عمه كونت دي موريانا مع جوفرو دي رنكوت فاغتنمت العساكر الاسلامية فرصة انقسام الصليبيين وانقضوا على الباقيين في الجبل بصرخات مهيلة ورموهم بالنبال فالتجأوا الى قمة جبل تحتمها واد عميق فضايقتهم العساكر الاسلامية وأخذوا يقتلونهم ويكردسونهم في هذا الوادي

أما الملك لويس وباقي عسكره فانه هجم على الاسلام وسير جيشه أمامه

فهاجمت عليه العساكر الاسلاميه وفرقت بين جيشه وبين فرسانه وأوقعوا بهم
فقر الملك لويس من هذه الموقعة ولحق بمن نجا من جيشه وساروا الى ان
وصلوا الى سور مدينة ساطاليا عند قم نهر جانيوس وعند مشاهدتهم هذه المدينة
ظنوا بانهم سيحتلونها فيها لعلمهم بانها تابعة لملك الروم ولكن املهم خاب فوالى
المدينة الرومي أمر بفتحها في وجوههم مع انهم كانوا في غاية الشدة والجوع
ووجدوا أنفسهم ملتزمين بالاستمرار على المسير في البراري وأخيراً طلبوا منه ان
يرسل لهم مراكبه ليسيروا بها الى انطاكية فامر لهم بالمراكب ولما وجدوها غير
كافية لحملهم انقسموا قسمين قسم ركب البحر ومعه الملك لويس وقسم سار في البر
تحت رياسة كونت دي فلاندر وارشامبود دي بوربون ودفع الملك لويس الى والى
ساطاليا خمسين وزنة من الفضة ليوصل العساكر المسافرة برأ الى طرسوس ولكن
هذا والى أهملهم ولم يرسل أحداً يدهم على الطريق السهل وسار الملك لويس
بحراً الى ان وصل انطاكية فخرج راييموند دي بوانيارس صاحبها وقابل الملك
بالاحتفال والاكرام وقد فرح به وطلب الاشتراك معه في الحرب وقال له الافضل
أن نحارب مدينتي حلب وقيساريه لان امتلاكهما يوطد الامان لجميع الصليبيين
ويضعف قوة نور الدين ولكن ملك فرنسا وقواده رفضوا هذا الطلب وقالوا لا
نحارب الا بعد زيارة القدس ثم بعد اقامته بانطاكية أياماً قليلة عزم على المسير الى
القدس فسار هو وقواده الى ان وصلوها فخرج بودوين الثالث ملكها مع الاكليروس
والامراء والشعوب حاملين أغصان الزيتون فدخل المدينة بين هتاف وتهليل
وذلك سنة ١١٤٧ الموافق سنة ٥٤٢ هـ وأقام بها الى ان وصل الملك كونراد ملك
النمسا والمانيا فتوجهوا الى كنيسة القيامة فشكروا الله على نجاحهما

﴿ المشورة بالحروب الصليبية الثانية ﴾

بعد اقامة الملوك الصليبيين بالقدس عقد بودوين الثالث ملك القدس مجلساً
للمشورة على محاربة الاسلام حضره الملكان المذكوران واعضاء مملكة القدس
والرؤساء الكنائسيون وكان ذلك المجلس بمدينة عكا فقرروا محاصرة مدينة دمشق
الشام ظانين بانهم اذا فازوا بهذه المدينة وامتلكوها واياها المحضة لم يسبق عليهم خوف
من حروب جديدة تضايقهم فيها المسلمون وتصبح مدينة القدس محمية بدمشق وفي
شهر مايو سنة ١١٤٨ سار كل من الملك كونراد ملك النمسا والمانيا والملك لويس

السابع ملك فرنسا والملك بودوين الثالث ملك القدس بجميع عساكرهم وكذلك
 رهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان ورهبان جمعية الهيكلين مقدمين أمامهم
 البطريرك حاملاً الصليب الخلاصي الحقيقي وساروا إلى أن وصلوا إلى سهل مدينة دمشق
 ﴿ محاصرة الصليبيين مدينة دمشق ﴾

في سنة ٥٤٣ هجرية حاصر الصليبيون مدينة دمشق وفيها صاحبها مجير الدين
 أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين وليس له من الأمر شيء وإنما كان الأمر إلى مملوك
 جده طغتكين وهو معين الدين أنز فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر وكان عاقلاً
 ديناً خيراً حسن السيرة فجمع العسكر وحفظ البلد وحصرهم الصليبيون فزحفوا
 إليهم سادس ربيع أول فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم وكان في من خرج الشيخ
 حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي شيخ السادة المالكية
 بدمشق وكان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً خرج راجلاً فرآه معين الدين فقصدته وسلم
 عليه وقال له يا شيخ انت معذور ونحن نكفيك وليس بك قوة على القتال فقال قد
 بعث واشترى فلا تقيه ولا نستقيه يعني قول الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين
 أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) الآية وتقدم وخرج معه أيضاً الشيخ الزاهد عبد الرحمن
 الحاء حول فقاتلا حتى قتلا رجمهما الله وقوى أمر الصليبيين وتقدموا وضعف أهل
 البلد عن ردهم وتقدم الملك كوزاد فنزل بالميدان الاخصر فايقن الناس بأنه يملك
 البلد وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي يستعيث به
 ويستنجده فجمع عساكره وسار إلى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من
 حلب فنزلوا بمدينة حمص وأرسل إلى معين الدين يقول له قد حضرت ومعي كل من
 يحمل السلاح من بلادي فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لاحضر والقي الأفرنج
 فإن انهزمت دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا به وإن ظفرنا فالبلد لكم لأننا زعمكم
 فيه فأرسل معين الدين إلى الصليبيين يهددهم أن لم يرحلوا عن البلد وكان قد حصل
 بينهم انقسام لأنهم ظنوا امتلاك المدينة فتشاحنوا على من يكون ملكها فلما سمعوا
 بمجيء سيف الدين ضعف قلوبهم وأرسل إليهم معين الدين يهددهم ويقول لهم إن ملك
 المشرق قد حضر فإن رحتم وإلا سلمت البلد إليه وحينئذ تندمون وأرسل أيضاً إلى
 أفرنج الشام يقول لهم باي عقل تساعدون هؤلاء الصليبيين الغرباء علينا وأنتم تعلمون
 أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية وأما أنا فإن رأيت

الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام فاجابوه الى التخلي عن الصليبيين وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم فاجتمع الملك بودوين وأرباب مملكته بالملك كونراد والملك لويس وخوفوهم من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد اليه وانه ربما أخذ دمشق ونضمف عن مقاومته فباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم وزال عنهم روعهم وتينوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام وفي الغد أحاطوا بهم في مخبئهم وقد تحصنوا بأشجار البساتين فاحجم الافرنج عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد وظن المسلمون انهم يدبرون مكيدة أو حيلة ولم يظهر منهم الا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفا من المهاجمة الى ان يجدوا لحقتهم مجالا وليس يدنوا منهم أحد الا صرع برشقة أو طغنة وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الاحداث وجملوا يقصدونهم في المسالك فيقتلون من ظفروا به ويحضررون رؤسهم لطلب الجوائز عاينها فرحلوا في سحر يوم الاربعاء عشرة ربيع الاول فبعد رحيلهم عن دمشق أشار بعض المقدمين بحصار مدينة عسقلان ولكن جميع الصليبيين ضعفت قلوبهم وذهبت شجاعتهم ولذلك رفضوا هذه الشورة وعاد كل منهم الى بلاده

﴿ استيلاء نور الدين على حصن العزيمة ﴾

بعد رحيل الصليبيين عن دمشق سار معين الدين انزالي بعلمك وأرسل الى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله ان يحضر اليه فاجتمعا فوصاهما كتاب القمص يوانص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العزيمة واخذه ممن فيه من الافرنج وكان سبب ذلك ان ابن الملك روجار صاحب صقلية خرج مع الملك كونراد ملك ألمانيا الى الشام وتغاب على الحصن المذكور واخذه من القمص وأظهر له انه يريد أخذ طرابلس أيضاً وكان روجار صاحب صقلية قد غزا افريقيه وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى ابنه على حصن العزيمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده فسارا اليه مجدين فصباحا وكتبوا الى سيف الدين يستنجدها ويطلبان منه المدد فامدهما فحصروا الحصن ونقبوا السور فاذعن الافرنج واستسلموا والقوا بأيديهم فملك المسلمون الحصن وأخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن روجار واخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين وعاد نور الدين الى حلب ومعه ابن روجار وأمه ومن أسر معهم وعاد معين الدين الى دمشق

﴿ انهزام الافرنج بيغرى ﴾

في سنة ٤٣ هـ أيضاً هزم نور الدين محمود بن زنكي الافرنج بمكان اسمه يغرى من أرض الشام وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليفيروا عليها بقيادة رايوند صاحب انطاكية فلم نور الدين فصار اليهم في عسكره فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتلاً شديداً فانهزم الافرنج وقتل كثير منهم وأسروا جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع الا القليل وأرسل من الغنيمة والأسرى الى أخيه سيف الدين والى الخليفة بيغداد والى السلطان مسعود وفي هذه الواقعة يقول ابن القيسراني بقصيدته التي أولها

يأليت ان الصد مصدود أولاً فليت النوم مردود
ومنها في ذكر نور الدين

وكيف لا يثنى على عيشنا السمح محمود والسلطان محمود
وصارم الاسلام لا ينثي الا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة الا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها عند ملوك الكفر مشهود

﴿ قتل رايون صاحب انطاكية ﴾

في صفر سنة ٤٤ هـ سار نور الدين بعساكره الى حصن حارم وهو الافرنج فحصره وخرب ربهضه ونهب سواده ثم رحل عنه الى حصن آنب فحصره فاجتمعت الافرنج مع رايوند صاحب انطاكية وساروا اليه ليرحلوه عن آنب فلم يرحل بل لقيهم واتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس واجملت الحرب عن هزيمة الافرنج وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً وقتل أيضاً رايوند صاحب انطاكية ثم تخلف بعده على انطاكية ولده الصغير المدعو بوهيموند فتزوجت أمه قسطناسا رانود

دي شاتيلون احد الافرنج ليدبر شؤون البلد الى ان يبلغ ولدها ويستلم الحكم ثم سار نور الدين الى حصن فاميه وهو الافرنج أيضاً وقريب من مدينة حماه وهو حصن منيع على تل مرتفع من أحسن القلاع وأمنعها وكان من فيه من الافرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبونها فكان اهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار فصار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ومنع من فيه عن

الفرار ليسلاً ونهاراً وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة فاجتمعت الافرنج من سائر بلادهم وساروا نحوه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا اليه الا وقد ملك الحصن وملاؤه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوه هم خفين رأوا جده في لقاهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وصالحوه على ما أخذوه

﴿ وفاة الحافظ لدين الله خليفة مصر وولاية الظافر بامر الله ﴾

في اليوم الخامس من شهر جمادي الآخر سنة ٤٤٤ هـ توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد بن الامير أبي القاسم العلوي بمصر بعلة القولنج وكان كثير الاصابة بها فعمل له موسى النصراني طبيل القولنج وهو عبارة عن طبيل مركب من سبعة معادن عليه الكواكب السبعة وكان من خاصته ان الانسان اذا ضربه يخرج الريح من مخرجه وهذه الخاصة كان ينفع في القولنج وكان سن الحافظ عند وفاته ثمانين سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و ٧ أشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائه مكتفياً بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديه من السلطة السياسية الا الامضاء على الاوامر في تثبيت الاسراء على اماراتهم شأن الدول عند قرب انحلال ملكها الا ان تغيير الوزراء جعل فيه بعض الاهتمام في الاحكام واستخلف ابنه اسماعيل أبا المنصور فبويع له ولقب بالظافر بامر الله ولكن هذا الاسم لم ينطبق على المسمى وكان سنه ١٧ سنة وهو أصغر أولاد أبيه سنّاً وكان كثير اللهو والتفرد بالجواري واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في قصره الآيلة الى خراب مملكته بعين المتردد المتأمل وبمثل ذلك كان ينظر الى تهديد جنود الملك روجار صاحب سيسليا بعد استيلاءه على أكثر بلاد المغرب ولولا لطف الله ووقوع الخلاف بين ملك سيسليا المذكور والملك عمانويل ملك الروم وحصول الحرب بينهما وموت جورجى وزير روجار بعد اصابته بمرض البواسير والحصا لكان حاصر مصر

﴿ اسير جوسلين ﴾

في سنة ٤٤٥ هـ سار نور الدين الى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمال حلب منها تل باشر • وعين تاب • وعزاز • وغيرها من الحصون فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم وبقي نور الدين فكان بينهما حرب شديدة انجلت عن انهزام

المسلمين وظفر الفرنج وأخذ جوسلين سلاح دار نور الدين أسيراً وأخذ ما معه من السلاح فأرسله الى السلطان مسعود بن قليج ارسلان صاحب قونية وكان نور الدين قد تزوج ابنته وأرسل مع السلاح اليه يقول قد أفذت لك بسلاح صهرك وسياتيك بعد هذا غيره فعمظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين وعلم ان هو جمع المساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الافرنج وحذر وامتنع فأحضر نور الدين جماعة من التركان وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والاموال ان هم ظفروا بجوسلين اما قتلا واما اسراً فاتفق ان جوسلين خرج من عسكره وأغار على طائفة من التركان فذهب وسبي فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فما جله التركان فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً فصانهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه وأجابوه الى ذلك وأخذوا امره عن نور الدين فأرسل جوسلين في احضار المال فأتى بعض التركان الى نائب نور الدين بحلب فأعلمه بما كان فسير معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركان قهراً وكان نور الدين حينئذ بمحمص وفرح المسلمون لاسره وعمظمت المصيبة على الافرنج وخأت بلادهم من حاميها وسهل أمرهم على المسلمين بعده وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على عين ولا يفي بعهده وطالما صالحه نور الدين وهادنه فاذا آمن جانبه باليهود والمواثيق نكث وغدر فلقية غدره وحق به مكره وبمده اسره ففتح كثيراً من بلادهم وقلاعهم فنهبا عين تاب . وعزاز . وفورس . والراوندون وحصن البان وتل خالد وكفر لانا وكفر سوب وحصن نسرفوب بجبل بني عليم ودلوك ومرعش ونهر الجوز وبرج الرصاص وكان نور الدين اذا فتح حصناً لا يرسل عنه حتى يملاؤه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للافرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة الى شيء

﴿ قتل ابن السلار وزير الخليفة الظافر ووزارة عباس ﴾

في شهر محرم سنة ٤٨٠ هـ قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله الخليفة العلوي بمصر قتله ربيبه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي أشار اليه بذلك الامير اسامه بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فأمر ولده نصراً فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولي الوزارة بعده ربيبه عباس وكان عباس قد قدم من المغرب الى مصر فتزوج بن السلار بامه واحبه وأحسن تربيته فجازاه

بان قتله وولي بعده وكانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب
والوزراء كالمتملكين

﴿ أملاك الصليبيين مدينة عسقلان ﴾

كانت مدينة عسقلان تابعة للديار المصرية وكان الوزراء في كل سنة يرسلون اليها من
الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها وكانت حصينة منيعة وطالما
حاربها الافرنج وارتدوا عنها خائبين وفي سنة ٥٤٨ هـ لما علم بودوين الثالث ملك
القدس ما حصل بمصر من اختلاف الوزراء انهز الفرصة وراسل جميع الافرنج
المقيمين بالشام بمساعدته وسار من القدس وصحبه افرنج الشام ورهبان جمعية الهيكلين
ورهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان الى ان وصل الى اسوار مدينة عسقلان
من البر وحصرها وكان سير اليها خمسة عشر مركباً في البحر برئاسة جيران صاحب
صيدا وحاصرها بحراً ثم تصادف ورود جموع من الصليبيين لمساعدة الافرنج
وكذلك ورود مراكب أوروبا وبأويه فانضافوا الى العمارة البحرية تحت رئاسة جيران
المذكور وكان مع بودوين برج كبير من الحشب اعلى من اسوار المدينة مركب
على دواليب سهل النقل وركبوا منجانيقات وكبوشاً ونازلوا المدينة وأخذوا
يقاتلونهم ويرمونهم بالمنجنيقات وكذلك اهل عسقلان يرمونهم بالنبال والمنجانيقات
حتى اشرفوا على الهلاك من داخل المدينة ثم وردت عمارة مصرية لنجدة المدينة
فاستبشر أهلها وقويت نفوسهم واشتدوا في القتال فرموا على الاخشاب الحربية التي
مع الصليبيين ناراً من أعلى السور فانقضت بسرعة عظيمة ولكن الريح
عكست النار فارمتها على سور المدينة فظلت مشتعلة اربعا وعشرين ساعة حتى وقع
من السور جزء فانفتح مجال للصليبيين يدخلون منه المدينة وكان بالقرب من هذه
الجهة رهبان جمعية الهيكلين الذين طلبوا الدخول الى المدينة وحدهم وامتلاكها ولما
دخلوا من هذا الجزء المهذوم وحدهم المسلمون قليلين فانقضوا عليهم وقتلوهم فهرب
باقيهم الى خارج السور فانكسرت قلوب الافرنج ثم ان المسلمين أخذوا يقاتلون
بشدة ولما وجدوا عجزهم عن المقاومة ارسلوا الى بودوين بتسليم المدينة بشرط ان
يخرجوا سالمين بعائلاتهم وامتعتهم فاجابهم الى ذلك وأعطاهم ميعاداً ثلاثة أيام وبعدها
سلموا المدينة اليهم وخرجوا منها سالمين وكانت مدة الحصار خمسة اشهر

﴿ استيلاء نور الدين على مدينة دمشق ﴾

بينما كان الافرنج محاصرين عسقلان كما تقدم كان نور الدين يتلهف ولا يقدر على الوصول الى عسقلان لنجدة اهلها وكان السبب في ذلك ان عسقلان واقعه بين بلاد مصر وبلاد الافرنج ومدينة دمشق وكان بدمشق مجير الدين فلما علم الافرنج ضعفه صاروا يغيرون عليه ويهيمون الاهالي حتى جعلوا على المدينة اثاوة سنوية يأخذونها فاندلك لم يتمكن نور الدين من العبور منها فعزم ان يستولى عليها وقال اما احق بحمايتها فارسل الامير اسد الدين شيركوه في العشر الثاني من محرم سنة ٥٤٩ هـ فوصل الى ظاهر دمشق وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الالف فانكر ذلك مجير الدين وخاف منه فلم يخرج لتلقيه والاختلاط اليه وتراسلا فلم تسفر المراسلات عن سداد ولانيل مراد وغلا سعر الاقوات لانقطاع الواصلين بالغلات ووصل نور الدين في عسكره الى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا عند دومه ورحل في الغد ونزل بيت الابار من الغوطه وزحف الى البلد من شرقيه وزحف اليه من عسكر البلد واحداً الخلق الكثير ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين الى مكانه ثم زحف يوماً بعد يوم وتأكد الزحف يوم الاحد عاشر صفر وظهر اليه العسكر الدمشقي فاندفع بين ايديهم الى سور قبلي البلد وتولى القتال اسد الدين شيركوه وابى الجهد فكسر عساكر دمشق الى الاسوار من قبلي البلد ولم يكن احد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لان نور الدين كان من شرقها وحل العسكر مقابله ورأى من كان مع نور الدين من الجنداريه والحاميين خلو السور من المقاتلة فأسرعوا الى السور وتعلقوا به وطامعوا في الحال الى أعلاه ويقال ان امرأة كانت على السور فذلت حبلاً فصعدوا عليه ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين وامتنع الاجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وكسروا الباب ودخلت منه العساكر وفتح باب توما أيضاً وكان مجير الدين لما احس بالقلبة قد أنهزم من ضواحيه الى القلعة فانفذ اليه نور الدين امنه على ما له ونفسه وخرج الى نور الدين فطيب خاطره وكان مجير الدين قد راسل الافرنج وطلب منهم المساعدة على نور الدين فلما حضروا وجدوا نور الدين قد استلم البلد فخافوا منه ورجعوا الى بلادهم

﴿ قتل الخليفة الظافر وولايته ابنه الفائز ﴾

لما ورد خبر امتلاك الأفرنج مدينة عسقلان جاء خبر آخر أشد وطأة وهو ان العمارة السيبلية نزلت على سواحل مصر وأحرقت مدينة تانس في منتصف بحيرة المنزلة ونهبت الفرما الا انها لم تتقدم فاخذت ما أمكنها حمله من الغنائم وعادت من حيث أتت

كان ذلك والخليفة الظافر غارق في الشهوات الوحشية مشتغلا عن مهام الدولة فشق ذلك على وزيره العباس فاعرض الى ابنه نصر ان يقتله وينجى البلاد من شره ويتخلص مما كان يقوله الناس في عرضهما من معاشرته فاستدعا الى دار ابنه سرّاً بحيث لم يعلم به أحد وتلك الدار هي المدرسة الحنيفة التي تعرف بالسيوفية فقتله بها وأخفى قتله في منتصف محرم سنة ٤٤٩ هـ فأتى نصر الى أبيه العباس وأعلمه بذلك من ليلته . ولما كان الصباح اقبل عباس الى القصر على جاري عادته في الخدمة وأظهر عدم الاطلاع على قضيته وطاب الاجتماع به ولم يكن أهل القصر قد علموا بقتله لانه خرج من عندهم خفية وما علم أحد بخروجه فدخل الخدم لموضعه ليستأذنوا للعباس فلم يجدوه فدخلوا الى قاعة الحرم فقلل انه لم يبت هنا فتطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يلقوه له على خبر فتحققوا قتله فاخرج عباس اخوى الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما انما قتلتا امامنا وما نعرف حاله الا منكما فاصرا على الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلتهما في الوقت لينفي عن نفسه وابنه التهمة . فاستدعى العباس الفائز بن الظافر وكان عمره خمس سنوات وقيل سنتين فحمله على كتفه ووقف في حن الدار وامر ان تدخل الامراء فدخلوا فقال لهم هذا ولد مولاكم وقتل عماء أباه وقد قتلتما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل فقالوا باجمعهم سمعنا وأطعنا وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموه الفائز وسيروه الى أمه وقد اختل من تلك الصيحة فصار يصصر في كل وقت ويحتاج فاخذ عباس من ذلك الحين يدير الامور وأنفرد بالتصرف ولم يبق على يده يد وأما أهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر وأخذوا في اعمال الحيلة في قتل عباس وابنه فكتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني وهو أبو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن أبي طالب بارض النجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الامامية فتنبأ له الامام

انه سيتولى مصر بناء على رؤية رآها في منامه فسار من ساعته الى مصر وصار يترقى في الخدم حتى ولي منية ابن خضيب

فلما صار أهل القصر الى ما صاروا اليه كتبوا الى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليه اطاع من حوله من الاجناد عليه وتحدث منهم في المعنى فاجابوا الى الخروج واستمال جمعاً من العرب وساروا قاصدين القاهرة وقد لبسوا السواد فلما قاربوها خرج اليهم جميع من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحده نفرج عباس من ساعته من القاهرة وخرج معه ولده نصر ومعهما شيء من المال وجماعة يسيره من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على أبله وذلك في ١٤ ربيع أول سنة ٤٩٥ هـ أما الصالح بن رزيك فانه دخل القاهرة بدون قتال وما قدم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكره . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرفه به وقام البلاطه التي كانت عليه وأخرج الظافر ومن معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح والحلق قدم الجنازة وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبر أحواله . وأما عباس فاخذت الظافر كاتبت افرنج عسقلان بشأنه واشترطت لهم مالا جزيلاً اذا امسكوه نفرجوا عليه وصادفوه فتواقعوا وقتلوا عباساً وأخذوا ماله وولده وانهمز بعض أصحابه وسيرت الافرنج نصرين عباس الى القاهرة تحت الحفظ في قفص من حديد فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطته لهم من المال فاخذوا نصرأ وضربوه بالسياط ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويله ثم انزلوه وأحرقوه

﴿ محاصرة نور الدين حصن حارم ﴾

في سنة ٥٠١ هـ حاصر نور الدين قلعة حارم وهي حصن غربي حلب بالقرب من انطاكية وضيق على أهلها وهي من أمتع الحصون واحصنها في نحور المسلمين فاجتمعت الافرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه لمنعهم وكان بالحصن مقدم كبير منهم فارسل اليهم يعرفهم قوتهم وانهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء وقال لهم ان لقيتموهم هزموكم وأخذوا حارم وغيرها وان حفظتم انفسكم منه اطقنا الامتناع عليه ففعلوا

ما أشار به عليهم وراسلوا نور الدين في الصلح على ان يعطوه حصّة من حارم قابي ان يحجزهم الا على مناصفة الولاية فاجابوه الى ذلك فصالحهم وعاد

﴿ انتصار المساكين النورية على الافرنج ﴾

في أوائل سنة ٥٥٢ هـ حصلت زلازل كثيرة باراضي الشام وهدمت كثيرا من الحصون والقلع والبيوت وجميع المباني وفي شهر ربيع اول كان نور الدين بناحية بعلبك فاتته الاخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الافرنج على تلك الاعمال وفي ١٥ منه ورد المبشر من المعسكر المنصور برأس الماء بان ناصر الدين أميراميران لما انتهى اليه خبر الافرنج وانهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد الى ناحية بانياس لتقويتها أسرع اليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجال فأدركهم قبل الوصول الى بانياس وقد خرج اليهم من كان فيها من حماها فواقع بهم وكان قد كمن لهم في مواضع كمنّا من شجعان الاتراك واندفع المسلمون بين أيديهم في اول المجال وظهر عليهم الكمائن فانزل الله نصره على المسلمين وقتلت الافرنج وأسروا باقيهم وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ومحقت السيوف عامة رجالتهم ووصلت الاسرى والغنائم الى دمشق ثم وردت بشري ثاية من اسد الدين شيركوه باجتماع عدد كثير اليه من شجعان التركان وانه قد ظفر بسرية وافرة من الافرنج ظهرت في معاقلهم من الشمال فانهزمت وتحطفوا من ظفروا به ووصل أسد الدين الى بعلبك ومن معه من الشجعان واجتمعوا بنور الدين وقرروا قصد بلاد الافرنج لتدوينها والابتداء بالنزول على بانياس وقدم نور الدين دمشق في الاستعداد وتجهيز المساكين فخرج وتبعه كثير من الاحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية في آخر شهر ربيع اول ونزل على حصن بانياس وضايقه بالمنجانيقات وفي أثناء ذلك الحصار ورد خبر انتصار أسد الدين شيركوه بناحية هونين على سرية من الافرنج ثم ان نور الدين قوى الحصار والحرب ففتح الحصن المذكور بالسيف قهراً بعد مضي اربع ساعات بعد انتهاء النقب وسقوط البرج فأخذوا الحصن وهرب بعضهم الى القلعة فحاصروها أيضاً فطلبوا الامان ثم بلغه خبر جمع ملك الافرنج عسكره بين طبرية وبانياس بقصد استخلاصها فسار اليه فلما شارفهم وهم غارون ورأوا راياته قد أظلمت بادروا بلبس السلاح والركوب واقتربوا اربع فرق وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نورالدين

فترجلت معه الابطال وأرهقوهم بالسهم وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الاقدام
ودهمهم البوار والحماس وانتصر المسلمون وتمكنوا من فرسانهم قتلاً وأسراً
واستأضلت السبوق الرجاله وهم العدد الكثير فلم يفلت منهم غير عشرة انفار
﴿ محاربة المصريين غزه وعسقلان ﴾

في أوائل سنة ٥٥٣ أرسل الملك الصالح بن رزيك وزير الخليفة الفأخر بنصر
الله تجريدة عسكرية في البر ومثلها في البحر باسطول كبير يقصد محاربة أهل غزة
وعسقلان فسارت العساكر المصرية بقيادة الأمير ضرغام وأغارت على أعمال غزة
وعسقلان وخرج الافرنج الذين بعسقلان تحت رياسة صاحبها امورى واقتتلوا معاً
فظفر المسلمون بهم قتلاً وأسراً فلم يفلت منهم الا اليسير وغنموا غنائم كثيرة وعادوا
سالمين وكان مقدم العساكر البحرية قد ظفر بمعدة مراكب مشحونة بالافرنج
فقتل وأسر منهم العدد الكثير وحاز من اموالهم وعددهم وأثاثهم مالا يكاد يحصى
وعاد ظافراً غنائماً . وقد أرسل مؤيد الدولة اسامة بن منقذ قصيدة يشرح فيها حال
هذه الغزوة ويحرض فيها نور الدين على قتال الافرنج ويذكره بما من الله عليه
من العافية والسلامة من المرض الذي كان قد ألم به في رمضان في السنة الماضية ومن
القصيدة ما يأتي

ألا هكذا في الله تمضي العزائم	وتنضي لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الاعداء من طول عزهم	وليس سوى سمر الرماح سلام
ويوفي الكرام النادرون بنذرهم	وان بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما انسثنى	نصفه حتى اثنى وهو غائم
بعثناه من مصر الى الشام قاطعاً	مفاوز وجد العيش فيهن دأماً
فما هاله بعد الديار ولا ثنى	عزيمته جهد الظما والسائم
يباري خيولاً ما تزال كأنها	اذا ما انقضت فهي التسور والقشاعم
يسير بها ضرغام في كل مارق	وما يصحب الضرغام الا الضرغام
ورفقتة عين الزمان وحاتم	ويحي وان لاقى المنية حاتم
وواجههم جمع الفرنج بحملة	يهون على الشجعان فيها الهزائم
فلقوهم زرق الاسنة وانطوا	عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
وما زالت الحرب العوان أشدها	اذا ما تلاقى العسكر المتضاحم

وعادوا الى حزالسيوف فقطعت
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر
تقتلهم بالرأي طوراً وتارة
فقولوا لنور الدين لافل حده
تجهز الى أرض العدو ولا تن
فعندك من الطاف ربك مابه
أعادك حياً بعد ان زعم الورى
بوقت أصاب الارض ما قد أصابها
وخيم جيش الكفر في أرض شيرز
وقد كان تاريخ الشام وهلكه
فقم واشكر الله الكريم بنهضة
فنحن على ما قد عهدت نروهم
وغارتنا ليست تفتت عنهم
فاسطولنا اضعاف ما كان سائراً
ونرجو بان يحتاج باقيهم به

﴿ وفاة الخليفة الفائز بنصر الله وولاية العاضد لدين الله العلوي ﴾

في سنة ٥٥٥ هـ توفي الخليفة الفائز بنصر الله العلوي صاحب مصر ولم يحكم الامدة
ستة سنوات وكانت مصر قد انحطت في ايامه الى مهاوي الضعف وبعد وفاة الخليفة
الفائز أخذ الملك الصالح بهم في اقامة من يخلفه فقدم السراي فقدموا له شيخين
من العائلة الفاطمية لم يكن ثم أحق منه للخلافة فهم الى مبايعته فجاء أحد اصدقائه
وهمس في أذنه قائلاً (ان سالفك في الوزارة كان احسن تديراً منك لانه لم يسلم
نفسه لخليفة سنة اكثر من خمس سنوات) فوقعت هذه العبارة في اذن الوزير
فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعهد الى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله
ولم يكن بالغاً رشده فبايعه ولقبه بالعاضد لدين الله وهو الخليفة الرابع عشر للدولة
الفاطمية العلوية ثم زوجها ابنته ومعهما ثروة عظيمة

﴿ وفاة الخليفة المقتفي لامر الله العباسي وخلافة المستنجد بالله ﴾

وفي هذه السنة ايضاً توفي أمير المؤمنين المقتفي لامر الله ابو عبد الله احمد بن المستظهر

بالله أبي العباس احمد بن المقتدي باصر الله وكانت خلافته اربعاً وعشرين سنة وثلاثة اشهر وستة عشر يوماً ومات في ٢ ربيع الاول وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة وهو اول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه وأول خائفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه ثم بوبع للمستنجد بالله أمير المؤمنين واسمه يوسف بعد موت والده وكان للمقتني حظية وهي أم ولده علي فلما اشتد مرض المقتني ويئست منه أرسلت الى جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها على ان يكون ولدها خائفة فقالوا كيف الحيلة مع ولي العهد فقالت اذا دخل على والده قبضت عليه وكان كل يوم يدخل على أبيه فلما استقرت القاعدة بينهم استحضرت أم علي بعض جوار وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد المستنجد بالله وكان له خضي صغير يرسله كل وقت يتعرف اخبار والده فرأى الجواري بأيديهن السكاكين ورأى بيد علي ووالدته سيفين فعاد الى المستنجد وأخبره وأرسلت هي الى المستنجد تقول له ان والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده فاستدعى أستاذ دار عضد الدولة وأخذه معه وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف فلما دخل نأر به الجواري فضرب واحدة منهن فخرحها وكذلك أخرى وصاح ودخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهربت الجواري وأخذ أخاه أبا علي وأمه فسجنهما وأخذ الجواري قتل منهن وضرق منهن ودفع الله عنه ولما توفي المقتني جالس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه ابو طالب ثم اخوه ابو جعفر وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير ابن هبيرة والقاضي وأرباب الدولة والعلماء

﴿ تاريخ جامع سيدنا الحسين رضي الله عنه ﴾

كان أمير الحيوش أثناء حروبه في سوريا قد ظفر بمدفن رأس الامام الحسين في عسقلان فابتنى عليه مشهداً عظيماً فمن أعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر انه لما علم بوجود مشهد سيدنا الحسين رضي الله عنه بتلك الجهة خاف عليه من هجمات الافرنج فعزم على نقله الى مصر فابتنى له جامعاً مخصوصاً خارج باب زويلة دعاه جامع الصالح نسبة اليه (ولم يزل موجوداً الآن باول قصبة رضوان) بنية ان يجعل فيه الرأس الشريفه فلما فرغ من بنائه لم يمكنه الخليفة من ذلك بدعوى انه

لا يلبق ان يكون ذلك الاثر الشريف خارج سور المدينة فكانت حجة حقاً وأبي الا ان يجعله في بعض أجزاء قصره المدعو قصر الزمرد فاقام له مشهداً هناك . ثم في سنة ٧٤٠ هـ جريه احترق المشهد في ولاية السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة فاعيد بناءه وقد اعتنى به السلاطين والاصراء في كل عصر بعمارة وزخرفته وتخليته وابعلاء شأنه وأخيراً أقيم في جواره جامع حتى اذا كانت أيام الامير عبد الرحمن كتحخذ أخذ أمراء المماليك أعيد بناء المشهد الحسيني في سنة ١١٧٥ وبعد ذلك أعيد بناء برمته في أيام الخديوي الاسبق اسماعيل باشا سنة ١٢٨٢ وكان الناظر على الاوقاف المصرية الامير راتب باشا وتمت عمارته في ٢٨ محرم سنة ١٢٩٠ الا ان الآذنة قسمت في سنة ١٢٩٥ وادخل في الجامع عدة بيوت ولم يبق من البناء القديم الا القبة المغطيه لمقام الامام التي جري تصليحها في سنة ١٣١٦ بامرافديننا الحالي عباس باشا الثاني فاصبح على ما نشاهده الآن وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين بالسكة الجديدة بالقاهرة تجاه خان الخليلي

﴿قتل الصالح بن رزيك وزير مصر﴾

كانت ادارة الاحكام بمصر منوطة بالوزير ولذلك كان النفوذ الاكبر للملك الصالح طلائع بن رزيك ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله اقل استعباداً من سالفه ولقب الصالح بلقب ملك ثم لقب بالسلطان فتحت أعين الاعداء عليه وفي جهاتهم عمه الخليفة فعزمت على قتله فارسلت اولاد الداعي فكمنوا له في دهليز القصر وضربوه حتى سقط على الارض على وجهه وحمل جريحاً لايعي الى داره وفيه حياة فارسل الى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع أترد في خلافته فاقسم العاضد انه لايعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت بريثا فسلم عمتك الي حتى انتقم منها فامر باخذها فارسل اليها فاخذها قهراً وأحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه محيي الدين رزيك ولقبه بالملك العادل وكنيته أبو شجاع ومات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ وكان شجاعاً كريماً فاضلاً محباً لامل الادب جيد الشعر وفيه عقل وسياسة وتدير وكان مهابة في شكله عظيماً في سطوته وغناه وكان محافظاً على الصلوات فرائضها وتوافلها شديد المغالات في التشيع صنف كتاباً سماه الاعتماد في الرد على أهل العناد جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن أبي طالب والكلام على الاحاديث الواردة في ذلك وله شعر كثير يشتمل على مجلدين

﴿ وفاة بودوين الثالث وولايته أخيه أموري ﴾

كان الملك بودوين الثالث ملك القدس مقبلاً بمدينة انطاكية فاعتزته الحمى فامس بنقله الى مدينة طرابلس ومنها الى مدينة بيروت وهناك فاجأته الوفاة وكان ذلك سنة ١١٦٢ أفرنكية الموافقة لسنة ٥٥٨ هجرية فنقل جسمه الى القدس لكي يدفن تحت جبل الجبلجبل فحزنت عليه الافرنج لما كان معروفاً به بينهم من العدل وكرم الاخلاق والشجاعة ولم يكن له ولد يرث ملكه بعده والذي يستحق الملك هو أخوه أموري صاحب عسقلان ويافا ولما كانت صفات وأخلاق أموري المذكور بعكس أخيه عارض رؤساء المملكة بتوليته وأخيراً توجوه ملكاً عليهم وكان متصفاً بالكبر والبخل والطمع

﴿ وزارة شاور ووزارة ضرغام بعده ﴾

كان شاور في ابتداء أمره يخدم الصالح بن رزيك ثم ولاء الصالح حكم الصعيد وهو أكبر وظيفة بعد الوزارة فظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم فمسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فادام استعماله خوفاً من الخروج عن طاعته فلما جرح الصالح أوصى ابنه ان لا يتعرض لشاور قائلاً له اني انا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكنني عزله فلما توفي الصالح وولي ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستخدم بعضهم مكانه فارسل اليه بالعزل فجمع جموعاً كثيرة وسار الى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح فاخذ وقتل وصار شاور وزيراً للخليفة العاضد لدين الله وكان ذلك في صفر سنة ٥٥٨ هـ وتلقب بأمير الحيوش وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم وذخائرهم . وكان الملك الصالح قد رتب في عهد وزارته الامراء البرقية وجعل في مقدمتهم ضرغام أبا الاشبال فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام في سلبها منه فجمع رفقة نخاف شاور وجمع اليه رجاله فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور وفي شهر رمضان من السنة المذكورة نار ضرغام على شاور فاخرجه من القاهرة وقتل ولده الأكبر المسمى بطي وبقى شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام واستقر ضرغام في وزارة العاضد لدين الله وتلقب بالملك المنصور فشكر الناس سيرته وكان فارس عصره كاتباً جميل الصورة عاقلاً كريماً

﴿ في دخول أسد الدين شيركوه مصر أول مرة ﴾

لما خرج شاور من مصر سار الى نور الدين بدمشق الشام يستنجد به ليعيده الى الوزارة فاحسن وفادته وأكرم مثواه فطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعيده اليها ويكون له فيها ثلث دخل البلاد بمسد اقطاعات العساكر وانه يتصرف طبق أمره ونهيه فاخذ نور الدين يقدم في ذلك رجلاً ويأخر أخرى تارة تحمله رعاية شاور وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الافرنج وتاردينه خطر الطريق ووجود الافرنج فيه الى ان قرر العمل واستخار الله تعالى وأمر أسد الدين شيركوه أحد رجاله بالتأهب للمسير معه قضاء لحق الوافد المستصرخ وحباً بالبلاد والوقوف على أحوالها وكان ذلك موافقاً لهوى أسد الدين اذ كان في صدره من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالي معه بمخافة فتجهز وسار مع شاور في جماد الاولى سنة ٥٥٩ هـ وساروا جميعاً وسار معهم نور الدين الى أطراف بلاد المسلمين مهدداً الافرنج بعساكره ليشغلهم عن التمرض لاسد الدين فكان قصارى هم الافرنج حفظ بلادهم من نور الدين وفي أثناء ذلك قصد الملك أموري ملك القدس بلاد مصر لاختذ مال الهدنة المقرر على مصر دفعه للافرنج من يوم أخذوا عسقلان وهو ثلاث وثلاثون ألف دينار فلما وصلت الافرنج الى حصن بليس وملكوا بعض السور خرج اليهم همام أخو ضرغام وحاربهم فغلبوه ثم عادوا الى بلادهم وعاد همام عوداً رديئاً فها هو الا ان قدم رسل الافرنج على ضرغام في طلب مال الهدنة المقررة ثم وصل أسد الدين شيركوه الى مصر سالماً ومعه شاور ولما علم ضرغام بذلك اضطرب وأصبح الناس خائفين على أنفسهم وأموالهم فجمعوا الاقوات والمساء ونحولوا من مساكنهم وخرج همام بالعسكر في أول جماد الآخر سنة ٥٥٩ هـ فسار الى بليس فقابل أسد الدين وشاور وحصنات بينهم وقعة انهزم فيها همام وامتلكت أسد الدين وشاور جميع ما كان مع عساكره وأسروا عدة ونزلوا الى التاج (قليوب) ظاهر القاهره يوم الخميس ٦ جماد الآخر فجمع ضرغام الناس وضم اليه الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية بداخل القاهرة وأسد الدين وشاور مقيمان في التاج مدة أيام ثم ساروا ونزلوا في المقس (الازبكية) نخرج اليهم عسكر ضرغام فقاتلوه فانهزم ضرغام هزيمة قبيحة وساروا الى بركة الحبش ونزلوا بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك أسد الدين مدينة مصر القديمة وأقام فيها أيام فاخذ

ضرغام مال اليتامى المودع عند الحاكم فكرهه الناس واستعجزوه ومالوا الى شاور
 فتنكر منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له ونزل أسد الدين
 وشاور في أرض اللوق خارج باب زويلة وطارد أسد الدين رجال ضرغام وزحف
 الى باب سعادته وباب القنطرة واضرم النار في اللؤلؤة وما حولها من الدور وعظمت
 الحروب بينهم وفي كثير من الطائفة الريحانية فبعثوا الى شاور ووعدوه بان يكونوا
 اعواناً له فانحل أمر ضرغام فارسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمي
 فخرج الرجال الى شاور وصاروا من جملة وفترت همة أهل القاهرة وأخذ كل منهم
 يعمل الحيلة في الخروج الى شاور فامر ضرغام بضرب الابواق والطبول من فوق
 الاسوار فلم يخرج اليه أحد وانفك عنه الناس وسار الى باب الذهب من أبواب
 القصر ومعه ٥٠٠ فارس فوقف وطالب من الخليفة ان يشرف عليه من الطاق وتضرع
 اليه وأقسم عليه بآبائه فلم يجبه أحد واستمر واقفاً الى العصر والناس تنحل عنه حتى
 بقي في نحو ٣٠ فارساً فوردت عليه رقعة مكتوب فيها (خذ نفسك وانج بها)
 واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة وممها عساكر أسد الدين وشاور
 فر ضرغام الى باب زويلة فصاح الناس عليه واعنوه وتخطفوا من معه وأدركه القوم
 فرموه عن فرسه قريباً من الجسر الاعظم من القاهرة ومصر القديمة قرب جامع
 السيدة نفيسة وجزوا رأسه في غاية جهادي الآخر وفر منهم أخوه الى جهة المطرية
 فادركه الطالب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل أخوه الآخر عند بركة
 الفيل وبقي ضرغام ملقى على الارض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها واعيدت
 وزارة مصر الى شاور فاستلم زمامها وصار يدفع الى اتابك نور الدين ثلث الدخل
 مقابلة لما بذله في اعادته اليها وأقام أسد الدين بظهر القاهرة حسب الاتفاق الذي
 عمل مع نور الدين بان يكون أسد الدين موجوداً بمصر فاستاء من ذلك شاور وأراد
 ان يقدر به . وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضاً
 وارسل اليه يأمره بالعود الى الشام فانف أسد الدين من هذا الحال وأعاد الجواب
 بطلب ما كان استقر فلم يجبه شاور اليه فلما رأى ذلك أرسل أسد الدين نوابه
 فاستولوا على بليس وباقي الخوف الشرقي فارسل شاور الى الملك أموري
 ملك القدس يستمده ويخوفه من نور الدين ان ملك مصر وكان الافرنج قد
 أيقنوا بالهلاك ان ملكها نور الدين فلما أرسل شاور اليهم يستجدهم ويطلب
 منهم ان يساعدوه على اخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحسبوه

واسرعوا ملين دعوته وبادروا الى نصرته وطمعوا في ملك ديار مصر وكان قد
 بذل لهم مالا على المسير اليه فتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم
 للمسير سار بعسكره في اطراف بلاده مما يلي بلاد الافرنج ليمتنعوا من المسير فلم
 يمتنعوا لعلمهم ان الخطر في مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم
 فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار الملك اموري في باقي عسكره وكان قد وصل الى
 ساحل الشام جمع كثير من الافرنج في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعان بهم الملك
 اموري فاعانوه وساروا معه فلما دنا الافرنج من مصر فارقها اسد الدين وقصد
 مدينة بليس وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصن به فاجتمعت العساكر
 المصرية والافرنجية ونازلت اسد الدين بمدينة بليس وحصروه بها ثلاثة اشهر فامتنع
 بها وسورها من طين قصير جداً وليس له خندق ولا جبل يحميها وهو يغاديرهم
 القتال ويروحهم فلم يباغوا منه غرضاً ولا نالوا منه مأرباً فينهاهم كذلك اذاتاهم
 الخبر بهزيمة الافرنج بحارم واستيلاء نور الدين على الحصن ومسيره الى بانياس
 فينشد ارادوا العود الى بلادهم ليحفظوها ولعلمهم يدركون بانياس قبل أخذها فلم
 يدركوها الا وقد ملكها على ما سيأتي وراسلوا اسد الدين في الصلح والعود الى الشام
 ومفارقة مصر وتسليم ما بيده فيها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم بما
 فعله نور الدين بالافرنج في الساحل فاخرج اسد الدين اصحابه بين يديه من بليس
 وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقهم والمصريون والافرنج ينظرون
 فنادا افرنجي فقال له اما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والافرنج وقد احاطوا بك
 وباصحابك فلا يبقى لك معهم بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم
 تر مثله كنت والله أضع فيهم السيف فلا اقتل حتى اقتل رجالا وحينئذ يقصدهم
 الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفي ابطالهم فيملك بلادهم ويفني من بقي منهم
 والله لو اطاعني هؤلاء يعني اصحابه لخرجت اليكم اول يوم لكنهم امتنعوا فصلب
 الافرنجي على وجهه وقال كنا نستعجب من افرنج الشام ومبالغتهم في صفتك وخوفهم
 منك والان فقد عذرتناهم ثم رجع عنه وسار شيركوه الى الشام وعاد سالماً وفي
 قلبه من شر شاور الاحن وكيف تمت بغدره تلك الحن

فتح حارم

في سنة ٥٥٩ هـ اغتتم نور الدين خلو الشام من الافرنج فراسل أخيه قطب الدين

بالموصل ونفر الدين قرا ارسلان بالحصن ونجم الدين الي بماردين وطلب منهم
 مساعدته بالجيوش في حرب الافرنج فوردت اليه الامداد من كل جهة وسار نحو
 حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر الى من بقي من الافرنج بالساحل فحشدوا
 جيوشهم وجاءوا وفي مقدمتهم رايمند صاحب طربلس وبوهيموند الثالث امير انطاكية
 ودوك الروم ومقدمتها وجمعوا معهم من الجيوش ما لا يقع عليه احصاء وقد ملؤوا
 الارض فحرض نور الدين اصحابه وفرق نفائس الاموال على شجعان الرجال فلما
 قارب الافرنج رحل عن حارم الى ارتاح طمعاً ان يتبعوه ويتمكن منهم اذا لا قوه
 فساروا حتى نزلوا وتيقنوا انه لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله فعادوا
 الى حارم وتبعهم نور الدين فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الافرنج بالهجمة على
 ميمنة المسلمين وبه عسكر حلب فبددوا نظامهم وزلزلوا اقدامهم وولو الادبار
 وتبعهم الافرنج وكان ذلك باتفاق ورأي ديروه ومكر مكروه وهو ان يبعدوا عن
 راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف فاذا عادت فرسانهم
 من اثر المهزمين لم يلقوا راجلا ياجؤون اليه يعود المهزمون في اثارهم وتأخذهم
 سيوف المسلمين من بين ايديهم ومن خلفهم فكان الامر كذلك . لان الافرنج
 لما تبعوا المهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم فافقاهم قتلاً
 واسراً وعادت فرسانهم فلم تجد غير جثث القتلى ورأوا انهم قد ضلوا وارتد عليهم
 عسكر حلب المهزمون فاخذ الافرنج في الوسط وقد احاط بهم المسلمون من كل
 جانب فحينئذ حمى الوطيس وباشر الحرب المرؤوس والرئيس وقاتل الافرنج قتال
 من يرجو النجاة وحاربوا حرب من آيس من الحياة وانقضت العساكر الاسلامية
 عليهم فزقوهم وقد اوقعوا فيهم القتل والاسر بكثرة فاسروا السبراس وبوهيموند
 الثالث صاحب انطاكية ورايمند صاحب طربلس ودوك الروم وغيرهم من قوادهم
 وسار نور الدين بعد ذلك الى حارم فملكها في ٢١ رمضان من تلك السنة وبث
 سراياه في تلك الاعمال والولايات فنهبوا وسبوا وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا
 اللاذقية والسويدا وعادوا سالمين ثم ان نور الدين اطلق بوهيموند صاحب انطاكية
 بمال جزيل اخذه منه واسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم

﴿فتح بانياس﴾

لما فتح حارم نور الدين كما تقدم أمر عساكر الموصل وديار بكر بالعود الى

بلادهم وأظهر انه يريد محاربة طبريه فجعل من بقي من الافرنج همهم في حفظها وتقويتها فصار نور الدين الى بانياس لعلمه بقلعة من فيها من الحماة المدافعين عنها ونازلها وضيق عليها وقتلها وكان في جملة عسكره أخوه نصر الدين اميراميران فاصابه سهم فاذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف الله لك عن الاجر الذي أعد لك لتميت ذهاب الاخرى ثم جد في حصارها فسمع الافرنج فجتمعوا رجالهم ولم يتكامل عدتهم حتى فتحها على ان الافرنج كانوا قد ضيقوا بقتل رجالهم بواقعة حارم وأسرههم ثم ملك القلعة وملاها ذخائر وعدة ورجالا وشايطر الافرنج في أعمال طبريه وقرروا له على الاعمال التي لم يشايطرهم عليها مالا في كل سنة ثم عاد نور الدين منها الى دمشق وكان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر يسمى الجبل لكبره وحسنه وفي أثناء مسيره سقط من يده في جهة كثيرة الاشجار ملتفة الأغصان والى بعد عن هذا المحل تذكره فأرجع بعض رجاله للبحث عنه ودلهم على الموقع الذي كان آخر عهده به فوجدوه

﴿ في دخول اسد الدين شيركوه مصر المرة الثانية ﴾

بعد خروج أسد الدين من بليس التقى بنور الدين فخارب معه الصليبيين وانتصرا الا ان انتصارهما لم يقلل شيئا من رغبة أسد الدين في افتتاح مصر فكان من وقت الى آخر يبحث نور الدين على ذلك . وكان مما يهيجه على العود الى مصر زيادة حقه على شاور فاذن له نور الدين بالمسير ومعه جماعة من الامراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب فلما علم شاور وزير مصر وتأكده انه اذا لم يسارع الى ملافاة الخطب لا تلبث مصر حتى تصير في يد نور الدين على ان الصليبيين من الجبهة الاخرى لا ينفكون ليدهم ونهارهم ساعين الى افتتاح مصر وقد قطعوا السبيل على جيوش أسد الدين في سيرها الى مصر فساروا بجيش عظيم تحت قيادة الملك اموري حتى لم يبق صليبي الا سار في ذلك الجيش أما أسد الدين فقطع سوريا حتى بلغ حدود مصر ودخلها في ربيع اول سنة ٥٦٢ هـ وكان الصليبيون قد ساروا بقيادة ملكهم في الصحراء فلم يظفروا باحد ثم عادوا الى غزة فالعريش ثم الى بليس . أما جيش أسد الدين فكان قد تجاوز بليس حتى بلغ عطاس فعسكر قرب القاهرة وتهدها

نخاف شاور من قدوم الجيشين المذكورين وكل منهما يحاول الفوز لنفسه ففضل

ان يسلم القاهرة للصليبيين ويحملهم على قتال أسد الدين الذي كان على بعد ١٢ ميلاً من تلك العاصمة فرأى أسد الدين شيركوه ان جيشه بعد ان قاسى الاهوال في عبور الصحراء لا يسهل عليه الهجوم على هذه المدينة فاجتاز النيل الى البر الغربي بقرب اطفيح ونزل بالحيزة تجاء مصر وبني له استحکامات تقيه من العدو فدخل الصليبيون القاهرة ولكنهم لم يوافقوا شاور على ما أراد الا بعد ان تعهد لهم بزيادة الجزية السنوية عما كان يدفعه للملك اموري قائد تلك الحملة فعين معتمدين من قبله لعقد المعاهدة بذلك فأنهوها على ما أراده الصليبيون فقبضوا منه مبلغ مائتي الف دينار نقداً على وعد ان يقبضوا مثله بعد مدة يسيرة

ثم اراد الملك اموري مهاجمة أسد الدين شيركوه على جسر يصنعه من القوارب فجعل شيركوه كلما ابتدأوا في بناء الجسر يشغلهم عن اتمامه فبقى الجيشان في مثل ذلك نحو ٥٠ يوماً أو أكثر تمكن اثناءها شيركوه من تملك الضفة الغربية للنيل

﴿ محاربة أسد الدين شيركوه المصريين والصليبيين ﴾

فبعد تملك أسد الدين البلاد الغربية للنيل سار الى الصعيد حتى بلغ مكاناً يعرف بالباين أما الصليبيون فانهم اجتازوا الى البر الغربي عند رأس النلتا ومعهم العساكر المصرية فأدركوهم هناك في ٢٥ جاد اول سنة ٥٦٢ وكان قد أرسل اليهم جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرتهم وجندهم في طلبه فعزم على قتالهم ولقائهم وان يحكم السيوف بينه وبينهم الا انه خاف ان تضعف نفوس أصحابه عن الثبات في هذا المقام الخطير الذي عطيهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم فاستشارهم فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقي والعود الى الشام وقالوا له ان نحن انهزمنا وهو الذي لا شك فيه فالى أين نلتجى وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدونا ويودون لو شربوا من دماءنا (وحق لمسكر عدده الفا فارس قد بعدوا عن ديارهم وقتل ناصرهم ان يرتاعوا من لقاء عشرات الالوف مع ان كل فرد من أهل البلاد عدو لهم) فلما قالوا ذلك قام رجل من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش وكان مشهوراً بالشجاعة وقال من يخاف القتل والجراح والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته والله لئن عدتم الى الملك العادل نور الدين من غير غلبة وبلاء تعذرون

فيه ليأخذن اقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه الى يومنا هذا ويقول
لكم أناخذون أموال المسلمين وتقررون من عدوهم وتسلمون مثل هذه الديار
المصرية يتصرف فيها الكفار فقال اسد الدين هذا رأيي وبه أعمل ووافقهما صلاح
الدين يوسف بن أيوب ثم كثر الموافقون لهم على القتال فاجتمعت الكلمة على
اللقاء فاقام بمكانه حتى أدركه المصريون والصليبيون وهو على تعبئة وقد جعل
الاثقال في القاب يتكثربها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينبها أهل البلاد
ثم انه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القاب وقال له ولما معه ان الصليبيين
والمصريين يظنون اني في القاب فهم يحسبون كل قوتهم بازائه وحملتهم عليه فاذا
حملوا عليكم فلا تصدقوهم للقتال ولا تهاكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم فاذا
عادوا عنكم فارجموا في أعقابهم واختار من شجعان اصحابه جمعاً يشق اليهم ويعرف
صبرهم وشجاعتهم ووقف بهم في الميمنة فلما تقابل الطائفتان فعل الصليبيون ما
ذكره اسد الدين وحملوا على القاب ظانين انه فيه فقاتلهم من به قتلاً يسيراً ثم
انهزموا من أمامهم فنبعوههم فحينئذ حمل اسد الدين في من معه على من تخلف من
الصليبيين الذين حملوا على القاب فهزمهم ووضع السيف فيهم فأنخن وأكثرت القتل
والاسر وانهزم الباقون فلما عاد الصليبيون من اثر المهزمين الذين كانوا في القاب
رأوا مكان المعركة من أصحابهم باقياً ليس فيه منهم مقاتل فانهزموا أيضاً وكان هذا
من أعجب ما يؤرخ (ان النى فارس تهزم عساكر مصر والصليبيين)

﴿استيلاء اسد الدين على الاسكندرية ومحاربة المصريين والصليبيين﴾

بعد الواقعة المذكورة سار اسد الدين الى نهر الاسكندرية وجي الاموال من
القرى التي في طريقها فلما وصل سلمت من غير قتال فاستتاب بها صلاح الدين ابن
أخيه وعاد الى الصعيد وتملكه وجي أمواله وأقام فيه حتى صام رمضان أما
المصريون والصليبيون فأنهم عادوا الى القاهرة وجمعوا أصحابهم فاستعاضوا عن قتل
منهم واستكثروا وحشدوا وساروا الى الاسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر
يمنعها منهم وقد أعانه أهلها خوفاً من الصليبيين الذين حاصروها وضيقوا عليها
فصبر أهل الاسكندرية وصدقوا مع صلاح الدين في الجهاد وقتل الطعام بالبلد فصبر
أهله على ذلك ثم ان اسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان قد استمال شاور
بعض من معه من التركمان بالمال ووصله رسول المصريين والصليبيين يطلبون

الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذوا من البلاد فأجابهم الى ذلك

﴿ في رجوع اسد الدين والصلبيين من مصر ﴾

لما عرض الصليبيون والمصريون على اسد الدين كما تقدم أجابهم بشرط ان ينسحب الصليبيون وأسد الدين من الديار المصرية بسلام وترجع الاسكندرية الى شاور وان الصليبيين لا يملكون من مصر ولا قرية فقبل الفريقان هذه الشروط ولم مدينة الاسكندرية الى شاور في منتصف شهر شوال سنة ٥٦٢ وعاد أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الى دمشق في ١٨ القعدة وعادوا الى الخدمة النورية فامتدحه الشعراء والافاضل ومنهم العماد امتدحه بقصيدة طويلة منها

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر	ونلت ما عجزت عن نيل القدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت له	ومن له مثل ما أثرته أثر
أسرت أم بركات الأرض قد طويت	فأنت اسكندر في السير أم خضر
تناقات ذكرك الدنيا فليس لها	الا حديثك ما بين الوري سمر
فانت من زانت الايام سيرته	وزاد فوق الذي جاءت به السير
لوفي زمان رسول الله كنت أنت	في هذه السيرة المحمود السور
اصبحت بالعدل والاقدام منفرداً	فقل لنا أعلي انت أم عمر
اسكندر ذكروا اخبار حكمته	ونحن فيك رأينا كل ما ذكرنا
ورستم خبرونا عن شجاعته	وصار فيك عياناً ذلك الخبر
انخر فان ملوك الأرض أذهلهم	ما قد فعلت فكل فيك مفتكر
سهرت اذرق دوابل هجت اذ سكنوا	وصلت اذ جنبوا بل طلت اذ قصرنا

وأما الصليبيون فلم يريدوا مباحة القاهرة حتى استقر بينهم وبين شاور ان يكون لهم بالقاهرة حامية ويكون أبوابها بيد فرسانهم لينزع الملك العادل نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون للصلبيين من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار وجرى هذا كله بين الصليبيين وشاور بدون علم خليفة مصر العاضد لان شاور حكم عليه وحججه وعاد الصليبيون الى بلادهم بعد ما تركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة

﴿ في محاربة نور الدين بلاد الافرنج ﴾

في هذه السنة جمع نور الدين العساكر فسار اليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حصص فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الافرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فاغاروا ونهبوا وقصدوا عرقه فنازلوها وحاصروها وحاصروا حلية وأخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب البلاد وفتحوا العريضة وصافينا وعادوا الى حصص فصاموا بها رمضان ثم ساروا الى بانياس وقصدوا حصن هونين وهو للافرنج ومن أمنع حصونهم ومعاقليهم فانهزم الافرنج عنه وأحرقوه فوصل نور الدين في الغد فهدم سورته جميعه وأراد الدخول في بيروت فتجدد في العسكر خلف أوجب التفرق فعاد قطب الدين الى الموصل وأعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات فاخذها في طريقه وهو عائد

﴿ في تجهيز الملك أموري عسكره الاستيلاء على الديار المصرية ﴾

لما رجع الملك أموري الى القدس تزوج بابنة أخي الملك عثمانويل ملك الروم بالقسطنطينية وقد زاد طمعه وأخذ رجاله المقيمون بمصر والقاهرة يكتبونه ويطلبون منه القدوم الى مصر لاستلامها قائلين له انها خالية من حام يحميها أو يدافع عنها ومتى حضرت تستلمها بدون حرب وقتال فجمع مجلس شورا بمدينة القدس وأعلمهم بالمكاتبات الواردة اليه من مصر وعزمه على المسير اليها واستيلائها عليها فعارضوه خصوصا رئيس جمعية الرهبان الهيكلين وجمعية ضيوف الغربا (ماري يوحنا المعدان) قائلين انه لا يصح نقض المعاهدة المحررة بينه وبين شاور وزير مصر واننا لا نقصد لها فانها طعمة لنا وأموالها تساق اليها تقوى بها على نور الدين وربما اذا قصدناها لنملكها لا يسلمها صاحبها وعساكره وأهلها اليها ويقاتلونا دونها ويسلمونها الى نور الدين فلم يصغ الى قولهم وظل مصمما على الدخول اليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها وظهر له من ضعف من بقي فيها . وكان يوجد في مصر بعض الامراء الذين يكرهون شاور فارسوا اليه وطلبوا قدومه ليسلموه مصر مكيدة في شاور فلما سار الملك أموري ووصل الى الداروم كتب الى شاور يقول له اني قد قصدت الخدمة على ما قررت لي من العطايا في كل عام فاجاب شاور ان الذي قررت لك انما جعلته متى احتجت اليك أو اذا قدم عليّ عدو فاما مع خلو بالي من الاعداء فلا

حاجة لي بك وليس لك عندي مقرر . فاجابه أموري ان لا بد من حضورى وأخذى المقرر فلم شاور أنه غدر بالعهد ونقض الايمان وأنه قد طمع في البلاد

﴿ استيلاء الصليبيين على بليس ﴾

لما علم شاور بغدر الصليبيين كما تقدم أخذ في تجنيد الرجال وحشد العساكر الى القاهرة وانفذ الى بليس فرقة من الجيش بقيادة طي ولده اما الملك اموري فانه سار يجد الى ان وصل الى بليس في أول صفر سنة ٥٦٤ هـ فنجم عليها وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس وابن الحياط يحيى وابن قرجه وهم الذين كانوا قد كاتبوه وطالبوا قدومه فارسل الى طي بن شاور وقال له اين نزل فقال على أسنة الرماح وقال له أن حسب ان بليس جنة تأكلها فارسل اليه أموري يقول نعم هي جنة والقاهرة زبدة ثم قاتل بليس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف قهراً وقتل من أهلها خلقاً عظيماً وخرب أكثرها وأحرق حبل أدرها ثم أخرج الأسرى الى ظاهر البلد وحشرهم في مكان واحد وحمل في وسطهم برمح ففرقهم فرقتين فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره وقال لفرقة قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر فاني قد ملكتها بلا شك ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل الى جهة منية حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الأسرى فاقسموهم وبقى أهل بليس الذين اسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الصليبيين وهلك أكثرهم في أيديهم وافلت منهم اليسير لان الملك الناصر لما ملك ديار مصر وقف مغل بليس على كثيره على فكك الأسرى منهم وساح أهل بليس بخراجهم الى آخر أيامه

﴿ محاربة الصليبيين مدينة القاهرة ﴾

لما اتصل بشاور ما جرى على أهل بليس من القتل والاسر وان الصليبيين شخنوها بالرجال والمدد وجعلوها لهم ظهراً اشفق من ذلك وطالب الاذن بالدخول على الخليفة العاضد فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال اعلم ان البلاد قد ملكت ولم يبق الا ان تكتب الى نور الدين وتشرح له ما جرى وتطلب نصرته ومعونته فكتب جميع ذلك وسود أعاليها بالمداد وقيل ان الذي أشار بكتابة ذلك هو شمس الخلافة محمد بن مختار لانه لما رجع من مقابلة الملك أموري اجتمع بالكامل بن شاور وقال له عندي أمر لا يمكنني أن اخبرك به الا بعد أن تحلف لي بأنك لا تطاع اباك عليه فلما

حالف له قال له ان أبالك قد وطن نفسه على المصاهرة وآخر أمره يسلم البلاد الى الصليبيين ولا يكتب نور الدين وهذا عين الفساد فاصعد أنت الى الخليفة والزمه بان يكتب الى نور الدين فليس لهذا الامر غيره . وأما الصليبيون فانهم ساروا الى مصر ولما قربوا من المدينة أمر شاور باحراقها وانذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم وتشتوا في جميع الانحاء وترك الناس أكثر أموالهم فبهت وأحرق مصر في تاسع صفر سنة ٥٦٤ وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً (ومدينة مصر المذكورة هي مصر القديمة الآن التي على ساحل النيل) ثم نزل الصليبيون في بركة الحبش وأنبت أخبارهم في الاطراف وتحفظوا من ظفروا به فانفذ شاور الى أموري شمس الخلافة فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه الى باب الخيمة ففعل فاراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له اترى دخاناً في السماء قال نعم قال هذا دخان مصر فاني ما آتيت الا وقد احترقت بعشرين الف قارورة نفط وغرقت فيها عشرة آلاف مشعل وما بقي فيها ما يؤمل بقاءه ونفعه فخل الآن عنك مدافعتي وكن كما قلت لك انزل في مكان تقدمت الى غيره وما بقي لك الا ان تنزل القاهرة فقال هو كما تقول ولا بد من نزول القاهرة ومعي افرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام البرج تقع في خيمته فقاتلوا البلد اياماً ولما تيقن شاور الضعف عدل الى طريق المخادعة والمخاتلة والمغارة والمدافعة الى ان تصل عساكر الشام فانفذ شمس الخلافة الى اموري برسالة طويلة وفي ضمنها (ان هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه الا بعد ان يقتل من الفريقين عالم عظيم وما تعلم انت ولا انا لمن الدائرة والرأي ان تحقن دماء اصحابك ودماء اصحابي وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً) فاستقرت المصانعة على اربع مائة الف دينار وقيل مليوناً يعجل له منها مائة الف دينار فاجاب اموري الى ذلك وانهقدت الهدنة وحلف اموري ورحل الى بركة الحبش وحمل شاور اليه مائة الف دينار في عدة دفعات سوف فيها الاوقات ثم أخذ يماطله بالباقي انتظاراً لقدوم العساكر ويوهم انه يجمع لهم الاموال

﴿ دخول اسد الدين شيركوه مصر ثالث مره ﴾

لما وصل كتاب الخليفة العاضد الى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً وانفذ

أسد الدين وكان ذلك غاية مناه وأرسل معه الفقيه عيسى الهيكاري الى مصر برسالة ظاهرة الى شاور يعلمه بقدوم العساكر ورسالة سرية الى الخليفة العاضد وأمره ان يستحلفه على اشيء عينا وان يكتم ذلك عن شاور فلما وصل اسد الدين شيركوه الى القاهرة نزل بارض اللوق وأخرج اليه شاور الاقامات الحسنة والحسدم الكثيرة ثم ارسل شمس الخلافة الى الملك أموري يستطلق منه بعض المال فصار اليه واجتمع به وقال قد قل علينا المال فقال اموري اطاب منه شيئاً قال اشتهي ان تهب لي النصف قال قد فعلت فقال شمس الخلافة ما بلغني ان ملكاً مثلك وهب مثل هذه الهبة فقال اموري انا أعلم انك رجلاً غافلاً وان شاور ملك وانكما ما سألتاني هذا المال الا لامر حدث فقال له صدقت هذا اسد الدين قد وصل نصرته لنا وما بقي لك مقام وشاور يقول لك ان ترحل ونحن باقون على الهدنة فانه أوفق لك ولنا ونحن نراضي هذا الرجل بشيء من هذا المال ونحمل الباقي اليك متى قدرنا وان راضينا به بأكثر من هذا المال عدنا عليك بما بقي علينا من المقدار فقال اموري انا راض بذلك وان بقي علي شيء حملته اليكم وعول على الرحيل فقال له بعد ان تطلق طي بن شاور ومن بقي من اسرى بليس معكم ولا تأخذ من بليس بعد انصرفك شيئاً فاجابه الى جميع ذلك ورحل الصليبيون عن مصر ولما نزل اسد الدين بارض اللوق كما تقدم ارسل له العاضد هدية عظيمة وخلعاً كثيرة واخرج الى خدمته اكابر اصحابه ثم انه خرج اليه في الليل سرّاً متكرراً واجتمع به في خيمته وافضي اليه بامور كثيرة منها قتل شاور ثم عاد الى قصره وكان شاور قد رأى ليلة نزل اسد الدين على القاهرة كانه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلاً وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها باقلامه فسأل عنه فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما اقام اسد الدين بالديار المصرية ورحل عنها الا فرنج أمنت البلاد وتراجع الناس الى بيوتهم واخذوا في اصلاح ما شعثه الصليبيون وأفسدوه وتقاطر الناس الى خدمة اسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة واحسن اليهم وكذلك شاور فانه اخذ في التودد الى الاسد والتقرب اليه بجميع ما وجد السبيل اليه وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة حتى استحوز على قلبه وقوي ببقيته في ملكه وصفا له قلبه

﴿ قتل شاور ووزارة اسد الدين شيركوه ﴾

لما أقامت عسكر الشام بمصر تحت رئاسة أسد الدين شيركوه ورأوا طيب

بلادها وكثرة خيرها وسعة أموالها تأقت أنفسهم الى الإقامة بها واختاروا سكنها ورغبوا فيها رغبة عظيمة وقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها ثم علم انه لا يتم له ذلك وشاور باق فيها فاخذ في أعمال الحيلة عليه فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور وقال لهم قد علمتم رغبتى في هذه البلاد ومحبتى لها وحرصى عليها لا سيما وقد تحققت ان عند الصليبيين ما عندي وعلمت انهم كشفوا عورتها وعلموا مسالكها وتيقنت انى متى خرجت منها عادوا اليها وملكوها وهي معظم دار الاسلام وحلوبة بيت مالهم وقد قوي عندي ان اتب عليها قبل وثوبهم وأملكها قبل ان يملكوها وأخلص من شاور الذي يابى بنا وبهم ويضرب بنا وبهم وقد ضيع ضيع أموال هذه البلاد في غير وجهها وقوى بها الصليبيين علينا وما كل وقت ندرك الصليبيين ونسبهم الى هذه البلاد التي قات رجالها وهلك أبطالها فقالوا جميعاً لا يتم أمر الا بعد قتل شاور وتفرقوا على إيقاع القبض عليه . وكان شاور يركب في الابهة العظيمة والمدة الحسنة على عادة الوزراء لانه كان الوزير اذا ركب سار في موكبه الطبل والبوق وكان شاور قليل الركوب فاخذ الامراء يترصدونه الى ان ركب يوماً في ابنته وجلالته فلما عاينه الامراء هابوه وأحجموا عنه وكان يوماً عظيم الضباب وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل في وسط موكبه ثم سايه ثم مد يده الى تلايبيه وصاح عليه فرجله ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزائمهم ووقعوا في عسكر شاور فنهبوا ما كان مع رجاله وقتلوا منهم جماعة وحمل الملك الناصر شاوراً راجلاً الى خيمة لطيفة وأراد قتله فلم يقدر من غير مشاورة أسد الدين وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادماً يأمره فيه بقتل شاور فانفذ التوقيع الى صلاح الدين فقتله في الحال وأنفذ رأسه الى القصر فخلع الخليفة العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة بدل شاور وذلك في ١٧ ربيع أول سنة ٥٦٤ فسار أسد الدين ودخل القصر وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الحيوش وقصد دار الوزارة فبرز لها وهي التي كان بها شاور وسلفاؤه وكتب له منشوراً بالوزارة من القصر كتب العاضد في طرته بخطه (هذا عهد لا عهد لوزير بمثله وتقلد امانة رآك أمير المؤمنين أهلاً للجهة والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بان اعترت خدمتك الى نبوة النبوة واتخذ للفقور سيلاً ولا تنقض الايمان بمد توكيدها وقد

جعلت الله عليكم وكيلا (وجاء في المنصور ما يأتي (من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد الاجل الملك المنصور ساططان الجيوش ولي الأئمة مجير الامة أسد الدين كافي قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارس شيركوه العاضدي عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين . وادام قدرته واعلى كلمته سلام عليك فانه يحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ويسأله ان يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما الخ) فامر بقراءته على رؤوس الاشهاد وفرح به غاية الفرح وأعيدت قراءته عليه عدة مرات استحساناً لمعانيه . ثم ان الخليفة العاضد ارسل الى أسد الدين طبقاً من الفضة فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس اولاد اخوته وكان الكامل لما سمع بقتل ابيه قد التجأ الى القصر فقتله الخليفة

* { حكم الملك المنصور اسد الدين شيركوه ووفاته } *

لما استقر أسد الدين بالوزارة ولم يبق له منازع ولى الاعمال من يثق اليه واستبد بالولاية فاقطع البلاد للعساكر التي قدمت معه وصلاحي الدين مباشراً للامور مقرر لها وزمام الامر والنهي مفوض اليه الكفايته ودرايته وحسن تأنيه وسياسته وطلب أسد الدين من القصر كاتب انشاء للوزارة فارسل اليه عبد الرحيم اليسانى ومدحه الشعراء ومنهم العماد بقصيدة طويلة منها

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب	كم راحة جنيت من دوحة السعاب
ياشيركوه بن شاذي الملك دعوة من	نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا برخصهم	من المدى في العلا ما حزت بالخب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت	عنها الملوك فطالت سائر الرتب
ففتح مصر وأرجو أن تصير بها	ميسرا فتح بيت القدس عن كشب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من	فتح البلاد فبادر نحوها وب
أنت الذي هو فرد من بسالته	والدين من عزمه في جحفل لب

وفي حكمه شدد على النصارى وأمرهم بشد الزناير على أوساطهم ومنعهم من ارخاء الذوابة التي تسمى بالعزبه فكاتب المهذب ابن أبي المليح زكريا وكان مسيحياً الى أسد الدين بقوله

يا أسد الدين ومن عدله	يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد أوساطنا	فالذي أوجب كشف الفقا

فلم يسعفه بطلمه ولا مكنه من ارخاء الذؤابة وعند ما آيس من ذلك أسلم وكان
شريكه يعتبر نفسه نائباً لنور الدين في مصر وانه قائم بمنصب الوزارة باسمه ولكن
لم تطل مدته لانه كان مواظباً على تناول اللحوم السمينة وكانت تتواتر عليه السخم
والخوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤ ولم
يمكث في منصبه الا شهرين وخمسة أيام ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول
صلى الله عليه وسلم وكان شجاعاً بارعاً قوياً ذا صولة عنيفاً ديناً كثير الخير وكان يحب
أهل الدين والعلم كثير الايثار حدياً على أهله وأقاربه وخلف مالا كثيراً وترك
كثيراً من الحيل والدواب وخمسة مملوك وهم الاسديه وهو مشيد قواعد الدولة
الشاذية والمملكة الناصرية وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على اقطاع
مبلغه تسعمائة دينار وتنقل في خدمة الملك العادل محمود نور الدين الى ان ملك الديار
المصرية وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة أيام

﴿ وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف ﴾

لما توفي أسد الدين كما تقدم أصبح كل من الامراء النورية الذين كانوا قد صحبوا
أسد الدين يطلب التقدم على العساكر وولاية الوزارة منهم الامير عين الدولة اليازوقي
وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبو الهيجاء وسيف الدين علي بن أحمد
الهمكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين ومالت الاسدية الى صلاح
الدين فانفذ الخليفة العاضد يسأل عن يصلح للوزارة فارشد من جماعة من الامراء
على شهاب الدين الحارمي فانفذ اليه وأحضره وخاطبه في تولي الوزارة فامتنع من ذلك
وأشار بولاية صلاح الدين وكان الحارمي أولاً قد رغب في الوزارة وتحدث فيها فلما
رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها خاف ان يشتغل بطلبها فتفوته وربما
تفوت صلاح الدين فاشار عليه لانها اذا كانت لابن أخته كانت في بيته وكان صلاح
الدين قد وقع من العاضد بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته واقdamه على
شاور في موكله وقتله حين جاء أمره مع صغر سنه فسارع الى تقليده الوزارة
وما خرج شهاب الدين من حضرة الماضد الا وخلة الوزارة قد أرسلت الى صلاح الدين
وتلقب بالملك الناصر وكانت خلة الوزارة عمامة بيضاء تيسر بطرزي ذهب وثوب
دقيق بطرازي ذهب وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب وطيلسان دقيق بطرازي
دقيق ذهب وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار وسيف محلي مجوهر قيمته خمسة آلاف

دينار و فرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها و طوق و تحت و سرفسار ذهب مجوهر و في رقية الحجر مشددة بيضاء و في رأسها مائتا حبة جوهر و في أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر و قصبة ذهب في رأسها طالع مجوهر و في رأسها مشددة بيضاء بأعلام ذهب و مع الحلقة عدة بقع و عدة من الخيل و أشياء أخر و منشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض و كان ذلك يوم الاثنين الخامس و العشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ و قري المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة و حضر جميع أرباب الدولتين المصرية و النورية و كان يوماً عظيماً و خلع الملك الناصر على جميع الأمراء و الكبراء و وجوه البلد و أرباب دولة العاضد و عم الناس جميعهم بالهبات مع أنه قبل هذا المنصب كرهاً و كان جاء الى مصر بحجة عمه أسد الدين كرهاً أيضاً « ان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل » و أما الأمراء فأنهم لم يلتفتوا اليه و لا خدموه و كان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه فسعى عند سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله اليه قائلاً له ان هذا الامر لا يصل اليك مع وجود عين الدولة و الحارمي و ابن تليل فمال الى صلاح الدين ثم قصد أيضاً الى قطب الدين و قال له ان صلاح الدين قد أطاعه باقي الأمراء و لم يبق سواك فالأحسن ان تطيعه و هكذا حتى أماله و سار الى عين الدولة الياووقي و فعل معه كما فعل مع سلفائه فلم يقبل منه ذلك و سار بمسكته الى نور الدين بالشام

و أما صلاح الدين فانه كان بصفته نائب عن الملك العادل محمود نور الدين و قائم مقامه بالديار المصرية و كانت الخطبة في جميع البلاد باسم الملك العادل بعد ذكر الخليفة العاضد و كان الملك العادل نور الدين يكتب الملك الناصر صلاح الدين بالامير الاسفهلار و صار يحكم في الرعية بالعدل المملوء حياءً حتى أحبته الرعية و استمال قلوبهم و بذل لهم المال فتقويت نفسه على ذلك و ضعف أمر الخليفة العاضد و طلب صلاح الدين من نور الدين ارسال اخوته فلم يجبه الى ذلك و قال أخاف أن يخالف احد منهم أو امرك فتفسد البلاد . و بعد مدة سير نور الدين الى مصر اخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب و هو أكبر من صلاح الدين و قال له ان كنت تسير الى مصر و تنظر الى أخيك يوسف الذي كان يخدمك فلا تسرفك فتفسد البلاد فأعاقبك و ان كنت تنظر اليه أنه صاحب مصر و قائم فيها مقامي و تخدمه بنفسك كما تخدمني فسر اليه و اشدد ازره و ساعده على ما هو بصدده فقال أفعل

معه من الخدمة والعلامة ما يصل اليك فكان كما قال . وكان نور الدين قد أثر عنده
تنصيب صلاح الدين على الديار المصرية حتى قال ما أخطأت الا في تفادي أسد الدين
الى مصر بعد علمي برغبته فيها وكان يبالغ الملك الناصر صلاح الدين من أقوال نور الدين
وبعض أصحابه اشياء تؤلمه غير انه يلقاها بصدر رحب وخلق عذب . وأمر صلاح
الدين بإبطال المكوس والمظالم ما يقدر من ذلك بديوان صناعة مصر مائة الف
دينار وما يستخرج بالأعمال البحرية والقبلية بمائة الف دينار فسامح بجميع ذلك
وأصدر بهم منشوراً يقرأ على المنابر وسامح أيضاً في كثير غير ذلك وامتدحه الشعراء
وقال احدهم شعر

فالشام يغبط مصر امدحلت بها كما الفرات عليكم يحسد النيل
نلت من الملك عفواً ما الملوك به عنوا قديماً وراموه فما نيلا

وقال بعضهم

لك الحسب الباقي على عقب الدهر بل الشرف الراقى الى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك اذا سمعت بها الهمم العليا الى شرف الذكر
نهضتم باعباء الوزارة نهضة أقامتم بها الاقدام من زلة العثر
كسفتهم عن الاقايم غمته كما كسفتهم بانوار الغنى ظامة النقر
حيتم من الافرنج سرب خلافة جريتم لها مجرى الامان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم ودائرة الافصار اضيق من شبر
جلبتم اليه النصر أوساً وخزرجاً وما اشتقت الافصار الامن النصر
كتائب في جيرون منها أواخر وأولها بالنيل من شاطئ مصر
طاعتهم فطاعتكم كواكب نصرة أضاءت وكان الدين ليلاً بلا فجر
وأبت اليكم يا ابن أيوب دولة ترأسكم في كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزيمة أسدية فكفكم بها الاسلام من ربة الاسر

* قتل جوهر مؤتمن الخلافة وواقعة العميد *

لما استقام صلاح الدين بالوزارة وعظم نفوذه وكثرت نصراؤه داخل الحسد مؤتمن
الخلافة جوهر الخضي وحدثه نفسه بخلع صلاح الدين وواقعه كثير من الاسراء المصريين
والجند واتفق رأيهم ان يبعثوا الي الصليبيين ببلاد الساحل يستدعونهم الي القاهرة
حتى اذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكره ناروا وهم في القاهرة واجتمعوا مع

الصليبيين على اخراجه من مصر . فسير وارحلا الى الصليبيين وجعلوا كتبهم معه في نمل
 فسار الرجل الى ان وصل الى البير البيضاء قريبا من بليس فاذا ببعض اصحاب صلاح
 الدين قابل الرجل هناك فانكر امره لانه حمل نعله في يده وليس فيها اثر مشي
 والرجل رث الهيئة فارتاب فيه وأخذ النملين وشقهما فوجد الكتب بداخلهما
 فحمل الرجل والكتب الى صلاح الدين فتتبع خطوط الكتب حتى عرفت فاذا
 الذي كتبها من اليهود الكتاب فلما احضروه ليسألوه ويماقبوه على خطه نطق
 بالشهادة قبل كلامه ودخل في عصمة اسلامه ثم اعترف بما جناه وان الذي امره هو
 مؤتمن الخلافة جوهر فباع ذلك الى جوهر فخاف على نفسه ولزم القصر وامتنع
 من الخروج فاعرض صلاح الدين عن ذلك جملة وطال الامد فظن الحصري انه قد
 أهمل أمره وشرع يخرج من القصر وكانت له منظره بناها بناحية الخرقاويه بقرب
 قليبوب في بستان فخرج اليها في جماعة وبلغ ذلك صلاح الدين فأنهض اليه عدة هجموا
 عليه وقتلوه في يوم الاربعاء ٢٥ ذي القعدة سنة ٥٦٤ هـ واحتزوا رأسه وأتوا به الى
 صلاح الدين فاشهر ذلك في القاهرة وأشيع فنضب المسكر المصري وساروا باجمعهم
 وقد انضم اليهم عالم عظيم من الامراء والعامة حتى أصبح عددهم نيفاً و ٥٠ ألفاً
 وساروا الى دار الوزارة وفيها صلاح الدين وقد استعدوا بالاسلحة فبادر شمس الدولة
 نحر الدين تورانشاه أخو صلاح الدين ونادى بالعساكر الغز (الشاميه) ورتبهم
 ووقفت الطائفة الريحانية والعائفة الجيوشية والطائفة القرنجية وغيرهم من الطوائف
 السودانية ومن انضم اليهم في محلة بين القصرين فتارت الحرب بينهم وبين صلاح
 الدين واشتد الامر وعظم الخطب حتى لم يبق الا هزيمة صلاح الدين واصحابه وعند
 ذلك امر تورانشاه بالحملة على السودانيين فقتل منهم احد مقدمهم فانكسرت شوكتهم
 قليلا وعظمت حملة الغز عليهم فانكسروا الى باب الذهب ثم الى باب الدهومة وقتل
 حينئذ عدة من أمراء المصريين وكثير من سواهم . وكان العاضد في هذه الواقعة
 يشرف من المنطرة فلما رأى أهل القصر كسرة السودانيين وعساكر مصر رموا
 الغز من اعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكروا فيهم وكفوهم عن القتال وكاد
 هؤلاء ينهزمون فامر حينئذ صلاح الدين باحراق المنطرة فاحضر شمس الدولة
 النفاطين وأخذوا في اعداد قارورة النفط وصوبوها الى المنطرة حيث يقم العاضد
 فخاف على نفسه وفتح زعيم الخلافة باب المنطرة وقال بصوت عال (أمير المؤمنين
 يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم) فلما

سمع السودانون ذلك ضعفت قلوبهم ونحاذلوا فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم أقتيتهم الى ان وصلوا الى سوق السيوفين فقتل منهم كثير وأسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق بهم وكان في دار الارمن قريباً من بين القصرين كثير من هذه الطائفة وكلهم رماة ولهم جريئة في الدولة تجري عليهم فغدا ما قرب منهم الغزرموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيروا الى العبيد فاحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقاً وقتلاً ومروا الى العبيد فصاروا كلما دخلوا مكاناً أحرق عليهم وقتلوا فيه الى ان وصلوا الى باب زويله وكان مغلق ففحصوا هناك واستمروا فيهم القتل مدة يومين وكان صلاح الدين قد احرق المنصورة وهي حارة لهم بجهة باب زويله وأعظم حاراتهم وأخذت عليهم أفواه السكك فليقتلوا منهم قد أخذوا لاجالة وطلبوا الامان فامنوا وذلك يوم السبت ٢٨ ذي القعدة وفتح لهم باب زويله فخرجوا الى الحيزة فعدى عليهم شمس الدولة في العسكر وقد قوا باموال المهزومين وأسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد وتلاشى بعد هذه الواقعة أمر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبنى القاهرة يدعى جوهر والذي كان سبباً في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى أيضاً جوهر الملقب بمؤمن الخلافة . فلما انتهت هذه الواقعة واستئصمت جرثومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكون فولي أخاه تورانشاه قوص واصوان وعيناب مكافأة لما أظهره من البسالة في هذه الواقعة وجعل البلاد المذكورة له اقطاعاً فكان دخلها في تلك السنة (٢٦٦٠٠٠) دينار

* محاصرة الصليبيين ثغر دمياط *

لما علم الملك أموري ملك القسطنطينية خبر تملك اسد الدين شيركوه مصر خاف على بلاده لانه صار بين عدوين نور الدين من الشام وأسد الدين من مصر فجمع مجلس شوره وقر رأيهم على ارسال فريدريك بطريك صور ومعه يوحنا اسقف عكا للاتجاء بملوك فرانسوا وانكلترا وسيسيليا وغيرهم من ملوك أوروبا فلم تنجح مسعاهم ثم ارسل الى عم زوجته ملك الروم بالقسطنطينية فارسل اليه عماره بحرية مؤلفة من مائة وخمسين مركباً ملاءة بالزخاير والمؤن والعدة والرجال فاتحدت بباقي الصليبيين الموجودين بالشام وساروا براً وبحراً الى مصر حتى اذا بلغوا الفرما ساروا الى دمياط فمكسروا بينها وبين البحر في أول صفر سنة ٥٦٥

وكانت هذه الحملة بقيادة الملك اموري أيضاً فظن انه يقدر على أخذ دمياط بالهجوم
ويملكونها ليجمعون لها ظهراً لهم يملكون به ديار مصر الا انه رأى منها مقاومة
ودفاعاً اضطره لاقامة الحصار فقامه . فارسل اليها صلاح الدين العساكر في النيل
وحشر فيها كل من عنده وامدهم بالمال والسلاح والذخائر وارسل الى نور الدين
يشكوا ما هو فيه من المخاوف ويقول انه اذا تخلف عن دمياط ملكها الصليبيون
وان سار اليها وأخلى القاهرة خاف من غدر المصريين به وطلب منه المدد فجهر
نور الدين اليه العساكر ارسالاً اكمل تجهزت طائفة ارسالها ثم سار نور الدين الى
بلاد الصليبيين بالشام فنهضوا وغار عليها واستباحها ووصلت غاراته الى ما لم
تبلغه لخلو البلاد من مانع وكذلك الخليفة العاضد فانه أمد صلاح الدين بمليون دينار
مصري سوى الثياب وغيرها وارسل صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين وخاله شهاب
الدين الحارمي الى دمياط وطال امد الحصار حتى نفذت مؤونة الصليبيين فارادوا
العبور في النيل ليأتوا بالزاد فاوقفهم حاجز أقامه المسلمون في عرض النهر وهو
عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد ممكن بمتاريس دمياط والطرف
الأخر ببرج هائل منيع الجانب وكانت ترد الامداد الى حامية دمياط من القاهرة
بكل سهولة . أما الصليبيون فكانوا ينتظروهم للمدد من سوريا عبثاً فانتشر الجوع
في معسكرهم فحدث الشقاق بين الفرنسيين وهم الذين كانوا في سوريا واليونانيين
الذين أتوا بالمدد من القسطنطينية واشتد حتى افضى الى الانفصال التام بعد ان
بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيماً فكانوا يتخاصمون على كسرة خبز ويمضغون افان
التخيل ومما زاد تعاستهم تكرار الامطار والذوابع على معسكرهم بدون انقطاع
حتى اصبحوا كأنهم في طوفان عظيم وحصل من هياج الاعصار نوء في النيل
اسرع جريه فتزاحمت مراكب الصليبيين وتلاطمت فلم يعد استخدامها ممكناً لوقوعها
بين قوتين متضادتين الريح ومجرى النيل فتكسر معظمها . وكان نور الدين قد
ارسل حملة بقيادة الامير قطب الدين خسرو الهمداني فنزل دمياط في ١٥ ربيع أول
سنة ٥٦٥ واحرقت العساكر الاسلامية باقي مراكب الصليبيين ومنجانيقاتهم
وآلات حربهم وقتلوا منهم كثيراً . فلما حل بالصليبيين ذلك لم يروا بداً من العود
على اعقابهم الى سوريا صفر الايدي بعد ان تعاهدوا مع المسلمين ان لا يعارضهم
معارض في سيرهم فرجعوا خائسين في ٢١ ربيع أول وصدق فيهم المثل (ذهبت
النعامة تطلب قرننين فعادت بلا اذنين) وكان صلاح الدين قد اعد في القاهرة

جيوشاً ليسير بها ممدداً الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الحيوش الصليبية
مراكزها فشق عليه ذلك ووبخ الامراء الذين سمحوا لهم بالانسحاب ثم عاد
الى القاهرة وامتدحه عمارة النبي بقصيدة منها

من شاكر والله أعظم شاكر ما كان من نعمي بني أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا حسبي فأنتم غاية المطلوب
جلبوا الى دمياط عند حصارها عن القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة لو لم يجلبوها أت بكروب
فالناس من أعمال مصر كلها عتقاءهم من نازح وقريب
ان لم تظن الناس قشراً فارغا وهم اللباب فأت غير ليدب
﴿ مسير نجم الدين أيوب وباقي عائلته الى مصر ﴾

ثم أرسل صلاح الدين الى نور الدين يطلب قدوم والده وباقي عائلته وكان الخليفة
المستنجد بالله العباسي ببغداد قد أرسل الى نور الدين يعاتبه من تأخير إقامة الدعوة
له بمصر فانتقم هذه الفرصة وأحضر الأمير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج الى
ولده بمصر وسلمه رسالة منها (وهذا أمر يجب المبادرة اليه لتحظى بهذه الفضيلة
الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور القوت لاسيما وامام الوقت
متطلع الى ذلك بكلية وهو عنده من اهم أمنيته) ثم ان الأمير نجم الدين جهز
حاله للمسير الى مصر وسار معه نور الدين مشيعاً الى رأس الماء وعاد نور الدين
بعد توديعه وسار نجم الدين الى ان وصل بالسلامة الى مصر في ٢٧ رجب سنة ٦٥٥ هـ
نفرج الخليفة العاضد من قصره لاستقباله وكذلك جميع الامراء والاعيان وباقي
أرباب الدولة المصرية الى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الاهليلج ولم يجر بذلك
عادة لهم وكان من أعجب يوم شهدته الناس وخلع الخليفة العاضد عليه ولقبه الملك
الافضل وحمل اليه من القصر اللطاف والتحف والهدايا وأظهر صلاح الدين
من بره وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والاجر وأفرد له داراً بجانب داره
وأقطعته الاسكندرية ودمياط والبحيرة ومدح صلاح الدين عمارة النبي بقصيدة منها

صحت به مصر وكانت قبله تشكو سقاماً لم يعن بطيب
عجياً لمعجزة أتت في عصره والدهر ولاد لكل عجيب
رد الاله به قضية يوسف نسقاً على ضرب من التقريب

جاءته اخوته ووالده الى مصر على التدرج والترتيب
 فاسعد بأكرم قادم وبدولة قد ساعدتك رياحها بهبوب
 ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم
 في مشرق المجد نجم الدين مطالعه
 وكل ابنائه شهب فلا أفلوا
 جاءوا يعقوب والاسباط اذوردوا
 على العزيز من أرض الشام واشتملوا
 لكن يوسف هذا جاء اخوته
 ولم يكن بينهم نزع ولا زل
 وملكوا ارض مصر في شياخه
 ومثلها لرجال مثلهم نزل
 * محاربة نور الدين حصن الكرك والزلازل الكبرى *

بعد ما ودع نور الدين الامير نجم الدين سار بعسكره الى بلاد الكرك في مستهل
 شعبان سنة ٥٦٥ ونزل أياماً باللقاء على عمان وأقام على الكرك اربعة ايام فحاصرها
 ونصب عايها متجانيقين فورد اليه الخبر بان الصليبيين قد تجمعوا ووصلوا الى ماء عين
 فرحل اليهم نور الدين فلما سمعوا بارتداده عليهم ولوا مدبرين وعاد نور الدين الى
 حوران نخيم بمشترأ وأقام ينتظر حركتهم ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه
 وقصد نور الدين بلادهم حتى توسطها فهب ما كان على طريقه وفي هذه السنة
 أيضاً في ١٢ شوال حصلت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلاً عمت أكثر البلاد
 من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق الا ان أشدها وأعظمها كان بالشام
 تخربت بعلبك وحصن وحماه وشيزر وبعرين وغيرها وتهدمت أسوارها وقلاعها
 وسقطت الدور على أهلها وهلك من الناس كثير فسار نور الدين الى بعلبك
 لتعمير سورها فرتب من يحميها ويحمرها وسار الى حصن ففعل مثل ذلك وسار منها
 الى غيرها ماراً بجميع البلاد لحوفه من هجوم الصليبيين الى ان وصل الى حلب
 فوجد أكثرها مهتداً فاقام بنفسه على عمارتها وأما بلاد الصليبيين فان الزلزلة
 أضرت بها أكثر من سواها وهدمت أسوار مدنها فاجتهدوا في تعميرها خوفاً
 من نور الدين وهكذا فان كلا من الفريقين انشغل عن الآخر وكانت هذه الزلزلة
 قد حصلت في يوم عيدهم وهم في الكنائس فوقعت عروشها عليهم

﴿ محاربة صلاح الدين بلاد الصليبيين ﴾

في السنة التالية لازل سار صلاح الدين في جيش عظيم الى سوريا لمحاربة

الذين ضافوه في السنة الماضية فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ فعلم الملك أموري وهو في عسقلان ان صلاح الدين قد حاصر قلعة دارون وهو دير قديم للانساري وموقعه على قمة جبل وعمر على أربعة أميال من غزّه اتخذ الصليبيون حصناً فاسرع لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان قد علم صلاح الدين بقدمه فسار للملاقاة فلاقاه في منتصف الطريق وحاربه وغلبه ونزل على غزّه فاستولى عليها واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اكتفوا بها أخذاً بالشارف تركوا في غزّه حامية كافية وعادوا الى مصر . ثم باغ صلاح الدين بن الصليبيين قد احتلوا آيله وتحصنوا فيها وهي قلعه على البحر الاحمر فسار اليها ومعه عصابة من رجاله الاقوياء وحمل معه مراكب مفككة نقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند آيله ركب تلك المراكب وانزلها الى البحر وهاجم آيله في ربيع أول سنة ٥٦٦ هـ برأً وبحراً وظل عليها حتى فتحها رجاله وقتلوا من كان فيها من الصليبيين وجعل فيها صلاح الدين جماعة من ثقته وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى مصر

﴿ وفاة الخليفة المستنجد بالله وخلافة المستضيء بأمر الله ﴾

في يوم السبت تاسع ربيع آخر سنة ٥٦٦ هـ توفي الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي بالله وكانت خلافته احدى عشر سنة و٦ أيام وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس وهذا العدد له بحساب الجمل واللام والباء وفيه يقول بعض الادباء أصبحت لب بني العباس كلهم ان عددوا بحساب الجمل الخلفاء وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلاً فيهم كثير الرفق بهم ثم بويع بالخلافة ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن

﴿ وفاة الخليفة العاضد لدين الله بمصر والخطبة فيها لبني العباس ﴾

كان نور الدين قد أرسل الى صلاح الدين يطلب منه الخطبة لامباسيين بمصر كما تقدم فاعتذر اليه صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين فلم يصنع نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاماً لا فسخة فيه واتفق ان الخليفة العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الامراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فنهض من اقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك الا انه لم يمكنه الامتنال أمر نور الدين

وكان قد دخل مصر انسان أعجمي اسمه أمير عالم فلما رأى ما هم فيه من الاحتياج قال أنا أبتدي بها . فلما كان أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ صعد المنبر في أكبر جامع وخطب بالناس ودعا للخليفة المستضيء بأمر الله فلم ينكر ذلك احد عليه وكان موجوداً بالمسجد الامير نجم الدين وجماعة من الامراء خوفاً من حصول حادث لكي يمتدح صلاح الدين عن نفسه وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميع خطباء القاهرة ومصر بقطع خطبة العاضد وان يخطب للمستضيء العباسي ففعلوا ولم يعارضهم أحد وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك وقالوا ان سلم فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان ننص عليه هذه الايام الباقية من عمره فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بشيء من ذلك وبعد وفاته جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خضيه لحفظه وجعله كاستاذ دار العاضد بعد قتل جوهر مؤتمن الخلافة وكان لا يدخل القصر شيء أو يخرج منه الا بأمر صلاح الدين فيحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكل لحفظهم وجعل أولاده وعمومته وابنائهم في القصر الكبير الكائن بحارة بيرجوان وكان عيشهم فيها طيباً ثم نقلوا بعد الدولة الايوبية منها وجعل عندهم من يحفظهم وأبعد عنهم النساء وأخرج من كان بالقصر من العبيد والجواري فاعتق البعض ووهب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه ودخلت مصر في حماية الخلافة العباسية الدينية في بغداد بعد خروجها منها مدة مائتين وثمان وستين سنة ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظنهم مكيدة فلم يمض اليه فلما توفي علم صدقه وندم صلاح الدين على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض وقال لو علمت انه يموت من هذا المرض ما قطعها الى ان يموت . وفتح الخزان التي بالقصر وأخذ كل ما صاحب له ولاهله ولامرأته ولخواص مماليكه من الذخائر وزواجر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدرة اليتيمة والياقوتة العالية غالية القيمة والمصوغات التبريه والمصنوعات العنبريه والاواني الفضية والصواني الصينيه والمنسوجات المغربية والكرائم والبنائيم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنشود والدر والياقوت والبسط والفرش وما لا يند احصاءه ولا يحمد استقصاءه واسرف في العطاء وأطلق البيع في كل حديث وعتيق وليس وسحق ورخيص وغال واستمر البيع فيه عشر سنين ومن عجب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر ونيف قطعة واحدة

وكان حجمه مقدار الأبهام ووجد فيه طبل للقولنج فانه دفع الى بعض الأكراد
 فم يدر ما هو فكسره لانه ضرب عليه فحبق ووجد ابريقاً عظيماً من الحجر المانع .
 وان القاضي الزمرد فان صلاح الدين أحضر صانع ليقطعه فابى الصانع قطعه فرماه
 بنفسه فانقطع ثلاث قطع ففرقه على نسائه وأما الأبريق فانفذه الى الخليفة ببغداد
 ومن جملة ما باعه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا لانه لم يكن في جميع بلاد
 الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة داخل القصر ويقال انها كانت تحتوي
 على مليوني كتاب واقتسم الناس بعد ذلك القصر وامتدحه الناس وقال العرقلة
 أصبح الملك بعد آل علي مشرقاً بالملوك من آل شاذي
 وغدا الشرق يحسد الغرب للقبو م ومصر تزهو على بغداد
 ما حووها الا بحزم وعزم وصليل الفولاذ في الفولاذ
 لا كفر عون والعز يزومن كان بها كالحصيب والاستاذ
 ثم أرسل صلاح الدين البشار الى نور الدين بالخطبة للعباسيين بمصر وعمل
 نور الدين قصيدة لتلى أمام الخليفة ببغداد وأرسل شهاب الدين ابو المعالي المطهر
 بهذه البشارة فنها

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى امام العصر
 وخذلنا لنصرة العضد العا ضد والقاصر الذي بالقصر
 وأشعنا بها شمار بني العبا س فاستبشرت وجود النصر
 وتركنا الدعى يدعوا ثبوراً وهو بالذل تحت حجر وحصر
 وتباهت منابر الدين للخطبة للهاشمي في أرض مصر
 واستنارت عزائم الملك العا دل نور الدين الكريم الاغر
 فلما وصل شهاب الدين الى بغداد خرجوا بموكب لمقابلاته وكذلك خرج أهل
 بغداد وكان يوماً مشهوداً وأنعم الخليفة على الملك العادل محمود نور الدين بتشريف
 عظيم القدر ومعه سيفان اشارة الى تملكه مصر والشام وعلى صلاح الدين بتشريف
 آخر ولما وصل التشريفان الى الملك العادل أخذ تشريفه وأرسل الى صلاح الدين
 تشريفه بمصر مع جملة خلع عظيمة من عنده ليفرقها على أرباب الدولة المصرية
 وكذلك جملة أعلام ورايات سود للخطباء بمصر وانتهت مدة الدولة الفاطمية أو العلوية
 التي حكمت البلاد من سنة ٢٩٩ الى سنة ٥٦٧ وكانوا أربعة عشر خليفة ثلاثة منهم
 بافريقيه بالمغرب وهم الملقبون بالمهسدي والقائم والمنصور وأحد عشر بمصر وهم

الملقبون بالمعز والنزير والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافل والظافر والفائز والماخذ وكان يدعون الشرف والنسبة الى الامام علي والحقيقة انهم ينسبون الى مجوسي أو يهودي كما ذكر ذلك بكتب العلماء الاعلام وكانوا يسببون الصحابة ويقتلوا من يحبهم

﴿ محاربة نور الدين الصليبيين بناحية حصن عرقه وغيره ﴾

في سنة ٥٦٧ هـ أيضاً خرجت سراكب تجارية من مصر قاصدة الشام فاخذ افرنج اللاذقية مركبين منها مملوأتين بالامعة والتجار وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا فلما سمع بعمالهم استعظمه وراسل الصليبيين في ذلك وأمرهم بإعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمر منها ان المركبين كانا قد دخلاهما ماء البحر لكسر فيهما وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ولكنهم كانوا كاذبين فلم يقبل مغالطتهم وهو لا يعمل أمراً من أمور رعيته فلما لم يردوا شيئاً جمع العساكر من الشام والموصل وبث السرايا في بلادهم بمضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقه وأخرب روضه وأرسل طائفة من العسكر الى حصني صافينا وعريمه فأخذها عنوة وكذلك غيرها ونهب وخرب وغنم المسلمون كثيراً وعادوا اليه وهو في عرقه فسار في العساكر جميعها الى قريب من طرابلس يخرب ويحرق وينهب وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتخريب والتخريب بولاية طرابلس فراسله الصليبيون وطلبوا منه الهدنة واعادة ما أخذوه من المركبين فاجابهم الى ذلك وصح فيهم المثل (اليهودي لا يعطي الجزية حتى ياطم) وكذلك الصليبيون فانهم لم يعيدوا أموال التجار بالتي هي أحسن حتى نهبت بلادهم وخربت

﴿ يريد الحمام ﴾

لما اتسعت بلاد نور الدين وطالت مملكته حتى أصبحت من حدود النوبة الى همدان لا يتخللها سوى بلاد الصليبيين الذين ربما نازلوا بعض الثغور فلا يبلغه الخبر ليسير اليهم الا بعد ان يبلغوا الغرض فاندلك أمر في سنة ٥٦٧ هـ باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة الى اوكارها فاتخذت في سائر بلادهم وترتب لها جرايات ورجال لتربيته فوجد بها راحة كبيرة وكانت الاخبار تأتيه في حينها لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومنهم من حمام المدينة التي تجاورهم

فاذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه بورقة علقوها بالطائر وأطلقوه الى المدينة التي هو منها فيصالحها في ساعته فنقل الرقعة منه الى طائر المدينة الثانية وهكذا الى المدينة المقيم فيها الملك العادل فأنحفظت الثغور بذلك حتى ان طائفة من الصليبيين نازلوا ثغراً له فأنه الخبر في أول يوم فكتب نور الدين الى العساكر المجاورة الى ذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو وأرسله على طائر الحمام ففعلوا ذلك فظفروا فما كان أحسن نظره للارعايا والبلاد

نور الثغور بين صلاح الدين ونور الدين

كان صلاح الدين مع تظاهره في تأييد سلطة الحلفاء العباسيين لا يفتقر ساعياً الى اتمام مقاصده التي كانت لا تزال تحت طي الحفاء وهي استقلاله بمصر فآخذ في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنه من الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه بذلك فاحس بذلك نور الدين فبعث اليه يستقدمه ومعه فرقة من رجاله مظهراً استنجاهه في حربه مع الصليبيين عند الكرك وانما كان قصده الحقيقي ان يخرج من مصر ويبقيه عنده تحت ملاحظته فأمن من غائلته . فادرك صلاح الدين مقصده هذا لكنه لم يستصوب مخالفة أوامره لئلا تتنافر القلوب فتعزقل مساعيه فكتب اليه انه اذعاناً لامره قد برح القاهرة بفرقة من الجند في ٢٠ محرم سنة ٥٦٨ للملاقاة جيوش نور الدين في الكرك . فلما وصل نور الدين اليها لم يجد فيها أحداً فانتظر فلم يقده واثم ورد اليه كتاب ثان من صلاح الدين يخبره انه برح القاهرة بجنده الى الكرك فعرض له في الطريق ما ألجأه الى العودة حالاً الى مصر وكان رجوعه في منتصف ربيع أول فعلم نور الدين انها مماطلة مقصودة فآقر على المسير بنفسه الى مصر والاستغال بصلاح الدين عن الصليبيين ولكنه قبل ذهابه بعث الى صلاح الدين يتهده بالعزل اذا لم يبادر الى ما أمر به فاستدعى صلاح الدين رجال عائلته وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء فلما تكامل الجمع اعلمهم بما كان بينه وبين نور الدين وما بلغه من عزمه على المجيء اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة فنهض ثقي الدين عمرو بن شاهنشاه أخو صلاح الدين فقال (الراي اذا جاءنا نور الدين قاتلناه ومنعناه عن البلاد) ووافقه غيره من أهاليهم . فشتهم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين واستعظم أقوالهم وشم ثقي الدين وأقعدده وقال لصلاح الدين (ها أنا أبوك وهذا

شهاب الدين خالك وهل تظن بين هذا الجمع من بحبك ويخلص لك أكثر منا)
قال لا فقال (اعلم يا يوسف اننا والله لو رأينا نور الدين لم نمكث الا ان تقبل ركبته
ونقتل بين يديه ولو أمرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما
ظنك بغيرنا . وكل الذين تراههم عندك من الامراء لو رأوا نور الدين وحده لم
يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها
فان أراد سمعنا وأطعنا والرأي ان تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه بلغني انك تريد
الحركة الى هذه البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبي منديلاً
ويأخذني اليك وما هنا من يمنع) ثم قام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا
وأكثرهم أرسل الى نور الدين بما تم . ثم خلا نجم الدين أيوب بولده صلاح الدين
فقال له (أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتعلمهم على ما في نفسك
فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الامور اليه ويقصدك
فلم تر معك من هذا العسكر أحداً وكانوا أسلموك اليه أما الآن بعد هذا المجلس
فسبكتون اليه ويعرفونه قولي وما أظهرنا من الطاعة له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار
تعمل عملها والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى
أمنعه أو أقتل) ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه . فلما وصل كتاب صلاح
الدين الى نور الدين كما قصه أبوه سكن روعه وتوقف عن المسير الى مصر ثم أرسل
صلاح الدين الى نور الدين ستين الف دينار ومعها جملة من الهدايا فقال نور الدين
ما كانت بنا حاجة الى هذا المال ولا نسد به خلة الاقلال فهو يعلم انا ما انفقنا
الذهب في ملك مصر وبنا الى الذهب فقر وتمثل بقول أبي تمام

لم ينفق الذهب المرابي بكثرة على الحصاوبه فقر الى الذهب

وقال انه يعلم ان تغور الشام مفتقرة الى السداد ووفور الاعداد من الاجناد
ويجب عليه المعونة بالامداد وأرسل الموفق القيسراني وزيره الى مصر وأمره بعمل
حساب البلاد وايرادها ومصرفها لاجل تقرير شيء على صلاح الدين يدفعه في
كل سنة

معاربة نور الدين وصلاح الدين الصليبيين

في سنة ٥٦٨ سار كل من نور الدين بجيشه وصلاح الدين بجيشه لمحاربة الافرنج
فسار نور الدين الى مرعش فحاصرها وفتحها في شهر القعدة ثم سار الى بهسني

فنازلها وأخذها في شهر الحجة واتفق خروج الملك اموزي للاغارة على رواد من ناحية حوران وهو في جمع كثير من عساكره فنزلوا في قرية تعرف بسمسكين فركب نور الدين اليهم وأقبل بمساكره عليهم فلما عرفوا وصوله رحلوا الى الفوار ثم الى السواد ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين في عشترا فارسلى سرية الى أعمال طبرية واغتمم خلوها فتوجهت اليها السرية واغارت عليها ونهبها فلما عادت لحقها الصليبيون عند المخاضه فوقفت الشجعان حتى عبرت السرية بما معها من الغنائم ولم يالحق بها ضرر أما صلاح الدين فإنه سار قاصداً بلاد الكرك والشوبك لأنها أقرب اليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ولا يمكن ان تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فاراد توسيع الطريق وتسهيله لتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة تخرج الى الكرك وحاصرها وجرى بينه وبين الصليبيين وقعات كثيرة فبرح بهم وفرق عنهم عربها وخرب عماراتها وفرق على أعمالها سراياه بغاراته فامتنعت عنها العرب بعد ما كانت تتحد مع الافرنج دائماً

فتح بلاد النوبة

اجتمع السودانيون ببلاد النوبة وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاده مصر وصاروا الى أعمال أصوان وكان بها الامير كنز الدولة فانفذ يعلم الملك الناصر صلاح الدين وطالب منه نجدة فانفذ فرقة من جيشه مع الشجاع البعلبكي فلما وصل الى أصوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد ان أخبروا أرضها فاتبعهم الشجاع والكنز فجرت بينهم حرب عظيمة قتل فيها كثير من الفريقين ورجع الشجاع الى القاهرة واخبر بفعال العبيد وتمكنهم من بلاد اصوان فانفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف فوجدتهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصداً بلادهم وشحن مصراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرد وأمرها بالحقاقه الى بلاد النوبة فلما وصل نزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها من المال والميرة وخلص جماعة من الاسرى وأسر من وجده فيها وهرب صاحبها . ثم رجع شمس الدولة الى اصوان ثم الى قوص وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم فاقطعه اياها وانفذ معه جماعة من الاكراد البطالين فلما وصلوها تفرقوا فرقاً وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى برحوا بها واكتسبوا أموالاً كثيرة فنمت أرزاقهم وكثرت مواشيهم واتفق انهم عدوا الى

جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة ذبدان فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه ورجع من بقي منهم الى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها واخذوها فعاد السودانيون اليها وملكوها وانفذ ملك النوبة رسولا الى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية جارية وعبد فكتب اليه الجواب وأعطاه زوجي نشاب وقال ما لك عندي جواب الا هذا وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبي وأوصاه ان يكشف له خبر البلاد ليدخلها فصار الحلبي مع الرسول حتى وصل دقته وهي مدينة الملك فوجدها بلاداً ضيقة ليس بها ذرع الا ادره وعندهم نخل صغار وليس بالمدينة عمارة الا دار الملك فقط وباقيها أخصاص والامثال امام الملك امر ان تكوى يده فكوى عليها هيئة صليب وأمر له بخمسين رطل من الدقيق وصرفه

﴿ وفاة نجم الدين ايوب وبعض سيرته ﴾

في اثناء محاصرة صلاح الدين الكرك والشوبك توفي والده نجم الدين ايوب بمصر وكان راكباً فرسه بالقاهرة فشب به عند باب النصر يوم الاثنين ١٨ ذي الحجة سنة ٥٦٨ هـ وحمل الى منزله وعاش ثمانية أيام وتوفي الى رحمة ربه في ٢٧ منه فدفن بالقاهرة الى جانب اخيه أسد الدين بالدار السلطانية الى أن نقل الى المدينة المنورة وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً وبابه مزدحم الوفود وهو متلف الموجود ببذل الجود وكان شديد الركض ولعباً بلعب الكرة فلما وصل خبره الى ولده صلاح الدين اشتد روعه وحزن عليه حزناً شديداً وتجلد بالصبر وقال وتخطفت يد الردي في غيبي هبني حضرت فكنت ماذا أصنع وهو الامير نجم الدين ايوب بن شاذي ولا يعرف في نسبه أكثر من والده شاذي وكان مولده ببلد شبختان وقيل بجبل جور وربى في بلد الموصل ونشأ شجاعاً باذلاً وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه امانة وعقلا وسداداً وشهامة فولاد قامة تكريت فقام في ولايتها أحسن قيام وضبطها اعظم ضبط وأجلى عن ارضها المفسدين وقطاع الطريق حتى عمرت وحسن حال أهلها فلما ولي السلطان مسعود الملك أقطع قامة تكريت لمجاهد الدين بهروز خادم شحنة بغداد ومتولي العراق فافر الامير نجم الدين في ولاية تكريت وأخاف اليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له وجعل بهروز قامة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله وجعل جميع ذلك منوطاً

بالامير نجم الدين وكان السلطان مسعود وأتابك زنكي قد طمعا ببغداد فسارا الى أن وصلا تكريت فتقابلوا مع قراحه الساقى وهو أتابك بن السلطان محمود فجرد ألف فارس عليهم ثم اوقفهم بمسكن كثير فانهزم زنكي وقتل جماعة من أصحابه وجملة ممن كان في عسكره ولجأ الى سور تكريت وبه عدة جراحات وعلم به الامير نجم الدين وأخوه شيركوه فاصعداه القلعة بحبال وداويا جراحاته وخدماء أحسن خدمة فاقام عندهم بتكريت خمسة عشر يوماً ثم سار الى الموصل وأعوزه الدهر فاعطياه جميع ما كان عندهما من الدواب حتى انهما اعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من امتعته فكان زنكي يرى لايوب هذه اليد ويعرف له هذه الصنعة ويواصله بالهدايا والالطاف مدة اقامته في تكريت وفي ذات يوم نزل أسد الدين من القلعة لبعض أشغاله ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة وهو نصراني ضغائن فاتفق في ذلك اليوم ان النصراني صادف أسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني وصعد الى القلعة وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته وأخذ النصراني رجلاه والقياه من القلعة فبلغ بهروز صاحب القلعة ماجرى وحضر عنده من خوفه جراءة اسد الدين لانه ذو عشيرة كبيرة ولان أخاه نجم الدين استحوذ على قلوب الرعايا وربما كان منهما امر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه فكتب الى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع والطاعة وانزل من القلعة جميع ما كان له فيها من أهل ومال واجتمع هو وأخيه اسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل وعظم على أهل تكريت خروج نجم الدين من القلعة وخرجوا جميعاً لتوديعه وبكوا واسفوا على مفارقه ولما اتصل بعماد الدين زنكي خبر قدومهما فرح لذلك وأمر الموكب بالقيامهما واكرمهما اكراماً عظيماً واقطعهما في بلد شهر زور اقتناعاً سنياً وقيل انه اقطع أسد الدين بالموزر وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة وساعد أسد الدين وأخاه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك وجملة ما عنده في منزلة عالية وخرجا معه الى الشام وشهدا معه حروب الصليبيين وكان لاسد الدين في تلك المواقع اليد البيضاء واقاما في خدمة ولده الملك المادل محمود نور الدين الى أن أرسل أسد الدين لفتح مصر كما تقدم وأرسل نجم الدين الى ولده صلاح الدين بشأن قطع خطبة الفاطميين والخطبة للعباسيين ونما يحكي عن نجم الدين انه بينما

كان جالساً مع ولده صلاح الدين في دار الوزارة وحولهما أرباب الدولة اذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين والتفت الي نجم الدين وقال له يامولاي هذا تأويل مقالتي لك حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال صدقت والله ثم حمد الله وشكره والتفت الي الحاضرين الذين حوله من قضاة وأمراء وقال لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة وذلك اني ليلة رزقت هذا الولد يعني السلطان الملك الناصر أمرني صاحب قلعة تكرت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من اخي أسد الدين وقتله النصراني وكنت قد الفت القلعة وصارت لي كالوطن فتقل علي الخروج منها والتحول عنها واغتسمت لذلك وفي ذلك الوقت جاني البشير بولادته فتشأمت به وتطيرت لما جرى علي ولم افرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وانا على طيرتي به لا أكاد اذكره ولا أسميه وكان هذا النصراني معي كاتباً فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشأم به طلب مني أن أذن له في الكلام فاذنت له فقال يامولاي قد رأيت ما حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأي شيء له من الذنب وبما استحق ذلك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله ثم ما يدريك ان هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً الصيت جليل القدر فمطفني كلامه عليه وها هو قد اوقفني على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق

استيلاء بهاء الدين قراقوش على طرابلس الغرب وغيرها

في سنة ٦٨ هـ هجرية أيضاً سار طائفة من الترك بقيادة بهاء الدين قراقوش من الديار المصرية الى جبال نفوسة واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الامراء هناك وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن صاحب الغرب فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصرها وضيقا على أهلها وفتحها بالقوة فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهلها قصرها وملك كثيراً من بلاد الغرب ما خلا المهديه وسفاقس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير فحكم على تلك البلاد باسم الديار المصرية وجمع منها أموالاً عظيمة خزنها في مدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع بلاد المغرب

﴿ استيلاء شمس الدولة تور انشاء على بلاد اليمن ﴾

جرت في مصر مؤامرة سرية بالانتقام من الدولة الايوبية لم ينفذها اصحابها خوفاً من عقابها عليهم وخصوصاً من قوة تور انشاء فلذلك أخذ احد المتآمرين المدعو عمارة النبي الشاعر يصف في بلاد اليمن لتورانشاء ويمظمها في عينه ويطلب منه الخروج اليها للاستيلاء عليها ففي شهر رجب سنة ٥٦٩ هـ امر صلاح الدين أخاه شمس الدولة تور انشاء بالمسير فصار بعد ان جند الاجناد وتجهز بالآلات الحرب قاصداً اليمن فوصل الى مكة المكرمة وسار منها الى زبيد فلما قرب منها خرج اليه صاحبها عبيد النبي ومعه رجاله وتقاتلوا فانهزم اهل زبيد فنبههم شمس الدولة بعسكره الى ان وصل الى سور المدينة فلم يجدوا من يمنعهم فتصّبوا السلام وصعدوا على السور وماكوا المدينة غنوة ونهبوها وأخذ عبد النبي وزوجته أسيرين وولي على المدينة سيف الدين مبارك بن منقذ ثم سار الى عدن وهي محصنة من جهة البر تحصيناً عظيماً وصاحبها اسمه ياسر نخرج بعسكره الى شمس الدولة لمحاربتة فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل اهله فملكوه وأخذوا صاحبه ياسر أسيراً وأرادوا نهب البلد فنههم شمس الدولة وقال ما جئنا لنخرب البلاد وانما جئنا لملكها ونعمرها فاستتاب فيها عن الدين عثمان الزنجيلي ثم فتح حصن تمر وغيره واستولى على مدينة الجند وصنعاء التي حرقت قبل دخوله ثم عاد الى زبيد فوجد ابن منقذاً قتل عبد النبي بعد ان وقف منه على معرفة جميع كنوزه المدفونة وأرسل الى شمس الدولة صاحب طمار و باقي الملوك وصالحوه على أداء المال فكتب شمس الدولة تور انشاء الى اخيه صلاح الدين بمصر يعلمه بما من الله عليه من النجاة وانه أبطل الخطبة المهدية (التي كانت لعبد النبي لانه كان يدعي الامامة) وخطب للعباسيين

﴿ ظهور المؤامرة وصلب اعضائها ﴾

بعد مسير شمس الدولة الى البلاد اليمنية اجتمع جماعة منهم عمارة بن أبي الحسن النبي الشاعر وعبد الصمد الكاتب والفاضل العوريس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين والسودانيين وحاشية القصر ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الافرنج من ساحل الشام وجزيرة صقلية الى مصر ليملكوها ويعيدوا الدولة الفاطمية العلوية على شيء بذلوه من المال والبلاد ووعدوهم

بانهم متى حضروا الى مصر وخرج صلاح الدين لمحاربتهم ثاروا هم في القاهرة وأعادوا الدولة العاوية وإن بقي صلاح الدين بمصر فيكون عساكره بعيدة عنه فيثبوا عليه ويقبضوه باليد واشترك معهم زين الدين علي بن نجما الواعظ فعينوا الخليفة والوزير فشكل من بني رزيق وبني شاور طلبها لنفسه ورتبوا القضاء وداعى الدعاة والحاجب ثم توجه زين الدين الى صلاح الدين وأعلمه بواقعة الحال فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواظمتهم على ما يريدون وإن ينقل اليه أخبارهم يوماً فيوماً ففعل وأعلمه على كل ما يجري ثم وصل رسول من ملك الافرنج أموري بهدية ورسالة وهو في الظاهر لصلاح الدين وفي الباطن للجماعة المؤامرين وكان يرسل اليهم بعض النصارى وتأتيه رسالتهم فأتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الافرنج بحجاية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يشق اليه من النصارى ودخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على جميع المؤامرين وصلبهم في ثاني يوم رمضان سنة ٥٦٩ هـ وفي مقدمتهم عمارة البيني وفي هذه القضية قال العلامة تاج الدين الكندي

عماراً في الاسلام أبدى جنائياً	وباع فيها بيعة وصلباً
وأسمى شريك الشريك في بغض أحد	فأصبح في حب الصليب صليباً
وكان خبيث الملتقى أن عجمته	تجد منه عوداً في النفاق صليباً
سلباً غداً ما كان يسمى لاجله	ويسقى صديداً في لظى وصلباً

وصلباً في البيت الاول بمعنى النصارى وفي الثاني بمعنى مصلوب وفي الثالث بمعنى الصلبة وفي الرابع ودك العظام وقيل انه الصديد أيضاً أي يسقى ما يسيل من أهل النار وكان عمارة هذا عربياً فقيهاً أديباً

﴿ وفاة الملك العادل محمود أتاك نور الدين ﴾

ظل الملك العادل نور الدين حانقاً على صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في محاربة الصليبيين فأرسل الى الموصل وديار بكر وديار الجزيرة يطلب العساكر للمسير الى مصر لخراج صلاح الدين منها ووافق ذلك عيد الفطر ففي ثاني يوم خرج نور الدين ومعه امرأته الى أن نزل الميدان وكان معهم هام الدين مودود وهو من أكابر دولته فقال لنور الدين هل نكون هنا في مثل هذا اليوم من العام القابل فقال نور الدين قل هل نكون بعد شهر فإن السنة بعيدة ثم إن نور الدين مرض

بعلية الخوانيق وطلب بعض الاطباء فلم ينفع فيه الدواء وعظم الداء فمات يوم الاربعاء
الحادى عشر من شوال سنة ٥٦٩ وكان شجاعاً باسلاً وفاضلاً باراً وكان محبوباً مقرباً
عند المسلمين والصليبيين أعدائه وكانت مملكته شاملة بجميع سوريا الشرقية وقسم
من سوريا الغربية والموصل وديار بكر وديار الجزيرة ومصر وبعض بلاد المغرب
وبلاد اليمن وكانت وفاته بدمشق ودفن فيها وقال فيه العماد

ياملكا أيامه لم تزل لفضله فاضلة فاخرة
غاصت بحار الجود مذبذبة انملك الفاضلة الزاخرة
ملكك دنياك وخلفتها وسرت حتى تملك الآخرة

وقال أيضاً

لفقد الملك العادل يبكي الملك والعدل وقد أظلمت الافاق لاشمس ولاظلم
ولما غاب نور الدين عنا أظلم الحقل وزال الحصب والخير وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجود وعاش اليأس والبخل وعن النقص لماهان أهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو العلم اذا ما نفق الجبل وما كان لنور الدين لولا نجسه مثل
وملك بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل ولم يباغ الحلم وحلف له الامراء والمقدمون
بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وتولى تربيته الامير شمس الدين
محمد بن المقدم ثم كتب الملك الصالح الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتاباً
يخبره فيه بوفاته والده طالباً منه المساعدة والمعاونة على قتال الصليبيين فخطب الملك
الناصر له بمصر وضرب السكة باسمه وأرسل اليه صلاح الدين كتاباً بتعزيته وانصحه
مع رجال دولته ومما فيه (الله الله ان تختلف القلوب والايدي فتبلغ الاعداء مرادها
وتعدم الآراء رشادها وتثقل النعم التي تعبت الايام فيها الى ان اعطت قيادتها فيكونوا
يداً واحدة واعضاداً متساعدة وقلوباً يجمعها ود وسيوفاً يضمها غمد ولا تختلفوا
فتسكلوا ولا تنازعوا فتفشلوا وقوموا على أمشاط الارجل ولا تأخذوا الامر
باطراف الانمل فالعداوة محدقة بكم من كل مكان والكفر مجتمع على الايمان ولهذا
اليوم منا ناصر لانخذله وقائم لانسله وقد كانت وصيته اليانا سبقت ورسائله عندنا
تحقق بان ولده القائم بالامر وسعد الدين كمشكين الاتابك بين يديه فان كانت الوصية
ظهرت وقبلت والطاعة في الغيبة والحضور أدت وفعلت والا فتحن لهذا الولد يد
على من نأواه وسيف على من عاداه وان اسفر الخبر عن معاقبة فهو الغرض المطلوب

والنذر الذي يحل على الايدي والقلوب)

﴿ حصار الصليبيين حصن بانياس وعودهم عنه ﴾

لما مات نور الدين اجتمع الصليبيون لطمعهم في بلاده وساروا الى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحاصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم المساكر بدمشق وراسل الافرنج ولاطفهم ثم أغلظ لهم في القول وقال لهم ان اتم صالحتمونا وعدمتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه والا فرسل الى سيف الدين صاحب الموصل واعلمه ونصالحه وانستجده ونرسل الى صلاح الدين بمصر فلستجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها وانتم تعلمون طمع صلاح الدين في بلادكم واذا طلبناه لذلك فلا يمتنع فعلموا صدقه فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى كانوا عند المسلمين أطلقوهم وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك انكره ولم يعجبه وكتب الى جماعة الاعيان كتب الدالة على التوبيخ والملام ومن جعلها كتاب الى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون يخبره فيه انه لما باغى قدوم الصليبيين خرج وسار أربعة مراحل ثم جاءه خبر الهدنة المؤذنة بذي الاسلام من دفع القطيعة واطلاق الاسارى وان ذلك لا يصح وكان يجب الانتظار لحين حضوره

﴿ وفاة الملك أموري وتولية ابنه الملك الابرس ﴾

في سنة ٧٠ هـ توفي الملك أموري ملك القدس وقد كان طماعا عديم الفطنة حتى انه انفق جميع خزانته في طلب امتلاكه الديار المصرية ولم يحصل له ثمرة مطلقا خلاف الخسائر التي عادت عليه وعلى قومه لانه قبل حروبه مصر كانت مراكبهم تأتي اليها بالتجارة وتأخذ منها المحصولات ولما علموا غدره منعوا من دخول البلاد المصرية وكان كثيراً ما تخرج المراكب المصرية في البحر تبحث على مراكب الصليبيين وتنهبا وتأخذها وبمد وفاته تولى ابنه بودوين الرابع وكان عمره ثلاث عشرة سنة وذلك في سنة ١١٧٤ افرنكيه ولهذا الملك صفات جليله ولكن لسوء حظه ابتلى بمرض البرص ولذلك لقبوه بالملك الابرس ومرضه وعجزه عن تدبير المملكة اقيم له وكيل ملوكي (نائب الملك) وهو رايونند صاحب طرابلس وهو رابع أولاد رايونند دي سان غيلاس

✽ ورود اسطول جزيرة صقلية ومحاصرة الاسكندرية ✽

تقدم ان جماعة من المصريين كتبوا الصليبيين في سوريا وجزيرة صقلية ولما احس بهم صلاح الدين صلحهم ورسول الصليبيين في مصر فاعلم أصحابه في سوريا بما كان اما ملك صقلية فلم يعلم ما تم فارسل أسطولاً عظيماً في أواخر شهر الحجة سنة ٥٦٩ هـ الى ثغر الاسكندرية ففي يوم الاحد ٢٦ منه وقت الظهر وصل أول الاسطول وظل يتتابع الى وقت العصر وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر (الناضورجية) فملأ البحر لوفور عدته وكثرة مصراكبه لانه كان يحتوي على ٣٦ طريدة تحمل الحيل و ٢٠٠ شيني (مركب حربية) في كل شيني ١٥٠ راجلاً وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار وغيرها ست سفن وأربعين مركباً تحمل الازواد وصناع المراكب فكان عدد المقاتلين ثلاثين ألفاً ما عدا صناع المراكب وأبراج الزحف والدبابات والمنجنقات فيبلغ عدد جميعهم ٥٠ ألف رجل ولما تكاملوا نزلوا على البر وحملوا على المسلمين حملة أوصلوهم الى السور وفقد من أهل الشجر سبعة أنفس وقتل محمود بن البصار وزحفت مصراكب الافرنج داخلة الى المينا وكان بها مصراكب حربية ومصراكب تجارية فنصب الافرنج المنجنقات والدبابات وقتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل ورأى الافرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم أما أهلها فانهم أرسلوا الى صلاح الدين وكان مقبياً بفاقوس بواسطة الحمام يعلمونه بالحبر ويطلبون منه المساعدة لدفع العدو عنهم ودام القتال اول يوم وعاود الافرنج القتال في اليوم التالي ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قرب السور ووصل في ذلك اليوم من العساكر الاسلامية كل من كان في اقطاعه قريباً من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الافرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال حتى ظهرت لهم أمارات النصر ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل أهل البلد وهم فرحون مستبشرون بمسارأوا من ظفرهم وفشل الافرنج وقتور حربهم وكثرة القتل والجراح في العدو وأما صلاح الدين فلما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكاه ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندرية مبشراً بوصولهم وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها فسار ذلك

المملوك فوصل الاسكندرية من بومه وقت المصير والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعسكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا الى القتال وقد زال ما بهم من التعب وألم الجراح وكل منهم يظن ان صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين وعساكره فكلمت أيديهم وازدادوا تسباً وفتوراً فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيابهم فغنموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتحصيلات العظيمة وكثر القتل في رجالة الافرنج فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب البعض وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الافرنج فغرقت نخاف الباقيون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلثائة من فرسانهم على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى ان أضحى النهار فغلهم اهل البلد وقهروهم فساروا بين قتيل وأسير ونهب المسلمون ما لا يحصى وأقلعت باقي مراكب الاسطول في يوم الخميس اول محرم سنة ٥٧٠

﴿ واقعة الكنز وقاتله ﴾

الكنز هو رجل مصري كان مقدماً على فرقة من الحيش وفي أول محرم سنة ٥٧٠ قام المذكور في الصعيد وجمع من كان في البلاد من العربان والعييد وغيرهم خلق كثير وكان هناك أمير من الامراء الصلاحية أخ لحسام الدين أبو الهيجاء السمين فقتل به وبمن معه هناك فمظم قتله على أخيه وهو من اكبر الامراء وأشجعهم وطلب أخذ الثار وساعده سيف الدين (أخو صلاح الدين) وعز الدين موسك ابن خاله وعدة من أمرائه ورجاله وجاءوا الى مدينة طود فاحتمت عليهم فقاتلوا من فيها فظفروا بهم وقتلوا منهم كثيراً وذلوا بعد العز ثم قصدوا الكنز ورجاله وحاربوهم وقتلوا الكنز ومن معه من الاعراب والعييد واطمأنت بعد قتله البلاد ولم يبق للدولة الصلاحية بعد كنزها كنز يفسد عليها بلادها وكان ذلك في شهر صفر سنة ٥٧٠

﴿ عزيم صلاح الدين على المسير الى بلاد سوريا ﴾

بعد انقضاء واقعة الكنز وخلو الديار المصرية من الفتن بلغ صلاح الدين ان سيف الدين غازي بن قطب الدين سار وملك بلاد الجزيرة ولم يرسل من مع الملك

الصالح بن نور الدين من الأمراء الى صلاح الدين ولا أعلموه بما كان فكتب
الى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته
ويمنعه وكتب الى الأمراء يقول (ان الملك العادل لو علم ان فيكم من يقوم مقامى
أو يشق اليه مثل ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي اعظم ممالكه وولاياته ولو لم يسجل
عليه الموت لاقامني وصياً على ابنه وأرى انكم تحاولون اخراج يدي ولكني سأذهب
الى دمشق بنفسى وأقدم عموديتي الى هذا السلطان الجديد معترفاً بالفضال العظيمة
التي حملها أبوه أما أنتم فسأعاملكم بمقتضى تصرف كل واحد منكم فاني أعتبركم
قوماً تلقون القلاقل والفتن في البلاد) ثم ان صلاح الدين أقام خصيه بهاء الدين
قراقوش حاكماً على مصر في غيابه وتجهز للسفر الى البلاد السورية
﴿ حكم قراقوش وبناء القلعة والسور وغيرهم ﴾

لما عزم صلاح الدين على السفر الى سوريا وأقام بهاء الدين الاسدي قراقوش
حاكماً بمصر مدة غيابه وعهد اليه تدبير الاحكام وأمره ان يقيم البنايات اللازمة
لرونق البلاد ومنعتها ومنفعتها فأفند بهاء الدين ما عهد اليه بغيرة ونشاط وكانت
جسور النيل قد أهمل شأنها منذ تولي السلطان الفاطميين فكان اذا فاض طفت
مياهه على الاراضي وخربت الطرق وأفسدت الزرع فهدد الطرق واحتفر الترع
وأقام الجسور والسدود واستخدم لذلك حجارة بعض الاهرام الصغيرة التي كانت
تحيط باهرام الجيزة وغيرها من أبنية المصريين القدماء وأنشأ طريقاً تمتد طويلاً على
خفة النيل فتقيها من صدمات المياه وتسهل صلات العاصمة مع مصر العليا والسفلى
وشاد فوق الترعة التي كانت تجري بين الجيزة واهرامها جسراً عظيماً مؤلفاً من
أربعين قنطرة لا يزال بعضها باقياً الآن

ولم يكن لصلاح الدين اذ ذاك مسكن الا القصران اللذان كانا مسكناً للخليفة
والوزير السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلهما منزلاً لضباط الحكومة وقواد
الجيش وشاد عند الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لارهاب
الاهالي اذا حاولوا المصيان وجعل فيها قصراً لبلاطه وكان في ذلك المكان بناء قديم
من عهد الدولة الطولونية يعرف بقصر الهوى فهدمه وأقام القلعة على انقاضه
وأنى بحجارتها من خرائب منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف
على كل المدينة وليس في القاهرة بناء آخر أعز موقعاً منها وهي التي لا تزال باقية

الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل او قلعة القاهرة . وجعل قراقوش في القلعة بئراً
نقراً في الصخر عميقاً جداً يسع كلما تحتاج اليه الحامية من الماء ولا يزال البئر والقصر
الى هذه الساعة يعرفان باسمه فالبئر (يدعى ببئر يوسف) ويظن بعض العامة انه
سمي هكذا نسبة الى يوسف الصديق ابن يعقوب والصحيح نسبته الى يوسف صلاح
الدين الذي أمر باختفاره والمظنون ان هذه البئر كانت محفورة من أيام قدماء
المصريين ثم طمرت بالرمال فأعاد صلاح الدين حفرها وتسمى أيضاً بالحزنون وما
بقي من القصر يعرف بديوان يوسف أو ديوان صلاح الدين . وابتنى قراقوش أيضاً
حواصل كبيرة في الفسطاط (مصر القديمة) لحزن الحاصلات التي ترد من الاقاليم
سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا بمخازن يوسف وقد ظن بعض المتفرجين والعامة
انها من بناء فرعون في أيام يوسف الصديق . وبعد ان فرغ قراقوش من اصلاح
الترع والحاجان والطرق وبناء القلعة أخذ يهتم باتمام سور القاهرة وكان صلاح
الدين ابتداءً بعمارته سنة ٥٦٦ وهو يومئذ على وزارة العاضد فعمل له قراقوش
رسماً عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينها من الارض الا
انه استعظم بناءه بهذا الاتساع فجعله محيطاً بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعه
هذا ان يهدم جوامع وبيوتاً وقبوراً كثيرة كانت قائمة في مكان السور ولم يكن
الا هالي معتادين على الاذعان لاوامر صلاح الدين كسلطان وكان بعضهم لا يزال
متشيعاً للدولة الفاطمية فاتهموه بالاستبداد ولقبوا بهاء الدين بقراقوش
أي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بعض عامة الشرقيين يصفون هذا الاسم
بالاستبداد والعسف وينسبون اليه أحكاماً عجيبية في ولايته حتى ان الاسعد بن مماتي
له كتاب لطيف سماه الفاشوش في أحكام قراقوش وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه
والظاهر انها موضوعة لان صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عايه ولولا
وثوقه بمعرفته وكفاءته ما فوضها اليه وكان قراقوش رجلاً سعيدياً وصاحب
همة عالية .

وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ففي المرة الاولى بناء جوهر وفي الثانية
بناء أمير الحيوش وفي الثالثة قراقوش بأمر صلاح الدين فزاد فيه قطعة من باب
القنطرة الى باب الشعريه ومن باب الشعريه الى باب البحر وبني قلعة المقس وهي
برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع أولاد عنان
وهو خارج باب البحر على يسار الذهاب من الشارع الجديد الى محطة السكة الحديد

وانقطع السور من هناك . وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة وجاء طول هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ بالذراع الهاشمي . وقلعة المقس المذكورة كانت برجاً معللاً على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير صاحب شمس الدين عند ما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ هجرية وجعل في مكان البرج المذكور جنيحة . وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من باب الفتوح الى المقس ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى باب البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بأبراج مبنية بالحجارة الا ان هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ردم الا في بعض الاماكن

﴿ مسير الملك الناصر صلاح الدين الى سوريا واستيلاءه على دمشق وغيرها ﴾
بعد تولية قراقوش حكم مصر سار صلاح الدين قاصداً سوريا فخرج الى البركة في مستهل صفر سنة ٥٧٠ هـ وأقام حتى اجتمع العسكر ثم رحل الى بليس في ١٣ ربيع اول وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى وشمس الدين بن المقدم عنده تستوري في الحث والبث زنده وتستقدمه وجنده وسار مجدداً حتى أناب على بصرى فاستقبله صاحبها وشده ازره وسار صلاح الدين في آخر شهر ربيع الاول الى ان وصل الى دمشق ودخلها وكان يظن عكس ذلك ودخل الى دار العقيلي مسكن أبيه وبقي في قلعة دمشق جمال الدين ريجان الخادم بدون تسليم فراسله حتى استماله بالمال وتملك المدينة والقلعة ونزل بالقلعة سيف الاسلام اخو صلاح الدين وأظهر انه جاء لتربية الملك الصالح وحفظ ماله وبلاده وتدبير ملكه فهو أحق بصيانة حقه واجتماع به أعيانها وفرق فيهم المال وخطب لأملاك الصالح ومدحه وحيش الاسدي بقصيدة اولها

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبها	فكن لاضاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد	أدنى فريسته الايام ان وثبنا
رأيت جلق تغراً لا نظير له	فجئها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها	وأزعم الخلق من أوطانها هربا
أحببتها مثل ما أحببت مصر فقد	أعدت من عدلها ما كان قد ذهبها

ويوم دمياط والاسكندرية قد أسارهم مثلاً في الأرض قد ضربا
 والشام لولم يدارك أهله اندرست آثاره وعفت آياته حقباً
 ولما اتصل بمن في حلب دخول الملك الناصر دمشق وميل الناس اليه خافوا
 منه وأجمعوا على مراسلاته وأرسلوا اليه قطب الدين ينال بن حسان برسالة أرواها
 فيها وقالوا له (هذه السروف التي ملكتك مصر بأيدينا والرماح التي حوت بها
 قصور المعريين على اكتافنا والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك
 وأنت فقد تعدت طورك وتجاوزت حدك وأنت أحد غلمان نور الدين ومن يجب
 عليه حفظه في ولده) ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان تلقاه بموكبه وبشفه وبالغ
 في إكرامه ثم أحضره بعد ثلاثة أيام لسماع الرسالة منه فلما فاد ابن حسان بتلك
 الشقاشق الباطلة وقمع بتلك التوبيعات العاطلة لم يعره صلاح الدين طرفاً ولا سمعاً
 وضرب عنه صفحاً وتغاضياً وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له (يا هذا اعلم اني
 وصلت الى الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الامور وحيطة الجمهور وسد الثغور
 وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين) فقال له ابن حسان انك انما حضرت
 لاختد الملك لنفسك ونحن لا نطاولك على ذلك ودون ما ترومه خرط القتاد
 وايتام الاولاد فلم يلتفت لمقاله واومى الى رجاله باقامته من بين يديه ونادي في
 عساكره للاستعداد بقصد الشام الاسفل ورحل متوجهاً الى حمص فتسلمها
 وقاتل قلعها ولم ير تضييع الزمان عليها فوكل بها من يحصرها ورحل الى جهة حمص
 فلما وصل الى الرستن خرج صاحبها عز الدين جرديك وأمر من فيها من العساكر
 بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع اوامره وسار جرديك حتى لقي صلاح الدين
 واجتمع به بالرستن وأقام عنده يوماً وليلة وظهر من نتيجة اجتماعه به انه سلم اليه
 مدينة حمص وسأله ان يكون السفير بينه وبين من بحلب فاجابه الى ذلك فلما
 وصل حلب اجتمع بالامراء والملك الصالح وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر
 فاتهمه الامراء بالمخامرة وردوا مشورته وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح وليج
 سعد الدين كمشتكين في القبض عليه فقل بالحديد وحمل الى الحب الذي فيه اولاد
 الداية واصلوه الى الحب وأحسن به اولاد الداية قام اليه منهم حسن وشمته أقبح
 شتم وحلف بالله ان انزل اليهم ليقتلنه فامتنعوا من تدليته وأعلموا سعد
 الدين كمشتكين فحضر الى الحب وصاح على حسن وشمته وتوعده فسكن حسن
 وانزل جرديك الحب . ولم يزل صلاح الدين مقبياً على الرستن ثم طال عليه الامر

فسار الى حباب التركان فلقية أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى لسيده من
الاعتقال والقهر فرحل صلاح الدين من ساعته عائداً الى حماه وطلب من أخي
جرديك تسليم حماه اليه وأخبره بما جرى على أخيه ففعل وولاهها لأحد امرائه
مبارز الدين علي بن أبي الفوارس وذلك مستهل جمادي الآخرة وسار صلاح الدين
الى حاب ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة في ثالث الشهر وأمتدت
عساكره الى الحنّاقية والى السعدى فلما رأى من بحاب عساكر صلاح الدين خافوا
من الحلبين ان يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق فاشاروا على الملك الصالح ان
يجمعهم في الميدان ويخطبهم بنفسه فامر ان ينادي بالجمع الناس الى ميدان باب
العراق فاجتمعوا فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ووقف في رأس
الميدان من الشمال وقال لهم يا أهل حاب انا ربيكم ونزيلكم واللاجئ اليكم كبيركم
عندي بمنزلة الأب وشابكم بمنزلة الأخ وصغيركم عندي يحل محل الولد وخنقته العبرة
وسبقته الدمة فافتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء
والعويل وقالوا نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك ونبذل اموالنا وانفسنا
لك . وأرسل صلاح الدين الى حاب رسولا يطلب الصالح فامتنع كمشكين فاشتد
صلاح الدين في قتال البلد . واجتمع الامراء بالملك الصالح ليدبروا الحيل في قتل
صلاح الدين فاجمعوا اراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية ومقدمهم ليرسل
من يفتك بصلاح الدين وضمنوا له على ذلك اموالاً جمة وعدة من القرى فارسل
سنان جماعة من اصحابه الفتيان فجاءوا الى جبل جوشن واختلطوا بالمساكر فعرفهم
الامير ناصح الدين خاتكين صاحب بوقيس لانه كان مشاعراً لهم فقال لهم يا ويلكم
كيف تجاسرتم على الوصول فقتلوه خوفاً من غائلته وجاء قوم للدفاع عنه ففجروا
بعضهم وقتلوا البعض ووثب احد الاسماعيليه ويده سكينه مشهورة ليقتل الساطان في
خيمته فلما صار الى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله وطلب الباقيين
فقتلوا بعد ان قتلوا جماعة ولما نيس من بحاب من هذه الحيلة راسلوا رايوندا صاحب طرابلس
ونائب الملك بودوين الرابع وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل صلاح الدين عن
حلب فارسل رايوندا الى صلاح الدين في أمر الحلبين وأخبره ان الصليبيين تعاضدوا
وصاروا يداً واحدة فقال صلاح الدين لست ممن يرهب تألب الصليبيين وها أنا سائر
اليهم ثم انهض قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكية فغنموا غنيمة حسنة وعادوا
فقصد رايوندا جهة حمص فرحل صلاح الدين من حاب اليها فسمع رايوندا فنكص

راجعاً الى بلاده وحصل الغرض من رحيل صلاح الدين عن حلب ووصل الى
حصن قنسلم القاعة ورتب فيها والياً من قبله وقال العماد في فتح حصن من قصيدة طويلة
اياك بن أيوب نحو الشآ م على كل ما يرتجيه ظهور
بيوسف مصر وأيامه تفر العيون وتشفي الصدور
رأت منك حصن لها كافيا فواتك منها القوي العسير

ثم سار صلاح الدين الى ان وصل الى بعابك وكان فيها والي يقال له يمن فلما
شاهد كثرة عساكر صلاح الدين اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح
طائر فلم يرجع اليه منهم خبر فطلب الامان وسلم بعابك الى صلاح الدين في رابع
رمضان وعاد الى حصن

* في استقلال صلاح الدين بالملك وسلطنته *

كان امراء حلب قد راسلوا سيف الدين صاحب الموصل يطلبون منه نجدة ابن
عمه الملك الصالح فارس لم حيشاً كبيراً بقيادة أخيه عز الدين مسعود فوصل الى
حلب بعد رحيل صلاح الدين عنها فخرجت معه عساكر حلب جميعها وساروا الى
ان وصلوا حمص وحاصروها فلما علم صلاح الدين سار بفرقة من جيشه فتأخرت
عساكر الموصل وحلب الى قرون حمص وراسلوا صلاح الدين في الصالح فاجابهم
فطلبوا منه تسليم جميع القلاع والحصون وانه يقنع بدمشق وحدها نائباً فيها عن الملك
الصالح فاجاب فلما راوه قد اجابهم طمعوا فيه وقالوا لا بد من المصاف ظناً منهم انه
لكثرتهم وقتله يغلبونه وساروا يناوشونه القتال الى ان وصلت العساكر المصرية
بقيادة تقي الدين عمر وقام المصاف بين العسكرين فانكسرت العساكر الحلبية
والموصلية وانهمزوا وتبعهم عساكر صلاح الدين واستباحوا أموالهم وخيائهم
وأسروا منهم جماعة وأمر صلاح الدين عساكره ان لا يوغلوا في طلبهم ولا
يقتلوا من راوه منهمزماً ثم رحل حتى نزل بمرج قرأ حصار ولم يزل هناك حتى عيد
الفطر فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وان يقر الملك الصالح على ما في يده
وما هو جار تحت حكمه من الشام الاسفل الى بلد حمص فلم يرض بذلك فجمعوا
له مع حمص المصرة وكفر طاب فرضي بذلك وحلف لهم على ذلك وعاد ثم رأى
صلاح الدين قواته وانه لا يمكن أحد يعارضه في شيء مما طالما تمناه من استقلاله
بالملك فصرح بساطعانه على مصر والشام ولما وصل الى حمص وصلت اليه رسل

الخلافة المستضيء العباسي ومعهم التشریفات الجليلة والاعلام السود وتوقيع من
الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام وفي ذلك يقول ابن سعدان الحلبي
يا أيها الملك العزيز فضله لقد غدت بالعلي مليا
كفى أمير المؤمنين شرفاً انك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباس زخرفة لم يولها قبلك أديبا
نابت الروض سنا وبهجة حتى حكته روثقاً وريا
ثم سار السلطان صلاح الدين الى حصن بعين وحاصره حتى تسلمه

﴿ حرب السلطان مع المواصلات وهدنة الصليبيين ﴾

لما دخلت سنة ٥٧١هـ والسلطان نازل بمرج الصفر من أعمال دمشق جاءه
رسول الصليبيين يطلب الهدنة فاجابه السلطان على ذلك بعد ان اشترط عليهم أموراً
التزموها وأصاب الشام في ذلك السام جذب فاذن السلطان للعساكر المصرية بالرحيل
الى بلادهم ولما علم سيف الدين صاحب الموصل بما جرى بين السلطان والحليين
عتب عليهم ووبخهم ونسبهم الى العجلة وأنفذ من أخذ على الحليين الموائيق بنقض
العهد ثم توجه ذلك الرسول الى دمشق ليأخذ من السلطان العهد القديم فلما خلا
به طالبه السلطان بنسخة العهد (أي الذي تعاهدوا عليه) في السنة الماضية فغلط
الرسول وأخرج نسخة يمين الحليين لهم فتأملها وأطلع على ما اتفقوا عليه من
نقض العهد فردها اليه وقال لعلها قد تبدلت فعرف الرسول انه قد غلط وقال
السلطان كيف حلف الحليون للموصلين ومن شرط ايمانهم انهم لا يعتمدون
الا بمراجعتهم ايانا واستئذاننا ثم شاع خبر خروج الموصلين في الربيع فارسل الى
أخيه العادل بمصر يعلمه بذلك ويأمره ان يأمر العساكر بالاستعداد والخروج في
شعبان وكتب الى الخلافة ببغداد يعلمه بما جرى من الموصلين والحليين ونقضهم
العهد وانه الآن بين عدوين عدو متظاهر بالاسلام وهم المذكورون وعدو آخر وهم
الصليبيون وطاب منه ان يأمر ملوك الاطراف بمساعدته على الصليبيين أما سيف الدين
فانه قصد حلب واجتمع بالملك الصالح ثم سار الى ان وصل الى تل السلطان ومعه جمع
كثير وأهل ديار بكر وكانت العساكر المصرية قد وصلت فسار بها السلطان حتى أتى
قرون حماء فبلغهم انه قد قارب عسكرهم فاخرجوا اليك وتعبوا تعبتي القتال

وأصبح القوم على مصاف وذلك يوم الخميس عشرة شوال فالتقى العسكران وتصادما وجرى قتال عظيم وحمل السلطان بنفسه فأنكسر القوم وأسروا منهم جمعا عظيما من كبار الامراء منهم الامير نجر الدين عبد المسيح فن عاينهم وأطلقهم وعاد سيف الدين الى حلب ووكل السلطان ابن أخيه عز الدين فرخشاه بسرادق سيف الدين ثم أمر السلطان بالكف عن باقي العساكر وتسلم ما في السرادق من الاموال وما يتبعه من الاصطبلات وفرق جميع ذلك على عسكره ورأى في السرادق طيوراً من القماري والبلابل والهزار والبيغاء في الاقفاص فاستدعى مظفر الاقارع أحد الندماء وقال خذ هذه الاقفاص واذهب بها الى سيف الدين وقل له عد الى اللعب بهذه الطيور فهي سليمة لاتوقعك في مثل هذا المحذور وانها آتية من مقاساة الحروب . ثم نزل السلطان على حصن بزائه وتسلمه في ٢٢ شوال وفتح منبج في ٢٩ منه وكان فيها الامير قطب الدين ينال ابن حسان فاخرجه منها وتسلم جميع ما بها من الخزائن والذخائر ومن جملة أموالها ٣٠٠ الف دينار ومن الفضة والالوية الذهبية والاسلحة والذخائر ما يناهز الف دينار وحانت من السلطان التفاته فرأى مكتوباً على الاكياس والانيه اسم يوسف فسأل عن هذا الاسم فقيل له كان ولد يحبه اسمه يوسف ويدخر هذه الاموال له فقال السلطان ان يوسف وقد أخذت ما خفي لي فتعجب الناس من ذلك ثم نزل على عزاز نصب عليها عدة منجانيقات وجد في القتال فتسلمها حادي عشر ذي الحجة بعد حصارها ٣٨ يوماً وقال العماد قصيدة منها

أعطاه رب العالمين دولة عزت أهل الدين في اعزازها
حاز العلي بآسسه وجوده وهو أحق الخلق باحتيازها
بجده أفنى كنوزاً فني المملوك في الجدد على اكتنازها
مهلك أهل الشرك طرأرومها أر منها افرنجها ابخازها
تفاخر الاسلام من سلطانه تفاخر الفرس بابرأوازها

{* ماجرى للسلطان مع الحشيشين }

في حادي عشر ذي القعدة بينما كان السلطان محاصراً اعزاز وجالسا في خيمة الامير جاولي الاسدي قريبا من المنجنيقات اذ وثب عليه احد الحشيشية أو الاسماعيلية فضرب رأسه بسكين فزعمته الزردية لانه كان دائما متخوفاً من هؤلاء الملاعين فلم

تؤثر ضربة الحشيشي شيئاً وأحس بصفائح الحديد على رأس السلطان فمد يده بالسكينة إلى خده فخدشته فثبت حبش السلطان وقبض على رأس الحشيشي وجذبه ووقع عليه وادركه سيف الدين بازكوج وقتل الحشيشي وجاء حشيشي آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه وجرحه الحشيشي في جنبه ومات بعد أيام وجاء آخر فمانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت إبطيه وبقيت يد الحشيشي من ورأه لا يتمكن من الضرب فصاح الأمير علي اقتلوني أنا وإياد فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الحشيشي بسيفه وما زال يخضعه فيه حتى مات ونجا علي بن أبي الفوارس وخرج حشيشي آخر منهمزماً فقابلته شهاب الدين الحارمي خال السلطان فترجح الحشيشي عن طريقه فقصده أصحابه وقطعوه بالسيف أما السلطان فسار إلى خيمته فهاج العسكر وماج فاضطر السلطان للركوب والخروج ليراه جميع العسكر فسكن هياجهم وكان سبب ذلك أن أهل حاب خافوا من السلطان فارتحلوا إلى سنان رئيس الاسماعيليين مرة ثانية وطأوا منه قتل السلطان ووعدوه كما فعلوا أولاً فأرسل أربعة من أعظم رجاله فزبروا بزي عساكر السلطان واندسوا بينهم وهو محاصر نضاز وحاربوا مع عساكره وظهروا بسالة عظيمة ثم حصل منهم ما تقدم وقاتلوا

{استيلاء تور انشاه على حضرموت واستيلاء قراقوش على بعض بلاد المغرب} في سنة ٥٧١ سار شمس الدولة تور انشاه إلى بلاد حضرموت ففتحها واستتاب عنه بها رجلاً كردياً يسمى هارون ثم ولى نشر تعز مملوكه ياقوت وجعل إليه امر الجند وولى قلعة بكر مملوكه قايماز ثم سار قاصداً سوريا فوصلها ولحق باخيه وهو يحارب سيف الدين صاحب الموصل فكانت له اليد البيضاء في ذلك . وبلغ قراقوش بان قلعة ازيري هي بوغاز المغرب وكانت خراباً . فاشير عليه بعمارها وقيل له متى عمرت وسكنها جنود اقوياء شجعان ملكك برقة وإذا ملكك برقة ملكك ما وراءها فسار بهاء الدين قراقوش ومعه جماعة من اجناده ومماليكه إلى القلعة وشرعوا في عمارتها واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدثه عن بلاد المغرب وذكر له كثرة خيرها وغزارة أموالها وضعف أهلها ورغبه في دخولها فاخذ جماعة من أصحابه وسار في حادي عشر المحرم من هذه السنة فكان يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام فاشرف على مدينة أوجلة فآفقه صاحبها وأكرمه واحترمه وسأله المقام

عنده ليعتصده به ويزوجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار فاخذ عشرة آلاف لنفسه وفرق على رجاله عشرين ألف دينار وكان الى جانب أوجلة مدينة يقال لها مدينة الازراقية فباع اهلها صنيع قراقوش في أوجلة وانه حرس غلالهم فساروا اليه ووصفوا له بادهم وكثرة خيره وطيب هواؤه ورغبوه في المسير اليهم على انهم يملكونه عليهم فاجاب سؤلهم واستخفاف على أوجلة رجلا من اصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من اصحابه فحصل لقراقوش اموال كثيرة واتفق ان صاحب أوجلة مات فقتل اهل أوجلة اصحاب قراقوش فجاء قراقوش وحاصرها وفتحها عنوة وقتل من اهلها سبعمئة رجل وغنم اصحابه منها غنيمة عظيمة واستولى على البلاد ثم ان اصحابه طلبوا العود الى مصر وخشي قراقوش الاقامه وحده فرجع معهم

حصار حلب وحرب الاسماعيليه

لما فرغ السلطان من حرب عزاز سار قاصدا حلب فحاصرها وضرب خيمته على رأس الباروقية فوق جبل جوشن ودخلت سنة ٧٢٢ هـ والسلطان مشدد حصارها فرأى أهل حلب ان لا طاقة لهم به فدخلوا من باب التذلل وطلبوا الصلح فاجابهم وعفى عنهم وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها وأرسل الملك الصالح الى السلطان أخذت خاتون وهي صغيرة فوقف احبالا لها قائما وقبل الارض وبكى على والدها نور الدين فسأله ان يرد عليهم عزاز فقال سمعاً وطاعة فاعطاها اياها وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً واتفق مع الملك الصالح ان يكون للسلطان من حماه وما فتحه الى مصر وان يطلق الملك الصالح أولاد الداية وكان الصلح عاماً لحلب والموصل وديار بكر وبعد ذلك تذكر السلطان ثاره عند الاسماعيليه وكيف رهوه بتلك البلية فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصيات ونصب عليه المنجنيقات الكبار وأسمهم قتلاً وأسراً وساق أبقارهم وخرب ديارهم وهدم أعمارهم وهتك أستارهم حتى تشفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي صاحب حماه وكانوا قد راسلوه في ذلك لانهم جيرانه فرحل عنهم وقد انتقم منهم وكان الصليبيون قد أغاروا على البقاع فخرج اليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وهو متولي بعلبك فحاربهم وقتل منهم وأسرا أكثر من مائتي أسير وأحضرهم الى السلطان وهو محاصر مصيات فجدد شوقه لغزو الصليبيين وكان هذا من دواعي مصالحة سنان وعاد الى دمشق وكان شمس الدولة قد خرج منها

لمحاربة الصليبيين ايضاً عند ما بلغه خبر خروجهم لانشغال السلطان بمحاربة حلب وغيرها فمحاربتهم عند عين الجر في تلك المروج فلم يقو عليهم ووقع من أصحابه عدة في الاسر فبلغ ذلك السلطان فارسل اليه جنوداً مصرية فارجموا الصليبيين على أعقابهم وعاد شمس الدولة الى دمشق وتقابل مع السلطان وفوض السلطان اليه دمشق ليكون امام الصليبيين وعاد هو الى مصر وكان خروجه من دمشق في يوم الجمعة ربيع اول فوصل القاهرة يوم السبت ١٦ منه

﴿ تقوية اسطول مصر وبعض فتوحات ﴾

بعد رجوع السلطان الى مصر أعجبه حسن تنظيمها وسافر منها في شعبان الى دمياط لتفقدوها ومنها الى اسكندريه وهناك عرض عليه الاسطول المصري فوجد مرآكبه قد لحقها ضرر كثير فامر باصلاحها وتقويتها وجمع لها ديواناً مخصوصاً (يشابه البحرية) واقام عليه احد الامراء وكتب الى جميع الثغور بان يكون الامر امر قائد الاسطول وله ان يأخذ ما يحتاج من العساكر والمال وكان ذلك في رمضان فرجع الى القاهرة واما بهاء الدين قراقوش فانه سافر الى أوجلة وفتح بلاد فزان بأسرها وخرج السلطان من القاهرة قاصداً اعمال الشرقية فاقام بمرج فاقوس وهو يركب الى الصيد والقنص والتطلع لاحوال الصليبيين وفي اثناء ذلك بينما السلطان قد عزم على محاربة الصليبيين بغزه اذ وصلت اساطيل ثغري دمياط واسكندريه بأسرى الافرنج وقد اربوا على الالف ففرح السلطان بهذا الانتصار

﴿ حرب السلطان مع الصليبيين وواقعة الرملة ﴾

في شهر جمادي الاولي سنة ٥٧٣ سار السلطان بعساكره قاصداً بلاد الافرنج فوصل الى مدينة عسقلان في يوم الاربعاء ٢٩ منه فحارب الصليبيين وكسرهم وأخذ أكثرهم أسرى وتفرق عسكره في الاعمال مغيرين ومبيدين آمنين من طوارق الحداث فلما رأوا ان الصليبيين خامدون استرسلوا وتوسط السلطان البلاد واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادي الآخرة بالرملة قاصداً بعض المعامل فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت المساكن للعبور وكان بودوين الرابع ملك القدس قد بلغه خروج السلطان صلاح الدين قاصداً عسقلان فسار بعساكره وعساكر الجمعيات الرهبانيين فاخذوا طريق شط البحر وأخذوا مسيرهم السريع بكيان الرمل الى ان وصلوا الى عسقلان بدون علم السلطان صلاح الدين ولما

كانت عساكره مزدهجة على عبور النهر اذ فاجأته العساكر الصليبية بغتة وسرايا المسلمين في القرى مغيرة فوقف الملك المظفر نقي الدين ونازلهم الحرب فاستشهد من أصحابه عدة من الكرام وكان لثقي الدين ولد اسمه أحمد قد طرشاربه فاستشهد أيضاً بعد ما قتل من الصليبيين كثيرين وكان له ولد آخر اسمه شاهنشاه قد أسربيد الصليبيين بحيلة عماتها معه أرمني بدمشق ثم سلمه الى جمعية الهيكليين الرهبانية وتفرقت العساكر الاسلامية بالصحراء وحمل الصليبيون على السلطان فثبت ووقف ومعه من الامراء ابراهيم بن قنابر وفضل الفيضي وسويد ابن غشم المصري وصار السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن انه يخلف أحد من العساكر ودخل الليل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل وقد تعسفوا السلوك في تلك الرمال وبقوا أياماً وليالي بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا الى الديار ووقع في الاسر كثير من المسلمين منهم الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير وقد انتهت هذه الواقعة بظفر الصليبيين

﴿ محاربة الصليبيين حماه وحارم ورجوعهم الى بلادهم ﴾

وصل في سنة ٥٧٣ هـ الى ساحل سوريا من البحر ملك يقال له اقلندس وكان يعلقد خلو الشام من حامية فاجتمع بالصليبيين واتحدوا وساروا الى حمه في ٢٠ جمادي الاولى وكان صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي مريضاً وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب بالقرب منها فدخلها وخرج للحرب وتقاتل مع الصليبيين قتالاً شديداً انتهى بكسرهم ورحيلهم عنها بعد حصارهم أربعة أيام ولما قتل من الصليبيين ما يزيد عن الف فارس انهزموا من حمه ونزلوا على حصن حارم نخرج اليهم الملك الصالح وكانت حارم تابعة كمشتكين فطلب أخذها فابوا تسليمها اليه ولما حاصرها الصليبيون جاء الملك الصالح لمحاربتهم وأقام الحصار من ابتدا شهر جمادي الآخرة فلما رأى أهل القلعة الخطر المحقق بهم من الصليبيين سلموها الى الملك الصالح في العشر الآخر من شهر رمضان وما اتصل ذلك بالصليبيين حتى رحلوا عنها عائدين الى بلادهم وعاد الملك الصالح الى حلب

واجتمع قسم من الصليبيين وقصدوا أعمال حمص فنهبوها وغنموا وأسروا وسبوا فصار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم وكن لهم في الطريق فلما وصلوا اليه خرج عليهم من كمينه ووضع السيف فيهم فقتل أكثرهم وأسرى جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يفلت الا وهو مشخن بالجراح واسترد منهم جميع ما غنموه فردم على أصحابه وكان ذلك في سنة ٥٧٣ هـ

﴿ مسير السلطان صلاح الدين الى سوريا ومحاربة الصليبيين ﴾

في شوال سنة ٥٧٣ هـ سار السلطان صلاح الدين قاصداً سوريا فنزل دمشق وأخذ ينتقل من بلد الى آخر متفقداً القلاع والحصون وفي شهر ربيع أول سنة ٥٧٤ هـ سار جمع كثير من الصليبيين الى مدينة حماه وكثر جمعهم من الفرسان والرجال طمعاً في الثب والغنيمة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماه سار اليهم فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فانهمز الصليبيون وكثر القتل والاسر فيهم واسترد منهم ما غنموه وكان صلاح الدين نازلاً بظاهر حص فحمت الرؤوس والاسرى والاسلاب اليه فامر بقتل الاسرى . وفي شهر القعدة سار الملك بودوين الرابع بجيشه الى دمشق فاغار على أعمالها فنهبها وأسروا وقتلوا فارسل السلطان عز الدين فرخشاه في جمع من العسكر اليهم وأمره اذا قاربهم يرسل اليه يخبره على جناح الطائر ليسير اليه وتقدم اليه ان يأمر أهل البلاد بالانتزاع من بين يدي الصليبيين فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم فلم يشعر الا والصليبيون قد خالطوه فاضطر الى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس والقي فرخشاه نفسه عليهم وغشي الحرب ولم يكلها الى سواه فانهمز الصليبيون ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفري وغيره ولم يزد عدد عساكر فرخشاه على ألفي فارس . وفي هذه السنة أغار البرنس رانود دي شاتيلون على جمع من التركان فاجحف باموالهم وكان صلاح الدين على حصن بانياس فسير اليه ولد أخيه تقي الدين عمر الى حماه وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه الى حصن وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو

﴿ محاربة الصليبيين بمرج عيون وانتصار الاسطول المصري ﴾

في ثاني محرم سنة ٥٧٥ هـ جاء الخبر الى السلطان بان الصليبيين قد خرجوا فالتقاهم وقتلوا قتالا شديداً وانتصر المسلمون على الصليبيين وأمرت فرسانهم وشجعانهم وانهمزت رجالهم في أول اللقاء فكان من جملة الاسرى مقدم جمعية الهيكلين الرهبانية ومقدم جمعية القديس يوحنا المعمدان وصاحب طبريه وأخو صاحب جيل وابن بارزان صاحب الرملة وقسطلان يافا وابن صاحب مرقية وكثير من خيالة القدس وعكا وغيرهم من المقدمين الاكابر ما زاد عن مائتين ونيف وسبعين ثم عرضوا الاسرى على السلطان فامر بنقلهم الى دمشق ومات مقدم جمعية الهيكلين

فطلب الصليبيون جثته فافدوها بأسير مسلم وطال أسر الآخرين فمنهم من افتدى بمال وأطلق ومنهم من مات ومنهم من بقي مسجوناً وهذه الواقعة كانت في مرج عيون وكانت عدة الصليبيين عشرة آلاف فارس وانهزم ملكهم مجروحاً وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الواقعة بلاء حسن ومن أحسن ما اتفق أنه في اليوم الذي كسر فيه الصليبيون مرج عيون ظفر الأسطول المصري ببطسة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد إلى الشجر مستصحباً ألف رأس من السبي فأقرب ما النصرين في المصرين وانظر كيف عم النصر وتساوى في البر والبحر

* { تخريب حصن بيت الاحزان } *

كان الصليبيون قد بنوا حصناً عند مخاضة بيت الاحزان سموه بحصن بيت الاحزان فلما بلغ خبره إلى السلطان أشار عليه الأمراء بمخايرتهم في هدمه لأن بقاء هذا الحصن يضر بالمسلمين كثيراً فأرسل السلطان إلى الصليبيين يطلب منهم هدم الحصن فقالوا إنه يهدمه إلا إذا أعطانا تكاليفه وكان هذا الحصن لجمعية الهيكلين الرهبانية فجعل لهم السلطان ستين ألف دينار فأبوا فزادهم إلى أن جعل المبلغ مائة ألف دينار فأبوا فقال تقي الدين عمر للسلطان الأحسن أن تصرف هذا المبلغ في العساكر وهم يهدمونه بالقوة فسار السلطان بجيشه إلى أن وصل إلى المخاضة في يوم السبت ١٩ ربيع أول سنة ٥٧٥ هـ فخيم بالقرب منها وضاق ذلك المرج عن العساكر واحتاج إلى نصب ستائر فركب السلطان بكرة الأحد ٢٠ منه إلى ضياع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ لا دوايه وهي الجمعية المذكورة فأمر بقطع كرومها واهل أخشابها فأخذ كل ما احتاج إليه ورجع بعد الظهر ورجعوا إلى الحصن بعد العصر فأمسى المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة وانتقلوا بكليتهم إليها وباتوا طول الليل يحرسون وخافوا أن يفتح الصليبيون الأبواب ويعيروا عليهم على غرة منهم وإذا بالصليبيين قد أوقدوا النار خلف كل باب ليأمنوا من المسلمين اغتراراً فاطمأن المسلمون وقالوا ما بقي إلا نقب البرج فقرقه السلطان على الأمراء فأخذ فرخشاه الجانب القبلي وأخذ السلطان الجانب الشمالي وقصد ناصر الدين شيركوه بقربه نقباً وكذلك تقي الدين وكل كبير في الدولة جعل له قسماً وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ما انقضى يوم الأحد إلا وقد تم نقب السلطان وعلق وحشي بالخطب ليلة الاثنين وحرق وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاثة أذرع وكان عرض السور تسع أذرع فأتاثر بذلك فاحتاج السلطان صديحة

يوم الاثنين الي اطفاء النيران ليتم نفيه وقال من جاء بقربة ماء فله دينار فكانت الناس للقرب حاملين ولاوعية الماء نافرين حتى اغرقوا تلك الثقوب فحمدت فعاد نقابوها وقد بردت نحر قوه وعمقوه وفتحوه وشقوا حجره وعلقوه ثم حشوه وعلقوه واستظهر وافية يوم الثلاثاء والاربعاء ثم احرقوه واشتد الحرص عليه لان الخبر اتاهم بان الصليبيين قد اجتمعوا بطبرية في جمع كثير فلما اصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر وتعالى النهار انقض الجدار واستبشر المسلمون وكان الصليبيون قد جمعوا وراء ذلك الموضع المتداعي خطباً فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم واحرقت بيوتهم وطائفة منهم فاجتمعوا الى الجانب البعيد من النار وطلبوا الامان فلما خمدت النار دخل الناس وقتلوا واسروا وغنموا مائة الف قطعة من الحديد من جميع انواع الاسلحة وشيئاً كثيراً من الاقوات وغيرها وجيء بالاسارى الى السلطان فن كان مرتدياً او رامياً ضربت عنقه وأكثر من أسر قتلة المتطوعون في الطريق وكان عدد الاسارى نحو ٧٠٠ وخلص من الاسر اكثر من مائة مسلم وسير باقي الاسارى الى دمشق واقام السلطان في منزلته حتى هدموا الحصن الى الاساس وكان الصليبيون قد حفروا في وسطه جب ماء معين فامر السلطان برمي القنبل فيه وكان عند السلطان رسول من رايونند قص طراباس وهو يشاهد بليسة قومه وأهل ملته ومدة مقام السلطان على الحصن في ايام فتحه وبعدها حتى دكها اربعة عشر يوماً وبعد ذلك سار السلطان الى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فاغار عليها وأرجف قلوبهم بوصوله اليها ثم رجع الى دمشق ومرض جماعة من الامراء المسلمين لان الحر كان شديداً وأتت الجثث تفشى الوباء وتوفي أكثر من عشرة أمراء

﴿ محاربة الاسطول المصري ميناء عكا ﴾

سار الاسطول المصري يغزو بلاد الصليبيين ومراكبهم وكانت قوة الاسطول قد زادت في هذه السنة واستخدم فيه عساكر بحرية مغربية ممن سبق لهم غزو الافرنج وكذلك رجاله المصريين الاقوياء المعروفين بالشهامة والقوة ومراكبه كانت كناناً الا انها تمرق مروق السهام ورواكد هي مدائن الا انها تمر مر السحاب غير الجهم فلا أعجب ان تسمى غربانا وتشر من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى جوارى وكم يسر مجراها من النصر فوصلت في الاحد حادي عشر جمادي الاولى سنة ٥٧٥ ميناء عكا وكانت مملوءة بمراكب الصليبيين ومراكب التجارة فاستولى

الاستطول على عدة من المراكب تحطياً وتكسيراً وأخلى المينا من الباقي وهذا مما لم يعهد من استطول اسلامي في سالف الدهر ومما يذكر ان عساكر الاستطول قتلوا بعض رجال قلعة عكا رمياً بالسهم من بعد كبير

﴿ وفاة المستضيء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله ﴾

في ثاني ذي القعدة سنة ٥٧٥ توفي الامام المستضيء بامر الله أمير المؤمنين ابو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضي الله عنه وأمه أم ولد ارمنية تدعى غضة وكانت خلافته تسع سنين وستة اشهر وواحد وعشرين يوماً وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال والناس معه في أمن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليماً قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو والصفح عن المذنبين فقد كانت أيامه كما قيل

كأن أيامه من حسن سيرته مواسم الحج والاعياد والجمع
ثم اخذت البيعة لولده الناصر لدين الله فبايعه أخوه الامير ابو منصور هاشم ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والاعيان وكان والده المستضيء قبل وفاته قد عهد اليه وسمي ولي العهد

﴿ محاربة السلطان بلاد الارمن ﴾

في سنة ٥٧٦ استمال ابن لاوون ملك الارمن بعض التركان ليرعوا مواشيه في صراعي بلاده ثم غدر بهم وأسروهم فلما بلغ ذلك الى السلطان صلاح الدين سار بجيشه ودخل بلاد الارمن وحارب ملكهم وأذل أعوانه وأجناده ومن خوف ملكهم أمر باحراق قلعة شامحة تعرف بالناقير فبادر المسلمون الى اخراج ما فيها من الآلات والغلات ففقدوا بها وتمموا هدمها الى الاساس ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً بآلات من نحاس وفضة وذهب مضى عليها زمن طويل وأخذ السلطان كثيراً من الارمن أسرى فبذل ملكهم كثيراً من المال وتمهد ان يطلق من عنده من الاسارى لاجل خروج السلطان من بلاده فلم يرض السلطان بما بذله فزاد في المال وانه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الصليبيين ويعتقهم فاجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك وأذعن الارمني وذل وأطلق ما بيده من الاسارى واشترى الاسرى من الصليبيين وعقهم ورجع السلطان منصوراً فقال الجلال الواسطي ابو غالب محمد وكان مشاهداً هذه الواقعة قصيدة منها

لقد جل الله منك الورى بأوفى مليك وفي هجان
ازرت ابن لاون لأواء فأضحى به خبراً عن عيان
ودان من الذل لا يرعوى حذاراً من الراغفات اللدان

﴿ وفاة شمس الدولة وورود التشریف للسلطان ورجوعه الى مصر ﴾
كان السلطان قد أنفذ أخاه شمس الدولة تورانشاه الى الاسكندرية وجعل اليه ولايتها فلما أقام بها لم توافقه وكان يمتاده القوانج فثبات به في ٥ صفر سنة ٥٧٦ هـ ودفن بقصر الاسكندرية ثم نقلت به منها اخته ست الشام بنت أيوب ودفنته في مدرستها التي أنشأها بظاهر مدينة دمشق فهناك قبره وقبرها هي وولدها حسام الدين عمر بن لارين وقبر زوجها ناصر الدين ابن اسد الدين شيركوه وكانت قد تزوجته بعد لاجين ووصل الخبر الى السلطان وهو نازل بظاهر حمص فحزن عليه حزناً شديداً لأنه كان شجاعاً بأسلاً عظيم الهبة واسع الصدر جواداً كريماً قال فيه ابن سعدان قصيدة منها

هو الملك ان تسمع بكبرى وقيصير فانهما في الجود والبأس عباده
وما حاتم ممن يقاس بمشله نخذ ما رأيناه ودع ما روينا
ولد بذراه مستجيراً فانه يجيرك من جور الزمان وعدواه
فلا تتحمل للسحاب منة اذا هطلت جوداً سحاب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منها فليمن يمينه ولايسر يسراه

وفي رجب من السنة المذكورة وصلت رسل الديوان المميز الناصري صدر الدين الشيخ أبو القاسم عبد الرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشریف الجديد فخرج السلطان للقاءهم بموكبه وقابلهم بالاحترام اللائق والتعظيم والتبجيل ثم ركبوا ودخلوا المدينة وهذه أول خلعة وصلت من الامام الناصر الى السلطان الناصر وهذه الخلعة هي ثوب أطلس اسود واسع الكم مذهب وبيطار اسود مذهب وطيلسان اسود مذهب ومشدة سوداء مذهب وطوق وتخت وسرفسار وجواد كمت من ركائب الخليفة عليه سرج اسود وسلال اسود وطوق مجوهر وقصبة ذهب وعلم اسود وعدة خيول وبقيج وركب السلطان بالخلعة وكان يوم عظيم زينت له دمشق وأولت الولاة لرسول الخليفة . ثم اراد السلطان الرجوع الى مصر فاناب عنه بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه لقوته ليكون امام الصائدين

﴿ محاربة عن الدين فرخشاہ رانود صاحب الکرك ﴾

في سنة ٥٧٧ هـ كان رانود دي شاتيلون من أشد الصليبيين عداوة للمسلمين قد عزم على السير في البر الى تيماء ومنها الى المدينة المنورة باراضي الحجاز وكان دائماً ينقض عهوده فجمع جيشه واستعد لذلك فسمع عن الدين فرخشاہ فجمع العساكر الدمشقية وسار الى الکرك ونهبها وخربها وعاد الى اطراف بلاد الصليبيين وأقام بها لمنع البرنس رانود من العبور الى بلاد المسلمين ولما طال مقام كل منهما في مقابلة الآخر وخاف رانود من العساكر الاسلامية أمر بتفريق عساكره الى بلادهم وانقطع طمعه من الحركة فعاد عن الدين فرخشاہ الى دمشق

﴿ وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ﴾

في التاسع من رجب سنة ٥٧٧ هـ مرض الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وكان مرضه بالقولنج فلما اشتد عليه وصف له الاطباء شرب الخمر تداوياً بها فقال لا افعل حتى استفتي الفقهاء فاستفتى فافتاء فقيه من مدرسى الحنفية بجواز ذلك فقال له رأيت ان قدر الله تعالى بقرب الأجل يؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا والله فقال الصالح والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه علي فلم يشربه . فلما آيس من نفسه احتضر الامراء وسائر الاجناد وأوصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عن الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل واستحلفهم بذلك فقال له بعضهم ان عماد الدين ابن عمك ايضاً وزوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وتولى تربيته وليس له غير سنجار فلو اعطيته البلد لكان اصلح وعن الدين بلاده واسعة ولا حاجة به الى بلدك فقال اعلم ذلك ولكن قد علمتم بان صلاح الدين قد ملك اكثر الشام سوى ما بيدي ومضى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها وان سلمتها الى عن الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات في الخامس والعشرين منه وكان حليماً كريماً عفيف اليد والفرج واللسان وكان عمره ١٩ سنة وبعد وفاته ارسلوا الى ابن عمه عن الدين فحضر واستلم حلب واقام بها واستلم جميع الخزان والسلاح ثم بادل بها ابن عمه عماد الدين بسنجار فاستلم عماد الدين حلب واستلم عن الدين سنجار

﴿ في سفر السلطان صلاح الدين الى الشام ومحاربة الصليبيين ﴾

لما بلغ السلطان خبر وفاة الملك الصالح خاف على بلاده من عز الدين وندم على سفره من الشام وعزم على العودة اليها لحفظ بلاده وفي هذه السنة أيضاً سار بهاء الدين قراقوش الى بلاد الغرب فلوغل فيها ونهب ما قدر عليه وحارب عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان ثم بلغه ان ابراهيم الساحدار احتوى على أهل قراقوش وبلده فرجع اليه فهرب ابراهيم وسار الى خدمة ابن عبد المؤمن وملك قراقوش ما كان بيد ابراهيم أما السلطان صلاح الدين فإنه رأى ان عز الدين قد خرق المعاهدة بتملكه واتصل به أيضاً ان أمراء الموصل تأمروا عليه سرّاً مع الصليبيين فجمع عساكره واستصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر لحفظ الثغور المصرية ثم سار السلطان من البركة وأخذ على طريق صدر واية في المفاوز فبات بالبويب ثم سار على الجسر ووادي موسى حتى وصل عقبة أيل. وهناك سمع باجتماع الصليبيين على الكرك فاحتز بحفظ الاطراف وانحاز بحمي ثم عقبة شتار ثم القريتين وأغار في تلك الايام على اطراف بلاد العدو ثم تجرد السلطان بكائه وسلك بهم سمت الكرك الى الحمي وأمر أخاه تاج الملوك بوري على العسكر وأمره ان يسير بهم على يمينه ففعل واجتمع بالسلطان بالازرق بعد أسبوع ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه لانه لما بلغه تجمع الصليبيين على الكرك اغتم خلو ديارهم فاغار على بلاد طبرية وعكا وفتح دبورية وجاء الى حبيس جليلك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين ففتحها واسكن المسلمين فيه فبقي عينا على الصليبيين بعد ما كان لهم ورجع بالاسرى والغنائم منصوراً ومعه الف أسير وعشرون الف رأس من الانعام ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق في ١٧ صفر سنة ٥٧٨ وفي اوائل ربيع اول خرج السلطان وأغار على بلاد طبرية ويسان والتحم القتال بينه وبين الصليبيين تحت حصن كوكب فانهزمت الصليبيون وقتل وأسروا منهم كثير وعاد السلطان منصوراً

﴿ محاصرة بيروت براً وبحراً ومسير السلطان الى الموصل ﴾

أمر السلطان الاسطول المصري بالجحى الى بيروت فسار اليها ونازلها واغار عليها وسار السلطان فوافاه اليها ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة أيام فاتاه الخبر وهو عليها ان قد نزل دمياط جميع عظيم من الافرنج وكانوا قد خرجوا من بلادهم لزيارة القدس فأسروا من بها بعد ان غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى

الف وستائة وستا وسبعون أسيراً ثم أرسل اليه مظفر الدين كوكبري صاحب حران واعلمه انه معه وطلب منه سرعة قدومه الى الفرات فجد صلاح الدين في السير مظهره انه يريد حصر حلب تسترا فلما قارب الفرات سار اليه مظفر الدين واجتمع به فقصده البيرة وكان صاحبها معه ثم سار الى الرها فحاصرها في جماد الاولى سنة ٧٨ هـ وقاتلها اشد قتال ووالى الزحف عليها وكان بها الامير نحر الدين مسعود فلما رأى شدة القتال أذعن للتسليم وطلب الامان وسلم البلد وسار في خدمة صلاح الدين الذي سلمها الى مظفر الدين مع حران ثم سار السلطان الى الرقة فملكها ومنها الى نصيبين فملكها أيضاً وجمع أمراءه واستشارهم في أي البلاد يبدأ بالموصل أو سنجار أو جزيرة ابن عمر فاشاروا عليه بالموصل فسار اليها وحاصرها فوجد هامة جداً وعلم ان ليس له قدرة عليها ولكنه لازم حصارها ثم حصل تردد في الصلح فلم يتم وأخيراً تركها وسار الى سنجار وحاصرها وجد في قتالها الى ان تسلمها بالامان وقفل عائداً

﴿ الصليبيون في البحر الاحمر او بحر القازم وهلاكهم ﴾

في سنة ٧٨ هـ أيضاً طمع البرنس رانود بالاستيلاء على أراضي الحجاز فانشأ المراكب ونقل أخشابها على الجمال الى الساحل ثم ركبها وشحنها بالرجال وآلات القتال وجعلها قسمين قسما سار الى جزيرة قاعة ايله ففتح اهلها من ورود الماء فقال اهلها شدة وضيق عليهم والتسم الثاني سار نحو عيذاب وافسد في السواحل ونهب وأخذ ما وجد من المراكب الاسلامية وما فيها من التجار وبعثوا الناس في بلادهم على حين غفلة لانهم لم يمهّدوا بهذا البحر أفرنجياً لا تاجراً ولا محارباً وكان بمصر الملك العادل ابو بكر بن ايوب نائب عن أخيه صلاح الدين فعمّر اسطولا في بحر القلزم بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ وشحنه بالرجال البحر بين ذوي التجربة من أهل النخوة للدين وسار الى ايله فظفر بمراكب العدو بعد ما خرقها وأخذ جندها ومن هرب منهم في البرية تتبعته العرب وأحضرتة اليه ثم سار نحو عيذاب مقتفياً أثر الباقي من مراكب الصليبيين فوجدهم قد قتلوا اهل عيذاب وأسروهم ونهبوهم وساروا فبعثهم فوجدهم قد قطعوا طريق التجار وشرعوا في القتل والنهب وتوجهوا الى أرض الحجاز فعظم البلاء على الناس وأشرف أهل المدينة ومكة على خطر وسار لؤلؤ يتبعهم فوصل رابع ساحل الحوراء فأدركهم هناك فأوقع بهم من القتل والأسر فلما رأوا المطب وشاهدوا الهلاك خرجوا الى البر واعتصموا ببعض تلك الشعب فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقتلهم أشد قتال وأخذ خيلاً من صرب البلاد

فركبها وقتلهم فرساناً ورجالة فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام اخافة البلاد الحرام وعاد بالباقيين الى مصر فقتلوا جميعاً لئلا يدل من يظل منهم حياً على تلك الجهات فقال ابو الحسن ابن الذروي يمدح لؤلؤ بقصيدة منها

مر يوم من الزمان عجيب كاد يبدي فيه السرور الجماد
اذ أتى الحاجب الاجل بأسرى قرنتهم في طيها الاصفاد
بجمال سكانهن جبال وعلوج كأنهم اطواد *
قلت بعد التكبير لما تبدي هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الاعادي وسواه من اللآلئ يصاد

* { استيلاء السلطان على حلب } *

في سنة ٥٧٩ هـ سار السلطان الى آمد وحصرها وفتحها عنوة بعد حرب شديدة وسلمها الى صاحب الحصن نور الدين ثم سار الى تل خالد فحاصره واستلمه وسار الي عينتاب فتسلمها ايضاً بالامان ثم سار الى حلب وحاصرها وشدد حصارها وأقام عليها أياماً والقتال بين العسكرين كل يوم فلما رأى عماد الدين صاحب حلب كثرة المصاريف شح بالمال فحضر عنده بعض الاجناد وطالبوا منه شيئاً فاعتذر اليهم بقله المال عنده فقال له بعضهم من يريد ان يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلي نسائه فقال عماد الدين الي تسليم حلب وأخذ العوض عنها وأرسل الى السلطان الامير طمان الياروقي بأنه يسلم حلب ويأخذ عوضها سننجار ونسييين والخابور والرقه وسروج وجري اليمين على ذلك فنزل منها في ١٨ صفر سنة ٥٧٩ هـ وسلمها واستلم البذل عنها ونصب السلطان علمه الاصفر فوق السور وقال محي الدين بن الزكي قاضي دمشق في مدح السلطان قصيدة منها

وفتحكم حالباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ٥٨٣ هـ وهو من الاتفاق العجيب وجعل فيها ولده الملك الظاهر غازي

﴿ في تنازل بودوين الرابع وولاية بودوين الخامس ﴾

في سنة ٥٧٩ هـ عمي السلطان بودوين الرابع المسمى بالملك الابرس وحار كفيفاً ولذلك اتدب غوى دي لوزينانا زوج أخته سيلا وأقامه نائباً على الملك وكان

ضعيفاً طائش الرأي فسار مرة في عشرة آلاف مقاتل فلقاه السلطان صلاح الدين فهزمه وقتل رجاله ولذلك كرهه الصليبيون وصرله بودوين الرابع وأقام وكيلا عنه راييموند صاحب طرابلس ثم ان الملك بودوين الرابع تنازل عن الملك لابن أخته سييلا من زوجها الاول غويليوم دي مونت فراتا وعمره خمس سنوات فهذا الفتي صعد على كرسي سلطنة القدس (أورشليم) سنة ١١٨٣ ميلاديه ولقب بهودوين الخامس

﴿ مناوشات الصليبيين مع العساكر الاسلاميه ﴾

انتهت سنة ٥٧٩ هـ في مناوشات تقع بين الصليبيين وعساكر السلطان صلاح الدين وكان النصر دائماً ملازماً لعساكر السلطان لانه في كل واقعة كان يقتل ويؤسر بعض الصليبيين خصوصاً في جهات بيسان فانهم استولوا على أشياء كثيرة من أمتعة وقماش وغلال والجلوت وهي قرية عامرة فانهم عثروا على نجدة للصليبيين كانت قاصدة الشوبك والكرك فانقضوا عليهم وقتلوهم وأسروا منهم زهاء مائة نفر . ثم بلغ السلطان ان الصليبيين اجتمعوا في صفوريه ورحلوا الى الفولة وهي قرية معروفة وكان غرضه المصاف فلما سمع ذلك تعي للقتال وسار للقاء العدو فالتقوا وجرى قتال عظيم فقتل من العدو جماعة وجرح منهم جماعة وهم ينضم بعضهم الى بعض يحمي راجلهم فاربهم ولم يخرجوا للمصاف وظلوا سارين حتى اتوا العين فنزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الى المصاف وهم لا يخرجون فرأى السلطان ان يرسل عنهم قليلا لعلهم يخرجون فيضرب معهم المصاف فرحل ونزل تحت الحيل مترقباً خروجهم فنكص الصليبيون على أعقابهم فزحف عليهم وأخذ يرميهم بالنشاب ويطلب مصافهم فلم يخرجوا ولم يزل السلطان وراءهم حتى نزلوا الفولة راجعين الى بلادهم فعاد . ثم طلب السلطان أخاه العادل نائبه بمصر وولاه حلب وأرسل تقي الدين الى مصر نائباً عنه وأتاب سيف الاسلام على جميع اليمن

﴿ محاصرة الكرك ودخول السلطان بلاد الصليبيين ﴾

في سنة ٥٨٠ هـ طلب السلطان العساكر المصرية الى الكرك وسار اليها بمن معه وحاصرها بعد مجيء العساكر المصرية وركب المنجانيقات عليها وضيق عليهم الحصار ولما بلغ الصليبيون ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم فلك المسلمون الربيض

وبقي الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد الا ان بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً فأمر السلطان بالقاء الاحجار والتراب لردمه فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهم والاحجار من المنجانيقات فأمر أن يبنى بالاحشاب سقايف يمكن الرجال يمشون تحتها لردمه ومنجانيقات المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلاً ونهاراً أما الصليبيون فانهم زحفوا لتجدة اخوانهم فلما بلغ السلطان قدومهم سار ليلتهم وكانوا قد نزلوا في مكان يقال له الواله فسار حتى نزل بالبقاء على قرية يقال لها حسان امام الصليبيين في طريقهم ورحل منها الى موضع يقال له ماء عين ثم رحل الصليبيون الى الكرك فسار بعض العسكر وراءهم فقاتلهم الى آخر النهار ولما رأى السلطان تصميم الصليبيين على الكرك ورأى الساحل خالياً سار بعساكره فاغار على نابلس ونهبها وغنم ما فيها ثم سار الى سبسطيه وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وجماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ورحل الى جنين فنهبا وخرها وعاد الى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث السرايا في طريقه يميناً وشمالاً يغمون ويخربون

﴿ مرض السلطان وصلحه مع عز الدين صاحب الموصل ﴾

في سنة ٥٨١ سار السلطان بعسكره قاصداً الموصل فوصلها وحاصرها وضايق أهلها ثم أصابه مرض وهو يقيم الحصار فاغتنم عز الدين صاحب الموصل فرصة مرضه وأرسل اليه يطلب الصلح فصالحه بشروط ان تبقى البلاد بيد عز الدين ويخطب للسلطان فيها وان السلطان اذا طلب عسكراً للجهاد يكون عز الدين ملازماً بالسفر بنفسه للمساعدة ثم رجع السلطان الى حران وهو مريض واشتد به المرض حتى يئس الناس منه وسافر اليه أخوه العادل ومعه الاطباء من حلب وعاده جميع الأمراء والعساكر وفي أثناء مرضه أشار عليه بعض الزائرين ان ينذر الله نذراً اذا شفاه الله من مرضه هذا وهو ان يشتغل بفتح البيت المقدس وانه لا يصرف بقية عمره الا في قتال الاعداء الصليبيين ثم أخذ السلطان في التقدم في الشفاء من ذلك المرض شيئاً فشيئاً الى ان عوفي تماماً ففرح جميع المسلمين بذلك

﴿ وفاة بودوين الخامس وولاية غوى دي لوزيننا ﴾

في سنة ٥٨١ توفي الملك بودوين الخامس ابن أخت بودوين الرابع وهو صغير السن كما تقدم وكانت مدة حكمه سنتين وكان النائب عنه البرنس رايوندا صاحب طرابلس

وقبل وفاة المذكور بأيام قليلة توفي بودوين الرابع الذي كان كفيفاً وتنازل عن الملك كما تقدم ثم بعد وفاة بودوين الخامس تولت المملكة والدته سيبلا أخت بودوين الرابع وتنازلات عن الملك لزوجها غوى دي لوزنيانا وألبسته التاج أمام القسوس والبطاركة ورؤساء جمعية ماري يوحنا المعمدان وجمعية الهيكلين وأمرهم باتباع أحكامه وأوامره فاجابوها بالسمع والطاعة وصار من ذلك الوقت ملكاً على القدس

﴿ حساب المنجمين بخراب الكون ﴾

في سنة ٥٨٢ حكم الفلكيون رصاد النجوم انه في الثامن والعشرون من جمادي الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمس والشمس والقمر في برج الميزان ويشير ذلك هواء عظيماً وغياً سموياً وفي يوم الثلاث التاسع والعشرين تهلك جميع البلاد وتحمل الرمل وقلوا يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء الى نصف ليلة الاربعاء وخوفوا من ذلك جميع ملوك العجم والروم وأشعروهم بتأثيرات النجوم فشرعوا في حفر مغارات في التخوم وتعميق السرايب وتوثيقها وسد منافسها على الريح ونقلوا اليها الماء والزاد وانتقلوا اليها وانتظروا الميعاد وخاف كذلك جميع الرعايا في كل البلدان ولما جاءت ليلة الميعاد فكانت ليلة هادية وما تحرك فيها ريح قط نفخري أهل التتجيم من ذلك وعملت الشعراء في كذبهم أشعاراً قال أبو الغنائم منها

قل لابي الفضل قول معترف	مضى جمادي وجاءنا رجب
وما جرت زعزعة كما حكموا	ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا	أبدت أذى في قرأتها الشهب
يقضي عليها من ليس يعلم ما	يقضي عليه هذا هو العجب
فأرم بتقويمك الفرات والاصطرلاب خير من سفرة الخشب	
قد بان كذب المنجمين وفي	أي مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الامر واحد ومتى	للسبع في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل	باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق	وانجاب التماذي وزالت الريب
فليطال المدعون ما وضعوا	في كتبهم ولتتحرق الكتب

﴿ اختلاف الصليبيين وأنجياز رايغوند الى السلطان صلاح الدين ﴾

كان رايغوند صاحب طرابلس وصياً على بودوين المسلمين ولما توفي بودوين وتولى بعده زوج أمه غوى دي لوزنيانا طالب البرنس رايغوند بحساب ما حباه من الاموال مئة ولاية الصبي فادعى انه انفق عليه وزاده ذلك الامر نفوراً وكذراً وجاهراً بالعداوة وراسل السلطان صلاح الدين وانتسب اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج الصليبيين ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعدوه النصر والسي له في كل ما يريد وضمن له ان يجعله ملكاً مستقلاً للصليبيين قاطبة وكان عنده جماعة من فرسان رايغوند أسرى فاطلقهم فحل ذلك عنده أعظم محل وأظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الصليبيين فاختلقت كلهم وتفرق شملهم وكان ذلك في سنة ٥٨٢ هـ جريه

﴿ غدر رانود صاحب الكرك بالهدنة ﴾

كان البرنس رانود صاحب الكرك من أشد أعداء المسلمين وكان يوالي غدراتهم وكان السلطان يحاصره المرة بعد الاخرى حتى اذله فخضع وطلب الهدنة فهادنه وتحالفا بعدم التعرض لاحد وترددت القوائيل من الشام الى مصر ومن مصر الى الشام ففي هذه السنة اجتازت به قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال ومهما جماعة من الجند كانت واردة من مصر فنذر رانود بهم وأخذهم عن آخرهم وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم واودعهم السجن فاشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين فاستخف بهم وقال قولوا لكم انكم فبلغ ذلك السلطان وراسله في اطلاقهم فابى لحسنه الدين والحمية على انه نذر ان يظفر به قتيله

﴿ واقعة صفورية وحصار الكرك ﴾

في اول محرم سنة ٥٨٣ هـ برز السلطان من دمشق في العسكر العرمرم فلما وصل الى رأس الماء أمر ولده الملك الافضل بالاقامة هناك لمقابلة الامراء القادمين لمساعدته من جميع البلاد وسار السلطان الى بصرى وخيم على قصر السلامه ثم سار ونزل على الكرك واخاف أهله واخذ ما كان حوله ورعي زرعهم وقطع أشجارهم وكروهم ثم سار الى الشوبك وفعل به مثل ذلك ووعد عسكر مصر قتلاهم وفرقه على أعمال القامتين واقام على هذه الحالة شهرين والملك الافضل مقيم برأس الماء ومعه جميع العساكر القادمة ينتظر أمراً من أبيه فلما طال به الانتظار سار بسرية منهم قاصداً

الاغارة على اعمال طبرية حتى اصبح صفورية نخرج اليهم الصليبيون من جمعية الهيكلين (الدوية) وجمعية ماري يوحنا المعمدان (الاسبتارية) واقتتلوا قتالا شديداً وخرج من الصليبيين فارس راكب حصاناً ابيض وهو يدعى يعقوب دي مالي رئيس الاستبارية وهجم على المساكر الاسلامية فقتلوه وقتلوا باقي قومه وأسروا اكثرهم وأيقن باقي الصليبيين بالهلاكة وهرب مقدم الهيكلين وعادت المساكر الاسلامية سالمة غائمة فكانت هذه الواقعة باكورة البركات وجاءت البشرى الى السلطان وهو على الكرك والشوبك فسار السلطان حتى خيم بمشترائهم سار حتى قابل المساكر الاسلامية فعبى العسكر قلباً وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقية وعرف كل منهم موضعه وسار على تعية فنزل بالاقحوانة بقرب طبرية وكان البرنس رايغوند المتمي لصالح الدين قد اصطالح مع قومه لان ملكهم غوي قد ارسل له البطرك والقسوس والرهبان فقالوا له لاشك انك اسلمت والا لما كنت تصبر على ما فعله المسلمين في صفورية وتهده البطرك ان يحرمه فلما رأى رايغوند شدة الامر عليه خاف واعتذر وتاب وسار معهم الى القدس وتصلح مع الملك غوي

﴿فتح طبرية ومجاس مشورة الصليبيين﴾

لما رأى الصليبيون ما حصل لهم جمعوا عساكرهم باراضي صفورية . ثم عرض السلطان عساكره في منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل تسيل ورتبهم واندفع قاصداً بلاد العدو في وسط نهار الجمعة وكان دائماً يقصد بوقعائه الجمع لاسيما اوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب الى الاجابة فسار ونزل على بحيرة طبرية غربي المدينة على سطح الجبل لتعية الحرب منتظراً ان الصليبيين اذا باهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من مكانهم ولا فارقوا خيامهم فنزل وأمر عساكره بالنزول امام عساكر الصليبيين لاجل منعهم من القتال ونزل بجريدة من عسكره الى طبرية وقتلها ونقب بعض ابراجها واخذ المدينة عنوة في ساعة ولجأ من بها الى قلعها فامتنعوا بها وفيها زوجة رايغوند واولاده فنهب المدينة واحرقها ولما بلغ الصليبيون ما فعله صلاح الدين من اخذ طبرية واحرقها بعد سلب ما بها عقدوا مجلسهم للمشورة بمدينة القدس فقام رايغوند وقال اني متنازل عن مدينة طبرية للعدو ويلزمننا التجمع حول القدس لحفظه من العدو لاني ما رأيت قط جيشاً مثل هذا ذا قوة وبطش فقام رانود صاحب الكرك وقال له قد اطلت في التخويف من المسلمين ولا شك انك تريد تميل اليهم والا ما كنت تقول هذا وأما قولك انهم

كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الحطب فقال رايموند هاتنا واحد منكم
 ودين أيديكم فقررروا بمسير العساكر الى مرج صفورية فزحفوا وكان أمامهم رايموند
 مع عساكره وغوي سلطان القدس مع الفرسان الهيكلين (الداوية) وضياف الغربا
 أي جمعية ماري يوحنا المهدان (الاسبتارية) كانوا وراء الجيوش بصفة خفراء وكان
 في الوسط باقي الصليبيين مع مطران عكا حاملا الصليب الحقيقي (صليب الصابوت
 الذي صلب عليه المسيح كما يدعون) فلما بلغ ذلك السلطان صلاح الدين عاد عن
 طبرية الى عسكره وكان قريباً منه وانما كان قصده من محاربة طبرية ان الصليبيين
 يفارقون مكانهم ليقاتلهم وكان المسلمون قد نزلوا على الماء وكان الوقت قيط شديد
 الحر فحصل للصليبيين عطش ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين
 وقد افنوا ما هناك من ماء الصحاري ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين
 فبقوا على حالهم الى الغد وهو يوم الجمعة وقد اخذ السطش منهم وأما المسلمون
 فانهم طعموا قهيم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يخرض بعضهم بعضاً وقد وجدوا
 ريح النصر والظفر وكلوا رأوا حال الصليبيين بخلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان
 زاد طمعهم وجرائتهم فاكثروا التكبير والتهايل طول ليالهم ورتب السلطان تلك الليلة
 الجاليشية وفرق فيهم النشاب

﴿ واقعة حطين واخذ المسلمين صليب الصابوت ﴾

لما كان صبح يوم الجمعة ٢٣ ربيع آخر ركب العسكران وتصادما وذلك بارض
 قرية تسمى الاوبيا ولم يزل القتال مشتبكا الى ان حال بينهم الظلام وجري في ذلك
 اليوم من الوقائع العظيمة ما لم يروه السابقون وبات كل فريق شاكياً سلاحه ينتظر
 خصمه في كل ساعة وفي صباح يوم السبت ٢٤ منه ركب السلطان وتقدم الى الصليبيين
 وركبت الصليبيون بترتيبهم السابق حتى اذا دنا بعضهم من بعض اقتتلوا واشتد القتال
 وصبر الفريقان ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا
 من خيول الصليبيين كثيراً فاجتمع الصليبيون وقد اشتد بهم العطش وهم يقاتلون
 فساروا نحو طبرية لانهم يردون الماء فلما علم السلطان صلاح الدين ذلك صدهم
 عن مرادهم ووقف بالعسكر في وحوههم وطاف بنفسه في المسلمين
 يحرضهم ويأمرهم بما يصالحهم وينهاهم عما يضرهم والناس يتبعون اوامرهم فحمل
 مملوك من ممالك الصبيان حملة منكرة على صف الصليبيين فقاتل قتالا عجب منه
 الناس ثم تكاثر الصليبيون عليه فقتلوه فلما قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضمهضوا

معها الصليبيين وقتلوا منهم كثيراً فلما رأى رايغوند شدة الامر وعلم ان لا طاقة لهم على المسلمين اتفق هو وجماعة يرحلوا على من بينهم وكان مقدم المسلمين في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فلما رأى حملة الصليبيين حملة مكروب علم ان لا سبب للوقوف في وجوههم أمراً يصح ان يفتحوا لهم طريق يخرجون منه وكان بعض المتطوعة قد اشعل في تلك الارض نارا فالتهب الهشيم الكثير وهبت الريح فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال وانهم رايغوند وتبعه بعض عسكره وحمل الصليبيون حملات متدركة فكانوا يحمّلون الحملة فيرجعون وقد قتل منهم كثير فوهنت لذلك قواهم وهنا عظميا فاحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطارها واعتصم من بقي من الصليبيين بثل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب عليه السلام وارادوا ان ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم بها فاشتد عليهم القتال من سائر الجهات ومنعواهم عما ارادوا ولم يتمكنوا الا من نصب خيمة ملكهم وأخذ المسلمون سليمهم الاعظم (صليب الصابرة) فكان ذلك عليهم من أعظم المصائب وأيقنوا بمسده بالقتل والهلاك ودام فيهم القتل والاسر وبقي الملك على التل في قسم من جيشه ومعه الامراء والقواد فحمل عليهم المسلمون حملة شديدة حتى هلك الصليبيون فزلوا عن خيولهم وتراموا الى الارض فاخذتهم العساكر الاسلامية أسرى باليد وكان في جملتهم الملك غوي ملك القدس والبرنس رانود صاحب الكرك والشوبك وجميع ضباط الصليبيين حتى كان من يرى القتلى لا يظن انهم أسروا أحداً ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا أحداً ولم يصب الصليبيون منذ خرجوا من بلادهم الى فلسطين اي من سنة ٤٩١ الى الآن بمثل هذه الواقعة فلما فرغ المسلمون من ذلك نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الصليبيين غوي دي لوزيانا وبرانوددي شانيون صاحب الكرك وأجلس الملك غوي الى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب وأعطى الباقي الى رانود فشرب فقال السلطان صلاح الدين للترجمان ان هسدا الملعون لم يشرب الماء باذني بل الذي سقاه الملك وكان من جميل عادة العرب ان الاسير اذا اكل او شرب من مال من أسره أمن فنصده السلطان بقوله هذا ان الملك غوي أمن وأما رانود فلم يأمن ثم أمر السلطان بمسيرهم الى موضع معين لنزولهم ففضوا وأكلوا شيئاً ثم استحضروهم بين يديه فاقعد الملك غوي في الدهليز وأوقف رانود وقال له على ما حصل منه ثم قال السلطان ها أنا انتصر لمحمد

صلى الله عليه وسلم ثم عرض عليه الاسلام فابى ثم سل سيفه وضربه بنفسه فاطارها مته
فسحب الى باب الحيمة فارتعدت فرائص الملك ولم يشك في انه يثني به فاستحضره
وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك أما هذا فانه جاوز الحد
﴿ اخذ قلعة طبرية ﴾

لما فرغ السلطان من هذه الواقعة في يوم السبت أقام بموضعه باقي يومه فلما
اصبح يوم الاحد ٢٥ ربيع آخر عاد الى طبرية ونازلها فارسلت صاحبها زوجة
رايموند صاحب طرابلس تطلب الامان لها ولاولادها واصحابها ومالها فاجابها الى
ذلك ففرجت بالجميع فوفي لها فسارت آمنة ثم أمر الملك غوي وجماعة من
أعيان الصليبيين الاسرى فارسلوا الى دمشق وأمر بمن اسر من الداوية (الهيكليين)
والاستبارية (جمية ماري يوحنا) الرهبانيين بان يجمعوا ليقتلهم وأمر بان كل من
عنده اسير منهم يأخذ بدله خمسين ديناراً معصياً ولما جمعوهم أمر بقتلهم
وقد خض هؤلاء بالقتل لانهم أشد شوكة من جميع الصليبيين فاراح الناس من شرهم
وكتب الى نائبه بدمشق ليقبل من دخل البلد منهم اما القمص رايموند صاحب
طرابلس الذي هرب من الواقعة السابقة فانه ذهب الى صور ثم قصد طرابلس
ولم يلبث الا أياماً قلائل ومات ومدح العماد السلطان بقصيدة منها

يا يوم حطين والابطال عابسة	وبالمجاجة وجه الشمس قد عابسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقراً	معفراً خده والانت قد تعسا
يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد	اصاب اعظام من بالشرك قد نجسا
وناص اذ طار ذاك الرأس في دمه	كأنه ضفضع في الماء قد غطسا
ما زال يعطس من كوماً بغدرته	والقتل تسميت من بالغدر قد عطسا
عزى طباه من الاعداد مهرة	دما من الشرك ردا هابه وكسا
من سيفه في دماء القوم منغمس	من كل من لم يزل في الكفر منغمسا
افناهم قتلهم والاسر فانتكسوا	وبيت كفرهم من خبثهم كئسا

﴿ فتح عكا وغيرها من الحصون ﴾

لما فرغ السلطان من طبرية سار عنها في يوم الثلاثاء ٢٧ ربيع آخر سنة ٥٨٣ هـ
ووصل الى عكا يوم الاربعاء ٢٨ منه وقد سعد أهلها على سورها يظهرون الامتاع
والحفظ فتعجب السلطان لانهم علموا ان عساكرهم من فارس وراجل بين قليل

وأسير وانه لم يسلم منهم الا القليل الا انه نزل يومه وركب يوم الخميس ٢٩ منه
وقد صمم على الزحف على البلد وقتاله فينما هو يعمد النظار في اختيار الجهة التي
يزحف منها ويقاوم اذ خرج كثير من أهلها يطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأمنهم
على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وخبرهم بين الإقامة والظعن فاخاروا الرحيل خوفاً
من المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقي
على حاله ودخل المسلمون اليها يوم الجمعة غرة جماد الاولى وصلوا بها الجمعة في
جامع كان للمسلمين قديماً جعله الفرنج بيعة لهم ثم جعله صلاح الدين جامعاً وهذه
أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد ان ملكه الصليبيون واستنقذ ما كان بها من
أسرى المسلمين وهم ما ينوف عن أربعة آلاف مسلم وسلم البلد الى ولده الافضل
واعطى جميع ما كان في البلد ملكاً للداوية (الهيكلين) للفقير عيسى وغنم المسلمون
ما بقي مما لم يطق الصليبيون حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها
من الذهب والجواهر والسفلاط والبندق والسلاح وغير ذلك من الامتعة كثيراً
لانها كانت مينا عمومية لتجار الافرنج والروم وغيرهم ففرق صلاح الدين وابنه
الافضل ذلك جميعه على أصحابهما وفي مدة اقامة السلطان في عكا أرسل عساكره
الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد
الجاورة لمدينة عكا فلكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وقدموا من
ذلك ما سد الفضاء وأرسل صلاح الدين الى أخيه العادل بمصر يبشره بما فتحه
الله على يديه ويأمره بالمسير الى بلاد الصليبيين من جهة مصر بمن بقي عنده من
العسكر ومحاصرة ما يليه منها فسارع الى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن مجدل
باباً وحصره وغنم ما فيه وسار الى مدينة يافا وهي على الساحل حصرها وملكها
عنوة ونهبها وأسرى الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجز على أحد
من تلك البلاد وورد كتابة بذلك الى صلاح الدين . وقد سير السلطان حسام
الدين عمر بن لاجين في عسكر الى نابلس فأتى سبطيه وبها قبر زكريا عليه السلام
فاخذته من أيدي الصليبيين وسلمه الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر
قلعتها واستنزل من فيها بالامان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على أملاكهم
وأموالهم . وسير تقي الدين فنزل على تبين ليقطع الميرة عنها وعن صور

﴿ فتح تبين وصيدا وجيل وبيروت ﴾

ما وصل تقي الدين الى تبين نازلها وأقام عليها فراي حصرها لا يتم الا

بوصول عمه صلاح الدين اليه فارسل اليه يعلمه بالامر ويحثه على المسير اليه فرحل من عكا في ثامن جمادي الاولى ونزل عليها في ١١ منه فحصرها وضايقها وقتلها وهي من القلاع المنيعه على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما انضموا الى عسكر السلطان أحضرهم اليه وكساهم واعطاهم نفقة وصيرهم الى اهلهم وبقى الصليبيون محصورين خمسة ايام ثم أرسلوا يطلبون الامان فانهم على انفسهم فسلموا اليه وفي لهم وسيرهم الي مأمهم ثم سار السلطان الى صيدا فاجتاز بطريقه بصرفه فاخذها صفواً عفواً بغير قتال وسار عنها الى صيدا وهي من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحو سار عنها وتركها خالية من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله فملكها في ٢١ منه ثم سار عنها في يومه نحو بيروت وهي من أحصن مدن الساحل وأزهرها وأطيبها فوصل اليها من الغد فرأى أهلها قد صدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد وقتلوا على سورها قتلاً شديداً واغتروا بحصانة البلد وظنوا انهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد أخرى فبينما الصليبيون يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وضوضاء زائدة فاتاهم من أخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من الناحية الاخرى قهراً وغلبة فأرسلوا الرسل يستطلعون فلم يجدوا احداً فارادوا تسكين الخواطر فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الامان فانهم على انفسهم وأموالهم وتسلمها في ٢٩ منه فكانت مدة حصرها ثمانية ايام وفي أثناء حصار بيروت كان صاحب جبيل من جملة الاسرى المسجونين بدمشق ففاوض نائب السلطان بدمشق في تسليم جبيل بشرط اطلاقه فأعلم صلاح الدين بذلك فأحضره اليه مقيداً فسلم حصنه للعساكر الاسلامية وأطلق ما به من أسرى المسلمين وأطلقه السلطان كما اشترط

﴿ فتح عسقلان وما يجاورها من البلاد والحصون ﴾

لما ملك السلطان بيروت وجبيل وغيرها لم يبق عنده أهم من فتح عسقلان والقدس فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر فنزلوها يوم الاحد سادس عشر جمادي الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر الملك غوي ومقدم الداوية (الهيكليين) اليه من دمشق وقال لهما ان سلمتما لي البلاد فلكما الامان فأرسلنا الى من بعسقلان من الصليبيين يأمرانهم بتسليم البلد

فلم يسمعوا أمرها وردوا عليهم ما أقبح رد فلما رأى السلطان ذلك جد في قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقبابون إلى السور فقالوا من باشورته شيئاً وصار ملكهم يكرر لهم الأرسال بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم أنه إذا أطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين نارا واستنجد بأهل اوروبا وأجلب الحليل والرجال من أقاصي البلدان وهم لا يجيبون إلى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفاً ووهناً وإذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً ولا لهم نجدة ينظرونها راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها فاجابهم اليها وكان قد قتل أثناء الحصار من الأمراء الأكابر حسام الدين إبراهيم بن حسين المهراني نخاف الصليبيون أن تأخذ عشيرته منهم بشاره إذا خرجوا فاختلطوا بذلك فيما اشترطوا لأنفسهم فأجيبوا إلى ذلك جميعه وسلموا المدينة في آخر شهر جمادي الآخرة وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوماً وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم الأمان . وأقام السلطان بظاهرها وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزه ومشهد إبراهيم الحليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وجميع ما كان للداوية

﴿ فتح البيت المقدس شرفه الله ﴾

لما تسلم السلطان عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجد والاجتهاد في قصده واجتمعت اليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لباتها من النهب والغارة فسار نحوه متمداً على الله منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حث على اتهازه اذا فتح بقوله عليه الصلاة والسلام (من فتح له باب خير فلينتهزه فانه لا يعلم متى يثاق دونه) وكان القدس مملوئاً من الصليبيين حتى قدرهم بعض المؤرخين بستين ألف مقاتل ماعدا النساء والصبيان والجميع بدون ملك فلذلك استخبوا عليهم رئيساً عسكرياً وهو باليان دي ايبالين فاجتهد في الاستعداد لمحصنة المدينة من داخلها . وسار السلطان صلاح الدين إلى أن قرب من المدينة فارسل إلى الصليبيين رسولا من قبله يخاطبهم بما يأتي حسب تقرير مؤرخي فرانساً قائلاً لهم (اني انا نظيركم اعرف ان اورشليم) (القدس) هي بيت الله فانا لست آتياً لكي ادنس قداسها بسفك الدماء فاتم اهلوها لي وانا أخصصكم بقسم من خزائني

واعطيكم اراضي بمقدار ما أنتم تستطيعون أن تقوموا بأعمالها). فاجابه سكان المدينة بقولهم (اننا لا نقدر أن نترك لك مدينة قدمنا فيها الهنا بالجسد وبأكثر من ذلك نحن لا نقدر أن نبيعها أنتهى) وكان السلطان قد ارسل الى مصر يطلب الاسطول الذي بها في جمع من انقاتله ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة فسار الاسطول يقطع الطريق على الافرنج بجزراً ويغنم ما يجده من مراكبهم . واجتمع الصليبيون ببیت المقدس كما تقدم وحسنوه بما وجدوا اليه سيلا وصعدوا على سورهم بجدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة بقدر استطاعتهم ونصبوا المنجنقيات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ولما قرب صلاح الدين زحف فرحا الى القدس الامير جمال الدين شروين بن حسن الزرزاري فقابله فريق من الصليبيين كان قد خرج للاستطلاع فقاتله ليلا في موضع يعرف بالقيبات فاستشهد رحمه الله ولما علم بذلك صلاح الدين امرع بالمسير ونزل على القدس في منتصف رجب سنة ٥٩٢ هـ بالجانب الغربي وكان مشحوناً بالمقاتلة من الفرسان والرجالة ثم انتقل الى الجهة الشمالية نحو باب عمودا وكنيسة صهيون في عشرين منه ونصب تلك الالية المنجنقيات فاصبح من الفد وقد فرغ من نصبها ورحي بها ونصب الصليبيون على السور منجنقيات ورموا بها وقتلوا أشد قتال لان كل واحد من الفريقين كان يرى ذلك القتال دينياً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه الى امر ساحاتي وكانت فرسان الصليبيين تخرج كل يوم الى ظاهى البلاد يقاتلون ويبارزون فيقتل خاق كثير من الفريقين ومن استشهد من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من اكابر الامراء وأبوه صاحب قلعة جعبر وكان عز الدين يباشر القتال كل يوم بنفسه فقتل وكان محبوباً عند الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم غايهم فعملوا حملة رجل واحد فازالوا الصليبيون عن مواقفهم وادخلوهم بلدهم وزحفوا الى الخندق فاجتازوه ووصلوا الى السور فثقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنقيات ترمى دراكاً وتمكن النصابون من عملهم ولما علم الصليبيون انهم قد اشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم للمشاورة فيما يفعلون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس الى صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبارهم واعيانهم في طلب الامان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابته وقال لا افعل بكم الا كما فعلتم باهله المسلمين حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هـ هجرية من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائين محرومين

ارسل باليان دي ايبالين رئيسهم العسكري وطلب الامان لنفسه ليحضر الى السلطان
 صلاح الدين في هذا الامر فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه
 فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف فلما يئس من ذلك قال له أيها السلطان
 اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله انما هم يفترون عن القتال
 رجاء الامان ظانين انك تهييهم اليه كما احبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون
 في الحياة فاذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتل ابناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا
 وامتعنا ولا نترككم تقتنمون منها ديناراً واحداً ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلاً
 ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخبرنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرها من المواضع
 ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة
 أو حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه
 ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل امثاله ونموت اعزاء او نظير كراماً
 فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان والا يخرجوا ويحملوا على
 ركوب ما لا يدري عاقبة الامر فيه عن أي شيء تنجلي وقالوا نحسب انهم اسارى
 بايدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان
 للصليبيين فاستقر ان يؤخذ عن الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الفخ والفقر ومن
 كل طفل من الذكور أو الاناث دينارين ومن كل امرأة خمسة دنانير فمن
 أدى ذلك الى أربعين يوماً فقد نجح وان انقضت الاربعون يوماً غنسه
 ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً فاجيب الى ذلك وسامت المدينة يوم الجمعة
 السابع والعشرون من رجب سنة ٥٨٣ هـ أي في صباح ليلة المعراج وكان يوماً
 مشهوداً ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوار المدينة ورتب صلاح الدين على أبواب
 البلد في كل باب أميناً من الامراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا
 الحيانة ولم يحفظوا في عملهم الامانة واقتسم الامناء الاموال ولو أدبت كلها للملاط
 الخزائن لان المدينة كانت مملوءة لكثرة ما اجتمع فيها من عسقلان والداروم
 والرملة وغزها وغيرها ودفع باليان ثلاثين ألف دينار وبقي بعد ذلك من لم يكن
 معه ما يعطي وأخذ أسيراً نحو ستة عشر ألف ما بين رجل وامرأة وصبي ثم قام جماعة
 من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس
 فكان يطلق ويأخذ هو قطيعتهم واحتال آخرون بان ألبسوا الصليبيين زي
 الجند المسلمين وأخرجوهم وأخذوا منهم قطعة قروها واستوهب جماعة من

صلاح الدين عدداً من الصليبيين فوهمهم لهم فاخذوا قطيعتهم ولم يصل خزائن
السلطان الا القليل وكان بالقدس الملكة سيلا زوجة الملك غوي المأسور وزوجة
البرنس رانود وغيرهم من نساء مقدمي الصليبيين فاطلقهم بخمسة منهم وحشمتهم
واستأذنته الملكة سيلا في المير الى زوجها الملك غوي وكان محبوساً بقلعة نابلس
فاذن لها فتوجهت اليه وأقامت عنده وأتته امرأة البرنس رانود وطلبت اطلاق
ولد لها محبوس في الاسر فقال لها صلاح الدين ان سامتي لي قلعة الكرك أطلقته
فتوجهت الى الكرك فلم يرخص الصليبيون الذين بها تسليمها فلم يطلق ولدها وخرج
البطاريك الاورشليمي ايراكلوس يتبعه الاكليروس ومعهم الاواني المقدسة مع خزنة
كنيسة قبر المسيح وغيرها وكان له من المال كثير فقبل للسلطان ان يأخذ ما معه
فقال لا أغدر به وسير الجميع مع من يحمهم الى مدينة صور وكان هذا اليوم يوم
فرح واقتحار لجيش المسلمين فقاطر الشعراء من سائر الأنحاء لتهنئة السلطان
صلاح الدين بما آتاه الله من الفتح وانظموا القصائد وأقيمت الخطب وسالت أقلام
الكتاب وفاضت قرائنهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشر ويحرض واما شاعراً
يحمد الله ويمجد الفتح أو مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من النحر لجيش الاسلام
وقد أشار العماد في قصيدة طويلة الى ذلك منها

قل للمليك صلاح الدين أكرم من	يمشي على الأرض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى	صور فإن فتحت فاقصد طراباسا
أمر على يوم انطرسوس ذا لجب	وابتث الى ليل انطاكية العسسا
واخل ساحل هذا الشام أجمعه	من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهم نفساً ولا نفساً	فانهم يأخذون النفس والنفسا
زات بالقدس فاستفتحته ومي	تقصد طراباسا فانزل على قدسا

وقال أبو الحسين بن جبير الاندلسي من قصيدة

هو الفاتح البيت المقدس بعد ما	شجامة سادات الدنيا ومسودها
فضيلة فتح كان ثاني خليفة	من القوم مبدئها وأنت معيدها

وقال الرشدي بن بدر النابلسي من قصيدة طويلة

هذا الذي كانت الآمال تنتظر	فايوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذالفتح لا والله ما حكيت	في سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلك المشركين فيا	لله طيب العشايا منه والبكر

الآن قرت جنوب في مضاجعها ونام من لم يزل حافلاً له السهر
 يا بهجة القدس اذ أغشى به علم الاسلام من بمدطمي وهو منتشر
 وقال نثر الكتاب ابو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من اهل بغداد
 هذه القصيدة في الفتح وهي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم له تسمين عاماً
 حتى تجرد له صلاح الدين نذكر منها ما يأتي

جند السماء لهذا الملك أعوان	من شك فيهم فهذا الفتح برهان
مقراى الناس ما تحكيه في زمن	وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الانبياء وما	له سوى الشكر بالافعال اثمان
أخدت ملوك الفرنج الصيد في يده	صيدا وما ضفوا يوماً وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم	خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملك شاه طراباس	نخام عنها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعدد انظار الاسلام	يطوى ويحوى وهو سكران
تسمون عاماً بلاد الله تصرخ والا	سلام أنصاره صم وعيان
فالآن لبي صلاح الدين دعوتهم	باصر من هو للمعوان معوان
للتناصر ادخرت هذه الفتوح وما	سمت لها هم الاملاك منذ كانوا
حباذ العرش بالنصر العزيز فقا	ل الناس داود هذا أم سليمان
في نصف شهر غدا للشرك مصطالماً	فطهرت منه اقطار وبلدان
فاين مسامة عنها واخوته	بل أين والدهم بل أين سروان
وعند عمما سواء فالفرنجة لم	يبداهم من ملوك الارض انسان
لو ان ذا الفتح في عصر النبي لقد	نزلت فيه آيات وقرآن
يا قبيح اوجه عباد الصليب وقد	غدا يبرقها شؤم وخذلان
خزنت عند الله العرش سائر ما	ملكته وملوك الارض خزان
فالله يبقيك للاسلام تحرسه	من ان يضام ويأق وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة	فالكفر في سنة والنصر يقظان
يا جامعاً كلمة الايمان قانع من	دمبوده دون رب العرش صلبان
اذا طوى الله ديوان العباد فسا	يطوى لاجر صلاح الدين ديوان

﴿ اظهر محراب المسجد الاقصى والصخرة المقدسة ومحراب داود ﴾

اما دخل السلطان صلاح الدين بيت المقدس في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ

كما تقدم لم يتمكن من اقامة صلاة الجمعة في هذا اليوم لان الصليبيين كانوا قد بنوا على محراب المسجد الاقصى مخزناً للغلال وبنّت جمعية الهيكليين غريبه داراً كبيرة لسكنائها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من مراحيض وغيره فامر السلطان بازالة جميع ما أحدثوه من المباني وكان على رأس قبة الصخرة المقدسة صليب كبير منذهب فتساق جماعة من المسلمين الى أعلى القبة وأنزلوه فتهتف المسلمون بالتكبير والتهليل وكان الصليبيون قد بنوا عليها بناية وذلك ان البحاركة والتسوس كانوا يتطعموا منها ما يبيعونه للموك اوروبا تبركا بها فشقق عليها أحد ملوكها وبنى عليها اهدم منها فامر السلطان بازالة ما عليها من المباني أيضاً وأمر بتطهير ذلك جميعه وكان السلطان يكنس بيده وبعد الفراغ من كنس الصخرة والمسجد الاقصى أمر بغسلها بالماء صراخاً ثم غسلها بنفسه بماء الورد وأمر باطلاق البخور عليها ثم فرش المسجد ومحل الصخرة بالبسط الفاخرة وأمر باعمال منبر من خشب لتأدية صلاة الجمعة القابلة ريثما يصل المنبر الذي كان قد أمر بصنعه الملك العادل محمود نور الدين اتاك بك لوضعه بالقدس لانه كان عازماً على فتحه ومات ولم يتم ما عزم عليه فامر بوضعه في حلب . وأما محراب داود عليه السلام فانه كان خارج المسجد الاقصى في حصن منيع عند باب المدينة وموضع عال رفيع وهو الحصن الذي يقيم به الوالي فرتب السلطان له اماماً ومؤذنين وقواماً وهو مثابة الصالحين ومزار الغادين والراحمين فاحياه وجدده وأمر بعمارة جميع المساجد وفي يوم الجمعة التالي الموافق ٤ شعبان عزموا على اقامة صلاة الجمعة فاستعدت العلماء والخطباء وكل منهم يطلب ان يكون هو الخطيب ليحصل له الشرف العظيم ولما قربت الصلاة أمر السلطان القاضي محي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بان يخطب ويصلي بالمسلمين وخلع عليه خلمة سوداء من تشریفات الخلافة فصعد المنبر وتلا الخطبة الآتية

﴿ أول خطبة بالمسجد الاقصى بعد فتحه ﴾

افتتح الخطبة بآيات الحمد الواردة بالقرآن الشريف بعد البسملة ثم قال الحمد لله معز الاسلام بنصره . ومذل الشرك بقهره . ومصرف الامور بامره . ومديم النعم بشكره . ومستدرج الكافرين بمكره . الذي قدر الايام دولاً بعدله . وجعل العاقبة للمتقين بفضله . وافاء على عباده من ظله . وأظهر دينه على الدين كله . الفاهر فوق عباده فلا يمانع . والظاهر على خائفته فلا ينازع . والآمر بما يشاء فلا يراجع . والحاكم بما يريد فلا يدافع . أحمدده على اظفاره واطهاره .

واعزازه لاوليائه ونصره لانصاره . وتطهير بيته المقدس من ادناس الشرك
واوضاره . حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره . واشهد ان لا اله الا
الله وحده لا شريك له الاحد الصمد . الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً
أحد . شهادة من طهر بالتوحيد قلبه . وأرضى به ربه . وأشهد أن محمداً صلى
الله عليه وسلم عبده ورسوله . رافع الشك . وداحض الشرك . وراحض الافك .
الذي أسرى به من المسجد الحرام الى هذا المسجد الأقصى . وعرج به منه الى
السموات العلى . الى سدره المنتهى . عندها جنة المأوى . اذ يقش السدره ما يقش .
ما زاعغ البصر وما طغى . صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق الى
الايمان . وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اول من رفع عن هذا البيت شعار
الصلبان . وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن . وعلى أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب منزل الشوك ومكسر الاوثان . وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم
باحسان . أيها الناس ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى . والدرجة العليا .
لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة . من الامة الضالة . وردها الى
مقرها من الاسلام . بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام . وتطهير
هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وان يذكر فيها اسمه . واماطة الشرك عن طريقه .
بعد ان امتد عليه رواقه . واستعمر فيه رسمه . ورفع قواعده بالتوحيد . فانه بني
عليه . وبالتقوى فانه أسس على التقوى . من خافه ومن بين يديه . فهو موطن أبيكم ابراهيم
ومعراج نبيكم محمد عليه السلام . وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام . وهو مقر
الانبياء . ومقصد الاولياء . ومقر الرسل . ومهبط الوحي . ومنزل نزل الامر والنهي .
وهو في أرض الخشعر . وصعيد المنشر . وهو في الارض المقدسة التي ذكرها الله في
كتابه المبين . وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة
المقربين . وهو البلد الذي بعث الله اليه عبده ورسوله . وكلته التي القاها الى مريم . وروحه
عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته . ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته . فقال
تعالى . لن يستكفب المسيح ان يكون عبداً لله . وقال لقد كفر الذين قالوا ان الله هو
المسيح بن مريم . وهو اول القبيلتين . وثاني المسجدين . وثالث الحرمين . لا تشد الرحال
بعد المسجدين الا اليه . ولا تعقد الخناصر بعد المواطنين الا عليه . ولولا انكم ممن
اختاره الله من عباده واصطفاه . من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة . التي لا يجاريكم
فيها سواكم . ولا يباريكم في شرفها مبار . فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات

النبوية . والوقعات البدرية . والعزيمات الصديقية . والفتوح العمرية . والجيوش العثمانية .
والفتكات العلوية . جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية . والمنازلات
الخيبرية . والهجمات الخالدية . فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل
الجزاء . وشكر لكم ما بذلتوه من مهجكم في مقارعة الأعداء . وتقبل منكم ما
تقربتم به إليه من مهراق الدماء . وإنا بكم الجنة فهي دار السعداء . فأقدروا رحمكم
الله هذه النعمة حق قدرها . وقوموا لله تعالى بواجب شكرها . فله النعمة عليكم
بتخصيصكم بهذه النعمة . وترشيحكم لهذه الخدمة . فهذا هو الفتح الذي فتحت له
أبواب السماء . وتباعدت بأنواره وجوه الظلماء . وابتهج به الملائكة المقربون . وقر
به عينا الأنبياء المرسلون . فإذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه
البيت المقدس في آخر الزمان . والجند الذي تقوم بسيفهم بعد فترة من النبوة
أعلام الإيمان . فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء . أكثر من التهاني
به بين أهل الغبراء . اليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه . ونص عليه في
خطابه . فقال تعالى سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى الذي باركنا حوله الآية اليس هو البيت الذي عظمته الملائكة . وإثنت عليه
الرسل . وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الهككم عن وجل . اليس هو البيت
الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لاجله أن تغرب . وباعد بين خطواتها
ليتيسر فتحه ويقرب . اليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه
قلم يحميه إلا رجلاً . وغضب عليهم لاجله فالتفهم في التيه عقوبة للعصيان . فاحدوا
الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنوا إسرائيل . وقد فضاهم على العالمين
ووقفكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضية . وجميع لاجله كلمتكم وكانت
شقي . واغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحق . فليهنكم أن الله قد ذكركم به
في من عنده . وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهوائكم جنده . وشكركم الملائكة
المنزلون . على ما أهديتهم إلى هذا البيت . من طيب التوحيد . ونشر التقديس
والتهجيد . وما أمطم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتلث . والاعتقاد
الفاجر الخبيث . فالآن يستنفر لكم أملاك السموات . وتضلي عليكم الصلوات
المباركات . فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم . واحربوا هذه النعمة عندكم
بتقوى الله التي من تمسك بها سلم . ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم . واحذروا
من اتباع الهوى . وموافقة الردي . ورجوع القهقري . والنكول عن العدا .

وخذوا في اتهاز الفرصه • وازالة ما بقي من النصه • وجاهدوا في الله حق جهاده •
 وبيعوا عباد الله انفسكم في رضاه • اذ جعلكم من خير عباده • واياكم ان يستذلكم
 الشيطان • وان يتداخلكم الطغيان • فيخيل لكم ان هذا النصر بسيفكم الحداد •
 ويحولكم الحياء • ويجلادكم في مواطن الجلاد • لا والله ما النصر الا من عند الله ان
 الله عزيز حكيم • واحذروا عباد الله بعدان شرفكم بهذا الفتح الجليل • والمنح
 الجزيل • وخسكم بهذا الفتح المبين • وأعاق أيديكم بحبله المتين • ان تقترفوا
 كبيراً من مناهيه • وان تأتوا عظيماً من معاصيه • فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد
 قوة انكاثا • والذي آتينا آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين •
 والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم • وأشرف عاداتكم • انصروا الله ينصركم
 اذكروا أيام الله يذكركم • اشكروا الله يزدكم ويشكركم • جدوا في حسم الداء •
 وقطع شافة الاعداء • وتطهير بقية الارض التي اغضبت الله ورسوله • واقطعوا
 فروع الكفر واجتثوا أصوله • فقد نادت الايام بالشارت الاسلامية • والملة المحمدية
 الله اكبر فتح الله ونصر • غلب الله وقهر • اذل الله من كفر • واعلموا رحمكم
 الله ان هذه فرصة فانهزوها • وفريسة فناجزوها • ومهمة فانخرجوا لها هممكم
 واهرزوها • وسيروا اليها عزوماتكم وجهزوها • فالامور بأواخرها • والمكاسب
 بذخايرها • فقد اظفركم الله بهذا العدو المخدول • وهم مثلكم أو يزيدون • فكيف
 وقد أفضى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون • وقد قال الله تعالى • ان يكن منكم
 عشرون صابرون يغلبون مائتين • أعاننا الله واياكم على اتباع أوامره • والازدجار
 بزواجره • وأيدنا مفسر المسلمين بنصر من عنده • ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان
 يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده •

وتمت الخطبة الثانية قريب مما جرت به السادة وقال بعد الدعاء للخليفة
 اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك • الشاكر لنعمتك • المعترف بموهبتك
 سيفك القاطع • وشهابك اللامع • والمخامي عن دينك المدافع • والذاب عن حرمك
 المناع • السيد الاجل الملك الناصر • جامع كلمة الايمان • وقامع عمدة الصليان • صلاح
 الدنيا والدين • ساعطان الاسلام والمسلمين • مظهر اليت المقدس • أبا المظفر يوسف بن
 أيوب • محيي دولة أمير المؤمنين • اللهم عم بدولته البسيطة • واجعل ملائكتك برأيه
 محيطة • واحسن عن الدين الخفيف جزاءه • واشكر عن الملة المحمدية عزه ومضاءه •
 اللهم ابق الاسلام مهجته • ووق للايمان حوزته • وانشر في المغرب والمشرق

دعوته اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد ان ظنت الظنون . وابتلي المؤمنين . فافتح على يده أداني الارض وأقاصيها . وملكه صياصي الكفر ونواصيها . فلا تلقاه منهم كتيبة الا مزقها . ولا جماعة الا فرقها . ولا طائفة بعد طائفة الا ألحقها بمن سبقها . اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم عليه . وانفذ في المشارق والمغرب أمره ونهيه . اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها . وأرجاء الممالك واكنافها . اللهم زلزل به معاطس الكفار . وارغم به أنوف الفجار . وانشر ذوائب ملكه على الأمصار . وأنب سرايا جنوده في سبل الأقطار . اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه الى يوم الدين . واحفظه في بني وبني أيوب الملوك الميامين . واشدد عضده ببقائهم . واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده في الاسلام . هذه الحسنة التي تبقى على الالام . وتتخذ على مر الشهور والاعوام . فارزقه الملك الابدي الذي لا ينفذ في دار المقينين . وأجب دعاءه في قوله رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وان أعمل صالحاً ترضاه وادخلي برحمتك في عبادك الصالحين

﴿ حصار مدينة صور وفتح هونين ﴾

ما فتح السلطان صلاح الدين القدس أقام بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وجعل دار الاسبتارية (جمعية القديس ماري يوحنا الممندان) مدرسة للشافعية وهي حنة جيداً ثم سار الى مدينة صور وكان قد اجتمع بها من الصابيين عالم كثير لان الصابيين اهل عقلاان والقدس وغيرهم ما ساءوا بلادهم وأخذوا الامان ساروا الى صور وكان قد جاءها كوراد بن المركز منفرات بسفنا وتسميه العرب المركيس فاقام حاكماً بها وحصنها كل التحصين ووصل صلاح الدين الى عكا وأقام بها أياماً ثم سار الى ان وصل الى صور تاسع رمضان فنزل على نهر قرب البلد حتى اجتمع العسكر الاسلامي فاما علم كوراد بقدوم صلاح الدين الى بلده أخذ يجدد التحصين ويعمق الخنادق ومدينة صور واقعة على رأس ممتد في البحر فكانت محاطة بالمياه من ثلاث جهات ومتصلة بالبر من جهة واحدة ثم سار صلاح الدين في الثاني والعشرين من شهر الى تل يقارب سور البلد وقسم القتال على عساكره وجعل لكل أمير من امرائه وقتاً يحارب فيه بعسكره لكي تكون الحرب متصلة دواماً على اهل البلد وكان موضع القتال قريباً ويكفيه جماعة للمحاربة فقط فزحفت العساكر الاسلامية بالمنجنيات

والدبابات وكان اهل صلاح الدين متولين الحرب مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه نقي الدين وكانت للصليبيين شوان يحاربون بها كي يمنعوا المساكين الاسلامية من محاربة البلد فارسى صلاح الدين يطلب الشواني التي بعكافارسات اليه وعددها عشر برجالها فلما وصلت منعت شواني العدو من مقاتلة المسلمين فتمكن حينئذ المسلمون من الدنو من البلد ومن قتاله فقاتلوه برأ وبجرأ وضايقوه حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار بما لم يكن في الحساب وذلك ان عبد السلام المغربي مقدم شواني المسلمين الموصوف بالخلق في صناعته وشجاعته وقف على باب المينا في ليلة لمنع خروج شواني العدو فباتوا ليلتهم يحرسون فلما كان وقت السحرا منوا فناموا فاشعروا الابشواني الصليبيين قد نازلتهم وضايقتهم فلوقت بهم فقتل الصليبيون من أرادوا قتله وأخذوا خمس شوان من المسلمين بما فيها وأدخلوها مينا صور والمسلمون في البر ينظرون اليها ورعى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر فنهض منهم من سبج فنجوا ومنهم من غرق وأسر المقدم عبد السلام ومتوليه بدران الفارسي وأمر السلطان بعسير الشواني الباقية الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فخرجت شواني الصليبيين وراءها فنجوا منها شيني رئيس جيل والباقيون نظروا شدة طاب العدو لهم فالتقوا أنفسهم في الماء وخرجوا الى البر على وجوههم وبعد هذا طمع الصليبيون فخرجوا عصر أحد الايام للقتال فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الصليبيين وأسر أحد مقدميهم وظن انه كوزاد فسلمه السلطان الى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم ان كوزاد لا يزال حياً ثم طال الحصار حتى ضجر كثير من امراء المسلمين لانهم رأوا ما لم يألفوه من تعسر الفتح عليهم فاشاروا على السلطان بالرجيل لئلا تقف الرجال وكان البر قد اشتد عليهم وكان رأي السلطان وبعض الامراء كالفقيه عيسى وحسام الدين طمان وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الى الفتح لئلا يضيع ما تقدم من الاعمال وانفاق الاموال وقال السلطان قد هدمنا السور وقاربنا الامور فاصبروا فاصبروا ففتحوا ولا تمجوا فاطهروا الموافقة وفي أنفسهم ما فيها فلم يصدقوا القتال وتملأوا بان الرجال جرحى والعلف قسقل فلم يسمع السلطان بعد ذلك الا الرجيل فامر بنقل الاثقال فحمل بعضها الى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو وفي اثناء حصار السلطان لصور جاء الخبر بان الصليبيين المقيمين في هونين قد طلبوا الامان فانفذ الامير بدر الدين

دلارم ففتحها وأخرج الصليبيين منها وكان السلطان قبل ذلك قد وكل عايبا بمض
العسكر لمحاصرتها ورحل السلطان عن مدينة صور في آخر شوال وسار تقي الدين
الى دمشق عن طريق هونين واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل
والجزيرة وسنجار وماردين ورحل السلطان الى عكا من طريق الناقورة وهي
طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب المثل لا يعبر بها الا جمل جمل فعبرت بها
الاثقال والاحمال في أسبوع وكان قد عين يوم رحيله امراء يقيمون على صور
الى أن تعبر الاثقال وخيم السلطان عند التل وسار العادل الى مصر والظاهر الى
حلب وفي مدة رحيل السلطان توفي الامير سيف الدين محمود أخو عز الدين
جاولي وسبب ذلك انه كان باقياً من اعمال الصليبيين حصنان بدون فتح وهما حصن
صفد وفيه الداوية (الهيكليين) وحصن كوكب وفيه الاسبتارية (جمعية ماري
يوحنا المعمدان) واحتاج السلطان في فتحهما الى المطازلة فوكل بحصن صفد جماعة
يعرفون بالناصرية ومقدمهم مسعود الصلحي ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين
فاقام في حصن عقربلا وهو قريب من حصن كوكب ومنع عن النقيمين فيه المطعم
والمشرب وضيق عليهم المذهب الى ان دخل الشتاء فاخذت الحراسة فلما كانت
ليلة آخر شوال وكانت ليلة باردة حرس اصحاب سيف الدين حتى ضجروا فغلهم
النحاس فما استيقظوا الا وافرغ كوكب عليهم باركة فدا فموا عن انفسهم حتى استشهدوا
وأخذ الصليبيون غنيمة المسلمين ودخلوا بها كوكب

﴿ في التحريض على طلب الحروب الصليبية الثالثة ﴾

بينما كان البابا أوربانوس الثالث موجوداً في مدينة البندقية مشدداً في تحريض
أهل البندقية على سرعة تجهيز عمارة مراكب الشيخه وارسلها الى فلسطين
اسعافاً لآخوانهم الصليبيين بلغه خبر سقوط مدينة اورشليم (القدس) في ايدي
صلاح الدين سلطان المسلمين فسقط طريق القرائس مريضاً ولما اشتد مرضه انتقل
الى مدينة فرارافات هناك ثم تعين بمده البابا غرغوريوس الثامن وبعد تعيينه
حضر بين يديه غريغوريوس الصوري رئيس اساقفة صور وتراعى على قدميه وطلب
منه المساعدة التامة في تسير حملة صليبية لاسترداد القبر المقدس من ايدي المسلمين
فاصدر البابا منشوراً عاماً لسكان أوروبا أوضح لهم فيه عظم ما ألم بالصليبيين
آخوانهم وخصوصاً امتلاك المسلمين مدينة القبر المقدس وقد جاء في هذا المنشور
ما يأتي (انه لقد جاء الزمان الذي فيه يصير الامتحان والحين الذي فيه نستخدم

خزائن الارض وكنوزها لاجل اكتساب البلاد جديداً التي مات فيها يسوع المسيح لكي يكتب لنا بموته خزائن السماء وكنوزها والاوان الذي فيه تسبح الخيرات الزائلة لاجل امتلاك الخيرات الدائمة) ثم انه اختتم منشوره المذكور بقوله (غير انكم لا تسيرون الى هذه الحروب الصليبية باثواب فاخرة وملابس ثينة آخذين صحنكم الطيور والبواشق والكلاب للصيد بل تجنبوا كل ما يشير الى السعة ولا يفيد سوى البذخ والمجد الباطل واحتشموا في محاميلكم أولى من اهتمامكم بما يرجع الى الفخفة والصلف ثم أظهروا باعمالكم حقائق روح التوبة والحشوع) وبعد تحرر هذا المنشور لم يتمكن البابا من اعمال الوسائط اللازمة لارسال حملة صليبية ثالثة لانه اعتراف مرض في مدينة (بيزا) ومات وتعين بعده البابا اكليميندوس الثالث الذي بعد تعيينه اناب عنه في التحريض على ذلك رئيس اساقفة صور المذكور وفوض اليه الانذار بهذه الحرب المقدسة وبعد ذلك اخذ الاسقف غويليوم الصوري المذكور يخطب في أهالي ايطاليا ويحرضهم على التجهيز لاسترداد القبر المقدس ثم اسرع الى بلاد فرانساً منهضاً غيرتهم الشهيرة

﴿ صلاح فرانسوا وانكاثرا وتحريضهم على الحروب الصليبية ﴾

بينما كان الملك فليب أوغستوس ملك فرانسوا يحارب الملك هنريكوس الثاني ملك انكلترا لاجل تملك بلد فاكسين حضر غويليوم الصوري لتحريضهم على الحروب الصليبية فوجدهم على هذه الحالة فسعى بينهما في الصلح حتى انه كلفهما باصدار أمر بمقد جمعية عمومية من الجيشين في فرانسوا للمفاوضة في الحروب المقدسة وبعد انعقاد تلك الجمعية التي حضرها ضباط الجيشين قوبل غيليوم باحتفال ديني عظيم ثم أخذ يشرح لهم حوادث حروب المسلمين وكيفية استيلائهم على القدس وان هذه المدينة صارت الآن مسكونة بشعب بربري وانها تدفع الخراج والحزبة تحت رق العبودية وان سكانها المسيحيين والصليبيين مساقون كالغنم الى بلاد الاسلام يباعون في الاسواق كالعبيد ثم قال ما يأتي : ان امارات المشرق المسيحية بقيت صامدة على ثلاث مدن فقط وهي انطاكية وطرابلس وصور لاغير ونحن قد شاهدنا باعيننا ما كان قد فاه به اشعيا النبي بقوله ان الرب قد مد يده وضرباته بالقروح من حد نهر الفرات الى حد نيل مصر لان سكان أربعين مدينة قد طردوا من مساكنهم وفقدوا خيراتهم وموجوداتهم المختطفة منهم وساروا تأهين مع عيالهم بالشقاء والفضلك فيما بين شعوب اسيا خالين من ان يجدوا لهم حجراً

يسندون اليه رؤوسهم . ثم تلاعهم منشور البابا فحذب قلوب سامعيه الى الفسيرة والحرارة كما ان فليب أوغسطس ملك فرانسوا وهنريكوس الثاني ملك انكلترا تعانقا وتقدما قبل الجمع واستلما صليب الحرب المقدسة ثم تبعهم ريكارد دوك دي غونيانا ابن السلطان اريكوس ثم فيلبس كونت دي فلاندر او هو كوز دوك دي برغونيا وهنريكوس كونت دي شامبانيا وتيبوت كونت دي بلواز ومثلهم امراء سواسون ونافار وباروفاندوم وأقسام الاخوان يوسالين ومتي دي هوراني على تخليص اورشليم (القدس) من أيدي المسلمين ثم هتف أعضاء هذه الجمعية صارخين هاشوا نحو الصليب . فلنذهبن وراء الصليب . وشرعن جميعاً في التجهيزات للسفر للحروب الصليبية

❖ ضريبة العشور للحروب الصليبية الثالثة ❖

لما شرع كل من ملك فرانسوا وملك انكلترا في اعداد معدات السفر للحروب الصليبية وجدوا ان ذلك يحتاج لاموال عظيمة فمقدوا مجلس شورا هم الذي قرر باتحاد اراء الملكين والامراء والاشراف بان كل من لم يرغب السفر للحروب الصليبية او تعذر عليه السفر يدفع عشر مداخله مع عشر ثمن موجوداته المنتقلة (لا الثابتة) وقد سموها (ضريبة العشور الصلاحية) رمزا الى انتصار السلطان صلاح الدين عليهم وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفع هذه الضريبة وعينوا لجمعها اناساً اقتضوها بصرامة كلية غير ان الاموال المجموعة من ضريبة العشور الصلاحية لم تكن كافية لهذه الاستعدادات ولذلك اكره ملك فرانسوا اليهود على ان يدفعوا الى الخزينة مبلغ خمسة آلاف وزنه فضة (كل وزنة تساوي مائة درهم)

❖ موت ملك الانكليز وتولية ولده ريكاردوس وذبح اليهود ❖

في اثناء تلك الاستعدادات مات الملك هنريكوس الثاني ملك انكلترا ثم حضر ابنه ريكاردوس الى بلاد الانكليز لاستلام زمام الملك وأخذ يشتغل في اكتساب الفخر باسترجاع القدس ولذلك ترى ان أول أمر سعى اليه عند استلامه مقاليد الاحكام انما هو جمع النقود استعداداً للحملة الصليبية فبذل في سبيل ذلك كل تليد وطارف واستخدم كل وسيلة ممكنة حتى انه باع طاعة الاسكوتلانديين الذين أخضعهم أبوه بمبلغ عشرة آلاف ميرك (الميرك نقود اسكوتلاندية قديمة يساوي

الواحد منها ثلاثة ريات مصرية تقريباً) ثم طلب الاموال من أغنياء البلاد وصيارفها واكثرهم من اليهود وحدث ان اليهود سيقوا من فرانساً بعضا الاضطهاد فالتجأوا الى انكلترا وكان وصولهم اليها يوم تنصيب ريكاردوس فنارت عليهم راع الناس بدعوى ان الملك أمر بذبجهم فدارت عليهم رضى الموت حتى جرت دماؤهم في الاسواق والتجأ منهم نحو خمسة الى قلعة بورك بنسائهم واولادهم فضيق عليهم أهل المدينة فالتمسوا ان يقبلوا منهم الفدية فما ارادوا فاشتد غيظ اليهود وقنطوا من الحياة فاحرقوا كل ما كان لديهم من الاموال والمتاع والحلى وفضلوا ان يقتل بعضهم بعضاً من ان يقتلهم عدوهم فقتلوا اولادهم بأيديهم ثم أخذوا يقتل احدهم الآخر وبقيت منهم بقية استقبلوا وفتحوا أبواب القلعة فدخل اليهم بعض الرعاى الثاثرين وقتلوه وحصل مثل ذلك أيضاً في نوريش وستامفورد وليكولن وغيرها وكل ذلك حصل بغير ارادة الملك فعاقب المعتدين عقاباً طفيفاً وأمن من بقي من اليهود وجعلهم تحت حمايته فلما اهتم باعداد الحملة الصليبية طلب مساعدتهم فامدوه بالمال

﴿ التحريض على الحروب الصليبية ببلاد النمسا ﴾

بعد ما عزم كل من ملك فرانساً وملك انكلترا على السفر الى بلاد فلسطين سافر غويليوم الصوري المفوض بانذار الحروب الصليبية من قبل البابا الى بلاد النمسا وقابل ملكها فريد ريكوس الاول الملقب باللاحية الحمراء وكان بيته وبين كرسي البابا بعض ضغائن فازالها ثم طلب منه المساعدة في تخليص بيت المقدس من يد المسلمين فامر في الحال بعقد جمعية في ماينس وفي هذه الجمعية لبس الاثواب المكرسة المختصة بالحروب الصليبية ثم اقتدى به أعظم أمراء مملكته وكذلك جميع كنائس المانيا أثرت فيها خطب غويليوم الصوري فاستعدوا للسفر برئاسة ملكهم المذكور وبما ان الملك فريد ريكوس كان عصف بلاد فلسطين في الحروب الصليبية الثانية اذ كان مع عمه الملك كونراد الذي رجع بخفي حنين وعرف ما يلزمه من الجيش وما يحصل له من المشقة والتعب خاف من نيات افراد العساكر الصليبية في اثناء مسيرهم فلذلك قرر بانه لايقبل تحت علمه الصليبي احداً من الراغبين في السفر الا اذا كان معه على الاقل ثلاث وزنات فضة وذلك بعد انعقاد جمعية في مدينة نورامبارك فلذلك امتنع عن السفر الاشقياء الذين كانوا يفرحون بسفرهم للنهب في الطريق وعزم على ان يكون مسيره برأ

﴿ في اتحاد فرنسا وانكاته للمسير الى سوريا ﴾

اجتمع الملكان فليبس وريكاردوس بمدينة نورمانديا واتفقا على تهذيب العساكر
وابعاد كل الرذائل عنها فاصدرا امراً بمنع النساء من السفر صحبة العساكر لان
وجودهن في وسط العسكر في الدفتين السابقتين اخل انتظام العساكر وامر أيضاً
بعدم لعب القمار وجعلوا عساكرها تحت علم الصليب في مدينة فاسلاي حيث كان
القدوس برزدوس (الذي كان محرصاً على الحروب الصليبية الثانية) وجددا
تحالفهما على يديه وتواعدا على المسير الى سوريا وان يسافر ريكاردوس الى مرسيليا
ثم ينزل في المراكب وان فليبس يسافر الى جنوي ثم يتقابلان معاً بمينايسنا بجزيرة
سيسيليا

﴿ حصر حصن كوكب وفتح بعض البلاد ﴾

في اوائل محرم سنة ٥٨٤ هـ سار السلطان من عكا بمن بقي معه من العساكر
الى قلعة كوكب لحصرها ونازلها ظاناً ان تملكها سهل فلما رآها عالية منيعة
والوصول اليها متعذر وجنوده مشتتة بها وبصفد والكرك رحل عنها وكانت
البلاد الساحلية من عكا ورائها جنوباً جميعها قد اصبحت ملكه فلم ير ان يظل
في وسط بلاده ما يشغل قلبه ويحتاج الى حفظه وخوفاً من ان ينال الرعايا
والمجتازين منهم الضرر العظيم فلهذا اقام على كوكب بعد رحيله قايمز النجمي
ليديم حصارها ثم اتاه بعض رسل ملوك المسلمين يهتفون بالفتح وسار الى دمشق
وكتب الى جميع عماله بالبلاد وجميع امراء الاسلام بخروج العساكر لمحاربة
الصليبيين ثم رحل عن دمشق في منتصف ربيع الاول فنزل على بحيرة قدس غربي
حصن فجاءته العساكر فسار حتى نزل على حصن الاكراد من الجانب الشرقي
فاقام يومين وسار جريدة وترك العسكر في محله تحت الحصن ودخل بلاد الصليبيين
فاغار على صافيا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد ووصل الى قرب طرابلس
وابصر البلاد وعرف من أين يأتيا ومن أين يسلك منها ثم عاد الى معسكره سالماً وقد
غنم العسكر كثيراً من الدواب على اختلاف انواعها وفي أثناء وجود السلطان تحت
حصن الاكراد اتاه قاضي جبلة وهو منصور ابن ثيل يستدعيه اليه لسلامتها له
وكان هذا القاضي عند بوهيموند صاحب انطاكية وجبله مسموع الكلمة له
الحرمة الوافرة والمنزلة العالية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبله ونواحيها فقامته

الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه في الرابع من جمادى الاولى فنزل بانطربوس في سادسه فرأى الصليبيين قد اخلوا المدينة واحتسوا في برجين حصينين تخرب المسمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم وكان الداويه (جمعية الهيكليين) باخذى البرجين فحصرها صلاح الدين فنزل من بالبرج الثاني وطلبوا الامان فانهم وسلموه وخرب البرج واتى حجارته في البحر

﴿ فتح جبلة واللاذقية وغيرها وخبر اسطول صقلية ﴾

ثم رحل السلطان من انطربوس في الرابع عشر من جمادى الاولى سنة ٥٨٤ ونزل على مرقية وقد اخلاها - كانها تخيم فيها السلطان وكانت الطريق الى جبلة ضيقة المسالك وهناك الجمعية الاستتارية (ضياف الغرباء) حصن اسمه المرقب ولا طريق الا تحت تله ومما اتفق ان صاحب جزيرة صقلية ارسل اسطولا يحتوي على ستين قطعة من الشواني كل واحدة منها مثل قلعة ولما وصل الاسطول الى ساحل فلسطين امام طرابلس سمع بمسير السلطان فجاء ووقف في البحر تحت المرقب لينموا من يجتاز بالسهام فلما رأى السلطان ذلك أمر بالطارقيات والجفنيات فصفت على الطريق مما يلي البحر من اول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة فتعوا الصليبيين من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة في اليوم الثامن عشر من ذاك الشهر وتسلمها السلطان وقت وصوله وكان قاضيها قد سبق اليها ودخل فلما وصل السلطان رفع أعلامه على سورها وتحصن الصليبيون الذين كانوا بها بالقلعة فزال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الامان وان يأخذ رهائن منهم عنده الى ان يطلق الصليبيون رهائن المسلمين الذين بانطاكية وكان قد أخذهم بوهيموند من القاضي . ثم جاء مقدمو الجبل مطيعين وكان في الجبل على طريق حمص حصن يعرف ببكسرايل وكان استعاده الجبايون من الصليبيين منذ سنين فتسلمه السلطان أيضاً منهم ثم سلم جبلة الى سابق الدين عثمان صاحب شيزر وبجل قاضي جبلة وحكمه في ولاية حكمه وقضائه ثم سار الى اللاذقية فوصل في الرابع والعشرين منه فترك الصليبيون المدينة لمجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين هما على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القامتين وزحفوا عليهما وتقبوا الاسوار ستين ذراعاً وأشعلوا فيها النار وعظم القتال واشتد الامر عند الوصول الى السور فلما أيقن الصليبيون

بالمعظم دخل اليهم قاضي جبلة يخوفهم من المسلمين فطلبوا الامان فأمنهم السلطان
ورفعت الاعلام الاسلامية على الحصين وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول
عليهما وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الابنية وأكثرها زخرفة مملوأة بالرخام
على اختلاف انواعه ووصل اسطول صقلية بأزاء ميناء اللاذقية فلما سلمها الصليبيون
الى السلطان عزم من بالاسطول على أسر كل من يخرج منها غيظاً وحنقاً لانهم
سلموها سريعاً فلما سمع بذلك اهل اللاذقية أقاموا بها ودفعوا الجزية ثم طلب
مقدم الاسطول مقابلة السلطان والامان له فأمنه وحضر بين يديه وقال ما معناه
(انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالصليبيين ما فعلت فذلوا فتركهم يكونون
مما ليك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم والالجانك من البحر
ما لا طاقة لك به فيمظم عليك الامر ويشد الحال) فاجابه صلاح الدين بنحو كلامه
من اظهار القوة والاستمانة بكل من يجي من البحر وانهم ان خرجوا اذاقهم مذاق
أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

﴿ فتح حصن صهيون وغيره من الحصون ﴾

ثم رحل السلطان عن اللاذقية في يوم الاحد ٢٧ جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ
طالباً صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه فاستدار السكرك بها من
جميع نواحيها صباح الاربعاء وانصب عليها ستة منجنيقات وهي قلعة حصينة منيعة
في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة وليس لها خندق محذور الا من
جانب واحد وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ريفها وسور دون
القلعة وسور القلعة وكان على قلعها علم طويل منصوب فلما اقبلت المساكر الاسلامية
وقع فاستبشرت بالنصر واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضررها من جنائق الملك
الظاهر ولد السلطان وكان نصبه أمام جهة قريبة من السور وكان الحجير صائلاً فلم
يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة
عزم السلطان على الزحف وركب وتقدم وتواترت المنجنيقات بالضرب وارتفعت
الاصوات وما كان الا ساعة حتى رقي المسلمون على أسوار الريف واشتد الزحف
وعظم الامر وهجم المسلمون الريف وانضم من كان في الريف الى الناعة بما يمكنهم
ان يحملوه من أموالهم ونهب المسلمون باقي الاموال واستدارت المساكر حول
أسوار القلعة فلما رأى الصليبيون الهلاك استغاثوا بطلب الامان فأمنهم السلطان على
أن يسلموا بانفسهم وأموالهم ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير وعن المرأة خمسة

وعن الصغير دينارين فسامت القلعة وأقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيدو بلاطنس
وقلعة الجماهرين وغيرها

﴿ فتح بكاس والشفر والسرمانية وبرزية ﴾

ثم رحل السلطان حتى أتى بكاس وهي قلعة حصينة على جانب العاصي ولها نهر
يخرج من تحتها وكان النزول على ذلك الشاطئ يوم الثلاثاء سادس جمادي الآخرة
سنة ٨٤٤ هـ فصعد السلطان بجريدة إلى القلعة وهي جبل مطل على العاصي فاحدق
بها من كل جانب وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيات والزحف المضائق إلى يوم الجمعة
تاسع شهره ففتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان
فيها وكان لها قلعة (تصغير قلعة) تسمى الشفر قريبة منها يعبر منها إليها بجسر وهي
في غاية المنعة ليس إليها طريق فسلطت عليها المنجنيات من سائر الجوانب ورأوا أنهم
لأناصر لهم فطلبوا الأمان وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره وسألوه أن يؤخروا ثلاثة
أيام لاستئذان انطاكية لأنها تابعة لها فأذن في ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني
على قلعها يوم الجمعة سادس عشره ثم عاد السلطان إلى عسكره وسير ولده الظاهر إلى
قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشره فقاتلها قتالاً شديداً وضائقها مضائق
عظيمة وأسلمها أيضاً يوم الجمعة الثالث والعشرين منه ومن غريب الاتفاق أن
فتوح الساحل من حبله إلى سرمانية في أيام الجمع المتوالية وهذا من نوادر الفتوح
التي لم يتفق مثالا . ثم سار السلطان بجريدة إلى قلعة برزية وهي قلعة حصينة في غاية
القوة والمنعة على سن جبل شاهق تحيط بها أودية من سائر جوانبها فحاصرها وفي
صباح الأحد الخامس والعشرين منه ركب عابها المنجنيات وآلات الحصار من سائر
نواحيها وشد القتال وضرب أسوارها بالمنجنيات المتواترة ليلاً ونهاراً وظل يقاتلها
حتى يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه فقسم العسكر ثلاثة أقسام كل قسم يقاتل
شطراً من النهار ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر حتى لا يفتقر القتال ساعة واحدة
وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالاً شديداً حتى
استوفى نوبته وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه فلما ركب وسار عدة خطوات
صاح في الناس فحملوا حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا
السور من كل جانب فلم يكن إلا بضع ساعة حتى رقي الناس على الأسوار وهجموا
على القلعة فاحذوها عنوة وطلب من فيها الأمان وقد ملئت الأيدي منهم فلم يك
ينفهم أمانهم ونهب جميع ما كان فيها وأسر جميع من كان بها وكان قد أوى إليها

خلاق عظيم وهذه القلعة من قلاعهم المشهورة وبوم أخذها كان يوماً عظيماً ثم عاد الناس إلى خيامهم غافلين وعاد السلطان إلى معسكره وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلاً كبيراً منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً فمن عليهم السلطان ورق لهم وأنفذهم إلى صاحب انطاكية استماله له لأنهم كانوا من ذوي قرباه وكانت هذه القلعة مقابلة لحصن اقاميا وتناصفا في أعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي وقد مدحه الشهاب فتيان الشاغوري بقصيدة منها

لما ملكت حصون انطاكية يش الصليب وحزبه من مظهر
أردت كل مثلك متكبر بموحد متواضع ومكبر
رزت إلى برزية عزمتك التي مدت يداً عن مطلب لم يقصر
فتاوتيه بيدها من باذخ في الافق ذي مثل يروع مسير
فانهض لصور فهي أحسن صورة في هيكل الدنيا بدت لمصور
ما سور صور عاصم منه وهل سور المعاصم عاصم لمصور

﴿ فتح حصن دريساك وحصن بغراس ﴾

ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً ومنه سار حتى نزل على دريساك يوم الجمعة ثامن رجب سنة ٥٨٤ هـ وهي قلعة منيعة قريبة من انطاكية فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالجنجيات وضايقتها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ووقفت في الشجرة رجال يحملونها عن يمين يمينها وكان كلما قتل منهم رجل قام غيره مكانه وهم قيام عوض الجدار واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشتروا مراجعة انطاكية وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير ورق عليها العلم الإسلامي في يوم الجمعة ثاني عشر رجب وتسلمها بما فيها وسار السلطان إلى قلعة بغراس وهي قلعة منيعة أقرب إلى انطاكية من دريساك وكانت كثيرة العدد والرجال فنزل العسكر في صرح لها واحد في العسكر بها وأقام يرك لحفظها من ناحية انطاكية خوفاً من هجوم أهل انطاكية بضرب على بابها بحيث لا يمكن أحد الخروج منها ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان انطاكية ورقى العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان وتسلمها بما فيها من الأموال والذخائر والغلال وتسلمها السلطان مع دريساك إلى علم الدين صاحب عزاز وفتح السلطان أبراج ومغارات وشققان كثيرة حتى خلاص ذلك الأقليم

﴿ الهدنة ورجوع السلطان عن انطاكية وفتح الكرك وصفد وكوكب ﴾

لما فتح السلطان بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها تخاف بوهيموند صاحبها فارسل يطلب الهدنة على أن يطلق كل اسير عنده من المسلمين بعد ان استشار الامراء فاشاروا اكثرهم في ذلك ليرتاح الناس ويجمعوا ما يحتاجون اليه أما السلطان فانه اجابه وجعلت مدة الهدنة ثمانية أشهر ثم أرسل رسوله الى بوهيموند ليستلم منه الاسرى وذلك في ثاني شعبان سنة ٥٨٤ هـ وعاد الى حلب في ثلثه ومنها سار الى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وعسكر الموصل ولما هلك رمضان اشير عليه بالاستراحة في شهر الصوم فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وقد بقي بيد الصليبيين حصن كوكب وصفد والكرك وغيرها ولا بد من اخذها فانها في وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر اهلها وان اغفلناهم ندمنا وكان السلطان قد جعل على الكرك من يحصره فلازموا حصاره مدة طويلة حتى فئت ازواد أهله وذخائرهم وأكلوا دوابهم فراسلوا الملك العادل اخا صلاح الدين ونائبه على هذه البلاد يبذلون تسليم القلعة اليه ويطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر المحاصرين بذلك فتسلم القاعة منهم وأمنهم وتسلم أيضاً ما يقاربهم من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسابع وارتاح المسلمون من تلك النواحي . ثم سار السلطان في منتصف شهر رمضان الى قلعة صفد فحصرها وقتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمي ليلا ونهاراً بالحجارة والسهم وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزوادهم النفوذ في المدة التي كانوا فيها محصورين تخافوا من بطشه فارسلوا اليه يطلبون الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا منها وساروا الى مدينة صور . ولما كان السلطان محاصراً صفداً اجتمع من في مدينة صور وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب وحينئذ ينقطع طعمنا من هذه البلاد واتفق رأيهم على ارسال نجدة اليها سراً من رجال وسلاح وغير ذلك فارسلوا مائتي رجل من شجعانهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين واتفق ان رجلاً من المسلمين المحاصرين كوكب خرج للاصطياد فلقى رجلاً من تلك النجدة فاستغرب وجوده بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وسبب قدومه الى هناك فاقتر ودله على اخذها فعاد الجندي المسلم الى قايماز النجمي وهو مقدم العسكر

فاعلمه الخبر والافرنجي معه فركب في طائفة من رجاله الى الموضوع الذي اختفى فيه الصليبيون فكبسهم فاخذهم على غرة وتبهم في الشباب والكهوف فلم يفلت منهم أحد وكان معهم مقدمان من الاستبارية (جمعية ضياف الغرباء) فحملوا الى السلطان وهو على صفه ولما احضر المقدمين احضرهما ليقتلهما وكانت عادته قتل الداوية (جمعية الهيكليين) والاستبارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم قال له أحدهما لا أظن ان يثاذا سوء وقد نظرنا الى طاعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان السلطان كثير العفو والاستعفاف يقبل الاعتذار فيعفو ويصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بسجنهما ثم سار الى قلعة كوكب ونازلها وحاصرها وأرسل الى من بها يعلمهم بانهم اذا سلموا آمنهم واذا امنعوا يقتلهم وينهبهم فلم يصنعوا اليه واصروا على الامتناع فجد في قتالهم وانصب عليهم المنجنيقات وتابع رشقهم بالاحجار وزحف مرة بعد مرة وكانت الامطار كثيرة لا تنقطع ليلا ولا نهاراً فلم يتمكن المسلمون من القتال كما يريدون وطال مقامهم الى أن زحف اليها دفعات في يوم واحد فوصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الأعلى فلما رأى الصليبيون ذلك اذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمنهم وتسلم الحصن منهم في منتصف القعدة وسيرهم الى صور فوصلوا اليها واجتمعوا بها . وكانت صور قد امتلأت بالصليبيين وابطالهم لان أهل جميع البلاد التي فتحت ساروا اليها وأرسلوا الى أوروبا يطلبون النجدة كما تقدم فلذلك تكدر السلطان صلاح الدين لتركه صور وعدم استيلائه عليها قبل فتح القدس وعض بنانه ندماً وأسفاً . وسار الى القدس وعيد فيها عيد الانجي ومنها الى عكا فاقام بها الى آخر السنة

﴿ في بناء استحکامات عكا وحصار شقيب ارتون ﴾ *

قلنا ان السلطان أقام بعكا في آخر سنة ٨٤٤ هـ فامر باحضار بهاء الدين قراقوش من مصر ومعه المهندسون وطائفة البنائين وما يلزمهم لعمارة سور عكا واستحکاماتها فوصلوا في شهر محرم سنة ٨٥٥ هـ والسلطان مقيم بها فاقام بهاء الدين قراقوش والياً عليها وأمر ببناء السور أمتن بناء وترك معه حسام الدين بشاره وسار الى دمشق فوصلها في مستهل شهر صفر وأقام بها وجاءه من بغداد رسول الخليفة فامر بالخطبة لولي العهد عدة الدين أبي الفضل نصر محمد بن الامام الناصر فخطب له بذلك في يوم الجمعة ١٣ صفر ثم عاد الرسول ومعه رسول من السلطان بهدايا عظيمة واسرى من

الصليبيين والصليب الذي كان على قبة الصخرة (وقيل صليب الصابوت الذي اخذ في واقعة حطين) وتاج ملك القدس . وفي يوم الجمعة الثالث من ربيع الاول خرج السلطان من دمشق فسار حتى نزل في مرج فلوس ونزل في صباح يوم السبت رابع شهره في مرج برغوث فاقام به والعساكر تتابع الى الحادي عشر ورحل الى بانياس ومنها الى مرج عيون فخيم به وهو قريب من شقيف ارتون فكان يركب كل يوم يشافره ويعود والعساكر مجتمع وتطلبه من كل صوب فخاف صاحب الحصن من كثرة العساكر وعلم ان لا قدرة له عليها فرأى بان الصلح مع السلطان هو اسم طريق الى سلامته فنزل بنفسه الى باب خيمة السلطان وطلب الاذن في الدخول فاذن له فدخل فاحترمه السلطان واكرمه وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على شئ من التواريخ والاحاديث وكان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وأكل مع السلطان الطعام ثم خلا به وذكر انه تحت طاعته وأن يسلم اليه الحصن من غير تعب وطلب أن يعطي موضعاً لسكنه في دمشق لانه لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الافرنج واقطاعاً بدمشق تقوم به وباهله وان يفتح له مدة ثلاثة شهور ليظل في حصنه ويتمكن من تخلص أهله وجاعته من صور ويأخذ غلة هذه السنة فاجيب الى ذلك كله وأقام يتردد الى خدمة السلطان في كل وقت وينظر المسلمين في صحة دينه وينظرونه في بطلانه وكان حسن المحاورة متأدباً في حديثه ثم ظهر ان جميع ذلك مخادعة منه لطول الوقت وظهر على ذلك دلائل كثيرة في تحصيل الميرة واتقان الابواب فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع كل نجدة وميرة تأتية واطهر ان ذلك فراراً من وخم المرج فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فاطله السلطان وقال نفكر في ذلك وتأخذ رأي الجماعة ثم وكل به من حيث لا يشعرون فانكشفت سريرته الغادرة فقبض عليه السلطان وطلب تسليم الحصن فقال انا انفذ الى نوابي في التسليم وكان قد أوصاهم بما يفعلونه فقالوا لا نسلم ويبقى عندكم مكانه فقيده وحمّله الى قلعة بانياس ثم احضره السلطان في سادس رجب وهدده وتوعده فلم يقد فأمس بسجنه في دمشق وعين بعض الامراء حصار الحصن صيفاً وشتاء

﴿ مناوشات بين الصليبيين وعساكر المسلمين ﴾

قلنا ان مدينة صور امتلأت بالصليبيين الذين اتوها من جميع البلاد التي فتحها المسلمون ولما وجدوا كثرتهم اتفقوا جميعاً على مهاجمة المسلمين فخرجوا وعسكروا على باب صور وبينما كان السلطان في مرج عيون محاصراً شقيف ارتون يوم الاثنين سابع عشر

جمادى الاولى سنة ٥٨٥ باغى من البرك ان الصليبيين قد قطعوا الجسر الفاصل بين
ارض صور وارض صيدا وهي الارض التي عليها السلطان فركب نحو البرك وكان
جماعة من الصليبيين قد عبروا الجسر فنهض اليهم يزك الاسلام وكانوا في عدة وقوة
فقاتلوههم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجرحوا اضعاف ما قتلوا ورموا في النهر جماعة
فغرقوا ولم يقتل من المسلمين الا مملوك لاسطان يعرف بابك الاخرش وكان شجاعاً
باسلاً مجرباً للحرب ممارساً له جمع به فرسه فاجأ الى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فنى
نشابه ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه وفي يوم الاربعاء تاسع
عشر من ذاك الشهر ركب السلطان كي يشرف على القوم على عادته فتبعه العسكر خلق
عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة فامرهم بالرجوع فلم يفعلوا وخاف عليهم لان المكان
خرج وليس للراجل فيه ملجأ ثم اندفع الرجالة على الجسر وناوشوا العدو القتال
وعبر منهم جماعة اليهم وجرى بينهم قتال شديد واجتمع عليهم من الصليبيين خلق عظيم
لانهم علموا ان ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان
لانه كان بعيداً عنهم ولم يكن معه عسكر لانه لم يخرج للقتال وانما ركب مستشرفاً
عليهم على عادته ولما بان له الواقعة وظهور له غبارها بعث اليهم من كان معه
ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والصليبيين قد تكاثروا حتى خافت منهم
السرية التي بعثها السلطان وظفر الصليبيون بالرجالة ظفراً عظيماً وأسروا
جماعة وعد من قتل من الرجالة فكان ١٨٠ في ذلك اليوم وقتل من الصليبيين
عدد عظيم وغرق أيضاً منهم كثيرون وكانت هذه الواقعة لم يتفق للصليبيين مثلها
ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في هذه الواقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم
وقرر معهم ان يهجم على الصليبيين ويعبر الجسر ويقاثلهم ويستأصل شاقهم وكانوا
قد رحلوا عن صور ونزلوا قريباً من الجسر وبين الجسر وصور فرسخ وزيادة
فلما صمم على ذلك رحل الصليبيون عائدین الى صور متجهين الى سورها فرأى ان
يسير الى عكا ليلاحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي فدار على تبين ولم يرجع
على مرج عيون فغى الى عكا ورتب أحوالها وعاد الى العسكر بمرج عيون منتظراً
مهلة صاحب الشقيف ولما كان يوم السبت سادس جمادى الاخرى باغى ان جماعة
من رجالة العدو يخرجون الى جبل تبين فيحطبون ووراءهم من الفرسان من يحفظهم
فارسل الى عسكر تبين ان يخرج منهم نفر يسير الى أولئك المحتلين فاذا تبعهم خيل
العدو ينهزمون الى جهة عنها لهم وان يكون ذلك في صبيحة يوم الاثنين ٨ منه

وأرسل الى عسكر عكا ان يسير حتى يكون وراء عسكر الصليبيين حتى اذا تحرروا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم وركب هو وعسكره الى الجهة التي عندها الهزيمة عسكر تبين ورتب عسكره ثمانية اطلاب واستخرج من كل طاب عشرين فارساً وأمرهم ان يترآوا للعدو حتى يخرج اليهم ويناولوهم فيهربون من وجهه حتى يصلوا الى الكمين ففعلوا وخرج اليهم من الصليبيين معظم عسكرهم وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وانفت من الانهزام وحملتها الحمية على مخالفة السلطان واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الامر وقد هجم الليل فبعث يعمونا كثيرة فعاد الصليبيون ناكسين على أعقابهم ومن نوادر هذه الواقعة ان مملوك للسلطان اسمه ايبك الساقى وقع عن فرسه فجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمل نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فخرج منهم عدة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو على آخر رمق فظنوه ميتاً فتركوه وانصرفوا عنه ثم ان المسلمين جاؤا في صباح يوم الثلاثاء ٩ منه الى موضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حياً فحملوه في كساء وهو لا يبي شيئاً فيئسوا من حياته فعرضوا عليه الشهادة وتركوه وعادوا اليه فرأوه قد قويت نفسه فاقبلوا عليه بمشروب فعوفي وكان بعد ذلك لا يحضر موقعة الا كان له فيها أثر عظيم ثم عاد السلطان الى خيمته في يوم الاربعاء ١٠ منه

﴿ محاصرة الصليبيين عكا ومحاربتهم ومصارعة الصبيان ﴾

ساكن السلطان على حصن الشقيف بلغه ان الصليبيين خرجوا بجملتهم من مدينة صور وساروا قاصدين عكا بقيادة ملكهم غوي الذي كان أسيراً وأطلق سراحه السلطان فلم ير المسارعة بالمسير الى عكا خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف فقام مستكشفاً للحال الى يوم الاحد ثاني عشر رجب سنة ٥٨٥ فوصل رسول يقول ان الصليبيين رحلوا ونزلوا عين بصره ووصل أوائلهم الى الزيب فعظم عنده ذلك وكتب الى سائر أرباب الاطراف بالمسير اليه وسار السلطان بالثقل (عموم الجيش) ليلاً وأصبح يوم الاثنين ١٣ منه سائراً الى عكا على طريق طبرية اذ لم تكن طريق أخرى تسع العسكر وسير جماعة على طريق تبين يستشرفون العدو ويواصلونه باخباره وظل مواصلاً الزحف حتى اتى الجولة في منتصف النهار فنزل فيها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضع يقال له المنية صباح الثلاثاء وفيه بلغه خبر نزول الصليبيين على عكا فارسل صاحب الشقيف الى دمشق

ليسجن فيها وسار السلطان بجريدة من المنية حتى تقابل ببقية العسكر الذي كان قد أرسله
 بطريق تبين بمرج صفورية الذي واعدتهم اليه وأمر الثقل ان يلاحقه الى مرج
 صفورية ولم يزل سائراً حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر فدخل
 عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعثاً بعد بعث حتى اجتمع
 فيها خلق كثير وسار من الخروبة الى تل كيسان في أوائل مرج عكا فزل عليه وأمر
 الناس ان ينزلوا على التعمية فكان في آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر
 الميمنة بالقرب من تل العياضية واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو وأخذوا عابهم الطرق
 من سائر الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر
 العدو في خيامه بحيث لا يخرج منها أحد الا يجرح أو يقتل وكان عسكر الصليبيين على
 شطرنج عكا وخيمة ملكهم على تل المصليبين قريباً من باب البلد وعدد فرسانهم
 ألفان وعدد راجلهم ثلاثون ألفاً وكان المدد يأتيهم من البحر خصوصاً ممن أتاهم
 من طائفتي الفريزيين والدانييين وعددهم اثنا عشر ألف غير الذي أتاهم من الانكليز
 والفلامنديين وكان مقدمهم رئيس أساقفة كانطورباري ويعقوب دي افسناس الفلامندي
 وجري بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة مثوارة والمسلمون يتهافون على قتالهم
 والسلطان يمنهم من ذلك الى وقته ثم وصل تقي الدين من حمص ومظفر الدين
 بن زين الدين واستفحل أمر الصليبيين فاستداروا بالبلد في آخر شهر رجب ومنعوا
 الناس من الدخول والخروج اليها فعظم على السلطان ذلك وضاق صدره وثار
 همته العالية في فتح الطريق الى عكا لتستمر وصول الميرة والنجدة اليها فباكرهم في
 أول شعبان وضايقتهم مضايقة شديدة فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة وانشر
 عسكر الصليبيين الى ان ملكوا التلول وكانت ميسرة عسكرهم الى البحر الحلو ممتدة
 الى البحر المالح وميمنتهم قبالة القاعة الوسطى التي لعكا واتصلت الحرب الى ان حال
 بين الفتيين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين السلاح تحرس
 كل طائفة نفسها من الاخرى واصبحوا يوم السبت ثاني شعبان على القتال وانفذ السلطان
 طائفة من شجعان المسلمين الى البحر من شمالي عكا ولم يكن هناك للصليبيين خيم
 لكن عسكره كان قد امتد جريدة شمالي عكا الى البحر فحمل شجعان المسلمين على
 عسكر الصليبيين الواقف شمالي عكا فانكسروا كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً
 والتفت السالمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خافهم الى أوائل خيامهم ووقف
 اليزك الاسلامي مانعاً من ان يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل اليه داخل وانفتح

الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذي جددته
 وصار الطريق آمناً واليزك بين الطريق وبين العدو ودخل السلطان في ذلك اليوم
 عكا وركب على السور وانظر الى عسكر الصليبيين . وتراجع الناس عن القتال بعد
 صلاة الظهر لسقيا الدواب والاستراحة ولم يعودوا الى القتال وفي صباح الاحد ثلثة
 رأى بعض الامراء تأخير القتال الى ان يدخل الحيش الراجل كله الى عكا ويخرجوا
 مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو ومن وراءه وتركب العساكر من خارج
 من سائر النواحي ويحملون حملة الرجل الواحد وكان السلطان يماين هذه الامور
 كلها بنفسه ويلاحظها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه
 ووفور همته كالوالدة الشكلي وقال أحد اطباءه انه بقي من يوم الجمعة الى يوم الاحد
 لم يتناول من الغذاء الا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه وفعلوا ما كانوا قد عزموا عليه
 واشتدت منعة العدو وحى نفسه في خيامه ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس
 وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رؤس ومرؤس حتى كان يوم الجمعة ثامنه فعزم
 الصليبيون على الخروج بجيوشهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول
 وساروا الهوبنا غير مفرطين في نفوسهم ولا خارجين من راجلهم والرجالة حولهم
 كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك فصاح السلطان بالعساكر
 الاسلامية فركبوا باجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد فماد الصليبيون ناكسين على
 عقبهم والسيف يعمل فيهم فالسلم منهم جريح والماطب طرح يشتدون هزيمة فيعثر
 جريحهم بقتيلهم حتى لحق خيامهم من سلم منهم وكفوا عن القتال اياماً وكان قصاراهم
 ان يحفظوا نفوسهم واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون اليها . ثم رأى
 السلطان توسيع الدائرة عليهم لملهم يخرجون الى مصارعهم فنقل الثقل الى تل
 الفياضية وهو تل قبالة تل المصليين مشرف على عكا وخيام العدو . ثم بلغ السلطان
 ان جماعة من الصليبيين تخرج للاحتشاش من طرف النهر مما يبت عليه فامر
 السلطان بان يكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لحقتهم على خيلهم فهاجموا
 عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً واسروا جماعة واحضروا الرؤس بين يديه وذلك
 يوم السبت تاسع عشره وفي مساء ذلك اليوم كانت حرب شديدة بين أهل البلد
 والصليبيين قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين وطال الامر بين الفتيين ولا يخلو يوم
 عن قتال وانس البعض البعض حتى ان الطائفتين كانتا تتحدثان معاً ويتركان القتال
 ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة وسئموا يوماً فقالوا الى كم يتقاتل الكبار وليس

للصغار حظ يزيد ان يصطرع صبيان صبي منا وصبي منكم فاخرج صبيان من البلد الى صبيين من الافرنج فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الافرنج فاحتضنه وضرب به الارض واخذه اسيراً فاشتراه منه بعض الصليبيين بدينارين وقالوا هو اسيرك حقاً فاخذ الدينارين واطاقه

* { ورود المدد للصليبيين وواقعة عكا الكبرى } *

وما زالت الامداد تتوالى على الصليبيين من البحر مع المراكب من بلاد البندقية وبيزا وجنوى وكذلك عدد وافر من العساكر الفرنسية والاطالقية والنمساوية والانكليزية واتحدوا مع الصليبيين الآخرين وكان يوجد بين الصليبيين الجسد أساقفة ورؤساء كنائسيون وامراء ودوقات مثل كونت دي فرارا والسلموس أمير المونت راله وفيس كونت دي شاطلاروتل وحاكم برغاس مع رئيس اساقفة بيزا وارملة ملك الدانيمرك وصحبها ٤٠٠ عسكري . وغوي دي دامبيار واسقف نيرونا وصلا مع بعض عساكر رومانية وجمعوا جميع جنودهم واعلامهم الى جنود الصليبيين الذين كانوا برئاسة غوي (الذي كان أسيراً) يحاصرون عكا حتى اصبح جيش الصليبيين نيفاً ومائة الف مقاتل ثم قرر رأسهم على مقاتلة المسلمين قتالاً شديداً فرتبوا صفوفهم كما يأتي فالملك غوي تقدم على العساكر الفرنسية وعلى خيالة الاسبنتارية (جمعية ضياف الغرباء) وامامه أربعة فرسان حاملون بشائر الانجيل المقدس والشاب كونراد صاحب صور ترأس جنود البندقية ولو مبارديا وأهل صور ولاندغرافادي طورينجيا ترأس العساكر النمساوية والبيزاوية والانكليزية في وسط الحرب . والدوك دي غوالدرا قاد عساكره وفرسان الداوية (جمعية الهيكليين) وأقاموا الخفر منهم ورؤساء كنائس رافينا . وبيزا . وبيزانسون . وكان طورباري . وبوفيس . وغامبراي . وغيرهم تسليحوا بالثوذ والزرديات وفي يوم الاربعاء الحادي والعشرين من شهر شبان سنة ٨٥٥ هـ تحرك الصليبيون فأمر السلطان صلاح الدين أن ينادي في الناس بالاسلام فركبوا وكان السلطان قد انزل الجند في الخيم ميمنة وميسرة وقلباً على تعبئة الحرب حتى اذا وقعت صيحة لايحتاجون الى ترتيب جديد وكان هو في القلب وفي ميمنة القلب ولده الافضل ثم ولده الظافر ثم عسكر الموصل يتقدمهم ظهر الدين ابن البكنكري ثم عسكر ديار بكر وعليه قطب الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس ثم قائماز النجمي وجموع عظيمة تتصل بطرف الميمنة ويلها الملك المظفر تقي الدين بجحفة وعسكره وهو مطلق على البحر

وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد والأمير مجلي وجماعة المهرانية والمكارية ومجاهد الدين برنقش مقدم عسكر سنجان وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا وجماعة الاسديين الذين يضرب بهم المثل وكان في مقدمة القلب الفقيه عيسى والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال ويدعوهم الى النزال ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى منه أربع ساعات وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين واخرج لهم تقي الدين الجاليش وجري بينهم قلات كثيرة وتكاثروا على تقي الدين وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً اطماعاً لهم لعلمهم ينفصلون عن اصحابهم فينال منهم غرضه فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً فأمده باطلاب من القلب حتى قوى جانبه وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في قلب معسكر الصليبيين ضعف من في قلب المسلمين ومن خرج منه من الاطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم على عسكر ديار بكر فانكسروا كسرة عظيمة وسرى الامر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المهزمن الى العياضية لانهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من الصليبيين الى خيم السلطان فقتلوا طشت دارا واسماعيل المكبس وابن رواحة وأما الميسرة فلما ثبتت وأما السلطان فانه أخذ يطوف على الاطلاب ينهضهم ويوعدهم ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم بالاسلام ولم يبق غير خمسة رجال معه وهو يطوف ويتخرق الصفوف واوى الى تحت التل الذي كانت عليه الخيام اما المهزمنون من العسكر فبلغت هزيمتهم الى الاقحوانة وراء جسر طبرية والحقهم الصليبيون الى العياضية فقط حتى اذا ماراؤهم قد صعدوا الحبل رجعوا عنهم الى عسكرهم فلقبهم جماعة من الفلماني والخرنندية والساسة فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة واما الذين صعدوا الخيم فلم يقتلوا غير الثلاثة المذكورين ثم راوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا ان الكسرة لم تتم فعادوا منهذين من التل يطالبون عسكرهم والسلطان واقف تحت التل يجمع الناس ليمودوا الى الحملة على العدو فلما رأى الصليبيين نازلين عن التل اراد رجاله لقاءهم فامرهم بالصبر الى ان ولوا ظهورهم واسرعوا يطالبون اصحابهم فصاح في الناس فحملوا عليهم وقتلوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم

حتى لحقوا أصحابهم والطرده وراءهم فلما رأوهم الصليبيين منهزمين والمسلمون خلفهم في عدد كثير ظنوا ان من حمل منهم قد قتل وأنه انما نجوا منهم هذا النفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتحايا الرجال وتداعت وتراجعت الناس من كل جانب وظل المسلمون ينقلون ويضربون الى ان وصل المنهزمون الى معسكرهم فهجم المسلمون عليهم في الحيام فخرج منهم أطلاب كانوا عدوها خشية من هذا الامر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد أخذهم والعرق قد أجمعهم فترجعوا عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القسلى ودمائهم فرحين مسرورين وعاد الساطان وجلس وحصروا من قتل منهم من الغلمان والمجهولين ١٥٠ نفرأ ومن المعروفين استشهد ظهرا الدين أخو الفقيه عيسى والامير مجلى ابن مروان والحاجب خليل الهكاري ومن قتل من الصليبيين بالغ سبعة آلاف وقيل أقل . في اثناء هزيمة المسلمين رأث الغلمان خلو الحيام من معارض لان المعسكر انقسم قسمين منهزم ومقاتل ولم يبق في الحيم أحد فظنوا ان الكسرة تم على المسلمين وان العدو سينهب جميع ما في الحيم فاسرعوا هم في نهب جميع ما فيها فلما عاد السلطان الى الحيم ورأى ما حصل سارع في ارسال الكتب والرسل برد المنهزمين وتتبع من شد من المعسكر فردهم وأخبرهم بانتصار المسلمين وأمر السلطان بجمع الاقشة من اكتب الغلمان فجمعوا ذلك حتى الخالى امامه فامر بان كل من يعرف له شيئاً وحالف عليه يسلم له أما الصليبيون فانهم عادوا الى خيمهم وقد قتلت شجعانهم وقتل مقدموهم وأمر السلطان باخراج عربيات من عكا ليحملوا القتلى ويرموهم في النهر ثم جمع رؤساء جيوشه واستشارهم فيما يفعل وهل يناجز العدو أم لا فقالوا جميعاً الاوفق ان تنتظر قدوم الملك العادل وتستريح العساكر لان العساكر قد تعبت جداً وعند قدوم الملك العادل تشركه في الرأي فوافقهم على ذلك وأشير على السلطان بالانتقال الى الخروبة فصار اليها رابع رمضان وأمر باغلاق أبواب عكا فوجد الصليبيون بذلك فرجالهم وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالى عكا من البحر الى البحر وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحضر . وعملوا حولهم سوراً من تراب حفر الخندق فكان معسكرهم كانه بلد ورتبوا على سورهم رجالا لحفظه . وكان الذي أوجب رحيل السلطان من هذا الموضع هو فساد الهواء بدم المقتولين ونتاجه الرائحة

﴿ وصول العساكر المصرية والاسطول المصري ﴾

﴿ وهجوم الصليبيين على الزك ﴾

في منتصف شهر شوال سنة ٥٨٥ هـ وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فلما وصل قويت النفوس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات الحصار ومن الدرق والطارقيات والنشاب والاقواس شيئاً كثيراً وفي منتصف شهر القعدة وصل الاسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ فجاء على مراكب الصليبيين فبغتها وسحقها وبددها وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغلاهم وكان عدد مراكب الاسطول خمسين مركباً فيها زهاء عشرة آلاف مقاتل وأرسل السلطان الى عكا في المراكب جماعة من الامراء باجنادهم وأزوادهم فاستظهر بهم من بالبد وبالاسطول وحمدوا الله وأخذت العساكر الاسلامية تخرج الى العدو ليلاً وتذيقه مرارة القتل والاسر والسركة وكانوا يختفون بالحشيش في أجراف الأنهار ليفتكوا بمن يرد المساء وقد وأرسل صاحب الموصل الى السلطان من أحمال النفط الابيض شيئاً كثيراً مع عزة وجوده ومن التروس والرماح من كل جنس أحكمه وأجوده وأقام السلطان بموضعه بالخروبة مدة الشتاء وكان يزكه وطلأه لا تنقطع عن الصليبيين فلما هل شهر صفر سنة ٥٨٦ هـ سمع الصليبيون بان صلاح الدين قد سار للصيد ورأوا العسكر الذين في الزك قليلاً وان الاو حال التي في مرج عكا كثيرة تمنع من سلوك من يريد ان ينجذ الزك فانتهموا الفوصة وخرجوا من خندقهم على الزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحوا أنفسهم بالنشاب حتى فنى نسابهم فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم الامر وعلم المسلمون انه لا ينجيهم الا الصبر فصدق القتال فقاتلوا قتال مستقيل الى ان جاء الليل وقتل من الفريقين جمع كثير وعاد الصليبيون الى خنادقهم . ولما عاد السلطان الى المعسكر بلغه الخبر فندب الناس الى نصره اخوانهم فاتاه الخبر ان الصليبيين قد وصلوا مأمنهم

﴿ احراق أبراج الصليبيين وواقعة الاسطول ﴾

كان الصليبيون مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة ابراج من الخشب عالية جداً طول كل برج منها ستون ذراعاً وعملوا كل برج منها خمس طبقات وكل طبقة مملوءة بالمقاتلة وغشوها بالجلود المدهونة بالخل وعالجوها بما يمنع النار من احراقها

وأصلحوا الطرق لها وعملوها بمجمل لأجل جرها وتسييرها الى حيث شاءوا
وشرعوا في طم خندقها وزحفوا بها في ٢٠ ربيع اول سنة ٥٨٦ هـ فأشرفت على
الصور وقاتل من بها من عليه وأنكشف من بالبلد وأشرفت البلد على الهلاك وكان
السلطان لما وجد البلد محصورة رغب بعض الناس في السباحة ودخول الميناء
فكانوا واسطة في المفاوضة بينه وبين البلد فأرسل اهلها احد العوامين الى السلطان
وأخبروه بتلك الابراج وبضررها وانها اذا استمرت أخذ العدو البلد عنوة فركب
مسرعا بعسكره وتقدم الى الصليبيين وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما
يشغلهم عن اهل البلد فافترق الصليبيون فرقتين فرقة تقاتل السلطان وفرقة تقاتل
اهل عكا ولكن خف الامر عنهم ودام القتال ثمانية ايام متتامة آخرها ٢٨ منه
وسم الفريقان القتال وملاوا منه الملازمة ليللا ونهارا والمسلمون تيقنوا من استيلاء
العدو على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج لانهم لم يتركوا حيلة
الا عملوها ولم يقدمهم ذلك شيئا وتابوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فمن
الطاف الله بهم ان شخصاً من اهل دمشق اسمه علي ابن شبيب النحاسين كان في
عكا وهو مولع بجمع آلات النفاطين وإيجاد عقاقير تقوي عمل النار . فلما رأى
تلك الابراج وما فعلته باهل المدينة شرع في عمل ما يعرفه من تلك الادوية المقوية
لنار ولما فرغ منها حضر الى الامير بهاء الدين قراقوش حاكم البلد وقال له ان
يا امر المنجنيقي ان يرمي بالمنجانيق المحاذي لاحد هذه الابراج ما أعطيه لكي يحرقه
وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد
غيظاً بقوله وقال له قد بالغ اهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط فلم يفلحوا فقال له
من حضر لعل الله جعل الفرع على يد هذا ولا يضرنا اذا وافقناه على كلامه
فأجابه الى ذلك وأمر المنجنيقي بامثال أمره فرمى عدة قدور خالية من النفط
والصليبيون اذا رأوا القدور لا تحرق شيئا يفرحون ويرقصون ويلعبون على سطح
البرج حتى علم ان الذي القاه قد تمكن من البرج التي قدرة مملوءة وجعل فيها
النار فاشتعل البرج ورمى ثانية وثالثة فاضطربت النيران في نواحي البرج فاحترق
بما فيه من السلاح والزرديات وكان شيئا كثيراً وكان الصليبيون قد استهانوا امر
القدور الاولى لانها لم تفعل شيئا فاطمأنوا وتركوا السبي في الخلاص ولما احترق
البرج الاول انتقل الى البرج الثاني وقد هرب من فيه خوفاً فأحرقه وكذلك
الثالث وكان ذلك يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون فرحين وقد

أبرقت وجوههم بعد الكتابة فرحاً بالنصر وخلصهم من القتل وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه شيئاً وقال انا عمات ذلك لوجه الله تعالى ولا أريد الجزاء الا منه وارسل السلطان بطاب العساكر الشريفة فأول من أتاه عماد الدين زنكي وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين بن عز الدين مسعود سيره ابوه مقدماً على عسكره وهو صاحب الموصل ثم وصل زين الدين يوسف صاحب اربل وكان كل منهم اذا وصل يتقدم الى الصليبيين ويقاوتهم ثم ينضم الى الآخرين ووصل الاسطول من مصر فلما سمع الصليبيون بقربه جهزوا اسطولا ليلقاه في طريقه ويقاوتله فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاوتهم من كل جهة ليستغلوا بقتاله عن قتال الاسطول فيتمكن من دخول عكا فلم يشغلوا وخرج اسطولهم وكانت الناس خرجت على جانب البحر تقوية للاسطول واينسأله ولرجاله والنقي الاسطولان في البحر والمسكران في البر واضطربت نار الحرب واستمرت وباع كل فريق روحه وجرى قتال شديد اقشع عن نصرة الاسطول المصري بعد اخذ مركب منه وقتل من باسطول الصليبيين ونهب ما فيه وأخذ منه مركباً ايضاً ودخل الاسطول المصري المنصور الى عكا وكان قد صحبته مراكب من الساحل فيها مير وذخائر وطابت قلوب اهل البلد بذلك وانشرحت صدورهم واتصل القتال بين المسكرين خارج البلد الى ان فصل بينهما الليل وعاد كل فريق الى خيمه وقتل من الصليبيين في هذا اليوم كثيرون لان اهل البلد اشتدوا في قتالهم والاسطول وعساكر السلطان فكان قتال الصليبيين في ثلاث مواضع.

﴿ الحروب الصليبية الثالثة ﴾

﴿ سفر ملك النمسا والمانيا الى فلسطين وما جرى له ووفاته ﴾

ثم أقام الملك فريديريكوس عوضاً عنه في تدبير المملكة مدة غيابه عنها ولده هنريكوس وسافر من راتيسبونا بعسكره مجتازاً بلاد هونكريا ثم بلغاريا حيث لاقت العساكر النمساوية مواع واهانات كثيرة من سكانها فكان كل من كان يقع في ايديهم يعذبونه ويربطونه من رجله في الشجر منكساً . وكان جالساً على نحت القسطنطينية الملك اسحاق فلما بلغه قدوم العساكر النمساوية ارسل الى السلطان صلاح الدين يخبره بذلك ووعدته بمنعهم من العبور وأمر عساكره بمحاربة النمساويين فلما وصل الملك فريديريكوس الى مدينة فيلبوبولي تحقق ان وفده الذي ارسله

الى ملك الروم مسجون بالتسطينية وكان يظن ملك الروم صديقاً له فوجده عدواً
فغضب وأخذ يحارب جميع المدن التي يجتازها حتى انه املاك المدن الآتية . ادريانوبولي .
ديديموتيك . سيافريا . غاليلي . وسائر السهول الواقعة على شاطئ بوربونديا الايمن
مع هاليسبونت وكادت تقع مدينة التسطينية في يده وكانت العساكر المقبلة من
بلاد البندقية ومن انكونا ومن جنوى يبرأ كهم قد علمت بما جرى للعساكر
الصليبية النمساوية فزعموا على ضرب مدينة التسطينية من البحر فحينئذ خاف
الملك اسحاق ملك الروم من هذه الجيوش فاطلق سراح وفد ملك النمسا وقدم
الذخائر للصليبيين وهياً لهم ١٥٠٠ مركب و ٢٦ غلاطه لاجل زول العساكر
النمساوية فيها ونقلهم الى مواني اسيا ولما نزلوا باراضي اسيا الصغرى مارين بمملكة
قايح ارسلان بن مسعود بن قايح ارسلان ثار بهم التركان وظلوا يترصدونهم
ويقتلون من اتفرد منهم وكان الزمن شتاء وقد اهلكهم البرد فلما قربوا من
مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه ابن قايح ارسلان وحاربه
فلم يقدر عليهم فماد الى قونية وسار الصليبيون ورائه ولكنهم ضلوا الطريق وساروا
في ارض لا ماء فيها حتى هلكوا من العطش ومن الجوع وكانوا يترامون في الطرق
ويستخرجون دم الحيل ويمتصونه الى ان وصلوا الى مدينة قونية فارسلوا الى
قايح ارسلان هدايا عظيمة وقالوا له ما قصدنا بلادك ولا اردناها وانما نحن نقصد
البيت المقدس وطلبوا منه ان يأذن لرعيته في اخراج ما يحتاجون اليه من قوت
وغيره فاذن في ذلك فانهم ما يريدون فشبهوا وزودوا وقال المؤرخون النمساويون
ان الملك فريديريكوس لما وصل الى مدينة قونية حاربها حتى امتلكتها (وساروا
الى بلاد الارمن فانهم تعب زائد ومشقة عظيمة وفي ذات ليلة حصلت زلزلة عظيمة
وشعروا بعمق الاساحة وصهيل الحيل كان جيوشاً قد فاجأهم ففقطعت قلوبهم
خوفاً ولكنهم لم يروا احداً فكانوا يتساءلون عن سبب ذلك فقالت رؤساؤهم ان
في ذلك رمزاً عن قرب حصول حادث مهول يقعون فيه (وهذا ما ذكره مؤرخوهم
أيضاً) ثم وصلوا الى بلاد الارمن وصاحبها لافون ابن اصطقان فارسل اليهم وفداً
لمقابلتهم وقدموا لهم جميع ما يحتاجون اليه من ذخائر وزادوا غيره من العلف وقدموا
لهم الطاعة ثم سار الصليبيون قاصدين انطاكية ففصل لهم من التعب ما لا يوصف
ثم ساروا وكان في طريقهم ممر فنزلوا عنده ونزل الملك فريديريكوس في النهر لغسل
فغرق في مكان لا يبلغ الماء فيه وسط الرجل فاعتزته قشعريرة شديدة وطلب الاعانة

فاخرجوه ميتاً وحزنوا عليه حزناً شديداً وكان معه ولده فاقاموه ملكاً مكانه ولكن الخلاف وقع بينهم فاحب بعضهم العود الى بلاده وبعضهم مال الى تملك اخيه فمادوا وسار ولده فيمن رضي به ملكاً قاصداً انطاكية فوصلوها وقد تقشى بينهم الوباء فاهلكهم وبددهم فحسن لهم صاحبها المسير لمشاركة الصليبيين في حصار عكا فساروا على حيلة واللاذقية وغيرها من البلاد التي ملكها المسلمون وخرج اهل حلب اليهم واخذوا منهم خلقاً كثيراً ومات اكثر من أخذ فلبغوا طرابلس واقاموا بها اياماً فكثير فيهم الموت فلم يبق منهم الا الف رجل وعلى قول مؤرخهم خمسة آلاف نسمة (فانظر الى لطف الله كيف خرجت هذه الحملة الصليبية من بلادها نحو ٢٠٠ الف مقاتل وقيل اكثر وكيف بقي منهم الف فارس) ثم وصلوا الى عسكر الصليبيين حول عكا فوجدوهم في خلاف وكان الملك قليسج ارسلان يكتب السلطان باخبارهم ويمنعه انه يمنعهم من العبور في بلاده فلما عبروها ارسل يعتذر بالمرض عنه لان اولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته فلما ورد الخبر الى السلطان بعبور الملك فريدريكوس استشار اصراعه فاشار كثير منهم بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل وصولهم الى عكا فقال السلطان بل نقيم الى ان يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكنا من عساكرنا ولكنه سير من عنده من العساكر عسكر حلب وجبله واللاذقية وشيزر وغير ذلك ليكونوا في اطراف البلاد يحفظونها من العدو فكفى الله المسلمين القتال

الواقعة المأدلية على عكا بين الصليبيين والمسلمين

لما ارسل السلطان العساكر الاسلامية الى بلادها خوفاً من ملك النمسا وعلم الصليبيون ان العساكر قد تفرقت في اطراف البلاد وان الميمنة قد خفت لان معظم من سار كان منها اجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجاءه فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها تخيم الملك العادل فلما بصر الناس بهم صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها وركب السلطان وصاح منادياً يا للاسلام وكان هو اول راكب وهو كالفائدة لولدها الثاكلة لوحيدها ثم ضرب الصنوج فاجابته صنوج الامراء من اماكنها وركب الناس وسارع الصليبيون في قصص الميمنة حتى وصلوا الى تخيم الملك العادل قبل ان تركب جميع العساكر ودخلوا في وجاهه وامتدت ايديهم في السوق واطراف الخيم بالنهب والغارة وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايمز النجمي

وعز الدين جريدك النوري ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم
ويشتغلوا بالنهب وكان كما ظن ولما علم باشتغالهم بالنهب صاح بالناس وحمل بنفسه
يتقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود وحمل بجملته من كان يليه من الميمنة واتصل
الامر بجميع الميمنة حتى وصل الصالح الى عسكر الموصل وهجموا على العدو هجمة
الاسود على فرائسها وأوقعوا فيهم القتل فعاد الصليبيون هاربين الى خيامهم وعلى
أعقابهم ناكسين والسيوف يعمل فيهم وصاح صالح السلطان في الناس يا أبطال الموحدين
هذا عدوكم قد أمكنكم الله منه وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه فبادر
الى اجابة دعوته أهل حلقته وخاصته ثم عسكر الموصل يتقدمهم علاء الدين ولد عز
الدين ثم عسكر مصر يتقدمهم سنقر الحلبي وتتابعت العساكر وتحاربت الابطال
وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى ترمى الصليبيون صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية
وغطت قتلاهم الارض من خيم الملك العادل الى خيامهم فكان اولهم بالخيام الاسلامية
وآخرهم بخيام العدو صرعى على التلول والوهاد وكان ما بين العسكرين ما يزيد
عن فرسخ مفروش بالشللهم ولم ينج من القوم الا النادر وأسر نفر يسير لان
السلطان أمر بالابقوا على اعدوكم كان هذا جميعه في الميمنة وبعض القاب اما الميسرة
فما اتصل الصالح بهم الا وقد نجح الامر وقضى القضاء على العدو لبعده المسافين
وكانت هذه الواقعة ما بين الظهر والمصر ثم أمر السلطان العساكر الاسلامية
بالرجوع وكانت النصره في هذا اليوم عظيمة جداً للمسلمين ولم يقتل منهم الا عشرة
انفس ومن الصليبيين ثمانية آلاف وقال مؤرخوهم بان عسكر الصليبيين لما
رأى عساكر السلطان قد سافرت طمع في الباقي وطالب من رؤسائهم حرباً عمومية
ضد المسلمين فتعوههم فلم يمتنعوا وخرجوا بدون ارادة رؤسائهم ويعترفون بالواقعة
كما تقدم ويقولون هذا جزاء مخالفتهم لاوامر الرؤساء وكان المسلمون الذين بالبلد
ينظرون الى هذه الواقعة من أعلى السور ولما علموا بكسرة الصليبيين خرجوا
من البلد وأوقعوا في عسكر الصليبيين قتلاً ونهباً حتى انهم أخذوا القدور وفيها
الطعام وكثيراً من الاقشة

﴿ حصار عكا من البحر ودخول الزاد اليها قهراً ﴾

لما رأى الصليبيون اتصال المدد من البحر الي عكا عزمو على محاصرة المينا من
البحر لمنع دخول مراكب المسلمين اليها وكان ورد للصليبيين مدد من البحر من
فرانساويين وانكليز وايطاليين تحت رياسة قائد هم هنريكوس كونت دي شمبانيا

ومعهم من آلات الحرب والحصار شيء كثير . وكان السلطان قد أمر بشحن بطسة كبيرة بالغلل والبصل والحين والغنم وغير ذلك من الميرة من مينا بيروت لان أهل البلد قد اشتدت حاجتهم الى الطعام والميرة فركب في تلك البطسة جماعة من المسلمين وتزويوا بزي الافرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة لتظهر من بعد وعلقوا الصلبان وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد واعتقدوا انهم منهم فقالوا اولم تكونوا أخذتم البلد فقالوا نأخذ البلد بعهد فقالوا نحن نرد القلوع الى العسكر ولكن وراءنا بطسة أخرى في هوائها فانذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة أفرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر فنظروا فراوها فقصدوها لينذروها فاشتدت البطسة الاسلامية في السير واستقام لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت والله الحمد وكان ذلك في أواخر شهر رجب سنة ٥٨٦ ثم أرسل بهاء الدين قراقوش والي البلد والحاجب حسام الدين لؤي مقدم الاسطول الى السلطان في أول شعبان يذكر ان له انه لم يبق بالبلد ميرة الا قدر يكفي البلد الى ليلة النصف من شعبان لا غير فاسرّها يوسف في نفسه ولم يبدّها لاحد لامن خاصته ولامن الجيش خشية الشيوع والبلوغ الى العدو فضمف به قلوب المسلمين وكان قد كتب السلطان الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادام والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء فاقبلت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تنوخي النوتية بها الريح التي تحمها الي عكا فطابت لهم الريح حتى وصلوا اليها ليلة النصف من شعبان وقد فئت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم وخرج أسطول العدو يقاتل البطس والعساكر الاسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤوسهم يتهلون الى الله تعالى في القضاء بسلامتها الى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الشكلي يشاهد القتال ويدعور به بنصره وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره وفي قلبه ما في قلبه والله يشبهه ولم يزل القتال حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح يشتد والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعا يخرق الحجب حتى وصلت بحمد الله سالمة الى مينا البلد وتلقاها أهل عكا تلقى الامطار عند جذب وكان دخولها وقت العصر رابع عشر شعبان

﴿ احراق منجنقات الصليبيين وصرا كهم واداء الامانة بعد الموت ﴾

وانصب الصليبيون على البلد منجنقات هائلة محكمة على السور وتواترت حجارتها حتى اثرت فيه أثراً بيناً وخيف من غائلته فاحذ سهمان من الجرخ العظيم وأحرق نصلها حتى امسيا كالشعلة من النار ثم رميا في المنجنق الواحد فعلقا فيه واجتهد الصليبيون في اطفاء النار فلم يقدرُوا وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالاً عظيماً واتصل اللهب بالآخر فأحرقه واشتدت ناره بحيث لم يقدر أحدان يقرب من مكانهما ليختال في اطفائهما وكان في اثناء ذلك يرسل السلطان الكتب والنال الخصوص بنفقات العساكر التي داخل البلد بواسطة أناس عوامين ومن غريب ما حصل ان عواماً من هؤلاء العوامين اسمه عيسى مسلماً أخذ كتاباً من السلطان وشد على وسطه ثلاثة اكياس داخلها الف دينار وعام في البحر كمادته (لانه كان يغطس بذلك من وراء مراكب العدو ويخرج في المينا من البحر) فاتاه القضاء المحتوم وكان كلما يصل الى البلد يرسلون طائراً الى السلطان فيعلم بوصوله فلما انتظر السلطان الطائر عن هذه الرسالة فابطا الطائر فاستشعر السلطان بهلاك عيسى العوام فلما كان بعد أيام بينما الناس على شط البحر في البلد واذا البحر قد قذف اليهم ميتاً غريقاً فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب ومشمع الكتب وكان الذهب نفقة المجاهدين فما رؤي من لم يمكنه ان يؤدي الامانة في حال حياته فاداهما بعد وفاته الا هذا الرجل الذي برأه الله مما قالوه فيه وكان يوجد برج اسمه برج الذبان في وسط البحر مبني على الصخر على باب مينا عكا يحرس المينا وكان متى عبره المراكب أمن من غائلة العدو فاراد الصليبيون أخذه لتبقى المينا بحكمهم ويمتنعوا دخول شيء من البطس الى البلد فنقطع الميرة عنها فاجتهد ليو بولدوك دي او طريش وعساكره وعساكر البيزاويه فجعلوا على صواري بطسة كبيرة برجا وملؤوه حطباً ونفطاً لاجل ان يسيروا فاذا قاربت البرج ولاصقته احرقوا البرج الذي على الصواري واصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه فيحرقوه من الاعلى ويقتلوا من فيه من المقاتلة ويأخذوه وعبوا بطسة أخرى بالحطب والوقود على انهم يدفعونها الى ان تدخل بين بطس المسلمين ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك من فيها وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو عملوه فيها بحيث لا يصل اليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح حتى اذا احرقوا ما أرادوا احرقه دخلوا تحت القبو فامنوا ثم احرقوا ما أرادوا وقربوا

البطسة من البرج المذكور وكان طمعهم شديداً لأن الهواء كان مساعداً لهم فاقعدوا النار واشعلوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج الخشبي بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة ولم يصب البرج بضرر (برج الذبان) ثم احترقت البطسة التي كانت معدة لاحتراق مراكب المسلمين فوثب المسلمون عليها فاخذوها . وأما البطسة التي كان فيها القبو فانهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع فاختلغوا واضطربوا اضطراباً عظيماً فانقلبوا وهلك جميع من بها لانهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها فكان ذلك من أعظم آيات الله وقد رد الله كيدهم في نحركم

﴿ واقعات الدبابات والخندق والكمين ﴾

انشأ الصليبيون دبابات من حديد تشبه البرج على عجل تتحرك بها وفيها المقاتلة ولها رأس عظيم برقة شديدة من حديد وهي تسمى كبشاً ينطح بها السور بشدة وغنف فهدمه بتكرار النطح وآلة أخرى وهي قبو وفيها رجال أيضاً ولها رأس محدد كرأس المحراث ويسمى سفود فرأس الكبش مدور يهدم بثقله والسفود يشغب بحدته وفي ثالث رمضان سنة ٥٨٦ زحف الصليبيون على البلد في خالق لا يخصى بدباباتهم فامهلهم أهل البلد حتى نشبت محالبا اطماعهم فيه وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى كادوا يلصقونها بالسور ومحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة فاطلق المسلمون عليهم الجروح والمجانيق والسهام والنيران وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفتحوا الابواب وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم في الخنادق فهربوا واعمل السيف في من بقي في الخندق منهم ثم هجموا على دباباتهم فالقوا فيها النار والنفط وتمكنوا من احراقها لهرب المقاتلة فكان لهيب شديد رارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل وسرت النار بالدبابات من واحدة الى أخرى فاحترقت كلها وعلق المسلمون في الكبوش الكلايب الحديد فجروها وهي مشتعلة حتى أخذوها وأدخلوها في البلد وكانت منشأة من آلات هائلة عظيمة فالقي عليها الماء حتى برد حديدتها بعد أيام فكانت زنته مائة قنطار وفي يوم الاثنين حادي عشر شوال اقام من الصليبيين على البلد الملك فريدريكوس الصغير ملك النمسا بفرقة عظيمة لمحاصرته وخرج باقي معسكرهم ومعه ميرة أربعة أيام للجيش والحيل وكان يزك السلطان مخيماً على تل العياضية فلما رأى السلطان ذلك نقل ائقال المسلمين الى ميمون وهي على ثلاثة فراسخ من عكا وكان قد عاد اليه

من سافر من عساكره بعد وفاة ملك النمسا فلقى الصليبيين بحيش عرمرهم تام التعبئة وولى أولاده الأفضل علي والظاهر غازي والظاهر القلب وأخاه العادل أبا بكر الميمنة المؤلفة من عساكر مصر ومن انضم إليها وكان في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حمص وممزر الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق أن السلطان أخذه مغمص كان يعتاده فغصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على السكرو نزل فيها ينظر إليهم فسار الصليبيون شرقي نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر فرأوا عساكر المسلمين وكثرتها فارتاعوا ولقيهم الجاليشية وامطروهم من السهام ما كاد يستر الشمس فتحولوا إلى غربي النهر وثبت الجاليشية على قتالهم حتى تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً وكان مقصد الجاليشية أن يحمل الصليبيون عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس ولكن الصليبيين ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلهم فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخنادقهم والجاليشية في اكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرمح وتارة بالسهم وكلما قتل منهم قتيلاً أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم ولولا ذلك الألم الذي حدث للسلطان لكانت هذه الواقعة هي الفصل (وإنما لله أمر هو بالغه) فلما بلغوا خنادقهم واستكنوا بها لا يخرجون عاد المسلمون إلى خيامهم وقد قتلوا من الصليبيين خلقاً كثيراً وفي الثالث والعشرين منه كن جماعة من المسلمين وتحرش بالعدو جماعة أخرى فخرج إليهم بعض عسكر الصليبيين فقاتلوهم يسيراً وطاردوا متقهقرين فقبضهم الصليبيون حتى جازوا الكمين فخرج عليهم من فيه فزقوهم ولم يفلت من سيوفهم أحد

﴿ في دخول البديل العسكري عكا ﴾

لما حل فصل الشتاء وعصفت الرياح خاف الصليبيون على مراكبهم التي يحاصرون بها عكا لأنهم لم يتمكن من الميناء ولا أمكنها رد المسلمين عن دخول البلد فسيروها إلى بلادهم صور وغيرها فانفتح طريق عكا في البحر وأرسل أهلها إلى السلطان يشكون الضرر والمال والسآمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيثم السمين مقدماً على جنده فامر السلطان بإقامة البديل وانفذه إلى البلد وأخرج من فيها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فالتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني فكان يرسل عليها إلى عكا كل جماعة تقدم عليه من العساكر فيحتل البلد ويخرج جماعة فدخل إليها عشرون أميراً وكان بها

سستون فكان الذين دخلوا اقل من الذين خرجوا وأهمل نواب السلطان تجنيد الرجال وانفاذهم وكان على خزانة ماله قوم من النصارى فكانوا اذا جاءهم جماعة قد تجندوا تفتنوا عليهم بانواع شتى تارة باقامة معرفة وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خاق كثير وزاد الامر خطارة تواني صلاح الدين نفسه لوثوقه بنوابه واهمال النواب فانتهى الشتاء والامر كذلك وكان من جملة الامراء الذين دخلوا عكا سيف الدين علي بن احمد المشطوب وعز الدين ارسل مقدم الاسدي بعد جولي وذلك في غرة سنة ٥٨٧ هـ وكان قد اشار بعض الامراء على السلطان بان يرسل الى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والاقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام لانهم قد حاربوا وتدريبوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه فلم يفعل السلطان ذلك خوفاً من ان ضجرهم ومللهم يحملهم على الفشل

﴿ سفر الصليبية الثالثة في البحر وما جرى لملك الانكليز ﴾

بسيديسيا وقبرص وزواجه

بعد ان تعاهد ملك فرنسا فيليبس اوغسطوس وملك الانكليز ريكاردوس الملقب بقلب الاسد على المقابلة في مدينة ميسينا بجزيرة سيديسيا (صقلية) لضمرة الصليبيين باراضي فلسطين سار ملك فرنسا عن طريق جنوى وسار ملك الانكليز الى مرسيليا وانتظر اسطوله فلم يحضر حتى ملّ الانتظار فركب سفناً صغيرة وقصد ميسينا وأوعز الى جنده ان يركبوا الاسطول حين وصوله ويلحقوا به . وأخيراً التقى الحيدشان في ميسينا على حدود سيديسيا مما يلي ايطاليا وكان لريكاردوس أخت اسمها جوانا تزوجت بوليم ملك سيديسيا فسات في شرح شبابه واختلس الملك من أرملته امير اسمه تنكريد واستولى على اموال زوجها فعلم بذلك ريكاردوس في أثناء اقامته بميسينا فعزم على محاربة اهل سيديسيا ورفع علمه على اسوار ميسينا ولما رأى ذلك الملك فيليبس ملك فرنسا اغتاظ منه فامر عساكره بانزال العلم الانكليزي من على السور فعزم ريكاردوس على محاربة فيليبس ولكن ملك فرنسا لكونه اكبر سنامن ملك الانكليز لم يرغب في هذه الحرب وأعمال السلاح المعد لمحاربة المسلمين ضد الصليبيين فركب مراكبه وسار قاصداً فلسطين وأما ملك الانكليز فانه تهدد تنكريد بملك سيديسيا فأرضاه بمال مقداره عشرون الف اوقية من الذهب . وكان ريكاردوس قد خطب برنجاريادي نافار ولم يتأت له الاقتران بها في انكلترا

خوفاً من التأخر عن الجهاد فأشار بحملها اليه في صقلية فجاءت بها والدته ووقت السفر قد دنا فأجل الزفاف الى وقت آخر وعهد بخطيبته الى اخته جوانا أرملة وليم ملك صقلية المتقدم ذكرها وركب اسطوله وهاممه وسار قاصداً المشرق فهبت عليهم أنواء شديدة قذفت بمراكبهم الى سواحل كريد فافتقد ريكاردوس الاسطول فعلم ان ثلاثاً من سفنه قد ضاعت وفيها خطيبته وحاشيتها فانفسد من يبحث عن السفن فأبأوه ان انتين منها جنحتا عند سواحل قبرص وان ملكها اسحق قتل النوبة وحجر على النساء في ليموسا وطلب من ريكاردوس ان يقدم اليه ليمقدا مؤتمراً فغضب ريكاردوس لذلك غضباً شديداً وسبه بالانكليزية وقال انها المرة الوحيدة التي تكلم بها ريكاردوس بالانكليزية لانهم كانوا يستعملون اللغة الفرنسية القديمة (النورماندية) اذ ذلك وأسرع ريكاردوس الى قبرص وخرج الى البر بعساكره وقبض على ملكها وأوثقه بسلاسل من فضة واغتم وجوده هناك فرصة للاقتران بخطيبته برنجاريا فزفت اليه وكان ريكاردوس قد ألف أثناء اقامته في صقلية جمعية من الفرسان سماها (جمعية السير الأزرق) لان أعضائها كانوا يلبسون في أنفادهم اليسرى سبوراً من جلد أزرق وقد تعاهدوا على فتح عكا فصار ريكاردوس بجيشه قاصداً تلك المدينة

﴿ وصول الصليبيين الى عكا ومحاصرتهم لها وقتل بعض أسرارهم ﴾

وصل الملك فيلبس ملك فرنسا الى عكا في ثاني عشر ربيع الاول سنة ٥٨٧ هـ ففرح به الصليبيون وجعلوه رئيساً عليهم وكتب السلطان صلاح الدين الى عز الدين سامة متولي بيروت بمحاربة من يمر به من الصليبيين وكان في أثناء اقامة الملك ريكاردوس ملك الانكليز بحزيرة قبرص قد سافرت بعض مراكبه قاصدة عكا تخرج عليها عز الدين واستولى على خمس مراكب مملوءة رجالاً ونساء وأموالاً وخيلاً وتقدم الصليبيون الى عكا فنصبوا عليها المنجنيقات وذلك في رابع جمادي الاولى وأرسل اهل عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس أن يشغل العدو عنهم فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما ضيقوا على البلد فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر واذا رجع عنهم عاودوه وكانت العلامة بين السلطان وأهل البلد انه متى زحف العدو عليهم دقوا صنوجهم فندق صنوج السلطان اجابة لهم وكان السلطان مخيماً على شفر عم واستبعد منزله فتحول الى تل العياضية تاسع جمادي الاولى ثم وصل الملك ريكاردوس في ثالث عشره وكان السلطان لما علم بقرب وصوله قد أمر بتجهيز

بطسه كبيرة مملوءة بالرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسارت من بيروت وفيها
 سبعمائة مقاتل فلقبها ريكاردوس فقاتلها وصبر من فيها على القتال واحتاطت بها
 سراكب الانكاز من كل جانب ولما يتس من بها من الخلاص نزل المقدم الى اسفلها
 وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر بها العدو بمن فيها
 وما معهم من الذخائر فغرق جميع ما فيها ولما وصل ريكاردوس الى عكا كما تقدم
 فرح به الصليبيون وقويت شوكتهم وبلغوا في محاصرة البلد وقتال أهلها ليلاً ونهاراً
 واسرعوا الى طمي الخندق وكانوا يرمون فيه جثث الاموات وصنعوا دبابة عظيمة ذات
 اربع طبقات الاولى من خشب والثانية من رصاص والثالثة من الحديد والرابعة
 من النحاس وكانت تعمل على سور البلد ويركب فيها المقاتلة يخاف منها أهل البلد
 وقربها اصحابها من السور فواصل المسلمون رشقها بالنفط ليلاً ونهاراً الى ان
 احترقت وزادت شكوى أهل البلد لاستفحال أمر العدو ومواصلة قتالهم ليلاً
 ونهاراً من حين قدوم ريكاردوس ثم ناب كلا من ريكاردوس وقلبس مرض شديد
 فارسل ريكاردوس الى السلطان صلاح الدين يطلب دجاجاً وطيراً وأرسل ثانية
 يطلب فاكهة وتلجأ فارسل اليه كل ما طلب والقتال مستمر من الصليبيين
 وأهل البلد حتى ضعفت الحامية وبقي أكثر المسلمين بدون نوم عدة ايام لا ليلاً
 ولا نهاراً وفي سابع جمادى الآخرة ركب السلطان بالعسكر الاسلامي وزحف على
 خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر وجري قتال عظيم وهو كالوالدة الشكلي بحركه
 فرسه من طلب الى طلب ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه بالاسلام وعينه
 قد غرقت بالدمع وكما نظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على من بها
 من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ولم يأكل في ذلك اليوم طعاماً ولما
 هجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ثم ركب سحراً
 وأصبحوا على ما أمسوا عليه وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها
 انا قد بلغ بنا العجز الى غاية ما بعدها الا التسليم ونحن في الغد ان لم تعملوا
 معنا شيئاً نطالب الامان ونسلم ونشتري مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على
 المسلمين فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر لان رجال الصليبيين
 وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم وهجم
 عليهم بعض العسكر من اطرافهم فقتلوا وذبوا غاية الذب . ثم ان الصليبيين بعد
 ما أعيتهم الحيلة في الاستيلاء على البلد وانهم كلما عملوا ابراجاً أو دبابات أو كبوشاً

اوغيرها يجرقها المسلمون فعمدوا الى اقامة سور من تراب يسترون وراءه للمحاربة كي لا يصيبهم نشاب ولا سهام من المسلمين باعلى سور البلد ثم أخذوا يمدونه شيئاً فشيئاً الى أن صار قريباً من سور البلد فاختار المسلمون لان العدو قرب منهم وليس في وسعهم ايصال أي أذى اليه لان السور التراب لا تؤثر فيه النصار ولا السهام ولم نزل الحرب قائمة حتى ضعفت نفوس أهل البلد وتمكن المدومون الخنادق فلأها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه فوقمت بدنة من الباشورة ودخل بعض الصليبيين منها فاجتمعت أهل البلد على هذا الثقب وقتلوا ما يزيد عن المائة وخمسين نفساً وكان من ضمنهم كل من روطروا • وتيوددي شامانيا • والكونت دي بلواز واستقانونس دي صانساراً • وغوي دي شاتيليون • وجفروا دي أومالا • وفيس كونت دي شاتا لارولت • وفلورانت دي انجارس • وراول دي كوزي ثم ان بعض الصليبيين أراد الصعود على سور البلد وكان في مقدمتهم الباريك كلامان فنصب ساماً وصعد عليها الى أن بلغ السور وتبعه بعض رجاله ونصبوا السلام فتكرست بهم ووقعوا جميعاً ولم ينالوا مرادهم وأما الباريك فان المسلمين تكاثروا عليه وقتلوه

﴿ طلب الصالح ودخول الصليبيين عكا ﴾

تابع السلطان صلاح الدين زحفه وهجأته على معسكر الصليبيين لكي يشغلهم عن محاربة أهل البلد ولكنهم لم ينفكوا عن قتالهم ومضايقتهم فامر قائماز النجمي بان يزحف هو وأصحابه الى اسوار العدو وترجل جماعة من امراء الاكراد كالجنج و أصحابه وهو أخو المشطوب وزحفوا حتى بلغوا أسوار العدو ونصب قائماز علمه بنفسه على سورهم وقاتل عن العلم ووصل عن الدين جرديك النوري وسوق الزحف قائدة فترجل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظراً نجاح الامل ولما علم السلطان بان عكا قد وهنت أرسل الى جماعة من فيها سرّاً وقال لهم خذوا من العدو حذراً وانفقوا واخرجوا ليلاً من البلد يداً واحدة وسبروا الى جانب البحر وصادموا العدو بالقهر وتركوا البلد بما فيه فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ولم يعلم ان التهاء به يهلكه فما تمكنوا من المراد حتى اسفر الصباح ولم يصبح كذلك في الليلة الثانية لوصول الخبر الى الصليبيين فخرسوا الجوانب والابواب ثم ان الامير سيف الدين علي بن أحمد الهيكاري المعروف بالمشطوب وكان هو مقدم المعسكر في البلد خرج الى ملك

فرانسا فيليبس أوغسطس وقال له انا قد أخذنا منكم بلاداً كثيرة وكنا نهدم البلد
وندخله ومع هذا اذا سألونا الامان أعطيناكم وحملناكم الى مأمهم وكرمناهم ونحن
نسلم البلد وتعطينا الامان على انفسنا وبعد مداولة ملك فرانسا مع ديوان المشورة
العسكري قال انه لا يعطي الامان للمسلمين الا بعد ان يرجعوا مدينة القدس وجميع
البلاد التي استولوا عليها بعد حرب طبرية (سواحل سوريا) فانظر فرق المعاملة
بين المسلمين في استيلائهم على المدن من الصليبيين وكيف كانوا يعطونهم الامان
ويوصلونهم الى الجهات التي يريدونها ومعاملة هؤلاء الصليبيين لعساكر المسلمين
وعدم اعطائهم الامان) فاغاظ المشطوب له القول وانصرف عنه ولما دخل البلد
بهذا الخبر خاف جماعة من الامراء فاخذوا لهم بركوسا وهو مركب صغير وركبوا
فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي منهم عز الدين ارسل وحسام الدين قمر تاش
ابن الجاولي وسنقر الوشائي وهو من الاسدية الاكبر ثم ان سيف الدين المشطوب
اتفق مع الصليبيين على تسليم البلد بجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب
ومائتي الف دينار والنصف وخمسة أسير مجاهيل ومائة أسير معينين من جانبهم
يختارونهم وصليب الصليبوت على انهم يخرجون بانفسهم سالمين وما معهم من
الاموال والاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساءهم وضمنوا لكونراد صاحب صور
عشرة آلاف دينار لانه كان واسطة الصالح ولاصحابه اربعة آلاف ولما وقف
السلطان على ذلك انكره وأعظمه وعزم على ان يكتب اليهم بانكار ذلك وجمع
أمرائه وأصحاب مشورته فاحس المسلمون الا وقد ارتفعت اعلام الصليبيين
على اسوار البلد وذلك ظهيرة يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ وهكذا دخلوا
البلد صلحاً بعد حصار سنتين وسفك دماء كثيرة وموت نيف ومائة الف مقاتل
كما قال مؤرخوهم ونصه « بعد ما نيف عن مدة سنتين من حصار هذه المدينة
باتعاب وشدائد وأعمال كلية وحروب شديدة دخلها المسيحيون آمنين في اليوم
الثالث عشر من شهر حزيران سنة ١١٩١ ونشروا بيارق الصليب فوق أسوارها
فهذه كانت نهاية حصار عكا الذائع الصيت الذي فيه سفكت دماء عظيمة المقدار
والصليبيون ندبوا فيه فقدان عدد وافر من كل ذي رتبة من الشجعان ضمن
نحو مائة معركة حربية خصوصية وتسع حروب عمومية عظيمة حدثت أمام
اسوار هذه المدينة بعساكر كانت اجواقها تحضر وتبتدي بالحرب بعد ان تكون
العساكر التي قبلها قد تلاشت اما تماماً او في اكثر اجزائها بعد ان تصل المراكب

العديدة التي كانت تتوارد من جميع مدين بلاد المغرب حاملة طغيمات من المقاتلين الذين كانوا يتقاطرون من دكين نزولا حول تل طورمان وفوق ارمال بيولوس وبالأجمال أنه في مدة هذا الحصار قد حصدت سيوف الاسلام وأنواع الامراض الرديئة من الصليبيين نحو مائة ألف مقاتل « وكان لما اتفق المشغوب مع الصليبيين على الصلح حدد لتحصيل المال والاسرى مدة شهرين فلما حلفوا له على ذلك سلم البلد اليهم ودخلوا سائما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى اموالهم وحبسوهم وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم وراسلوا السلطان في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فتسرع في جمع المال فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الامراء واستشارهم فاشاروا بان لا يرسل شيئا حتى يجددوا الحلف باطلاق أصحابه وان يضمن رجال جمعية الداوية (الهيكليين) ذلك لانهم اهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية لا نخاف ولا نضمن لاننا نخاف غدر من عندنا ثم قال ملوك الصليبيين اذا سلمتم الينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار في من عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزيمتهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيئا وأعاد الرسالة اليهم وقال نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيك رهنا على الباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحافظون على الوفاء فقالوا لا نخاف ولا نفعل شيئا من ذلك بل تسلمون المال الذي تحصل والاسرى والصليب وتقتعون بأمانتنا حتى نسلم اليكم أصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه انهم اذا تسلموا المال والصليب والاسرى بدون رهن لا يؤمن غدرهم فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم الى ظاهر خنادقهم بجميع عساكرهم وركبوا في وقت العصر في اليوم السابع والعشرين من رجب وساروا حتى اتوا الابار تحت تل العياضية ثم أحضروا من الاسرى المسلمين نحو الثلاثة آلاف وأوقفوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلواهم صبرا طعنا وضربا بالسيف (وهي نقطة سوداء في تاريخ ريكاردوس) واليزك الاسلامي يشاهد الصليبيين ولا يعلم ماذا يصنع لبعده عنهم وكان اليزك قد انفذ لسلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم فانفذ الى اليزك من قواء وبعد ان فرغ الصليبيون من قتل الاسرى حل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة قتل فيها وجرح من الجانبين خلق كثير ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم فتولاهم حزن شديد أما الصليبيون فانهم

لم يبقوا من الاسرى الا المقدمين والاقوياء للعمل فتصرف السلطان في المال المجموع وأرسل أسارى الصليبيين وصليب الصليبيات الى دمشق

﴿ رمي علم النمسا في الخندق وسفر ملك فرنسا الى بلاده ﴾

اسا دخل الملك فيليب ملك فرنسا وريكاردوس ملك الانكليز مدينة عكا كما تقدم اقسما بينهما خزان القوت وذخائر الحرب وكل ما كان فيها وكان الملك فيليب قد استعمل الرفق واللين في عسكره بخلاف ريكاردوس المتصف دائماً بالحنق وحدة الطبع والشراسة ضد عساكر الصليبيين انفسهم ومن ذلك انه عند ما دخلوا المدينة ورفعوا اعلامهم على أسوارها رفع ليوبولدوس دوك دي اوپريش (ملك النمسا) علمه على احد ابراج المدينة فغضب ريكاردوس من ذلك وأمر بنزع علم النمسا ورميه في الخندق فلما فعل ذلك تألم ليوبولدوس باطناً ولم يظهر غيظه من هذه الاهانة وكتبها في قلبه وحرّم على عساكره الانتقام عن هذه الاهانة قائلاً لهم سوف أنقم بنفسى من عدوي عند وجود الفرصة ثم ان كونراد صاحب صور لما وجد شدة معاملة ريكاردوس انسحب بعساكره من عكا راجعاً الى صور ولهذا السبب أيضاً عزم الملك فيليب اوغسطوس ملك فرنسا على العود الى بلاده وخصوصاً لما اعتراه مرض ضيق الصدر ولم يعد يحتمل كبر ملك الانكليز ولعلمه انه لا يمكنه الإقامة مع ريكاردوس بالمسألة ففرح بذلك ريكاردوس لابتعاد ملك مثل هذا عنه لكونه كان يشاركه في الانتصار والكسب ثم التمس من الملك فيليب القسم انه في رجوعه الى مملكته لا يمارس شيئاً ضد بلاد الانكليز ولا يتعرض لها مدة غياب ريكاردوس عنها فخاف له على ذلك ثم سافر من عكا بحراً الى مدينة صور وترك من جيشه الفرنسي عشرين ألف محارب تحت رئاسة الدوك دي برغونيا ثم سافر من صور قاصداً بلاده وقال مؤرخوهم «سافر الملك فيليب بعد ان اهداه السلطان صلاح الدين هدايا عظيمة لانه كان رأى فيه صفات جميلة بعكس غيره من الصليبيين وانه هو أعظم ملوك اوروبا ووصل الى مدينة روميه وزار قبور الشهداء وقابله اهلها باحتفالات عظيمة ثم سار منها الى مملكته فدخل مدينة باريس باحتفال عظيم»

﴿ سفر ريكاردوس من عكا وواقعة ارسوف وتخريب عسقلان ﴾

بعد سفر الملك فيليب من عكا الى بلاده صار الرئيس على جميع الصليبيين

الملك ريكاردوس فبعد ترتيبه عكا جعلها مستقراً لزوجته برنجاريا وقد اخذه طمع
فتح البلاد فجمع من العساكر الصليبية مائة الف ورفع علمه على سارية مقامة على
اربعة دواليب بجرجل في وسط جيشه نوى الاستيلاء على عسقلان ويافا وقيسارية
وكان ذلك في أول شعبان سنة ٥٨٧ هـ وسار نحو حيفا على شاطئ البحر لا يتعمد
عنه فلما سمع السلطان برجيلهم نادى في معسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك
الملك الافضل نجل السلطان ومعه سيف الدين ايازكوش وعضد الدين جرديك
فضايقوا الصليبيين في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا
على ساقه الصليبيين فقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة فعاد ريكاردوس الى
الساقه فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون
بالقرب منهم وقدم السلطان ثقله الى مجدل بابا ثم سار الصليبيون الى
قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم من قدروا عليه فيقتلونه لان السلطان
كان قد اقسم انه لا يظفر باحد منهم الا قتله أخذاً بثأر من قتلوه ممن كان في عكا
فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقتلواهم قتالا شديداً ونزل الصليبيون بنهر
القصبة وبات المسلمون قريباً منهم وفي أثناء اقامتهم على نهر القصبة خرج من الصليبيين
جماعة مسترسلين وتقدموا على البركة فبصر بهم ابن المقدم فعبس اليهم من ورأهم هو
ومن معه وهم لم يأخذوا من خائفهم الحذر ففاجأهم وجمعهم وفرغ من القتل والاسر
فيهم قبل ان يدركهم المدد ثم نهض الصليبيون اليه وحملوا عليه وحجرت وقعة شديدة
انتهت بهزيمة الصليبيين واحضر الاسارى لدى السلطان ثم رحل السلطان وعبر
شعراء ارسوف ونزل على قرية تعرف بدير الراهب وكان المسلمون قد سبقوهم اليها
ولم يتمكنهم مسيرتهم لضيق الطريق فلما وصل الصليبيون حمل المسلمون عليهم حملة
منسكرة الحقوهم بالبحر فقتل منهم كثير والمسلمون يكبرون ويهلمون ثم ان الصليبيين
اجتمعوا وحملوا حملة واحدة وفي مقدمتهم ريكاردوس الشجاع وفرسان جمعية ضياف
الغرباء (الاستبارية) وكانت هذه المعركة عمومية وقد اظهر فيها ريكاردوس من البسالة
والشجاعة العجيبة وقتل من أمراء الصليبيين يعقوب دي افسناس وفي حال وقوعه
صرخ قائلاً ياريكاردوس انتقم من الاعداء عن موتى وولى المسلمون منهزمين لا يولي
أحد على أحد وكان كثير من السوق قد القوا القيام رقت الحرب قريباً من المعركة
فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ
المنهزمون الى القلب الذي فيه السلطان صلاح الدين وكان بالقرب من المسلمين شعراء

(غابة) كثيرة الشجر قد دخلوها وظنها الصليبيون مكيدة فعادوا عنهم وزال عن المسلمين ما كانوا فيه من الضيق وقتل من المسلمين اياز الطويل مملوك السلطان صلاح الدين وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله وقد اشتهرت شجاعته بين العسكرين بحيث انه اذا كان في موضع وعرفه الصليبيون خافوا منه وسبب قتله سقوط جواده فلما رأى السلطان ما حل بالمسلمين سار حتى اتى طلبه فوقف فيه ودق الصنوج فاجتمع في الطالب خلق كثير ووقفت الصليبيون قبالتهم على رؤس التلول والروابي ثم رجموا الى منازلهم خوفاً منهم من وجود كمين وتراجعت باقي العساكر المنهزمة والجرحى وصدم الملك الافضل وانفتح دمل كان في وجهه . ثم سار ريكاردوس بمعسكر الصليبيين الى يافا ولم يكن بها أحد من المسلمين فلكوها واقاموا بها واخذوا في بناء الاستحكامات فيها أما السلطان صلاح الدين فانه رحل باثقاله الى مدينة الرملة تاسع عشر شعبان وهناك عقد مجلساً من أخيه الملك العادل وأمراء المسلمين واشتشارهم فاشار علم الدين بن سلمان بن جنسدر بخراجها للعجز عن حفظها على ما بها ووافقه الجماعة على ذلك وقالوا ان الصليبيين قد تقووا باخذ عكا وما فيها من الاسلحة فلم تسمح نفس السلطان بتخريبها ونذب الناس الى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد وقالوا هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل الى حفظ المدينتين فاعمد الى اشرف الموضعين فخصه وحكمه فتقر الرأي على اقامة العادل ومعه عشرة من الامراء بقرب يافا حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم وسار السلطان حتى اتى عسقلان وضرب خيمته شمالها فبات هناك مهموماً بسبب خراب عسقلان وقال والله لان افقد اولادي كلهم أحب اليّ من ان اهدم منها حجراً واحداً ولكن اذا قضى الله بذلك لحفظ منفعة المسلمين فكيف اصنع فاستحضر الوالي وأمره بذلك وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجا يخربونه ودخل الناس البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء وشملهم عليه حزن عظيم وكان هو بنفسه وولده الافضل يحثان الناس على الخراب خشية ان يسمع العدو فيحضر ولا يمكنهم من خرابها واباحهم الناس الذي كان ذخيرة في البلد وأمر بحرق البلد فاحترقت والاخبار تتوارد من جانب الصليبيين بعمارة يافا وكان عرض سور عسقلان تسعة اذرع وفي بعض مواضع عشرة واحرق برج الاستباريه وذلك لغاية آخر شعبان

﴿ في وقوع ريكاردوس في الاسر ونجاته وعرض زواج أخته جوانا

بالمملك العادل ﴾

لما كان السلطان صلاح الدين مهتما بتخريب مدينة عسقلان وصله من عن الدين جرديك كتاب يذكر فيه ان الصليبيين قد قسموا وصاروا يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها ويطلب تحريك السلطان لعل يبلغ منهم غرضاً في عزلتهم فعزم على الرحيل وفارق عسقلان في يوم الثلاثاء ثاني رمضان سنة ٥٨٧ هـ ونزل بالرملة يوم الاربعاء ثلثه وأمر بتخريب حصنها وتخريب كنيسة اللد وركب جريدة الى القدس فوصله يوم الخميس رابعه لاجل تقويته وخرج منه يوم الاثنين ثامن وفي هذا اليوم خرج ريكاردوس وبعض خاصته للأنزه والصيد بين حقول صارون وحاس نحت شجرة هو ومن معه من الأمراء والعساكر ففاجأته العساكر الإسلامية فركب هو ومن معه خيولهم ولكن قد كانت احاطتهم العساكر الإسلامية من كل ناحية فلم يقدروا على المدافعة عن أنفسهم ثفاف ريكاردوس من سقوطه بيد المسلمين (فكان المسلمون لا يعلمون انه الملك) فاراد أحد خاصته وهو وليم دي براتراس المولود في اقليم بروفانص بفرانسا ان يحمي ريكاردوس وكان وليم هذا لابساً ملابس أفخر من ملابس ريكاردوس فننادى المسلمين بالعربية قاتلا (أواد يا شجعان احفظوا لي حياتي أنا هو الملك) فهجم عايه فرسان المسلمين وشدوا وثاقه وأخذوه أسيراً وبهذه الحيلة نجا ريكاردوس وهرب الى يافا لان المسلمين فرحوا بأسر وليم ظنين انه الملك ولما علموا خطأهم أرسلوه الى دمشق ليسجن بها . اما ريكاردوس فانه أراد مكافأة هذا الامين على أمانته فطلب من السلطان صلاح الدين اطلاقه وفداء بعشرة امراء من المسلمين المأسورين عنده وتم ذلك فعلا وكان السلطان قد نزل على النطرون في ثالث عشره وخيم بها فراسله ريكاردوس يطلب المهادنة وكانت الرسل تتردد الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب بأمر ريكاردوس وأعلموه بان للملك اختاً اسمها جوانا كانت متزوجة بوليم ملك صقلية ومات ويرغب تزويجها للملك العادل بالشروط الآتية : ان يكون القدس وجميع بلاد الساحل التي بأيدي المسلمين للملك العادل وتكون عسكا وما بيد الصليبيين من البلاد الى جوانا اخت ريكاردوس وان فرسان جمعية الهيكلين (الداوية) وجمعية ما ري يوحنا المعمدان (الاسبتارية) خاضعين لهذا الاتفاق وان الملك العادل يقطعهم البلاد والقرى دون الحصون فلما وجد ذلك الملك العادل صواباً

ونافعا لمصالح المسلمين عرضة على أخيه السلطان صلاح الدين فأجابه الى ذلك فلما شاع الخبر في معسكر الصليبيين اجتمع القسيسون والاساقفة والرهبان عند جوانا أخت ريكاردوس وانكروا عليها ذلك وخوفوها واتهموها في دينها وقالوا هذه فضيحة فظيمة ونسبة شنيعة وتكونين عاصية للمسيح فرجعت عن قصدتها

✽ رسالة ريكاردوس لصلاح الدين بالصلح وما جرى بعد ذلك

وتعمير بيت المقدس ✽

وبعد ذلك أرسل ريكاردوس الى السلطان صلاح الدين يقول له ان المسلمين والصليبيين قد هلكوا وخربت البلاد وتلفت الاموال والارواح وان هذا كله بخصوص القدس والصليب والبلاد وحيث ان القدس متعبدا فلا نزل عنه ولولم يبق منا واحد وأما البلاد فيعاد لنا ما هو قاطع الاردن وأما الصليب فهو خشبة عندهم لا قيمة لها وهو عندنا عظيم الشأن فيمن به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم فأرسل له السلطان في جوابه ان القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندهم فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فلا يتصور ان نزل عنه ولا نقدر على التلطف بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الاصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها اضعف من كان بها من المسلمين ذلك الوقت وأما الصليب (صليب الصلبوت) فأتلافه عندنا قرينة عظيمة لا يجوز ان نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام . ثم تواتر الخبر ان الصليبيين عزموا على النهوض فصار السلطان من مخيمه بالنطرون الى الرملة سابع شوال سنة ٥٨٧ وحصلت واقعة في ناحية يازور في ثامنه وكان النصر فيها للمسلمين وفقد منهم ثلاثة وفي سادس عشره وقعت واقعة أخرى عظيمة قتل فيها جماعة من الامراء وأسرى فارسان من الصليبيين معروفان بالبأس سوى غيرهما وقتل منهم زهاء ستين وورد خبر بان الاسطول المصري استولى على مراكب الصليبيين وفيها مركب تعرف بالمسطح وفي ثامن عشره اجتمع الملك العادل وريكاردوس على طعام ومحادثة وانفصلا على توادد ومطانية وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان صلاح الدين فامتنع السلطان وقال الملوك اذا اجتمعوا تقبح بينهم المحاصمة بعد ذلك واذا انتظم أمر حسن الاجتماع وفي ثالث القعدة رحل الصليبيون الى الرملة وأظهروا قصد القدس بتلك الرحلة ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم وفي الثالث والعشرين من شهره رحل السلطان الى القدس ينوي الاقامة وكان الشتاء

قد حلّ والغيث قد اتصل فوصل القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء المجاورة كنيسة القمامة وفي ثالث الحجة وصلت المساكن المصرية بقيادة أبي الهيجاء السمين ومعها أموال وتحول الصليبيون الى المنطرون فقوى السلطان اليك فوقعوا على سرية فغنموها وساقوا منها الى القدس ما يزيد عن خمسين أسيراً عدا من قتل منهم وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شبرز يوم عيد الاضحى فتجر منهم وضجى واحتوى على عشرة من مقدميهم اسرا وقتلا وانهمزم باقي الصليبيين في الجبال وتركوا خيلهم فغنمها المساحون ولم يزل المسلمون عليهم مستظهري مدة مقامهم بالمنطرون وأخذوا يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بما فيها ولم يقدر الصليبيون على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرملة في الثاني والعشرين من شهره وكان السلطان قد شرع في تحصين القدس وعمسرة أبراجه وأسواره وحفر خنادقه وأرسل الى البلاد بجمع رجال هذه الاعمال في هذا اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا لقطع الصخور من الحندق وأقبل الامراء للعمل فيه وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وامراءه وأجناده ومعهم القضاة والعلماء وقد قال الرشيد ابن النابلسي من قصيدة له عن قصد الصليبيين للقدس

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أو ما	فيهم ليب على العلات يعتبر
فكم نثرهم ضربا اذ انتظمو	وكم نظمهم طعنا اذ انتثروا
كم قد سقيتهم ذلا فلا عجب	ان عربدو اسفيا فالقوم قدسكروا
ان يموك فلا بدع لجهاهم	تسبي الى الاسد في غاباتها الحمر
زاروا نمورا ولا تغني وقاحتهم	اذا أسودك في ابطالهم زاروا
خاف من حوطة البيت المقدس لا	خوف وحشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما	فما على مجده من بمدحها حذر
وسوف تستغفر الايام هفوتها	وتحصد القئة الاوغاد ما بذروا

وقد قسم السلطان سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده فشرعوا في انشاء سور جديد وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه فيتبعه الاكابر والامراء في نقل الصخور واهتم السلطان بذلك اهتماماً زائداً

﴿ بناء الصليبيين مدينة عسقلان وما جرى في أثناء ذلك وغضب بعضهم ﴾
عقد الصليبيون مجلس شوراهم الملكي فقرر مسيرهم الى عسقلان وتسمي أسوارها التي هدمها السلطان صلاح الدين وكان هذا على غير مرام المساكن الصليبيين

فغضب الدوك دي برغونيا وخرج هو وعساكره الفرنساوية من تحت سنجق الصليب فأرسل اليه ريكاردوس وفداً لمصالحته وارجاعه وفي ثالث محرم سنة ٥٨٨ هـ سار ريكاردوس بالمعسكر الصليبي الى عسقلان فشرعوا في بناء اسوارها وكان ريكاردوس يحثهم على ذلك ويطوف حولهم ثم ان بعض امراءهم شكوا من ذلك التعب وقانونا ما اتينا من بلادنا الى آسيا لنبتني المدن بل لتخليص القدس من أيدي المسلمين وكان الامير ليوبولدوس دي اوطريش هو وجيشه النمساوي متمتعاً عن الشغل وقال لريكاردوس اني لست حداداً ولا نجاراً ولا بناء ثم انه سحب عسكره وخرج عن معسكر الصليبيين بغضب وكذلك بعض الامراء قد أهملوا معسكر الصليبيين راجعين الى وراثهم أما ريكاردوس فلم يهتم لهم وداوم في بناء السور وفي اثناء ذلك نظر ريكاردوس من بعد دخاناً فقصدته وكان ذلك جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وهم لا يعلمون بما دهمهم فوصل اليهم ريكاردوس وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين فلما وقع على احدهما ركب الفريق الثاني وواقعه حتى ركب الفريق الاول فدافعهم وواقعه وساقوا قدامهم اطفالهم وخلصوا ناجين وسلم المسلمون من أعدائهم ولم يفسد منهم الا اربعة وكانت وقعة عظيمة دفع الله خطرهما وهول ضررها وفي حادي عشره كبس عن الدين جرديك تبنى على من نزل بها من الصليبيين فأوقع بهم البلاء وساق منهم اثني عشر أسيراً ومتاعاً كثيراً وأغار ايضاً على ظاهر عسقلان في ثاني صفر وجاء بثلاثين اسيراً وفي ليلة رابع عشر صفر كتبت سرية مقدمها فارس الدين ميمون القصري عند تبنى الى ان عبرت قوافل الفرنج فساقها باحمالها واثقالها ونسائها ورجالها

وفي عزم ريكاردوس على السفر الى بلاده وموت كونراد

صاحب صور وغيره

اجتمعت العساكر الصليبية في سهل عسقلان للاحتفال بعيد الفصح واذا بوفد قد اقبل من بلاد الانكليز قاصداً ملكهم ريكاردوس وأخبروه بان اخاه يوحنا خرب المملكة واستولى عليها فلما سمع هذا الخبر جمع اليه رؤساء العساكر وأعلمهم بما جرى وانه يرغب السفر الى بلاده فتكبدوا لذلك وشرعوا في انتخاب رئيس عليهم بدلا منه يكون ذا كفاءة فانتخبوا الامير كونراد صاحب

مدينة صور ذاك الرجل المشهور بالمكنر والدهاء وهو السبب في تجريد هــنـده الحروب الصليبية الثالثة وكان كونراد هذا مقبلاً بمدينة فارسوا اليه وقد أعلمونه بانتخابهم هذا ففرح بذلك أهل مدينة صور وعسكره وشرعوا في الاحتفال بعيد له وكان ذلك في ثالث عشر ربيع آخر سنة ٥٨٨ وكان رجالان من الاسماعيلية الحشاشين دخلاً مدينة صور قبل ذلك بمدة وتنصروا وأظهروا الترهيب والتعبد ولزما الكنيسة وشكرهما القسيسون والرهبان وأحببهما كونراد (وهو لا يعلم بأنهما سيكونان قاتليه) ولم يكن يصبر عنهما ففي اليوم المذكور الذي هو أعظم الايام يوم ورود الخبر بانتخابه رئيساً على جميع العساكر الصليبية وثب عليه الاسماعيليان وجرحاه جراحاً بليغة واختفى احدهما بكنيسة فاتفق ان كونراد حمل اليها لتسد فيها جراحاته فوثب عليه الاسماعيلي ثانياً واجهز عليه فقبضوا عليهما وسألوهما عن اسباب ذلك فقالوا ان الذي أغرانا هو ريكاردوس (ولكن مؤرخي الصليبيين قد برأوا ريكاردوس من ذلك وبعض مؤرخي العرب قال ان السلطان صلاح الدين أرسل الى سنان رئيس الاسماعيلية يقول له أرسل من يقتل ريكاردوس او كونراد ولما علم سنان بان قتل ريكاردوس صعب أرسل هذين الرجلين الى صور وجرى ما تقدم) ثم بعد قتل كونراد المذكور تزوج أرملة هنري دي شمبانيا وعمه ملك فرنسا فيليبس وخاله ملك الانكليز ريكاردوس فأقيم ما كان على صور ثم ان خاله ريكاردوس لتصميمه على السفر تنازل له عن البلاد التي امتلكها فسار هنري الى عكا فقابلوه باحتفال لائق بملك لهم . وفي اثناء ذلك قدم من بلاد الانكليز وفد آخر جدد قفاق ريكاردوس وانزعاجه بما أخبروه عن بلبلة مملكته من أعمال اخيه يوحنا وبان الملك فيليبس ملك فرنسا قد هدد أمانة نورماندية

﴿ في تقرب الصليبيين الى القدس ورجوعهم عنه بقرار مجلس مشورتهم ﴾

وما فعله السلطان

لما اتت الوفود من بلاد الانكليز الى ريكاردوس وعزم على السفر وولى ابن أخته على بلاد فلسطين اراد ان يظهر اثرأ من شجاعته أمام الصليبيين لتكون تذكراً له فجمع عسكره بمجهة الرملة وفي تاسع جمادي الاولى سنة ٥٨٨ سار الى قلعة الداروم فاستولى عليها وخربها وكان السلطان صلاح الدين لدخول فصل الشتاء قد أمر باعادة العساكر الى بلادها (وهو مقيم بالقدس الشريف) ليستريحوا ولم

يبقى إلا بعض العساكر المصرية معه فلما علم بذلك ريكاردوس فرح وظن أنها فرصة مناسبة له وأراد اغتنامها فسار بالعساكر الصليبية حتى بلغوا بيت نوبة وبينها وبين القدس عشرون ميلاً وقد ألهمهم المسلمون بنهبهم وأضعفوههم بسلبهم يتسلطون عليهم من كل ناحية ويكمنون لهم تحت كل رابية وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس وفي آخر شهره وصل ريكاردوس إلى قلونية وهي على فرسخين من القدس فلما سمع السلطان صلاح الدين بقرهم فرق أبراج البلد على الأمراء واستعد للقتال فلما وصلت الصليبيون إلى قلونية صب المسلمون عليهم البلاء وتابعوا إرسال السرايا فبلى الصليبيون بما لا قبل لهم به فأمر ريكاردوس بمقد مجلس مشورتهم مؤلفاً من خمسة أعضاء من جمعية الهيكلين (الداوية) ومن خمسة أمراء فرنساويين ومن خمسة أمراء من أهل سوريا فدام انعقاد هذا المجلس جملة أيام وكان الأعضاء الفرنسيون قد طلبوا حصار القدس عاجلاً لعلمهم بأن العساكر الإسلامية في أجازتها وباقي الأعضاء قرروا بأن هذه الأشاعات غير حقيقية وإنما فقط حيلة وشارك وأنه لا يجوز حصار هذه المدينة لأنها الآن في غاية القوة خصوصاً لوجود السلطان بها وبعد مناقشات قرروا بأغلبية الآراء بعدم حصار هذه المدينة المقدسة والرجوع عنها والتوجه إلى الديار المصرية ومحاصرة مدينة القاهرة (فانظر قرار مجلس مشورة الصليبيين الثالثة وكيف أنها خرجت من بلادها بقصد تخليص القدس من المسلمين والآن قرروا بعدم حصاره ومحاصرة القاهرة كأن القاهرة هي بيت المقدس الذي فيه قبر المسيح عى دعواهم) مع أن هذا القرار جاء كما قال مؤرخوهم مذهلاً مبللاً وكان السلطان صلاح الدين أحضر عنده جميع الأمراء وفي مقدمتهم الأمير أبي الهيجاء السمين والمشطوب والأسدية بأسرهم فقام فيهم القاضي ابن شداد خطيباً يحثهم على الجهاد ومما قاله أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة على الموت في لقاء العدو ونحن أولى من تأسى به والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد أن سكنت زماناً وهو يفكر والناس سكوت كان على رؤوسهم الطير ثم قال الحمد لله والصلاة على رسول الله أعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذمكم وإن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لو يتم اعتككم والعياذ بالله طوي البلاد كطي السجل لاكتتاب وكان

ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصدتم لهذا كله وأكلتم مال بيت مال المسلمين فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يا مولانا نحن ممالكك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطينتنا وأغنيتنا وليس لنا إلا رقابتنا وهي بين يديك والله ما يرجع احد منا عن نصرتك الى ان يموت وقال الجماعة مثل ما قال فانسلطت نفس السلطان وانصرف من المجلس ثم اجتمع جماعة الممالك عند ابي الهيجاء السمين وأنكروا موافقة الامراء للسلطان على حصار القدس وقالوا انهم يخافون ان يحصروا بالقدس ويجري عليهم ما جرى على اهل عكا وحينئذ تؤخذ بلاد الاسلام وطلبوا ان يعمل مصاف فاما ان يكون النصر للمسلمين فيستولوا على باقي بلاد فلسطين واما ان يكون النصر للصليبيين فيأخذوا القدس واذا كان لا بد من الحصار فيكون بعض اقارب السلطان معنا أو هو معنا لان الاتراك لا يدينون للاكراد والاكراد لا يدينون للاتراك وكان ذلك في يوم الخميس وفي يوم الجمعة صلى السلطان صلاة الجمعة وصار يتضرع الى الله سبحانه وتعالى وهو ساجد ودموعه تتقاطر على مصلاه ويطلب من الله النصر ويقول اللهم انصر دينك واحم بيتك المقدس واحفظ عبادك المسلمين انك سميع مجيب وفي صباح يوم السبت وصل مكتوب من عز الدين جرديك في اليزك يفيد بان الصليبيين قد رجعوا جميعهم بعد قرار مجلس مشورتهم كما تقدم وكفى الله المؤمنين القتال

وكان ريكاردوس قد استعمل جواسيس من اهل سوريا ليأتوه باخبار المسلمين وكان قادماً بعض عسكر من مصر ومعهم قوافل للتجار فاقاموا بنابلس أياماً حتى اجتمعوا فأتى الجواسيس الى ريكاردوس وأعلموه بذلك فامر عسكره بالانحياز الى سفح الجبل وركب في الف فارس والف راجل فأتى تل الصافية فبات ثم سار حتى أتى موضعاً يقال له الحسي فانفذ السلطان الى هذا الركب يملحه بنهوض الصليبيين نحوهم وأمرهم ان يبعدوا في البرية فركب ريكاردوس بصفة بدوي (اعصابي) مع بعض جواسيسه وسار حتى أتى الركب وطاف حوله بالصفة المذكورة ورآهم ساكنين قد غشيم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبة قريبة الصباح فبغت الناس ووقع عليهم بحيله ورجله وداهمهم وكان الشجاع منهم الذي يركب فرسه وينجس وانقسم الركب ثلاثة أقسام قسم قصد الكرك مع جماعة من العرب وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب أيضاً وقسم استولى العدو عليه فساقهم بجماهم وأحاطهم

وجميع ما معهم وكانت واقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلمها من مدة مديدة وتبدد الناس في البرية وتركوا متاعهم وجمع ريكاردوس كثيراً من الحيل والبغال والاقشة وغيره وسار بالجميع الى معسكره فوصله في السادس عشر من جمادى الآخرة وكان يوماً عظيماً عندهم

﴿ استيلاء السلطان على يافا ومحاربة ريكاردوس ﴾

وباغ السلطان في العاشر من شهر رجب سنة ٥٨٨ هـ بان الصليبيين قد خرجوا من عكا قاصدين بيروت فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الحبيب وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل السلطان من الحبيب الى بيت نوبة . ثم رحل الى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة واللد وركب جريدة حتى اتى يازور وبيت حن وأشرف على يافا ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره فجعل في الميمنة ولده الظاهر وفي الميسرة أخاه العادل وركب عليها المنجنقات وزحف عليها فارسل من بها يطلبون الصالح فاجابهم على قاعدة القدس وقطيعته فرضوا بذلك وطلبوا الانتظار الى يوم السبت التاسع عشر من رجب اما ان تهيئهم نجدة والا تكون القاعدة على ما استقر فأبى السلطان وأمر بالنقب فحشي وأحرق فوق بعض السور فعلا الغبار مع الدخان فأظلم الأفق وما تجاسر أحد على الدخول خوفاً من اقتحام النار فاما انكشف الغبار ظهر وقوف الصليبيين بأسلحتهم في الموضع المهذوم وجد السلطان في القتل ورمي المنجنقات فارسلوا يطلبون الصالح فقال لهم على قطيعة القدس فسألوا السلطان أبطال القتال الى ان يأتي من داخل المدينة بقرار الصالح فقال السلطان ما أقدر على منع المسلمين من هذا الامر وقاتل المسلمون قتالاً شديداً وأخذوا البلد عنوة ودخلوها ونهبوا من الاقشة العظيمة والغلال شيئاً كثيراً وبقيت من منهبات القافلة المصرية وبعد دخول المسلمين استقرت القاعدة على ما قرره السلطان وكان قائماز النجمي في طرف الغور لحماية من عسكر الصليبيين الذي بعكا فوصل منه كتاب بان ريكاردوس عدل عن قصد بيروت لما سمع باخبار يافا وقد جمع عسكره في المراكب وعزم على قصد يافا فاشتد عزم السلطان على تمة الامر وتسلم القلعة لانه لم يستول بعد عليها فطلبوا منهم الخروج من القلعة حسب الاتفاق فخرج البعض والباقي رأى مراكب الصليبيين قادمة فعلموا بانها نجدة لهم فشقوا عصا الخنازة فأبطأ ريكاردوس بنزوله الى البر فخاف من بالقلعة وأرسلوا بطرهم وغيره في طلب الصالح كما كان ويعتذر عنهم وكان ريكاردوس لما وصل الى مينا يافا

وجدها مملوئة بعساكر الاسلام وكذلك المدينة مرفوعاً عليها اعلام المسلمين
فعلم بان المسلمين قد استولوا عليها لاحالة فتأخر عن النزول الى البر ثم بلغه انه لم يزل
البعض بالقلعة فنزل من المراكب هو وعسكره وحمل على المسلمين فلما رأى السلطان
ذلك قبض على الرسل وأمر بتأخير الاثقال والاسواق الى يازور فرحل العسكر
وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من يافا واقام ريكاردوس في موضع السلطان
الذي كان فيه لمضايقة البلد وأمر ريكاردوس من في القلعة ان يخرجوا اليه لتعظيم
سواده وبلغ السلطان بان ريكاردوس مخيم بظاهر يافا بألفي رجل من عسكره فراد
كبسه فصار مجريدة ولما تقدم بمن معه لمحاربتهم وصار يحث العساكر على الشبات قال
له الجناح أحد الامراء وهو أخو المشطوب قل لعلمانك الذين ضربوا الناس يوم
فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون وكان أيضاً في قلوب العساكر الاسلامية غيظ
من حصول الصالح بعد دخول يافا لان السلطان كان منعهم عن أخذ الغنيمة فلما
رأى السلطان ذلك اصرض عن القتال وسار الى يازور وحصلت مناوشات بين
العساكر الاسلامية والصليبية أظهر فيها ريكاردوس من الشجاعة ما لم يره أحد فانه
استل سيفه وقال لعن الله من لم يتبعني وهجم على المسلمين هجمات شديدة بنفسه
بدون مساعدة وحمل من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد وصار
في وسط العساكر الاسلامية وقد ظنه عسكره انه قتل أو اسر ثم وصل اليهم سالماً
وقد مدحهم مؤرخوهم مدحاً فائقاً حتى أنهم فضلو شجاعته على شجاعة الاسكندر الكبير وعن
اعمال يهوذا المكابي ورولان وغيرهم

﴿ في مرض ريكاردوس والمدينة بينه وبين السلطان ﴾

في أوائل شعبان سنة ٥٨٨ هـ حصل لريكاردوس مرض فصار يرسل رساله الى
السلطان في طلب الفاكهة والشاي والسلطان يرسل له كلما يشتهي وأرسل اليه طبيباً
يعالجه وقد أكثر ريكاردوس في طلب الكمثرى والخوخ والسلطان يمدد بذلك بقصد
كشف الأخبار عن العدو بتواتر الرسل ثم جاء رسول من ريكاردوس مع الحاجب
أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والشاي وقال أبو بكر ان ريكاردوس
انفرد به وقال له قل لآخي (يعني الملك العادل) يتبصر كيف نتوصل الى السلطان
في طلب الصالح وتستوهب لنا منه عسقلان وأسافر الى بلادي ويبقى هو هاهنا بهذه
الشرذمة ويأخذ البلاد منهم فليس غرضي الاقامة جاهي بين ملوك أوروبا وان لم
ينزل السلطان عن عسقلان فتأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها

فارس السلطان الى الملك العادل بأنه اذا تنازل ريكاردوس عن عسقلان فصالحه لان
العساكر قد ضجرت من ملازمة السكار والنفقات قد نفذت ثم ان ريكاردوس تنازل
عن عسقلان وعن الموض عنها واستوثق منه على ذلك فعقد السلطان ديوانه يوم
السبت ثامن عشر شعبان لاجل تحرير شروط الصلح وتحديد البلاد التي تكون بيد
الصلبيين فذكر يافا وأعمالها وأخرج منها الرملة واللد ومجدل بابا وذكر قيسارية
وأعمالها وارسوف وأعمالها وحيفا وأعمالها وعكا وأعمالها وأخرج منها الناصرة
وصفورية وأثبت ذلك في الورقة وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تبقى في
أيديكم فان صالحتم على ذلك فبارك وقد اعطيتمكم يدي فينفذ ملككم من يحلف في
بكرة غد والاّ نعم ان هذه مماثلة وكان من القاعدة ان تكون عسقلان خرابا وان
يتفق المسلمون والصلبيون على خرابها واشترط دخول بلاد الاسماعيلية في يد
المسلمين وتكون انطاكية وطرابلس في الصلح وان تكون الرملة واللد بينهما مناصفة
وان جميع المسيحيين يزورون القدس بالراحة بدون ممانعة واستقرت القاعدة على
انهم يحلفون يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهره ورضي بذلك رجال الجمعيات
الرهبانية (جمعية الهيكلين وجمعية القديس يوحنا المعمدان) وسائر أمراء الصليبيين
مخلف هنري دي شامبانيا ابن اخت ريكاردوس وهو المتولي على بلاد سوريا وجماعة
من أمراءهم للسلطان على الصلح وأخذوا يده وحلف لهم الملك العادل والافضل
والظاهر وغيرهم وجميع أصحاب البلاد المجاورة لبلادهم وعقدت الهدنة العامة في
البر والبحر والسهل والوعر لمدة ثلاث سنوات وثمانية اشهر ابتداء من الحادي
والعشرين من شعبان الموافق اول سبتمبر

﴿ انتهاء الحروب الصليبية الثالثة ﴾

بعد انتهاء شروط الصلح المذكورة بين السلطان صلاح الدين وريكاردوس ملك
الانكلز ورئيس العساكر الصليبية الثالثة امر السلطان صلاح الدين ان ينادى في
الوظائف والاسواق والمدن ان الصلح قد تم فن شاء من المسلمين الدخول في بلاد
النصارى فليدخل ومن دخل من النصارى في بلاد المسلمين فلا احد يمنعهم ثم
أرسل مائة نقاب ومعهم امير لاجل الاشتغال في هدم سور عسقلان الذي بناه الصليبيون
كما هو مذکور في شروط الصلح وخروج من بها من الصليبيين وقد اقام مع
النقابين بعض الصليبيين لاتمام هدم السور وكان ذلك اليوم الذي تم فيه الصلح
يوماً مشهوداً بين الطرفين ثم ان جميع العساكر الصليبية طلبوا زيارة القدس الشريف

قبل سفرهم فسارت العساكر الفرنسية بقيادة دوك دي بورغونيا وبعد الزيارة توفي القائد المذكور وسافرت العساكر الى بلادها ثم تبعهم العساكر النمساوية وغيرها لاجل الزيارة وكان السلطان صلاح الدين يرسل معهم الحفراء الى ان يتموازيارتهم ويعودوا ولما وجد ريكاردوس كثرة الزوار من الصليبيين أرسل الى السلطان صلاح الدين لكي يمنع كل من أراد الزيارة ما لم يكن معه تصريح من ريكاردوس ولكن السلطان لما وجد الامراء والقواد قدموا اليه بقصد الزيارة أبي ردهم بل شرع في اكرام كل من يرد منهم وامدادهم بالطعام ومباسطهم ومخادتهم وعرفهم أمر ملكهم وانه لم يلتفت اليه وارسل الى ريكاردوس يعتذر له ويقول ان اقواماً وردوا علينا لاجل الزيارة فلا يمكن ان استحل منهم وقد مدح السلطان مؤرخوهم ثم أمر السلطان جميع العساكر الاسلامية بالانصراف الى بلادها .

﴿ سفر ريكاردوس ووقوعه في الاسر ببلاد النمسا ﴾

وفي ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨ هـ سافر ريكاردوس من عكا بعساكره في المراكب قاصداً بلاده وعند وصوله الى سواحل ايطاليا حصلت انواء عظيمة ففرق بعض مراكبه وكسر الباقي ثم ان هذا الملك أبي ان يسافر الى بلاده عن طريق البر ماراً ببلاد فرانسا (لكدره من الملك فيلبس لتهمة بلاده في غيابه ولم يعلم ما قدر له) وأراد السفر عن طريق بلاد النمسا فسار وحده متكبراً بصفة أحد زوار القدس والتزم ان يمر في مقاطعة الدوك ليوبولدوس دي اوطريش وكان هذا الدوك قد تكدر من ريكاردوس حالما رفع علمه على أحد أبراج عكا ورماه ريكاردوس في الحندق وكان اسرها في نفسه ففي أثناء مسير ريكاردوس ببلاد وعلمه بذلك ارسل جنوده يفتشون على ريكاردوس ويقبضون عليه حينما وجدوه فلما عثروا به قبضوا عليه واحضروه بين يدي الدوك المذكور المملوء عداوة وغيظاً قامر بسجنه في حبس مظلم تحت الارض (وهكذا تم لريكاردوس الشجاع الذي لم يقدر احد ان يأمره في الحرب أسير في السلم وحبس تحت الارض في حبس مظلم بعد عزه) واقام محبوساً بدون ان يعلم احد به بقلعة تبيروس وأما زوجته برنجاريا فكانت في سفينة أخرى لم يتغلب النوء عليها فنزلت البرسانة ووصلت رومية آمنة فسمعت بما أصاب سفينة زوجها ولكنها لم تتحقق ذلك حتى رأت منطقتة الذهبية تباع في السوق فلبثت تتوقع خبره

﴿ في التفتيش على ريكاردوس ووجوده في السجن ونقله الى سجن آخر ﴾

وبعد ذلك صار عظماء الانكليز يرسلون الى جميع ممالك اوروبا للبحث على ريكاردوس فما وجدوه وكان يوجد شخص اسمه بلونديل احد خاصة ريكاردوس وكان يحبه ويرتاح الى مجالسته وكان في جملة اهل سفينته عند غرقها ونجا معه ثم انفصل عنه في بعض المزدحمات ولم يعد يعرف مكانه حتى سمع بالقبض عليه وسجنه ولكنه لم يعرف اسم السجن فأخذ يفتش السجنون متسكراً فلم يقف له على خبر فوصل يوماً الى قلعة تينبروس وقد اعياه التعب (وهو بصفة شاعر بيده عود يضرب عليه ويغني) واستولى عليه اليأس فأسند كتفه الى سورها وغنى أبياتاً كان قد نظمها هو وريكاردوس معاً فلم يكذباً بها حتى سمع تكلمتها من داخل القلعة فعلم ان ريكاردوس هناك فاسرع الى والدته الملكة الينورا وجميع ارباب الحكم في بلاد الانكليز ولما شاعت هذه القضية خاف ليوبولدوس دوك دي اوپريش من دوام حبس ريكاردوس فاسرع في ارساله تحت الحفظ الى الملك هنري السادس ملك النمسا وكان هذا الملك أيضاً عنده عداوة لريكاردوس وحسد على شجاعته فكان يترقب الفرصة للانتقام منه فلما وصلت عساكر ليوبولدوس اليه ومعههم ريكاردوس أمر بقيده بسلاسل حديدية

﴿ محاكمة ريكاردوس ظلماً واطلاقه من الاسر ﴾

لما وصل ريكاردوس الى هنري السادس وقيده بالسلاسل الحديدية أرسله الى ديوان عظماء المملكة المنعقد وقتئذ في مدينة فورمس فهناك قد صورت البغضاء والحسد لريكاردوس جملة تهم اختلقوها وطلبوا الجواب منه عنها ولكن هذا الشجاع الباسل صاحب القلب القوي لم ترعجه سطوتهم ولا مدة سجنه ولا قيده بالسلاسل الحديدية فاجاب عن كل تهمة بما يفيد براءته ببراهين قوية دامغة فلما ظهرت براءته بكى أكثر رجال الديوان على ظلمه وخرج القضاة أيضاً بعد معرفتهم اختلاق هذه التهم وأما الملك فلم يتنازل عن بغضه وحسده فامر بسجنه دائماً وأما عظماء الانكليز فكانوا دائماً مجتهدين في خلاص ملكهم بأي طريقه لانهم كانوا يحبونه حباً شديداً فتارة بالخبايا مع الملك هنري المذكور والتوسل اليه وتارة بتوسط الملوك والامراء وقد ذهب تعبههم سدى حتى التزموا بتوسيط البابا لئلا يله من الرئاسة الدينية فلم تنجح وساطته وأخيراً أفضدوا اثنين من رؤساء ديور جرمانيا ليفتدياه

من ملك النمسا بمئة وخمسين الف مارك فضة وبما ان خزنة الانكليز عجزت عن دفع هذا المبلغ التزمت الملكة اليونورا والدة ريكاردوس بان تنكسر جميع الاواني الذهبية والفضية التي في قصرها الملوكي وأخذت أيضاً بعض أواني مقدسة من الكنائس وضربت الجميع مسكوكات لاجل اتمام دفع المبلغ المذكور الى هنري ثم أطلق سراحه فسار الى بلاده مخفوفاً بالجلّة والاكرام وفيما هو في نورمنديا جاءه أخوه جون نادماً وجثاً أمامه باكياً مستغفراً فعفا عنه ولما وصل انكلترا قوبل بالاحتفال اللائق .

﴿ سفر السلطان الى دمشق بعد الهدنة وعزمه على الحج ﴾

بعد الهدنة سار السلطان الى القدس وأمر باحكام سوره وأنشأ به مدرسة ورباطاً وبمارستاناً وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها أوقافاً وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج والاحرام منه وكتب الى مصر واليمن بما صرم عليه وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج اليه من الزاد والثفقات فأرسل القاضي الفاضل الى السلطان يمنعه عن السفر وكذلك الاصراء قالوا له لا يصح ان تسافر الى الحج وتترك هذه البلاد على ما بها من الشغب وهذه المعاول التي في الشنور فان حفظها من أهم الامور ولا تغتر بعقد الهدنة فان القوم على ترقب ودأبهم الغدر وما زالوا به حتى عدل عن هذا العزم وأقام بالقدس الى ان سافر ريكاردوس الى بلاد في أول شوال سنة ٥٨٨ هـ فبعد ذلك عزم السلطان على دخول الساحل جريدة لتفقد القلاع والحصون وأن يدخل دمشق ويقيم بها أياماً قلائل ويعود الى القدس سائراً الى الديار المصرية لتفقد أحوالها والنظر في مصالحها وأقام على القدس عن الدين جرديك وسار منها في يوم الخميس خامس شوال وجاوز ناحية البيرة ونزل بظاهر نابلس وكان بها سيف الدين المشطوب وقد ظلم أهلها جملة مظالم فشكا أهلها الى السلطان فأمر بإزالة ما يشكون منه ثم سار الى بيسان وصعد الى قلعتها المهجورة ونظر قلعتها العالية وقال الصواب بناء هذه وتخريب كوكب ثم سار منها الى كوكب نزل بطبرية وهناك حضر بين يديه الامير بهاء الدين قراقوش وكان قد أطلق من أسره بعكا فتلقاه السلطان بالسرور والفرح وسار في خدمة السلطان الى دمشق حتى أطلقوا باقي أصحابه المصريين فأخذهم وسار الى مصر ثم سار السلطان الى قلعة صفد ومنها الى قلعة تبسين وجاز على هونين ثم سار الى مرج عيون وجسر حامد الى ان وصل بيروت فحضر البرانس بوهيموند صاحب

انطاكية بين يدي السلطان وخدمه فأكرمه السلطان وأنعم عليه وعلى رؤساء
عسكره ثم سار السلطان الى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها
والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها وشحنها بالرجال فدخل دمشق بكرة يوم
الاربعاء السادس والعشرين من شوال فخرج أهلها جميعاً صغيراً وكبيراً نساء
ورجالاً للملاقاة وعملوا له زينة عظيمة وأقام بها ومعه الافضل والظاهر والظافر
وأولاده الصغار .

﴿ مرض السلطان صلاح الدين ووفاته ﴾

كان السلطان يحب مدينة دمشق ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد ولذلك أقام
بها مدة في رغد وسلام مع ان المنية على عجزها مهاجمة هذا الباسل في ساحة
الحرب لم تخف مهاجمته على فراشه وبين أولاده وأخواته ففي يوم الجمعة ١٥ صفر
سنة ٥٨٩ ركب السلطان للملاقاة الحج فعاد الى منزله كسلاً ثم غشيتة حتى صفاوية
ثم أصبح في اليوم التالي أكثر كسلاً وضعفاً وما زال المرض يتزايد يوماً فيوماً
الى اليوم التاسع من مرضه حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتد
الارجاف في البلد وغشي الناس من الكآبة مالا يمكن حكايته وكان القاضي ابن
شداد والقاضي الفاضل يقيمان عنده الى ان يمضي من الليل ثلثه ثم ينصرفان
فكان الناس يترقبون خروجهما لكي يقرأوا أحواله من صفحات وجوههما
وفي اليوم العاشر من مرضه حقن دفتين فحصل له راحة وبعض الحفة وتناول شيئاً
من ماء الشعير وفرح الناس فرحاً شديداً ثم زاد به المرض حتى صار لا يقدر على التكلم
ولما رأى الملك الافضل ما حل بوالده وتحقق اليأس منه شرع في تحليف الناس
فجاس واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطان مدة
حياته وبعد وفاته للملك الافضل واعتذر للناس بان المرض قد اشتد وانه يفعل هذا
احتياطاً على جاري عادة الملوك فخلف جماعة من الاكابر ولم يحضر أحد من
الامراء المصريين وفي الليلة الثانية عشرة من مرضه وهي ليلة الاربعاء ٢٧ صفر
اشتد مرضه وضعفت قوته وبات بجانبه الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة يقرأ القرآن
ويدّكره بالله تعالى وكان ذهنه غائباً وذكر الشيخ أبو جعفر انه لما انتهى الى قوله
تعالى : هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة : سمعه وهو يقول صحيح
وهذه لفظة في وقت الحاجة ولما بلغ الى قوله تعالى : لا اله الا هو عليه توكلت :
تبسم وتهال وجهه وسامت روحه الى ربه بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧

صفر وكان يوم وفاته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الحلفاء الراشدون رضي الله عنهم وغشى الملك والدينا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وكان سنه عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٦ سنة في مصر وسوريا فحضر الجميع وشيخوا جنازته ودفنوه في الدار التي كان متمرصاً فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص وقام بالعزاء ولده الافضل ويقول بعض المؤرخين ان السلطان صلاح الدين لم يترك في خزنته الخصوصية الا ديناراً واحداً و ٤٧ درهماً من الفضة ولم يجدوا في جميع صناديقه ائراً للذهب او لغيره من الحجاره الكريمة وذلك مما يدل على فرط كرمه لانه اصاب اموالا كثيرة جاد بها جميعها وكان حليماً حسن الاخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب اصحابه يسمع من احدهم ما يكره ويتغافل عنه ولا يعاذه بذلك وقد رثاه العماد بقصيدة ماثان اثنان وثلاثون بيتاً منها

شمل الهدى والملك عم شتاته	والدهر ساءت واقلمت حسناته
أين الذي منذ لم يزل مخشية	مرجوة رهباته وهباته
اين الذي كانت له طاعاتنا	مبسذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي	لله خالصة صفت نيته
أين الذي ما زال سلطاننا لنا	يرجى نداء وتبقى سطواته
اين الذي عنت الفرنج لبأسه	ذلا ومنها ادركت ناراته
اغلال اعناق العدا اسيافه	اطواق أحياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطيب وكم وكم	اجدت لطب الدهر تدبيراته
من في صدور الكفر صدر قناته	حتى تواترت بالصياح قناته
في نصرة الاسلام يسهر دائماً	ليطول في روض الجنان سباته
لا تحسبوه مات شخص واحد	فمات كل العالمين مماته

﴿ تقسيم مملكة صلاح الدين على اولاده وما جرى في أثناء المهدنة ﴾

ترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكوراً واثني واحدة وهي مؤنسة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل واقتسم كل من اولاده واخوته واولادهم مملكته فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية فان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة وتم

كل ذلك بموافقة الأمراء . فتلقب أول اولاده المدعو نور الدين بالملك الأفضل وكان من نصيبه مملكة دمشق والشحوط البحرية واورشليم (القدس) والبصرة وبنياس وسوريا الغربية . ولقب ابو الفتح الغازي بالملك الظاهر غياث الدين فاخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل بامر وعيراز والمنبج ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر بجميع أعمالها . ومن هؤلاء الأمراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الأيوبية الحلبية والدمشقية والمصرية أما من بقي من تلك العائلة فكانوا ولاية على بلاد اقطعهم اياها صلاح الدين قبل وفاته الا أنهم كانوا تحت سلطة هؤلاء الثلاثة فسيب الدين ابو بكر بن ايوب وأخو صلاح الدين الملقب بالملك العادل كان حاكماً في الكرك والشوبك وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احد اخوى صلاح الدين كان أميراً على حماة والسلامية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الامجد حفيد شاهين شاه ايضاً كان ملقباً بملك الرها وشمس الدولة طوران شاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن بامر أخيه سنة ٥٦٩ هـ كان قد اقام فيها مملكة وكان اخوه توغتن حاكماً فيها تحت اسم الملك المعز . وفي سنة ٥٩٠ هـ سار الملك العزيز صاحب مصر بعساكره وحاصر مدينة دمشق وكان بها الأفضل فارسل الى عمه الملك العادل يستنجد به فجاء وجاءه ايضاً أخوه الملك الظاهر صاحب حلب وجميع الأمراء الأيوبية واجتمعوا بدمشق فعلم العزيز بأنه لا قدرة له على اخذها فترددت الرسل بينهم على الصلح فاستقرت القاعدة على ان يكون البيت المقدس وما جاوره من اعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها للأفضل ويعطي الأفضل اخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية وان يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد منهم الى بلده وفي سنة ٥٩١ هـ سافر الى دمشق ثانياً بقصد محاصرتها واستيلائها عليها وكان ذلك باغراء بعض ممالك ابيه المعروفين بالصلاحية مثل نجر الدين جركس وسراسنقر وغيرهم فسار الأفضل من دمشق واستنجد بعمه الملك العادل وباخيه الملك الظاهر فسبقه الملك العادل ودخل دمشق لثقتهم به ثم ان بعض الأمراء الاسدية الذين بقيادة العزيز راسلوا الأفضل والعادل بطلب انحيازهم لهما فقبلاهم واتفقا بان الأفضل والعادل يأخذان دمشق فعلم بذلك العزيز فخاف على مملكته فرجع الى القاهرة ليحفظها وسار كل من الأفضل والعادل الى ان وصلا بليس فخاف العادل من الأفضل انه اذا أخذ مصر لا يعطيه دمشق فأرسل الى العزيز برسالة القاضي

الفاضل ليتوسط في الصالح فاستقر الامر بان يكون للافضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والاردن وجميع ما بيده ويكون للمادل اقطاعه القديمة ويكون مقبياً بمصر عند العزيز فنهضوا وعاد الافضل الى دمشق وبقي العادل بمصر مع العزيز

{ استيلاء الملك العادل على دمشق } *

لما أقام العادل بمصر رأى ان حصته قليلة ومنصبه حقير بالنسبة لاولاد أخيه فنواطأ مع الملك العزيز على خلع الافضل عن دمشق وتولية الملك العادل عليها فساراً معاً من مصر الى دمشق وحصرها واستمالا أحد أمراء الافضل واسمه العزيز ابن أبي غالب الحمصي وكان الافضل كثير الاحسان اليه والوثوق به فسلمه الباب الشرقي ليحفظه فوعده العزيز والعادل بفتحهم له في اليوم السابع والعشرين من رجب سنة ٥٩٢ هـ فدخل منه الملك العادل وبعض رجاله ولما علم الافضل ان عمه معه بدمشق أيقن ان البلد قد ملكت منه فخرج الى أخيه العزيز وتجادا ثم دخلا معاً واجتمعا بعمهما ثم استقل الملك العادل بدمشق وعاد العزيز الى مصر وسار الافضل الى بغداد فالتجأ الى الخليفة الناصر لدين الله وكانا كلاهما شاعرين ما جدين فكاتب الافضل الى الامام الناصر

مولاي ان أبا بكر وصاحبه
وهو الذي كان قد ولاد والده
نخالفاه وحالا عقد بيعة
فاجابه الامام الناصر بقوله

وافي كتابك يا ابن يوسف مائناً
غصباً عالياً حقه اذ لم يكن
فأبشر فان غدا عليه حسابهم

{ ابتداء الحروب الصليبية الرابعة } *

(تحريض البابا وسفر العساكر الصليبية الرابعة)

لما توفي السلطان صلاح الدين كان البابا على رومية سيليسستينوس الثالث فرأى تقسيم مملكة صلاح الدين على أولاده وعائلته فاعتزم هذه الفرصة وأرسل منشوراً الى ملوك اوربا يقول لهم فيه (بان السلطان صلاح الدين قد توفي ومملكته تقسمت على أولاده وعائلته وكل منهم قد استقل بنفسه وأخذ يطلب منهم الاتحاد والخروج

لتجريد حملة صليبية رابعة والاستيلاء على القدس قبر الخائن لعدم وجود من يحميه من المسلمين) ولما وصل هذا المنشور الى الملوك لم يلتفتوا اليه لان الملك ريكاردوس ملك الانكليز بعد اطلاقه من الاسر لم ير الاهتمام الا بصالح مملكته والاستعداد لمحاربة ملك فرانسوا وكذلك الملك فيليبس ملك فرانسافانه كان خائفاً على مملكته من ريكاردوس فكان هذان الملكان واقفاً أحدهما للآخر بالمصاد ولذلك لم يهتما بمنشور البابا أما الملك هنريكوس السادس ملك النمسا فانه كان قد حرمه البابا من يوم أسر ريكاردوس ولكن لما وجد البابا عدم التفات ملوك فرنسا وانكلترا أرسل وفداً الى ملك النمسا المذكور يطلب اليه الاستعداد للزحف الى بلاد فلسطين وأخذ القدس من المسلمين مذكراً اياه بمسائل والده فريدريكوس الاول فقبل الملك هنريكوس تجهيز الحروب الصليبية الرابعة وفي جمعية عظماء المملكة المنعقدة في مدينة فورمس أعلن بالحروب المذكورة وطلب من القواد والامراء المساعدة فقبل ذلك عدد عظيم من النمساويين والالمانيين والجرمانيين وجميع البلاد الخاضعة لهذا الملك وكل منهم استلم صليباً واستعد للسفر الى فلسطين ولما كان هنريكوس دأبه الطمع والجشع وحب المجد الباطل وكان طامعاً في الاستيلاء على جزيرة سيسيليا فرح بهذا الاستعداد لينال مرغوبه بهذه الوسيلة . ولما استعد كل الصليبيين للسفر انقسم جيشهم ثلاثة أقسام وسار كل قسم من طريق مخصوص فالقسم الاول كان برئاسة الدوك دي ساكس والدوك دي برابنت وسافر بجرأ من مين البحر البلطكي والقسم الثاني كان برئاسة الكونت دي لامبورك رئيس أساقفة ماينس فاجتاز نهر الطونه وسار نحو مدينة القسطنطينية والقسم الثالث كان برئاسة الملك هنريكوس فسافر الى بلاد نابولي لكي يصلي الحرب التي كان عازماً عليها ضد جزيرة سيسيليا .

﴿ وصول الصليبيين الى عكا واستيلاء المسلمين على يافا ﴾

﴿ واخذ الصليبيين بيروت ﴾

لما وصلت العساكر الصليبية الرابعة الى عكا عزمت على محاربة المسلمين وكان هنريكوس كونت دي شمبانيا المتولي على بلاد الصليبيين بفلسطين قد عقد هدنة مع الملك العزيز صاحب مصر زاد فيها مدة الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وريكاردوس فاخذ يقنعهم بالعودة عن الحرب حتى انتهاء الهدنة فابوا ذلك وخرجوا من

عكاغاضيين يقصدون بلاد المسلمين فلما علم بذلك الملك العادل وكان بدمشق أرسل إلى الملك العزيز بمصر يطلب إرسال العساكر وأرسل كذلك يطلب العساكر من البلاد الشرقية فجاءه الأمراء واجتمعوا على عين جالوت في شهر رمضان سنة ٥٩٣ هـ وبعض شوال ثم سار الملك العادل بجميع العساكر الإسلامية قاصداً يافا وحاصرها وشدد في قناها فملكها وخرب البلد فاعتصم الصليبيون بقلعتها فحاصرها وضائقها وملكها عنوة وقهرأ بالسيف وذبح منهم ما ينوف عن عشرين ألف حسب تقرير مؤرخهم وكان هنريكوس كونت دي شمبانيا المذكور لم يزل بعكا وقد عزم على المسير بعساكر الصليبيين لأجل خلاص يافا فوقع من شباك بقصره فمات ثم بعد دفته ساروا جميع الصليبيين لنجدة يافا فبلغهم خبر استيلاء المسلمين عليها فعزموا على المسير نحو بيروت والاستيلاء عليها ولما بلغ ذلك إلى الملك العادل أرسل إليها بعض المسكر لأجل هدمها وتخريبها فشرعوا في هدم سور المدينة في سابع ذي الحجة فنهزم أسامة (والي المدينة) من ذلك وتكفل بحفظها وعاد عسكر المسلمين منها فالتقوا بالصليبيين بنواحي صيدا وجرى بينهم قتال شديد قتل فيه كثير من الفريقين وحجز بينهم الليل وسار الصليبيون في ٩ منه فوصلوا بيروت فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين فملكها الصليبيون صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة وكان بها من أسرى الأفرنج ما ينوف على تسعة آلاف فاطلقوهم فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقي منها لأن صلاح الدين كان قد خرب أكرها ثم سافرت العساكر الإسلامية إلى صور فقطعوا أشجارها وخربوا ما لها من قرى وأبراج فلما سمع الصليبيون بذلك رحلوا من بيروت إلى صور وأقاموا بها ونزل المسلمون عند قلعة هونين وأذن العادل للعساكر الشرقية بالعودة ظاناً منه أن الصليبيين يقيمون ببلادهم

✽ مسير القسم الثالث من الجيوش الصليبية الرابعة ✽

سار الملك هنريكوس بالقسم الثالث من العساكر الصليبية إلى أن وصل إلى جزيرة سيسيليا فخارب أهلها وانتصر عليها واستعمل في حروبه معها القساوة والعذابات البرية حتى تتوج عليها ساطاناً (وكان قد تزوج بقسطنسا ابنة روجار صاحب الجزيرة وكانت قسطنسا تستحق التملك عليها ولكن قد زاحمها تنكريد واستولى عليها وبعد وفاته كثرت التحزبات إلى أن وصل هنريكوس واستولى عليها) ثم أن هذا الملك عزم على السفر إلى فلسطين ليحارب سنة

تكفيراً عن ذنوبه (لأنه أصبح محروماً من رأس الكنيسة لمحاربه المسيحيين) فارسل إلى عظماء مملكته بسفر كل من كان أقسم بالمسير إلى الحروب الصليبية وبعده أن استمد للمسير إلى فلسطين برئاسة هذا القسم عدل عن هذا العزم وجعل كوزراد اسقف هيدالكسيم رئيساً عليه فساروا بجرأاً إلى أن وصلوا إلى سوريا ففرح بهم جميع الصليبيين واشتدت قوتهم وعزموا على التوجه إلى القدس ومحاصرتها ولما كان ذلك في فصل الشتاء ولم يمكنهم المحاصرة لشدة البرد انتظروا فصل الربيع

﴿ حصار حصن تبين وقدم العزيز إليه ورجوع الصليبيين على أعقابهم ﴾ وفي أثناء انتظار الصليبيين دخول فصل الربيع لمحاصرة القدس عزموا على حصار حصن تبين وكان الملك العادل قد أتاه الخبر في منتصف المحرم سنة ٥٩٤ بانهم يريدون أن يحصروا تبين فسير إليه عسكرياً يحمونه ويمنعون عنه وأرسل أيضاً إلى العزيز بمصر يطلب منه أن يحضر هو بنفسه ويقول له أن حضرت نخير والا فلا يمكن حفظ هذا الثغر فسار العزيز مجدداً في من بقي معه من العساكر ورحل الصليبيون عن صور ونازلوا تبين في أول صفر وقاتلوا من به وجدوا في القتال ونقبوا من جهاتهم من تحت الجبل فلما علم بذلك من الحصن وخافوا أن يمتلكه الصليبيون بالسيف نزل بعضهم إلى الصليبيين يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا القلعة فقال هؤلاء المسلمون بعض أفرج سوريا إن سلمتم الحصن استأسركم هؤلاء الصليبيون وقتلوكم فاحتفظوا نفوسكم (وكان الخلاف واقعاً بين الصليبيين) فسادوا كأنهم يراحمون من في القلعة ليسلموا فلما صعدوا إليها أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عسقلان في ربيع الأول فلما سمع الصليبيون بوصوله واجتماع المسلمين رحلوا وخصوصاً لأن ليس لهم ملك يجمعهم فاقاموا إلى أن وصل الملك العزيز في أول شهر ربيع الآخر ورحل هو والعساكر إلى جبل الحيل المعروف بجبل عاملة فاقاموا أياماً والأمطار تهطل فبقي إلى ١٣ منه ثم سار وقارب الصليبيين وأرسل رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا ورتب العساكر ليزحف إلى الصليبيين ويحصد في قتالهم فراحلوا إلى صور في منتصف الشهر لئلا يسهل سار المسلمون إلى الأجون وترأسلوا في الصباح وطال الأمر فساد الملك العزيز إلى الديار المصرية قبل انتهاء الصلاح

﴿ وفاة الملك هنريكوس السادس وتعيين الملك اموري على فلسطين ﴾

وانتهاء الحروب الصليبية الرابعة ﴾

لما قتل هنريكوس دي شمبانيا ملك فلسطين وترملت زوجته ايزابل قدم الملك اموري ملك قبرص وتزوج بها وفي اثناء حفلة العرس ورد عليهم ما كدر خاطر جميع الصليبيين وهو نبي الملك هنريكوس السادس ملك النمسا فينئذ عنهم جميع الامراء النمساويين والالمانيين على السفر الى بلادهم فركبوا سفنهم الى بلادهم ولم يبق منهم في سوريا الا ملك هونكريا الذي حصن بينه وبين العساكر الاسلامية مناوشات بجهة يافا فاحتاطت العساكر الاسلامية برجاله وقتلتهم عن آخرهم وكان قد حضر الكونت دي متفورت الى سوريا منذ أيام قليلة فطالب من الملك العادل هدنة لمدة ثلاث سنوات فاجابه الى ذلك وكان في شعبان من السنة المذكورة وهكذا قد انتهت هذه الحرب الصليبية الرابعة

﴿ وفاة العزيز صاحب مصر ونولية ابنه المنصور وما جرى الافضل ﴾

في شهر محرم سنة ٥٩٥ هـ صار العزيز الى جهة الفيوم للصيد فطارد ذئباً فنفر به جواده فسقط على الارض وأصابته حصى فعاد الى القاهرة وحدث له يرقان وقرحة في الامعاء واحتبس طبعه فمات في ليلة العشرين منه وكانت مدة حكمه ست سنين الا شهراً وكان عمره ٢٧ سنة وأشهرأً وكان في غاية السباحة والكرم والعدل والرفق بالبرية والاحسان عليهم وكان الغالب على دولة العزيز نحر الدين جهاركس فاقام على المملكة ولد العزيز وهو الملك المنصور محمد وكان عمره تسع سنين وشهوراً واتفق الامراء على احضار احد بنى أيوب ليكون اتابكا للملك (أي وصياً عليه) فتشاوروا بالامر بحضور القاضي الفاضل فاشاروا بالملك الافضل وكان بصرخد فارسلوا اليه فسار محثاً في ٢٨ منه فوصل الى بلييس في ٥ ربيع الاول فخرج الملك المنصور للاقائه فترجل له عمه الملك الافضل ودخل بين يديه الى دار الوزارة وهي قد كانت مقر السلطنة وكان الافضل لما وصل الى بلييس فاتفق ان أخاه الملك المؤيد مسعود صنع له طعاماً وصنع له نحر الدين مملوك أبيه طعاماً أيضاً فابتدأ بطعام أخيه ليمين خلفها أخوه انه يبدأ به فظن جهاركس انه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء اعتقاد فيه فغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الافضل وقال ان طائفة من العرب قد اقتتلوا ويطلب المسير اليهم ليصلحهم فأذن له الافضل فغارقه

وسار مجدداً حتى وصل الى القدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الامراء الناصرية فقويت شوكتهم واجتمعت كلمتهم على خلاف الافضل فأرسلوا الى العادل يطلبون قدومه ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها وكان محاصراً ماردین فلم يقدم اليهم وكان دخول الافضل القاهرة في ٧ ربيع اول ولما سمع بهرب جهار كس المذكور أرسل اليه ليعود فأبى ويومئذ قام الافضل اتابكا على المنصور بمصر وكان الوزير وقتئذ سيف الدين يازكج .

وأرسل الملك الظاهر صاحب حلب الى أخيه الافضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل وان يتميز الفرصة لاشتغال العادل بمحاصر ماردین فبرز الملك الافضل خارج مصر وسار الى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره الى دمشق فترك على حصار ماردین ولده الملك الكامل وسار فسبق الافضل ودخل دمشق قبل نزول الافضل عليها بيومين ونزل الافضل على دمشق ثالث عشر شعبان وزحف من القد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكره على المدينة حتى وصل الى باب البريد ولم يمدهم العسكر فتكاثر أصحاب العادل وأخرجوهم من البلد ثم تحاذل العسكر فتأخر العادل الى ذيل عقبة الكسوة ثم وصل الظاهر صاحب حلب لنجدة أخيه فعاد الى مضائق دمشق وداوم الحصار عليها وقات الاقوات عند الملك العادل حتى أهل البلد واشرف الافضل والظاهر على امتلاك دمشق وعزم العادل على التسليم ولكن حصل بين الاخوين منافرة فغضب الظاهر وترك قتال عمه العادل لآخيه الافضل وظهر الفشل في المساكر ثم انهما تأخرا بمرج الصفر في آخر صفر سنة ٥٩٦ ثم سارا الى رأس الماء ليقما به الى انقضاء فصل الشتاء ومنه سار الافضل الى مصر والظاهر الى حلب ولما افترقا خرج الملك العادل في أثر الافضل الى مصر ولما وصل الافضل الى بلاده تفرقت عساكره في بلادهم الى الربيع فادركه عمه العادل فخرج الافضل يمين بقي عنده من العسكر وضرب معه مصافاً بموضع يقال له السائح في ٧ ربيع آخر فانكسر الافضل وانهمزم الى القاهرة ودخلها ليلاً ثم سار العادل في أثره وأتى القاهرة وحصرها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم تحاذلا فأرسل الى عمه في الصلح وطلب العوض عن مصر وتسليمها اليه وأن يكون العوض مياقارقين وحاني وسميساط فاجابه الى ذلك ونحسنا لقا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ١٨ منه واجتمع بالعادل وسار الى صرخد وأرسل من يستلم البلاد المذكورة فامتنع

نجم الدين أيوب ابن العادل عن تسليمه مياقارقين وسلم ماعداها

﴿ خلع الملك المنصور وسلطنة الملك العادل على مصر وسوريا ﴾

ودخل الملك العادل القاهرة يوم السبت ١٨ ربيع آخر ٥٩٦ هـ ولما خلا له الجوّ وثبت قدمه فيها خلع الملك المنصور محمد بن عبد العزيز في شوال بعد ان حكم ٢١ شهراً وتولى الملك العادل سلطنة مصر وسوريا وخطب لنفسه فلم يرض بذلك الامراء المصريون فراسلوا أخويه الظاهر بطلب والافضل بصرخند وتكررت المكاتبات والمراسلات يدعونهم الى قصد دمشق وحصرها ليخرج العادل من مصر اليهم فيسلمونهم مصر فحضر الظاهر والافضل الى دمشق وحاصرها وبعد قتال مع من بالبلد وكان العادل أرسل اليها من يحفظها حصل بين الاخوين منافرة فسادا الى تجديد الصلح مع العادل . واستقرا على ان يكون للظاهر منبج واقامية وكفر طاب وقرى معينة من المعرة ويكون الافضل سميساط وسروج ورأس العين وحمّين ورحلا عن دمشق أول محرم سنة ٥٩٨ هـ وسار العادل الى دمشق فوصلها تاسع شهره . ومازال يشغل حتى جعل جميع الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه وفي جنتهم الظاهر والافضل فعادت المملكة الايوبية بعد ان انقسمت حصصا الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد

وفي سنة ٥٩٨ هـ أيضاً أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر الى الشام فسار بوالده واخوته وأقام عند عمه الملك الظاهر بطلب

﴿ الحروب الصليبية الخامسة ﴾

﴿ تحريض البابا اينوشانسيوس الثالث على الحروب الصليبية ﴾

لما جلس على كرسي السدة البطريركية برومية البابا اينوشانسيوس الثالث وعمره ٣٣ سنة أراد أن يجعل له أثراً يذكر فاخذ يحرض على الحروب الصليبية وأرسل الى جميع ملوك أوروبا منشورات بالاتحاد على الحروب الصليبية لتخليص قبر المسيح من أيدي المسلمين ثم أرسل نوابا الى الملوك والى جميع قواد العساكر ورؤساء الكنائس والى شعوب فرانس وانكلترا وهونكاري ويسييليا وقد أعلن لهم على انه عازم أن يضحي أعز ماله به بشأن استقاذ قبر المسيح وحيث ان ريكاردوس ملك الانكليز وفيلبس ملك فرانس كانا دائماً متحاربين مع بعضهما بخصوص بلادهما فكان لا يمكنهما ترك بلادهما والتوجه لحروب صليبية ولذلك قد

أرسل إليهما البابا الكريستيان بطرس ليتوسط بينهما في الصلح باسمه وأن يعقد هدنة بينهما لمدة خمس سنوات فلم تحصل ثمرة ولم يتم صلحهما وكذلك كان أوثون والى ساكسيا وفيلبس اميرسوايا فافهما كان يخاصمان امير جرمانيا وجميع مملكة النمسا متداخلة في هذا المشكل وهذه الاسباب لم تشر تحريضات البابا . ثم انه كان يوجد في فرانسوا كاهن اسمه فولك خوري كنيسة نوييلي سورفارنا وكان محبوباً عند الشعب لفصاحته وطلاقة لسانه حتى انهم كانوا يلقبونه بالقدّيس فارسل اليه البابا وفدأً ومعه تفويض منه بانذارات الحروب الصليبية فقبل فولك هذا التفويض واخذ بالطواف ومعه بطرس دي رزوني لاجل ان ينذر بالحروب الصليبية فسار متجولاً في بلاد نورمانديا وفلانديا وبورغونيا فكان يخطب فيهم ويحثهم على الاستعداد للسفر الى الحروب الصليبية لتخليص قبر المسيح مفدي العالم ثم سار الى قلعة داكري وكانت هناك جمعية عمومية من رؤساء الساساكر في وليمة قد أعدها لهم تيولت كونت دي شمبانيا وصار يخطب فيهم ويحثهم ويطلب منهم النظر الى البلاد المقدسة وما زال بهم حتى ان تيولت كونت دي شمبانيا وهو أخو هنريكوس ملك فلسطين المتوفي وابن أخي سلطان فرانسوا وابن أخت سلطان انكلترا قبل التوجه الى فلسطين واستنقاذ القدس من المسلمين تحت راية الصليب وتبعه كل من كونت دي تشارتراس . وكونت دي بلواز وكونت دي سانيول . وسمعان دي منتفورت . ورنهارد . وبرندوس دي مونتيريل وأخوه والكونت غوتير . والكونت يوحنا دي برياناومني دي ليزلاورانوددي رابيارا . وهتي دي موغوراني . وهو كوز ورماتوس دي بورن وكونت دي أميانس والكونت رانوددي بولونيا . وجفرو كونت دي راش وجفرو وكونت دي فيلا هردوين والمرشال دي شمبانيا

﴿ سفر المساكين الصليبية الخامسة واتحادهم مع مشيخة البندقيه ﴾

اقتفى قواد بلاد فلانديا أثر من ذكروا فاقسم كل من الكونت بودوين واسطاكوس وهنريكوس اخوه ويعقوب دي افنسا ومحافظ قلعة بورجس ويوحنا دي نزالا وكونون دي بيوتونا وغيرهم على السير تحت راية الصليبيين لانقاذ القبر المقدس وتعين رئيساً عاماً على هذه الحياوش تيولت كونت دي شمبانيا ثم اجتمع الرؤساء في مدينة سواسنوس ثم في مدينة كومينا واتفقوا على ان المساكين تسافر الى المشرق بحراً وان يرسلوا وفدأً الى مشيخة

البندقية لاجل ان ترسل مراكبها لنقلهم الى بر اسيا وسار الوفد الى ان وصل
البندقية في سنة ٥٩٦ هـ وتقدم هذا الوفد بين يدي الدوجا (لقب رئيس مشيخة
البندقية) هنريكوس داندولو وعرض عليه الرسائل وطلب منه المساعدة بارسال
المراكب لنقل الصليبيين فقال لهم باي شروط فقالوا كما تريد فاشار الدوجا بطريقتين
احدهما ان يرسل مراكب لنقل الصليبيين لحمل أربعة آلاف وخمسمائة من
الفرسان وعشرين الفأمن الرجال وتستطيع ان توسق الذخائر اللازمة لهذا العسكر
لمدة تسعة شهور بشرط ان يدفعوا له خمسة وثمانين الف وزنة فضة والثانية انه
يرسل خمسين مركباً بعساكرهم صعبة الصليبيين وان جميع الغنائم تقسم بينهم
مناصفة أي للصليبيين النصف وللبنديين النصف الاخير ثم أرسلوا الشروط الى
البابا ليصدق عليها فصدق عليها ثم عاد رجال الوفد الى الصليبيين فوجدوا تيوبلت
الرئيس العام مريضاً ثم مات فانتخبوا رئيساً عليهم بوتيغاسيوس أمير مونترفرات
واستلم الصليب من يد فولك الحوري بمحضر من الاكليروس في كنيسة السيدة
مريم البتول ثم سار الصليبيون من بلاد فرانسفا اجتازوا الجبال الالية وواصلوا الزحف
الى ان وصلوا الى البندقية وهناك قابلهم أهلها باكرام واحترام وقد أعدوا لهم
المراكب اللازمة وزيادة حسب الشروط وطالبوا منهم ان يدفعوا لهم مبالغ ٨٥ الف
وزنة فضة فوجد الصليبيون ان لا قدرتهم على دفع المبلغ جميعه ودفموا ثلث فقط
فلذلك رئيس مشيخة البندقية أجمع امرائه وقال لهم بما ان الصليبيين ليس معهم
الآن باقي المبلغ المتفق عليه فارى الاحسن ان نأخذهم معافي مقابلة باقي المبلغ
لمساعدتنا على اخضاع مدينة زارا التي اغتصبها مناساطان هونكرا فقبل
هذا الرأي رؤساء الصليبيين وأما الصليبيون أنفسهم فأكثروهم رفض قبوله وكذلك
الوكيل البابوي بطرس دي كابوا رفض هذا الرأي وقال انه نفاق ولكن الدوجا
هنريكوس أراد ان يجذب الجميع الى رأيه وهذا ويتم مرغوبه وانتصاره على
هذه المقاومة فاجتمع هو ورؤساء عساكره وشعبه في كنيسة القديس مرقس واتخذ
علامة الصليب على صدره وتبعه جميع شعبه فصاروا جميعاً صليبيين ومتحدين معاً
تحت راية الصليب فثبت على رأيه ورفض معارضة الوكيل البابوي وغيره

﴿ محاربة الصليبيين مدينة زارا والقسطنطينية وغيرها ﴾

سار جميع الصليبيين ومهمهم أهل البندقية الى ان وصلوا الى مدينة زارا
وحاصروها مدة أسبوعين وفي كل يوم يقاتلونها وأخيراً انتصروا على من في

المدينة واستولوا عليها واقتسموا غنائمها بالسوية بينهم حسب الشروط ولمناسبة دخول فصل الشتاء عزموا على الاقامة بهذه المدينة الى ان ينقضي اسلام ثم أرسل اليهم البابا يوحنا على محاربتهم المسيحيين وتأخيرهم عن التوجه الى فلسطين فأرسلوا له وفد الاجل ان يعتذر لهم امامه ويطلب منه المنفرة والبركة فسمحهم البابا ثم انه قدم للصليبيين وفداً من الملك فيليبس سوابا أحد ملوك النمسا يطلب منهم مساعدة اليكسيوس ابن ملك القسطنطينية اسحاق وتمليكها عليها (لان عمه اغتصب المملكة من ابيه وسجنه وسمجن اياه بعد ثل عشرين بالقسطنطينية فتخلص الولد المذكور وسافر الى صهره الملك فيليبس) وتعهد بدفع مائتي الف وزنة من الفضة بصفة مصاريف للصليبيين وان يضع مملكة الروم كلها تحت طاعة الكنيسة الرومانية وانه يقدم للصليبيين ما يحتاجون اليه من القوت ويتبهم الى بلاد فلسطين أو يرسل منهم عشرة آلاف محارب فانهقد مجلس مشورتهم وبعد معارضة من بعض الرؤساء قرر قبول هذه الشروط المقدمة لهم وانه في فصل الربيع ينزلون في المراكب ويسهرون الى القسطنطينية . ثم وردت اليهم رسائل من البابا بتوبيخهم على ما عزموا عليه فلم يلتفتوا اليه وباشروا في الاستعداد كما تقرر ثم حضر اليهم اليكسيوس نفسه وجدد اماءهم توسلاته . ثم سار الصليبيون بالمراكب الى ان وصلوا ميناء دورتسيوس وميناء كورفو وهناك نودي بالامير اليكسيوس ملكاً ثم ساروا في البحر أيضاً وكما وصلوا الى مدينة أو بلد نادوا بان الملك هو اليكسيوس الى ان وصلوا الى مدخل البسفور ورموا صراسيمهم عند شط مدينة القديس استفانوس ثم قرروا بانتشار اعلامهم على المراكب وبفك القلاع وعبور كل النجارة في الخليج الكبير وقد ساعدتهم الريح الى ان صاروا تحت أسوار القسطنطينية فطلبوا الى البر فأرسل اليهم ملك القسطنطينية وقسطنطينياهم عن أمرهم فقالوا لارسول انا حضرنا لاجل رد المملكة الى الملك اليكسيوس بن اسحاق صاحبها الاصلي واذا لم يشأ تسليم المملكة بدون حرب فاعلمه باننا سنأخذها بالقوة ثم قرر مجلس مشورتهم بانتقال العساكر الى الجهة الثانية لمحاصرة القسطنطينية من كل جهة وكان ذلك في شهر القعدة سنة ١٢٩٠ هـ وانتشبت الحرب بين الفريقين فتغلبت العساكر الفرنسية على برج غلطة وأخذوه ووضعوا علمهم فوقه وفي الوقت نفسه تغلبت عساكر البندقية على قطع السلسلة الحديدية التي تمنع المراكب من دخول قرن الذهب ودخلوا في قاب المدينة وتبعهم نحو عشرين الف مقاتل من الفرنسيين وحاصروا المدينة من البر والبحر وبعد قتال شديد بينهم أظهر فيه الشجاعة اهل

البندقية والدوجا كل النشاط والشجاعة مع انه كان كفيف البصر ثم استولى الصليبيون على المدينة قهراً واخربوا النار في المنازل القريبة من السور اما الملك فانه هرب في ظلام الليل ونزل في مركب مع خزانته وسار مفتشاً على موضع يلتجئ اليه ثم ان الروم هجموا على السجن واخرجوا منه الملك اسحق وأجلسوه على تخت ملكه فارسل اليه الصليبيون يطلبون منه التصديق على الشروط التي حررها ولده الكيسوس في مدينة زارا وتنفيذها فموها فيها له المبلغ الميعن ولكنه كتم امره واظهر رضاه بالتصديق عليه ثم ان الصليبيين توجهوا ولده الكيسوس ليكون شريكاً في المملكة

﴿ ثورة القسطنطينية وامتلاك الصليبيين لها ﴾

وبعد ذلك طلب الصليبيون من الملك المبلغ الميعن في الشروط وان تكون مملكة الروم خاضعة للبابا حينئذ اجبر الملك الكيسوس بطريرك القسطنطينية بالاعتراف بساطعة البابا الدينية ثم امر بجمع المال من الاهالي ولكنه لم يتم له تسديد المبلغ فاخذ جميع الاواني المقدسة التي بالكنائس وحلها وخرسها مسكوكات لاجل تسديد المبلغ ولذلك تضررت الروم باجمها ومسا زاد ضررها ان عساكر الصليبيين القلا منديين اشعلوا النار في كنيس لليهود فاحترق والتهبت النيران في باقي المدينة فلذلك جاهر الروم بالمداد للصليبيين بقيادة من يدعى الكيسوس مورزوفلا وقبضوا على الملك الكيسوس وقتلوه ثم ان اباه الملك اسحق مات حزناً على ولده المذكور فانتخب الروم الكيسوس مورزوفلا ملكاً عليهم واستعدوا لمحاربة الصليبيين وكذلك الصليبيون استعدوا لمحاربة الروم ونزلوا في المراكب واقتتل الفريقان قتلاً خيراً والصليبيون وبعد ثلاثة ايام انتصروا على الروم واستولوا على المدينة عنوة ووقعوا باهاها القتل والنهب وصاروا يجولون في المدينة شاهري سيوفهم مشعلي مشاعلهم ليحرقوا بها الدور فأحرقوا اكثر منازل المدينة فالتجأت النساء الى كنيسة اياصوفيا للاحتباء بها فخرجت الاساقفة والقسس حاملين الانجيل امامهم يطلبون من الصليبيين الامان وان يبقوا على اهل المدينة فلم يلتفتوا اليهم (فانظر رأفة الصليبيين الذين خرجوا من بلادهم بقصد تخليص قبر المسيح وادعاءهم بالشفقة على مسيحي المشرق كيف فعلوا في مسيحيين القسطنطينية من القتل والنهب وحرق المدينة) وصاروا يقتلون وينهبون حتى كنيسة اياصوفيا نفسها فقد احرقوا جميع ما فيها من الستائر والتصاوير وغيرها ونشوا قبور الملوك المدفونين فيها واخذوا ما بها من الذهب والاحجار الكريمة ولم يبقوا في المدينة منزلاً بدون نهب وقتل وكذلك احرقوا وكسروا جميع

التماثيل المقامة بالميادين العموية وقد خرج بطريقك الروم هارباً من القسطنطينية حافي الاقدام تاركاً جميع اتمته لنهب الصليبيين وهرب مورزوفلا في احد المراكب *} تنويج بودوين على القسطنطينية وما جرى للصليبيين بها
وانتهاء الحروب الصليبية الخامسة { }

بعد امتلاك الصليبيين بلاد الروم شرعوا في انتخاب احدهم ليكون ملكاً على القسطنطينية فاختاروا ستة أشخاص ومن البندقيين ستة اشخاص وادخلوا الاثني عشر كنيسة ايا صوفيا وطلبوا منهم ان ينتخبوا احد الرؤساء الصليبيين ليكون ملكاً فقاموا بالكنيسة يومين ثم خرجوا ونادوا بان الذي يكون ملكاً هو بودوين كونت دي فلاندر فقاموه ملكاً ثم شرعوا في تقسيم المملكة ووظائفها فاستخدم بودوين اكثر رؤساء الصليبيين ليكونوا حكاماً على البلاد الرومية وكذلك اهل البندقية وكان ذلك في سنة ١٢٠٤ ميلادية الموافقة ٦٠١ هجرية ثم انعقد مجلس مشورتهم وقسم المملكة الرومية قسمين قسماً للفرنساويين والقسم الآخر لاهل البندقية ثم ان بودوين ملك القسطنطينية قد ارسل رؤساء الصليبيين الى البابا يعلمونه بما امتلكوه ويستدرون اليه لتأخيرهم عن التوجه الى البلاد السورية فغضب عليهم لمحاربة اخوانهم المسيحيين وبلغت انتصارات الصليبيين المذكورة على بلاد الروم اقصى البلاد فسارت خيالة الجمعيات الرهبانية جمعية الهيكلين وجمعية القديس يوحنا المعمدان اليها ولما استوطن الصليبيون القسطنطينية ارسلوا الى البلاد حكاماً وعساكر منهم فكانوا كلما ذهبوا الى مدينة لاخضاعها يخرج عليهم الروم ويقاتلونهم وهكذا فرقت عساكر الصليبيين في جميع البلاد ومن عصاهم اهل بلغاريا فاسروا بودوين المذكور وقتلوه فحس بدلا عنه اخوه هنريكوس دي هالينولت ملكاً على القسطنطينية ثم ارسلوا الى بلاد فرانسوا واطاليا يطالبون النجدة منهما مستغيثين بأهلهم وقد اقامت هذه المملكة تحت حكم فرنساوية نحو سبعة وخمسين سنة ثم استردها الروم منهم وهكذا انتهت الحروب الصليبية الخامسة بدون محاربة او قتال مع المسلمين

*} مناوشات الصليبيين والملك المعادل { }

واما الملك المعادل ظل متمتعاً بملكه العظيم وكل انقضت هدنة بينه وبين الصليبيين جددتها وفي سنة ٦٠٤ خرج الصليبيون الذين بطرابلس وحصن الاكراد واكثروا الاغارة على بلد حمص وولايتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيراً فلم

يكن لصاحبها اسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه قوة علي دفعهم ومنعهم فاستنجد بالظاهر غازي صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده احد الا الظاهر فانه سير اليه عسكرياً اقام عنده ومنع الصليبيين عن ولايته وفي هذه السنة أيضاً خرج اهل قبرص على الاسطول المصري فاخذوا منه مراكب واسروا من بها فارسل الملك العادل الى الملك اموري صاحب عكا في رد ما اخذوه وقال له حيث انا في صالح فلم غدرتم باصحابنا فاعتذر الملك اموري وقال ان اهل قبرص ليسوا في طاعتي بل هم تابعون القسطنطينية ثم انه حصل غلاء بقبرص وتمذرت عليهم الاقوات فذهب اهلها الى القسطنطينية فاعادوهم الى حكم سوريا ثم راسل الملك العادل اموري صاحب عكا فلم ينفصل حال فخرج الملك العادل من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فصالحه صاحبها على قاعدة استقرت باطلاق اسرى المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حص ونزل على بحيرة قدس وجاءه عساكر الشرق وديار الجزيرة ودخل بلاد طرابلس وحاصر موضعاً يسمى القليعات واخذها صلحاً واطاق صاحبها وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربة وتقدم الى طرابلس فنهب واحرق وسبي وغنم وعاد الى بحيرة قدس وتردت الرسل بينه وبين الصليبيين في الصلح فاصطالحوا

* موت الملك اموري صاحب عكا وتعيين خلفه والتحريض

على الحروب الصليبية السادسة *

في سنة ٦٠٦ مات الملك اموري ملك سوريا وماتت زوجته فارسل الصليبيون المقيمون بسوريا الى الملك فيلبس اوغسطس ملك فرنسا يخبرونه بذلك فعين يوحنا بريانا ملكاً على سوريا فرضي به البابا وباركه وسار يوحنا المذكور الى فلسطين فقابله الصليبيون باحتفال عظيم وتوجوه بتاج الملك عليهم ولما جلس هذا الملك داخله الطامع فارسل الى البابا والى ملوك أوروبا يطلب اليهم تجريد عساكر صليبية سادسة لاجل تخليص القدس من المسلمين والاستيلاء على جميع البلاد الاسلامية بسوريا

* ابتداء الحروب الصليبية السادسة *

﴿ التحريض على الحروب الصليبية السادسة والصليبيون الفتيان ومؤتمر رومية ﴾
لما أرسل يوحنا بريانا ملك سوريا الى البابا والى ملوك أوروبا كما تقدم ارسل البابا الى الاساقفة ورؤساء الكنائس في جميع الممالك الأوروبية بالحضور الى رومية لعقد مؤتمر بذلك ولما وصلت رسل يوحنا المذكور الى بلاد أوروبا صاروا

يحثون الناس على الحروب الصليبية فتجتمع كثير من الشبان تحت اسم الصليبيين
واتخذوا الصليب على صدورهم وساروا مجدين واجتازوا الجبال الالية واقاموا مبارديا
ونزلوا على ايطاليا وامامهم راية الصليب لاجل نزولهم في المراكب وتوجههم الي
فلسطين فلما علم بذلك البابا باركهم ونزل اكثرهم بالمراكب فداهمتم عواصف
بحرية فانقرتهم بمراكبهم قريبا من الشطوط فامر البابا بانتشالهم ودفنهم بالشاطئ وبني
عليهم كنيسة دعاها كنيسة الفتيان الابرار وتشتت باقي الصليبيين الفتيان بعد ذلك
في البلاد ففهم من رجع الى بلاده ومنهم من خدم في فلاحة ارض ايطاليا وفي سنة
٦١٢ انعقد المؤتمر في مدينة رومية بكنيسة القديس يوحنا تحت رئاسة البابا اينوشانسوس
وقد اجتمع فيه ما ينيف على ٥٠٠ من الاساقفة ورؤساء الكنائس وكذلك
بطريرك القسطنطينية وبطربرك القدس ووكلاء كل من الملك فريديريكوس ملك النمسا
وفيلبس ملك فرانسا وملك الانكليز وملك هونكريا فقام فيهم البابا خطيباً بفصاحة
يصف لهم تعب مسيحيي الشرق وما يقاسونه من العذاب وان القدس مغطى بازار
الحزن الاسود ومقيد بسلاسل حديدية تحت عبودية الاسلام وصار يحثهم على حض
جميع المسيحيين بتحضير عساكر صليبية سادسة كي تنقذ قبر المسيح من ايدي
المسلمين وبعد عدة جلسات تقرر بان البابا والكردينالية يقدمون عشر مداخيلهم
لنفقات هذه الحرب المستجدة وكذلك الكنائسيين رؤساء ومرؤسين يقدمون نصف
عشر مداخيلهم وتعهد جميع ملوك اوروبا برضاء تام على ابطال الحروب من
بلادهم مدة خمس سنوات وفي سنة ٦١٣ توفي البابا المذكور فتمين خلفاً له البابا انونوريوس
الثالث ولما توسد السدة البطرسيية هذا حذو سلفه في التحريض على الحروب
الصليبية السادسة فارسل من عنده وفوداً الى جميع ملوك اوروبا بالتحريض والحث
على تجهيز الحروب الصليبية المذكورة وذكرهم بوعودهم

* { سفر العساكر الصليبية السادسة } *

استعد للسفر تحت علم الصليب كل من الملك اندراوس الثاني ملك هونكريا
وليوبولس دوك دي اوطريش ودوك بافيرا وغيرها من الامراء والقواد فساروا
الى ان وصلوا مدينة سبولاترو وهناك انتظروا قدوم المراكب من البندقية كي توصلهم
الى فلسطين وسافر من مرسيليا وجينوى وبرنيداس جيوش كثيرة في المراكب الى
فلسطين فسبقوا ملك هونكريا ومن معه وكذلك هو كنز الاول سلطان قبرص فانه

عند ما علم باخبار هذه الحیوش الصلیبیه السادسة اخذ معه أشرف دواته وعساكره ونزل بالمرأكب من مینا لیمسون وسافروا جميعاً الى عكا ولما وصلوا اليها كان زادهم قد قل وأرض سوريا كانت وقتئذ مجذبة فاضطروا للخطف والنهب ثم خرجوا من عكا وأغاروا على البلاد الاسلامیه وكان الملك العادل بمصر فصار منها تواتاً الى الشام

*مخاربه الصليبيين مع الملك العادل وسفرهم الى مصر

وسفر ملك هونكريا وقدم صليبيين آخرين *

لما وصل الملك العادل الى الرملة ومنها الى الدبرز له الصليبيون من عكا فصار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازماً على ان يسبقهم الى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فتقدم اليه الصليبيون في شعبان ٦١٤ هـ عازمين على محاربتهم لئلا يملكهم انه في قليل من العسكر لان جنوده كانوا متفرقين في البلاد فلما رأى العادل قربهم منه لم ير ان يلتقيهم في من معه خوفاً من هزيمة تكون شراً عليه وكان حازماً كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقم بالقرب منها ويرسل الى البلاد ويجمع العساكر فوصل مرج الصفر فنزل فيه فاخذ الصليبيون كل ما كان في بيسان من الذخائر وكانت كثيرة ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبشوا سراياهم في القرى الى ان وصلوا الى خسفين وأطراف السوداء ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا وأقاموا به أياماً ثم خرجوا منه الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا وبينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنبهوا صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا في النصف الاخير من رمضان ثم سار الملك العادل ولده الملك المعظم عيسى صاحب دمشق في قسم من جيشه الى نابلس لينع الصليبيين عن المقدس اما الصليبيون فانهم ساروا بجمعهم الى ان وصلوا قلعة الطور وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها حديثاً فتقدم اليها الصليبيون وحاصروها وركبوا عليها المنجنيقات وآلات الحصار وزحفوا اليها وصعدوا على جباها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه ثم ارتدوا عن القاعة وتركوها وساروا الى عكا وبعد رجوعهم حصل لهم فشل لان معسكرهم كان مركباً من ثلاثة رؤوس وهم ملك هونكريا بعساكره وملك قبرص وملك سوريا وكان معسكرهم مقسماً ثم ان ملك قبرص مرض ومات وكان عازماً على الرجوع الى مملكته وكذلك ملك هونكريا عزم على الرجوع

أيضاً ولكنه خاف لوم الصليبيين فأبقى نصف جيشه في سوريا تحت قيادة يوحنا ملك سوريا ورجع هو إلى بلاده ثم وردت عساكر صليبية أخرى من بلاد فرنسا وإيطاليا وكانوا قد تأخروا عن المسير لمحاربة مسلمي إسبانيا ولما وصلوا إلى عكا فرح جميع الصليبيين والمسيحيين بقدومهم وعقدوا مجلس مشورتهم فقرر سفر جميع الصليبيين من سوريا إلى الديار المصرية ومحاربة المسلمين هناك

* { محاصرة الصليبيين لمدينة دمياط }

قصد الصليبيون مدينة دمياط فوصلوها في يوم الثلاثاء ٤ ربيع أول سنة ٦١٥ وهم نحو من ٧٠ ألف فارس و ٤٠٠ ألف راجل فقيموا تجهز دمياط في البر الغربي وحفروا حول معسكرهم خندقاً وأقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط وكان برجاً منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواسلة في البحر الملح من الدخول إلى ديار مصر في النيل وكان البر الذي نزل عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر الملح من الأخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر والسلسلة تمتد بين البرج والصور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لأنهم إذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل إلى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلة تأتي إليه المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وقد انكسر ذلك الجسر بعد مدة فاعتزم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبتين موسوقين قيوداً وكان جميع الصليبيين بقيادة يوحنا بريانا ملك سوريا وليوبولدوس دي أوطريش فانزلوا في البرج الخشبي ليوبولدوس برجاله وساروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين فلما رأى المسلمون ذلك تجمهروا في البرج والصور وأخذوا في رمي السهام والحراش والحجارة والمنجانيقات على برج الصليبيين فاعتبت به النار فخاف الذين فيه ثم انطلقت حبالا وتشدد الصليبيون حتى استولوا على برج المسلمين فباغ الملك الكامل قدوم الصليبيين ومحاصرتهم دمياط وكان يخاف أباه الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر الصليبيين وأمر والي الغربية بجمع العربان وسار هو في جمع كبير ونزل بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط وامتدت عساكره إلى دمياط لينع الصليبيين من الصور والقتال مستمر أربعة أشهر والملك العادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء

﴿ وفاة الملك العادل ﴾

كان الملك العادل نازلاً بمرج الصفر وقد أرسل العساكر الى ولده الكامل بالديار المصرية كما تقدم ثم رحل من مرج الصفر الى عالقين فنزل بها ومرض واشتد مرضه ثم توفي هناك الى رحمة الله في سابع جمادى الآخرة سنة ٦١٥ وكان مولده سنة ٥٤٠ وعمره ٧٥ سنة وكانت مدة سلطنته بمصر نحو عشرين سنة أو أقل وكان حازماً متيقظاً غزير العقل شديد الآراء ذا مكر وخديعة وصبوراً حليماً يسمع ما يكره وينبغي عنه واتسع ملكه وكثرت أولاده ورأى فيهم ما يحب ولم ير واحداً من الملوك في أولادهما لقاء العادل فيهم من القوة والشجاعة والملك وخائب الملك العادل ستة عشر ولداً ذكراً غير البنات ولم يتوفي لم يكن عنده احد من أولاده حاضراً فحضر اليه ابنه الملك المعظم عيسى وكان قد أرسله الى نابلس لحماية القدس فكتم موت أبيه وحمله في محفة وجعل عنده خادماً وطبيباً راكباً الى جانب المحفة والشرابدار يصالح الشراب ويحمله الى الخادم فيشربه ويوهم الناس ان السلطان شربه الى ان دخلوا به قلعة دمشق وصارت اليها الحزائن واليوتات فأعلن موته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه ودفنه بالقاهرة ثم نقله الى مدرسة العادلية

﴿ محاربة الصليبيين بارض دمياط ودخولهم حتى اشمون طناح ﴾

واخذاد ثورة المسامين

لما بلغ الكامل موت أبيه وهو بمنزلة العادلية استلم زمام الاحكام أما الصليبيون فألحوا في القتال ولا سيما عند ما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في نهر النيل ويتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالاً شديداً الى ان قطعوه وكان قد انفق عليه وعلى البرج ما ينوف على سبعين الف دينار . وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتفقد الاحوال واعمال الحيلة في مكيدة الاعداء فامر ان تفرق المراكب في النيل لتمنع الصليبيين عن الابحار فيه فعمد الصليبيون الى خليج هناك يسرف بالازرق كان النيل يجري فيه قديماً خفروه وعمقوا حفره وأجروا فيه الماء الى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم منه الى بورة على أرض جزيرة دمياط قبالة المنزلة المعسكر فيها الكامل ليقاتلوه منها فلما نزلوا في البورة ابتدأوا بقتاله بجرأ وزحفوا اليه مراراً فلم يظفروا منه بطائل ولم

يتغير على أهل دمياط شيء لأن الميرة والامداد كانت تصل اليهم والنيل يحجز بينهم وبين عدوهم وأبواب المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصار ضيق ولا ضرر وكان العربان يغيروا على الافرنج في كل ليلة حتى منعوهم الرقاد خوفاً من غاراتهم فقوي طمع العرب في الصليبيين حتى صاروا يخططونهم نهاراً ويأخذون الحميم بمن فيها فكمن لهم الصليبيون عدة كساء وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فكفوا عن مناوشتهم . ثم أدرك الناس الشقاء وهاج البحر على مخيم المسلمين وأغرقهم فمعظم البلاء وتزايد الغم وألح الصليبيون في القتال حتى كادوا يملكون كل مال المسلمين والملك الكامل يرسل الرسل الى الجهات ويستصرخ اخوته ويستنجد أهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من غلبة الصليبيين ولا من مجيب . وفي اثناء ذلك ثارت بين رجاله ثورة كان زعيمها عماد الدين أحمد بن المشطوب أحد كبراء الرجال على ان لا يقبلوا الكامل عليهم سلطاناً بعد أبيه وكان ذلك باتفاق مع أخيه الملك الفاضل فوقع الملك الكامل في حيرة وأوجس خيفة على منصبه ولم ير من ينجده فسار من العادلية الى قرية تدعى اشمون طناح (اشموم نطاح) بجريدة فأصبح العسكر بغير سلطان فركب كل انسان منهم هواء ولحقوا بالكامل ولم يتمهلوا لاخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأساحتهم كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢٠ القعدة سنة ٦١٥ بلغهم ما كان من أمر المسلمين فعبروا النيل الى بر دمياط (البر الشرقي) آمنين لا ينازعهم منازع وغنموا ما في معسكر المسلمين مما تركوه من أمتعتهم وغيرها وكان شيئاً لا يحيط به الوصف فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخله وهم عظيم وأوشك ان يفارق البلاد لانه أصبح لا يثق بنفسه ولا بمن حوله . أما مدينة دمياط فبقيت محاصرة وقد شدد الصليبيون عليها براً وبحراً وكانت تلك السنة ليس أشد منها وطأة على المسلمين وقد أخذ اليأس منهم مأخذاً عظيماً ففياهم في ذلك الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام بقيادة الملك المعظم عيسى أخي الملك الكامل وكان قد تولى على دمشق بعد أبيه العادل فلما علم بما حل بجيوش أبيه بعد وفاته أتى في عدة من رجال الشام فأطاعه الكامل على الحال سرراً وأسرى اليه ان رأس هذه الطائفة ابن المشطوب فجاء الملك المعظم يوماً على غفلة الى خيمة ابن المشطوب واستدعاه فخرج اليه فقال له أريد ان أفاوضك سرراً في خلوة وسار معه وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويشق بهم وقال لهم اتبعونا ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء الى شيء حتى أبعدته عن المعسكر ثم قال له

يا عماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي ان تهبا لنا وشيئاً من النفقة ثم قال لرجاله تسلموه حتى تخرجوه من الرمل فلم يسعه الا امتثال الامر لانفراده وعجزه عن المخالفة وعاد المعظم الى أخيه الكامل وأطلعه على ما جرى ثم جهز أخاه الملك الفائز شريك المتأمرين الى الموصل لا حضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فسات بسنجان وكان ذلك خديعة لا خراجة من البلاد فلما خرج هذان الشخصان من المسكر تحملت عزائم من بقي من الامراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً

* { قدوم نجدة للصليبيين بقيادة بيلاجيوس وهدم سور البيت المقدس } *

ظل البابا انوربوس الثالث يحث ملوك اوربا لنجدة اخوانهم الصليبيين حتى اجتمع لكلمته جيوش كثيرة من بلاد النمسا وبيزا وجنوى والبندقية وانكلترا وفرانسا فأرسلهم الى اخوانهم بدمياط بقيادة الكردينال بيلاجيوس بصفته نائب بابوي وأرسل معه خزان المال الذي جمعه باسم الحروب الصليبية فسار الكردينال المذكور بعساكره الى ان وصل الى معسكر الصليبيين باراضي دمياط وبعد يسير عاد الملك المعظم الى دمشق لينظر في أحوال رعيته ثم خشي من الصليبيين ان امتلكوا دمياط ان يمدوا يدهم الى اورشليم (القدس) فتقوى سلطتهم فأمر بهدم أسوارها حتى اذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئاً يستحق الاعتبار

* { تشديد الحصار على دمياط واستيلاء الصليبيين عليها } *

شدد الصليبيون الحصار على دمياط ومنعوا القوات من الوصول اليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً وبنوا عليه سوراً وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال وبما نعوهم وقد نفدت من عندهم الاقوات وغلت الاسعار والملك الكامل كان لا يزال في أشمون ناظراً الى دمياط وهي محصورة ولا يقدر ان يصل اليها وخشي أخيراً ان يئس أهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب أحد الجندرية المدعو شهاب للدخول الى دمياط لينشط من فيها ويعدهم بالانقاذ فكان يسبح في النيل الى ان يصل الى أهل دمياط فيوصل اليهم الاخبار ويعلمونهم ويعود وبقى على ذلك مدة فخطي بذلك عند الكامل وتقرب منه حتى جعله والياً على القاهرة واليه تنسب خزنة شهاب بالقاهرة - وفي أثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهاداً شديداً وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقس هدمها

المسلمون خيفة ان يباغت الصليبيون الاسكندرية من أجلها فيتخذونها حصناً لأنها كانت حصينة البناء كثيرة الأعمدة وجملوها بعد ذلك جامماً ولا تزال آثارها الى هذا العهد بقرب باب القباري . ثم دخلت سنة ٦١٦ وقد غلت الأسعار بدمياط بما هو فوق الحد فبلغ ثمن البيضة عدة دنائير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى أهل دمياط بحيل مختلفة فكانوا يأتون بحمل ويشقون جوفه ويملاونه فراخاً وفاكهة ونقلًا وغير ذلك ثم يخيطنون جلده عليها ويرمونّه في النيل فيسير منهجراً مع الجري فاذا جاء أمام دمياط نزل من فيها اليه وأخذوه واقتاتوا بما كان في جوفه . وكان الصليبيون يعرفون أحياناً هذه الحيل فيأخذون تلك المؤن ثم توالى هجماتهم على من في المدينة فقاتلوه قتيلاً شديداً خصوصاً جماعات الرهبان (جمعية الهيكلين وجمعية التيطونيكيين أي جمعية الشريط الأزرق التي أسسها ريكاردوس قلب الأسد ملك الانكليز) ثم أمر الكريدينال بيلاجيوس ان يتحد جميع الصليبيين للحرب دفعة واحدة برأً ومجراً وان يتسلحوا بالزروخ والزرديات فعلقوا السلام على الاسوار لتسلقوها وشددوا الحرب فجاهد المسلمون حق الجهاد واحرقوا سالماً الصليبيين بقذف النيران عليها وهجموا على الصليبيين هجمة قوية فقتلوا منهم كثيراً وأغرقوا كثيراً ثم كر الصليبيون عليهم واشتد القتال فلم بذلك الملك الكامل فصار يحشيه وهجم على مخيم الصليبيين لردهم عن محاربة المدينة فأنزمو قتلته ورجع بعضهم عن المدينة واشتد النزاع بين الملك الكامل والصليبيين وبين هؤلاء ودمياط فانكسرت العساكر الصليبية في هذه الوقعة وقتل منهم كثير وانهمزم منهم كثير فاتبع الملك يوحنا ملك سوريا المنهمزمين ليردهم وصار يرسل الى كل فار من رجعته ودامت هذه الحال بينهم أي كلما ضيق الصليبيون على أهل دمياط يصعد المسلمون الى أعلا البرج ويوقدوا ناراً لتظهرهم عساكر الملك الكامل فيعلمون بان أهل المدينة في ضيق فيهجم الملك الكامل بعساكره على مخيم الاعداء فيرتدون من محاربة المدينة ليحاربوا الملك الكامل وكانت تتواصل النجيدات من أوروبا الى الصليبيين بتحريض البابا . وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعاً وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد منهم وهدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الا بعض القمح والشعير . وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهراً و٢٢ يوماً فدخلوها واحكموا السيف في من بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الابخرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى

فلاحق الاحياء بهم وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرة فكان يموت الابن جوعا وليس من يسمى الى دفنه فيبقى في مكانه فيلاحقه الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا وجعل الصليبيون الجامع الكبير الذي بدمياط كنيسة لهم باسم القديسة مريم

* { في شقاق الصليبيين وبناء مدينة المنصورة } *

بعد استيلاء الصليبيين على دمياط قرر مجلس مشورتهم بان تكون دمياط تابعة للملك يوحنا دي بريانا ملك سوريا . ولما اتصل خبر سقوط دمياط بالملك الكامل رحل بمسكره بعد سقوطها بيومين ونزل قبالة طاعنا على رأس بحر اشموم ورأس بحر دمياط لينع الصليبيين من المسير الى داخلية القطر بجزراً وخيم في محلة المنزلة واقام معسكره هناك وكان الصليبيون قد قرروا سرعة المسير الى القاهرة ومحاصرتها حصل شقاق بين رؤسائهم وخصوصاً لان الكردينال بيلاجيوس كان يعتبر نفسه الرئيس الاعلى على جميع الصليبيين وجميع الرؤساء دونه رتبة والملك يوحنا دي بريانا ملك سوريا يعتقد انه هو الرئيس والكردينال بصفة رئيس ديني فزاد التنافر بينهم فغضب الملك يوحنا وعاد الى مدينة عكا بمسكره ومعه الاسرى وترك باقي الصليبيين في دمياط وقدمت فحبات للصليبيين من فرانس والنمسا وايطاليا ففرح الكردينال بذلك وعزم على المسير الى مدينة القاهرة فابي رؤساء العساكر المسير معه فارسل وفداً الى الملك يوحنا كي يستسمحوه ويرجع الى معسكر الصليبيين وقد حصنوا دمياط تحصيناً عظيماً وبشوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون ويأسرون .

أما الملك الكامل فانه أخذ في تحصين معسكره في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق الى ان صارت مدينة عظيمة ولقبوها بالمنصورة اشارة الى انتصاره على الصليبيين هناك كما سيأتي وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثهم على محاربة الصليبيين واخراجهم من ديار المسلمين

* { ما جرى للصليبيين بعد ذلك واستيلاء المسلمين على دمياط } *

ولما عاد الملك يوحنا دي بريانا الى معسكر الصليبيين انعقد مجلس مشورتهم وقرر سرعة المسير لمحاصرة القاهرة فتركوا أمتعتهم ومؤناتهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية كافية وساروا الى ان وصلوا نجاء المنصورة فيما هو أمام سراي المنصورة الآن وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف راجل وعشرة آلاف

فارس فقدم المسلمون شوائبهم أمام المنصورة وعدتها مائة قطعة فاصبح المسلمون في ضيق . فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اصوان الى القاهرة ونودي بالنفير العام ايضاً فيما بين القاهرة الى آخر الحواف الشرقي فاجتمع عالم كثير وانزل السلطان على ناحية شامساح الف فارس في آلاف من العربان ليحولوا بين الصليبيين ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على رأس بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الصليبيين من البر والبحر . وفي اثناء ذلك أتت النجيدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقها الملك المعظم عيسى فتلقاهم الملك الكامل وانزلهم عنده بالمنصورة في ١٣ جمادى الاخرى سنة ٦١٨ وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو أربعين الف فارس فخاربوا الصليبيين وأخذوا منهم ست شواني وأسروا منهم الفين ونيفاً فقتضضوا وضاق بهم المقام فخاربهم الملك الكامل بامر الصلح ليخرجهم من بلاده فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين الا شوبك والكرك لانهما أصبحتا ملكاً خاصاً له نالهما بالأثر من السلطان صلاح الدين وطلب اليهم في مقابل ذلك ان يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري فانهقد مجلس مشورتهم ورضي كل من يوحنا ملك سوريا وغيره من رؤساء العساكر وأما الكردينال فابي وداخله الطمع وبعد مجادلات أقر رأي الصليبيين على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم تيسى صاحب دمشق بهدم أسوار بيت المقدس فامنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرا من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سد ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعه فطاقت مياه الترعة حتى أغرقت جميع الاراضي التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على أرض مثل الجزيرة وقد حال الماء بينهم وبين نجدة أصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون قلة الطعام وكثرة المياه ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عند اشمون طناح فعبرت العساكر عليها وملك تلك الطريق فاضطرب الافرنج وضائق عليهم الارض . واتفق مجيء مرمة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقدمت كلها بالميرة والاسلحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفرت بها فاتصل ذلك بالصليبيين فزاد خوفهم وندموا على رفضهم المعاهدة المار ذكرها فطلبوا من

الملك الكامل الامان على ان يأسحبوا من القطر المصري جميعه ولا يطلبون لذلك مقابلا فقبل منهم الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ هجرية بان يعطى كل من الفريقين رهائن فأعطى الصليبيون الملك يوحنا دي بريانا ملك عكا والكردينال بيلاجيوس نائب البابا رهناً وأعطى الملك الكامل ابنه الملك الصالح وكان سنه ١٥ سنة وجماعة من الامراء فسار الصليبيون الى دمياط وسلموها للمسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد أجهدوا انفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر وبمد خروجهم بتقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الصليبيين فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين ثم ارسل الصليبيون الملك الصالح ومن معه الى أبيه فأرسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان ليوم دخوله اليها احتفال عظيم ثم عادوا وأقاموا بالمنصورة أياماً فأنشده هناك القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزوه

هنيئاً فان السعد جاء بخلا	وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فإحنا لنا بدا	مييناً وانعاماً وعزاً مؤبداً
تهلل وجه الارض بعد قطوبه	وأصبح وجه الشوك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ	طفاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه	صقيلا كما سل الحسام المهندا
فلم ينج الا كل شاة مجندل	نوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادي لسان الكون في الارض رافعاً	عقبرته في الحافقين ومنشدا
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه	وموسى جميعاً ينصران محمدا

فكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط الى ان ألقوا عنها ثلاث سنين وأربعة أشهر و ١٩ يوماً منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة أشهر و ٢٤ يوماً ثم سار الملك الكامل الى مقر ملكه في القاهرة وانتقل من دار الوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن القلعة

* ما جرى للملك فريدريكوس الثاني باوروبا

وامتدلاته على القدس صلحاً *

وبعد رجوع يوحنا دي بريانا الى عكا وجد مملكته في ضعف زايد من القوة والمال فسافر الى اوروبا طالباً المعونة من ملوكها فوصل الى البابا انوريوس الثالث

فقابل به باحترام وكتب له منشورات الى جميع الملوك بالتحريض بارسال تجريدة صليبية لاستخلاص القبر المقدس من أيدي المسلمين ثم سار يوحنا الى جميع الملوك بهذا الشأن فسا التفثوا اليه وكان ملك النمسا فريديريكوس الثاني عنده وفاة والده صغيراً فاقيم عليه وصياً البابا اينوشانسيوس الثالث الى ان بلغ وتسلم مملكته فلذلك كانت البابوية ذات دالة عليه فكتب اليه البابا يحرضه على المسير بنفسه الى سوريا وتجديد الحروب الصليبية ثم سعى في زواج فريديريكوس المذكور ابنة يوحنا سلطان سوريا المدعوة بولاندا لتوثيق العلاقة بينهما وتم الاحتفال بهذا الزواج في مدينة رومية وفي اثناء ذلك جدد فريديريكوس القسم بمسيره الى فلسطين وتخليصه قبر المسيح من يد أعدائه واستعد للسفر وقد نادوا في اوروبا بذلك فحضر اليه جملة عساكر من الانكليز وفرنسا والمانيا والنمسا وغيرهم وتعين لاجتماع العساكر مدينة برنيدس وكان من الرؤساء الذين قبلوا السفر للحروب الصليبية دوك دي بافيس ودوك دي أوطريش ولويس لاندغرافا وساروا بالجيوش فالتحدوا مع عساكر الملك فريديريكوس في المدينة المذكورة فاخذ يحثهم البابا بالمسير فنزلوا بالمرابك في سنة ٦٢٤ هـ وبعد مسيرهم من المينا هاجت عليهم العواصف فتشتت سرا كهم وبعد ثلاثة ايام عدل الملك فريديريكوس عن المسير الى فلسطين ورجع بعساكره الى مدينة اترانتا أما الامير لاندغرافا فبعد نزوله في البحر أخذته حمى فلهحق بفريديريكوس راجعاً الى المينا المذكورة وبعد أيام قليلة توفي . وكان البابا انوريوس قد توفي وتعين خلفاً له البابا غريغوريوس التاسع وهو الذي احتفل بنزول فريديريكوس الى البحر ولما بلغه عدوله عن السفر ورجوعه تكدر واعتبره عاصياً . ولذلك أرسل منشوراً الى جميع ملوك اوروبا يعلمهم فيه بجرمان الملك فريديريكوس فخارب الملك المذكور البابا برومية وأهانته اهانة شديدة أمام الهيكل المقدس وألزمه بالخروج من رومية . وفي ٦٢٥ هـ سافر براً قاصداً القدس ولما وصل الى سوريا لم يقابله الصليبيون هناك لعلمهم انه محروم من البابا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج منها الى الشام بعد وفاة أخيه المعظم يريد امتلاك دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود ابن المعظم ولما سمع بذلك داود المذكور أرسل الى عمه الملك الأشرف صاحب البلاد الجزرية يستجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه الكامل فسار الى دمشق فترددت الرسل بينهم في الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الأشرف الى الملك الكامل فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الملك

فريدريكوس واستقرت القاعدة على ان يساموا البيت المقدس بشرط ان يبقى الجامع مع المسلمين ولا يتعرض أحد من الصليبيين للمسلمين فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه وتضرروا من ذلك وكذلك جميع الصليبيين أنكروا هذا الصلح لانه على كلام مؤرخيهم صلح تفاق لحصول الاسلام على جامع شهير أمام قبر المسيح ولذلك أرسل البطريرك الى البابا يعلمه وانه وضع المنع على الكنائس المقدسة المستخلصة بهذه الصورة ونهى الزوار عن زيارتها ثم ان فريدريكوس سار بنفسه ومعه جماعة الى القدس ولم يتبعه احد من الصليبيين فوجد القمامة والكنيسة وغيرها قد تركها خدمها الرهبان لعدم مقابله لانه محروم فلبس التاج فيها بنفسه من غير احتفال كنائسي وذلك في ربيع الآخر سنة ٦٢٦ ثم انه حرر رسائل الى البابا والى ملوك اوربا يخبرهم فيه بامتلاكه القدس ثم أقام بالقدس يومين ولما وجد عدم احترامه عند الصليبيين سافر راجعاً نحو عكا ومنها الى بلاده فر بايطاليا فخارب اهل لومبارديا ثم حارب صهره يوحنا دي بريانا ثم توسل الى البابا غريغوريوس التاسع بالصفح عنه فرأف به البابا وحله من الحرم

* { ذكر خلفاء المسلمين } *

وكان في سنة ٦٢٢ في آخر ليلة من رمضان قد توفي الخليفة الناصر لدين الله ابو العباس احمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن وكانت مدة خلافته نحو ٤٦ سنة وعشرة أشهر و ٢٨ يوماً وعمره نحو ٧٠ سنة وسبب موته بالدوسنطاريا وكان سيئ السيرة ظالماً فتولى الخلافة بعده ولده ابو نصر محمد وتلقب بالظاهر بأمر الله فظهر في الرعية العدل والاحسان وأطلق من في السجون ووزع عليهم نقوداً ثم في ١٤ رجب سنة ٦٢٣ توفي الامام الظاهر بأمر الله المذكور فكانت خلافته تسعة أشهر و ١٤ يوماً وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه ثم بويع بالخلافة ابنه الاكبر ابو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وسلك في الرعية سيرة أبيه في الخير والاحسان والعدل

* { مؤتمر مدينة سبولاته } *

أرسل الصليبيون بسوريا يطلبون من البابا المساعدة ويخبرونه بان المسلمين يضيقون عليهم ويشنوا الغارة على بلادهم فعقد مؤتمر بمدينة سبولاته في سنة ٦٢٩

حضره الملك فريدريكوس وبطاريك اورشليم وبطاريك القسطنطينية وغيرهم من الاساقفة والرؤساء الكنائسيين فعرض عليهم البابا الرسائل الواردة له من سوريا وطلب منهم المساعدة والحث والتحريض بالحروب الصليبية المقدسة وكلفوا جمعية رهبان القديس عبد الاحد وجمعية رهبان القديس فرسيس الاكبر بالانذار بالحروب الصليبية بصفة مفوضين من البابا وكذلك أرسل البابا قسيسين الى كل من بغداد ودمشق ومصر ليجادلوا علماء المسلمين

﴿ باقي سلطنة الكامل ووفاته وسلطنة ولده العادل ﴾

وأقام الملك الكامل سلطاناً على الديار المصرية بعد أبيه الملك العادل أبي بكر ابن أيوب وكان قبل وفاة أبيه نائباً عنه على مصر كما تقدم وكان تارة يقيم بمصر وتارة يخرج منها الى الشام وذلك لقصد توسيع ملكه وأقام ابنه الملك العادل نائباً عنه بمصر في حال غيابه بالشام وأقام ولده الملك الصالح نجم الدين نائباً عنه في بلاد آمد . وحصن كيفا . وحران وغيرها من البلاد الشرقية وفي سنة ٦٣٥ بلغه وفاة أخيه الملك الاشرف فسار الى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك فوصلها في جمادى الاولى وحاصرها وفيها أخوه الملك الصالح اسماعيل ثم استلمها من أخيه المذكور واعطاه بدلاً منها بعلبك والبقاع وغيرها وذلك في ١٩ جمادى الاولى وأقام بدمشق ثم اصابه مرض فمات هناك في ٢١ رجب سنة ٦٣٥ وكان عمره نحو ستين سنة وكانت مدة سلطنته بمصر عشرين سنة ما عدا مدة نيابته بها قبل ان صار سلطاناً وهي قريباً من عشرين سنة وكان ملكاً جليلاً مهيباً حازماً أحسن التدبير يباشر شؤون المملكة بنفسه وينظر في أمور الجسور عند زيادة النيسل واصلاحها فعمرت في مدته ديار مصر أتم عمارة وكان محباً للعلماء ومجالسهم فاتفق رأي الامراء على تحليف العسكر للملك العادل أبي بكر بن الكامل وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فخلف له جميع العسكر واثابوا على دمشق الملك الجواد يونس ابن مودود بن العادل أبي بكر بن أيوب وصار الملك العادل سلطاناً على مصر واتفق في سنة ٦٣٦ كل من الملك الجواد يونس صاحب دمشق والملك الصالح نجم الدين أيوب شقيق سلطان مصر وكان اميراً على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات فأتى الملك الصالح الى دمشق وسار الملك الجواد يونس الى ما بين النهرين وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر والسعي لاختلاس الملك من أخيه

* { في سجن الملك الصالح نجم الدين أيوب } *

لما استقر الملك الصالح بدمشق وردت اليه رسائل من بعض امراء مصر يطلبون قدومه لاستلام مصر فاقام ولده الملك المنيف فتح الدين عمر نائباً بدمشق وسار قاصداً مصر وشرع يكتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه اليه وهو محتج ويمتد عن الحضور ويظهر انه معه ويعمل في الباطن على امتلاك دمشق وكان الناصر صاحب الكرك قد سافر الى مصر واتفق مع الملك العادل على قتال الملك الصالح أيوب وفي سنة ٦٢٧ سار الملك الصالح اسماعيل ومعه شيركوه صاحب حصن بجموعهما فهاجما دمشق وحصروا القلعة وتسلمها الصالح اسماعيل وقبض على المنيف فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وكان الصالح أيوب بنابلس ولما بلغه ذلك فسدت نيات عساكره عليه وشرع الامراء ومن معه من الملوك يفارقونه ورحل هو الى الغور ولم يبق عنده غير مماليكه واستاذ داره حسام الدين فاختار باصره وليس له موضع يقصده فقصده نابلس ونزل بها بمن بقي معه وسمع الناصر صاحب الكرك بذلك وكان قد وصل من مصر فنزل بمساكره وامسك الصالح أيوب وأرسله الى الكرك واعتقله بها وتفرق عنه باقي اصحابه ومماليكه ولم يبق معه منهم غير جماعة قليلة فارسل أخيه الملك العادل صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر فلم يسلمه له فارسل يهدد الناصر فلم يلتفت اليه

* { استيلاء المسلمين على القدس وما جرى للبابا وفريدريكوس } *

واستمرت تجهيزات الصليبيين للسفر الى سنة ٦٣٥ ثم قدم الى البابا غريغوريوس التاسع بودوين ملك القسطنطينية يطلب مساعدته على الروم فارسل البابا الصليبيين الذين تجمعوا الى القسطنطينية وفي سنة ٦٣٧ بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك سار الملك الناصر الى القدس وكان الصليبيون قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود ايضاً لانه لما خربت القدس اولا لم يخرب برج داود تخربه في هذه المرة . ثم انه بعد سفر الصليبيين الى القسطنطينية حصل نفور بين البابا المذكور والملك فريدريكوس حتى حصص بينهما محاربة شديدة برأً وبحراً ثم ان فريدريكوس حاصر مدينة رومية فتخلف اهاليها عن البابا فاخذ هذا ذخائر القديسين بطرس وبولس وخرج بها من شوارع رومية قاصداً أعداء الرومانيين قائلاً لهم ألا ترغبون في الحمامة عن هذه الوديعه

المقدسة المحفوظة في وطنكم وتهملونها لتفقد فمادت جميع العساكر الرومانية والنمساوية عن محاربتة وطردت الملك فريديريكوس ثم نجحت عساكر صليبية بقيادة تيوبالت الرابع كونت دي شمبانيا سلطان نافار وهوكاز دوك دي بورغونيا وبطرس دي دروكس وكونت دي بار وساروا قاصدين سوريا ولما وصلوا هنالك تفرقوا كل رئيس بمسكره يحارب لنفسه

«سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر وخلافة المستعصم» *

في آخر رمضان سنة ٦٣٧ أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب واجتمع عليه مماليك وسار الناصر والصالح الى قبة الصخرة وتحالفا بها على ان تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر ثم سارا الى غزه فلما باغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وبرز بمسكر مصر الى بليس لقصد الناصر والصالح وأرسل الى عمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ان يبرز ويقصدهما من الورا فصار الصالح اسماعيل من دمشق فنزل الفوار فينما الناصر داود والصالح أيوب في هذه الشدة بين جيشين قد أحاطا بهما اذ ركبت جماعة من المماليك الاشرفية ومقدمهم ايبك الاسمر وأحاطوا على دهليز الملك العادل وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليه من يحفظه وذلك يوم الجمعة ٨ القعدة فكانت مدة ملكه نحو سنتين وأرسلوا الى الملك الصالح أيوب يستدعونه فأتاه فرج لم يسمع بمثله وسار الملك الصالح أيوب والملك الناصر داود الى مصر ودخل الملك الصالح قلعة الجبل في صباح يوم الاحد ٢٤ القعدة المذكور فزينت له البلاد وفرحت بمقدمه الناس ثم سار الملك الناصر الى الكرك ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر أخذ في تمكين قدمه فيها فامر في السنة التالية وهي سنة ٦٣٨ بالقبض على ايبك الاسمر مقدم المماليك الاشرفية والامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه وباعوه مكانه وقتلهم جميعاً وولى مكانهم من اختبر أمانتهم نحوه ثم شرع في بناء قاعة الجزيرة واتخذها مسكناً لنفسه وفي سنة ٦٤٠ توفي المستنصر بالله في ١٠ جمادى الآخرة وكانت مدة خلافته ١٦ سنة و١١ شهراً ثم تولى الخلافة بعده ولده المستعصم بالله وهو السابع والثلاثون من بني العباس

* محاربة الصليبيين بغزة ورجوعهم الى بلادهم *

فسار بطرس دي دروكس نحو دمشق فاغار عليها وأخذ من القرى التابعة لها غنائم كثيرة من المواشي والبغال ولما علم بذلك باقي الأمراء الصليبيين طمعوا في المسلمين وساروا الى نواحي غزه وكان في أثناء ذلك ان قبيلة الخوارزميين طردهم جنكيزخان ملك التتر من شرقي آسيا أثناء فتوحاته هناك فجاءوا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلا عقدوا معهم عهدة وعاهدوهم على محاربة الصليبيين وأمراء سوريا الذين على دعوتهم (لان بعض ملوك سوريا كانوا قد حالفوا صليبيين سوريا على محاربة مصر وفي نظير ذلك سلموهم طبرية وعسقلان والشقيف والقدس فاحتل الصليبيون تلك الاماكن) فتجند الخوارزميون واخترقوا سوريا الى أن بلغوا غزه فخاربوا الصليبيين عند اسوارها وأنجدهم سلطان مصر من الجهة الثانية بساكر مصر بقيادة ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح وكان من اكبر مماليكه وهو الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك فانهزم الصليبيون فلتبعوهم حتى استولوا على غزه والقدس باسم الملك الصالح وهلك الصليبيون الذين بقيادة الكونت دي بار وسمعان دي منتفورت عن آخرهم والرئيسان المذكوران وقعافي الاسر بأيدي المسلمين مع من نجا وأرسلوا الى مصر مع بعض رؤوس القتل ولما بلغ الخبر الى تيوبلت سلطان نافر جمع باقي الصليبيين في مدينة عسقلان ثم سار منها بقصد نجدة الصليبيين المحاربين فلما وصل الى غزه وجد الحرب قد انتهت ودارت الدائرة على اخوانه فاخذته الوهن هو وعساكره ومن معه من الصليبيين وأقام بسوريا جملة شهر ثم جدد هدنة مع السلطان الصالح الذي أطلق الاسرى الصليبيين ولم يكن بينهم الكونت دي بار فحزنوا عليه حزناً شديداً ثم سافروا كلهم الى بلادهم غائمين سلامتهم وقدمت عساكر صليبية اخرى الى مدينة عكا بقيادة ريكاردوس دي كوتوبلاس ابن أخي ريكاردوس قلب الاسد فلما أرادوا محاربة المسلمين تخلف صليبيو سوريا عن مساعدتهم فلذلك جددوا عقد الصالح مع المسلمين واستأذنوا من السلطان الصالح في دفن قتلى الصليبيين بنواحي غزه فاذن لهم فدفنوهم ثم زاروا القدس ورجعوا الى اوطانهم

* محاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب وسجن بيبرس *

في سنة ٦٤٢ بلغ السلطان الصالح نجم الدين أيوب خبر وفاة ابنه الملك

المفنيث فتح الدين عمر في حبس الصالح اسماعيل صاحب دمشق فاشتد حزنه وحلقه على الصالح اسماعيل وفي سنة ٦٤٣ سار معين الدين ابن الشيخ بعسكر السلطان الصالح أيوب الى دمشق وحاصرها وكان بها صاحبها الصالح اسماعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حصن فتسلمها على أن يستقر بيد الصالح اسماعيل بعلبك وبصرى والسواد وتستقر بيد صاحب حصن بلده وما هو مضاف اليها فاجابها معين الدين الى ذلك ثم وصل الى دمشق حسام الدين بن أبي علي ومن معه من العسكر المصري وكان معين الدين بعد ما استلم دمشق قد مرض بها ومات فبقي حسام الدين نائباً بدمشق . ثم ان الخوارزميين خرجوا عن طاعة الصالح أيوب وصاروا مع الصالح اسماعيل وانضم اليه الناصر داود صاحب الكرك فساروا جميعاً الى دمشق وحاصروها وغلت بها الاقوات وقاسى اهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثليها وقام حسام الدين في حفظ دمشق اتم قيام ثم اتفق الحليون والملك المنصور ابراهيم صاحب حصن وساروا مع الصالح أيوب وقصدوا الخوارزمية فرحل هؤلاء عن دمشق وساروا نحو الحليين وصاحب حصن والتقوا على القصب في سنة ٦٤٤ فانهمزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان وحمل رأسه الى حلب ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشلوخان فلحقوا بالتر وصاروا معهم وانقطع منهم جماعة وتفرقوا في الشام وكفنا الله الناس شرهم ولما وصل خبر كسرتهم الى السلطان الصالح أيوب بمصر فرح فرحاً شديداً ودقت البشار بمصر وزال ما كان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حصن ثم رحل حسام الدين بن أبي علي الهبذاني بمن عنده من العسكر بدمشق ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح اسماعيل وحاصرها وتسلمها بالامان وحمل أولاد الصالح اسماعيل الى السلطان الصالح أيوب بمصر فاعتقلوا هناك ومعهم امين الدولة وزير الصالح اسماعيل واستاذ داره ناصر الدين تغمور فدقت البشار بمصر وزينت القاهرة لفتح بعلبك . ثم ان الصالح أيوب استولى على عجائون لوفاة صاحبها . ثم جهز الامير نجر الدين يوسف بن الشيخ الى حرب الملك الناصر صاحب الكرك فسار نجر الدين واستولى على جميع بلاد الملك الناصر وحاصر الكرك وخرب ضياعها فتولى على جميع البلاد ما عدا الكرك فانها بقيت بيد صاحبها وفي هذه السنة أيضاً حبس السلطان الصالح أيوب مملوكه بيبرس وهو الذي كان معه لما اعتقل في الكرك وسببه ان بيبرس المذكور مال الى الخوارزمية والى الناصر داود وصار معهم على استاذة (سيده) لما أرسله بتجريدة

الى غزاه كما ذكر فارسل استاذ الصالح أيوب واستماله فوصل اليه فاعتقله ثم ان الصالح
أيوب استقدم الامير حسام الدين من دمشق وانابه بمصر وولي بدلا منه على دمشق
الامير جمال الدين مطروح وسار الصالح أيوب الى دمشق ومنها الى بعلبك ثم عاد الى
دمشق وفي سنة ٦٤٥ عاد السلطان الصالح أيوب الى مصر ثم سار الامير نحر الدين
ابن الشيخ وفتح قلعتي عسقلان وطبرية من الصليبيين . ثم توفي علاء الدين
قراسنقر الساقى العادلي احد ممالك الملك العادل بن أيوب وصارت ممالكه بالولاء
لالصالح أيوب ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحى . وفي سنة ٦٤٦ أرسل الملك
الناصر صاحب حلب عسكراً مع شمس الدين لؤلؤ الارمنى فحاصروا حصن مدة
شهرين وبها الاشرف موسى فسلمها اليهم وتعوض عنها بتل باشر مضافا الى ما بيده
من تدمير والرحبة فشق ذلك على السلطان الصالح أيوب وسار الى الشام لارجاع
حصن من الحلبين فوصل دمشق وأرسل عسكرا الى حصن مع حسام الدين فزل
عليها وحاصرها وركب عليها المنجنيقات ووصل اليه نجم الدين الباذراي رسول
الخليفة وسعى في الصالح بين الصالح والحلبين وان تستقر حصن بيد الحلبين فاجاب
الملك الصالح الى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حصن بعد ان اشرفوا على أخذها
﴿ التتر بأوربا ومؤتمر ليون بفرنسا ﴾

لما ظهر التتر بأسيا لم يقتنعوا بما ملكوا بل ساروا بقيادة رئيسهم جانكيز خان الى
بلاد أوروبا فهاجموا على بلاد هونكريا وبلاد النمسا وتهددوا باقي الممالك فوق العرب
في قلوب ملوك أوروبا واحتاروا في أمرهم فامر البابا بإيقاد حرب مقدسة ضد هؤلاء
التتر ولكن نداء هذا لم يلاق صدى وأرسل ملك النمسا الى سائر الملوك يطلب اتحادهم
لصد هجمات التتر ولكن العرب كان ملأ قلوبهم فلم يلتفت أحدا اليه واكتفوا بالتوسل
في الكنائس يطلبون من الله ازالة هذا العدو . وكان الخوارزميون قد قاتلوا
صليبيين سوريا وأهلكوهم كما ذكر فسافر أسقف بيروت فاليران الى بلاد أوروبا يطلب
المساعدة فقابله البابا اينوشانسيوس الرابع بالحنو والشفقة ووعدته بالمساعدة التامة .
ثم ان بودوين الثاني ملك القسطنطينية التمس من البابا أيضاً الاغاثة لتعصيد كرسي
مملكته المائل الى السقوط من الروم لانهم شقوا عليه عصا الطاعة . وكان البابا أيضاً
قد تضايق من الحروب الحاصلة بينه وبين ملك النمسا فترك رومية وسار الى مملكة
فرانسا وعقد بها مؤتمراً عاماً في مدينة ليون سنة ٦٤٣ ففي هذا المؤتمر (السينودس)
حضر الاساقفة وأمراء الشرق وبودوين ملك القسطنطينية ونواب الملك فرديريكوس

ملك النمسا للمدافعة عنه في التهم الموجهة اليه من البابا في الجلسة الاولى التي عقدت في يوم ١٨ يونيه سنة ١٢٤٥ م افتتح البابا المؤتمر وعرض عليه الواجهة الآتية . أولاً مسألة التتر باوروبا . ثانياً انشقاق الروم . ثالثاً غزوات الخوارزميين بسوريا . رابعاً الاضطهاد الذي تعمده الملك فريديريكوس . فقرراً أعضاء المؤتمر ما يأتي . أولاً يلزم اغانة القسطنطينية وتخليص القبر المقدس وتجرید عساكر لايقاد حروب صليبية سابعة وان البابا والاساقفة يقدمون للنفقة على هذه الحروب عشر مداخيلهم وباقي الكليركين نصف عشر مداخيلهم وأصدروا الاوامر اللازمة لتجهيز هذه الحروب . ثانياً قرر بعزل الملك فريديريكوس ملك النمسا وذلك بعد مدافعة نوابه التي لم تأت بفائدة ثالثاً أمر البابا ان الكردينالية يلبسون اثواب لونها أحمر علامة على استعدادهم لسفك دماهم في حفظ الكنيسة

﴿ ابتداء الحروب الصليبية السابعة ﴾

﴿ سفر العساكر الصليبية السابعة ﴾

بعد انتهاء المؤتمر السابق المذكور أرسل البابا وأعضاء المؤتمر الى الملك لويس التاسع سلطان فرنسا يطلبون منه استعدادهم ومسيره لخلاص القبر المقدس من المسلمين فقبل طلبهم هذا ونبه على عساكره بالتجهيزات الحربية فنهت عن ذلك والدته وأرباب دولته . ثم أصابه مرض تهدد حياته فقدر للمسيح بانه اذا شفي توجه بعساكره لخلاص قبره . فاما شفي استلم الصليب وصار يجهز العساكر الصليبية السابعة للمسير فاستعد للسفر كل من السلطان المذكور وأخواته الثلاثة والكونت دي براتانيا وأولاده والدوك دي برغونيا . والكونت دي فلاندر . والكونت دي بار . والكونت دي منتفرت والكونت دي سان بول مع ابن أخيه شاتيلون والكونت دي سواسونس والكونت دي فاندوما وغيرهم كثيرون والامير جانفيل صديق الملك لويس التاسع وهو مؤرخ هذه الحروب وعقد الملك المذكور جمعية بمدينة باريس لتحديد ميعاد السفر وأقام والدته بلانشا نائبة عنه في المملكة مدة غيابه وقد اقسم له رجال حكومته بان يحفظوا الطاعة لعائلته ان حدث له شيء في سفره وأرسل البابا منشورات تقرأ في الكنائس بمدح الملك لويس التاسع صاحب الحروب الصليبية السابعة والثناء عليه وسار الملك لويس الى كنيسة القديس ديونيسيوس واستلم سنجق الصليب هناك من يد النائب البابوي كما انه البسه ثوب الحروب الصليبية ورجع الى باريس وحضر الذبيحة الالهية في كنيسة والده الاله الكاتدرائية وفي اليوم الثاني سار من باريس وبرفقته زوجته

صر غربتا وخرجت لوداعه الملكة بلائشا والدته وجميع الاكليروس ورجال الحكومة ثم سار من بلاد فرانس الجنوبية واجتاز اقليم لانكادوك ونزل في المراكب من ميناء اكس بورتاس وساروا في البحر المتوسط الى ان وصلوا جزيرة قبرص وأقاموا بها ثم انه تقش في المعسكر الصليبي مرض وبائي شديد اهلك معظمهم ومات به هناك الكونت دي دروكس . والكونت دي مونتفرت . والكونت دي فاندوما والارشامبود دي بوربون وغيرهم

﴿ وصول الصليبيين الى دمياط وغابرتهم للملك الصالح أيوب ﴾

كان السلطان الصالح أيوب قد فاجأ مرض ثقیل وهو تورم في مابضه تكوّن منه ناصور فتح وعسر برؤه وانضاف اليه قرحة في الصدر فازم الفراش في دمشق فجاءه منبئ يخبره بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر وأخذها وقد اكثروا من التجنيد ووردت اليهم النجذات من جميع ممالك أوروبا فلما علم بذلك وهو مريض لم يسهه الا مبارحة دمشق فسار في حفة ونزل اشمون طنّاح في أول سنة ٦٤٧ وجمع في مدينة دمياط من الاقوات والزاد والاسلحة وآلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان يجرى على دمياط ما جرى في أيام أبيه وجيز أسطولا من صناعة مصر وجعل فيه سائر ما يحتاج اليه الجند وسيره شيئاً فشيئاً وضم الي جنده كثيراً من العربان واكثرهم من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد قيادة حامية هذه المدينة الى الأمير نضر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ففي صباح يوم الجمعة ٢٠ صفر من هذه السنة وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جموعهم وحال وصولهم بعث ملكهم لويس التاسع الى الملك الصالح كتاباً نصه (أما بعد فانه لم يخف عليك اني أمين الامة العيسوية كما انه لا يخفي عليّ انك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك ان عندنا أهل جزائر الاندلس وما يحملونه اليها من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونحلي منهم الديار وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلك لك النصيح الى النهاية فلو خالفت لي بكل الايمان وأدخلت عليّ الاقساء والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصليبان لكنت واصلا اليك وقائتلك في أعز البقاع اليك فاما ان تكون البلاد لي في عادية حصلت في يديّ واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيك المليء ممتدة اليّ وقد عرفتك وخذرتك من عساكر حضرت في طاعتي عملاً السهل والجبل وعندهم كم عدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء) فلما قرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح

وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب
(بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين .
أما بعد فانه وصل كتابك وانت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فتحزن أرباب
السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بني عاينا باغ الا دمرناه ولو رأيت عينك
أيها المنرور حدسيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخربنا
ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك ان تعض على اناملك بالندم ولا بد ان تزل بك
القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك فهناك تسي الظنون وسيلم الذين ظلموا أي منقلب
ينقلبون فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه على أول سورة النحل أني أمر الله فلا
تستعجلوه وتكون على آخر سورة ص ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله
تعالى وهو اصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين
وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقبلك والسلام)

﴿ في امتلاك الصليبيين دمياط ﴾

وبعد ذلك عقد الملك لويس التاسع مجلس مشورة الصليبيين ليقرروا هل تنزل
عساكر الصليبيين الى بر دمياط أو تقيم أياماً بمراكبهم للاستراحة فقرر سرعة نزولهم
فنزل الملك لويس ومعه اخوته وبجانبه أحد الرؤساء رافعاً علم الحرب وامامه النائب
البابوي حاملاً الصليب واصطفوا للقتال في يوم السبت ٢١ صفر سنة ٦٤٧ فحصلت
بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض امراء المسلمين ثم حصلت أيضاً مناوشة في البحر
بين سراكب الصليبيين وسراكب المسلمين وفي المساء فر الأمير نخر الدين بغير
داع قبعه بنو كنانة وخرجوا من المدينة فنبههم الاهالي في الليل هائمين على
وجوههم لا ياتفتون الى شيء ولحقوا بالعسكر في اشمون فحلت المدينة للصليبيين
ففي يوم الاحد ٢٢ من الشهر المذكور سار الصليبيون قاصدين محاصرة المدينة فوجدوها
مفتوحة خالية من سكانها فدخلوها بامان واستولوا على جميع ما فيها من المؤن والذخائر
والاسلحة وعدة الحرب ودخلوا الجامع وجعلوه كنيسة فحسر سلطان مصر بذلك
خسارة لا تعوض فاستشاط الملك الصالح غيظاً لذلك وجمع اليه بني كنانة وعنفهم
لانهم زامهم على حين لم يكن داع للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الا بعد ان رأينا
الامير نخر الدين فاراً ومن وراء رجاله فامر الملك الصالح باعدام ٤٥ من امراءهم
لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنه

﴿ استيلاء الملك الصالح على الكرك ووفاته ﴾

وفي ٢٤ صفر سنة ٦٤٧ كان عسكر الصالح في المنصورة وحصنها واستعد للمدافعة وكان الملك الناصر صاحب الكرك قد سار الى حلب مستنجراً بصاحبها واستناب على بلاده ابنه عيسى ولقبه الملك المعظم وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى وهما الامجد حسن والظاهر شاذي ففضبا لتقديم أخيهما عيسى عليهما وبعد سفر أبيهما قبضا عليه وتوجه الامجد حسن الى الملك الصالح أيوب وهو مريض في المنصورة وبذل له تسليم الكرك على اقطاع له ولاخيه بديار مصر فاحسن اليه الصالح أيوب وأعطاهما أقطاعاً أرضهما بها وأرسل الى الكرك من تسلمها يوم الاثنين ١٨ جمادى الآخرة وفرح الصالح بالكرك فرحاً عظيماً مع ما هو فيه من المرض وفي ليلة الاحد ١٤ شعبان توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب وكانت مدة سلطته على الديار المصرية تسع سنين و٨ أشهر و٢٠ يوماً وعمره نحو أربعين سنة وكان مهيباً عالي الهمة عفيفاً طاهر اللسان والذيل شديد الوقار كثير الصمت وجمع من الممالك الترك ما لم يجتمع لغيره حتى كان أكثر امراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة منهم حول دهلوزه وسماهم البحرية ولم يبق من أولاده غير الملك المعظم تورانشاه وكان مقبلاً بحسن كفا ومات الصالح ولم يوص بالملك لاحد فكان من جملة جواريه جارية تدعى شجرة الدر وهي والدة المعظم تورانشاه فتواطأت مع الامير نخر الدين ورئيس الخصى جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها ويقال ان الملك الصالح كثيراً ما عهد اليها ادارة الاحكام اثناء غيابه عنها في حملاته الحربية . فلما توفي كتمت أمر موته ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلة (ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعبد ابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه وقد عين الامير نخر الدين نائبك لادارة الاحكام) فبايع جميع الامراء . ثم أرسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد وأعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك محتومة بختم السلطان الصالح الى جميع أنحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حياً لكنهم عند ما علموا بان الامير نخر الدين أرسل قاصداً لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

﴿ محاربات الصليبيين وواقعة المنصورة ﴾

بعد امتلاك الصليبيين مدينة دمياط رتبوا حاكم فيها وأقامت بها الملكة صرغتمشا وسافروا منها قاصدين مصر القاهرة فوجدوا معسكر المسلمين بالمنصورة فردهم عن غرضهم فاقاموا في الموضع الذي قامت به العساكر الصليبية السادسة واستمرت بين العدوين المناوشات وأخذت العساكر الاسلامية تحذفهم بالنبال وكرات النار التي يسميها مؤرخوهم النيران (الفريجوازية) وكان كل يوم يقتل من الصليبيين كثيرون ويأسر منهم خطفاً كثيرون ولما بلغ الصليبيين خبر وفاة الملك الصالح طمعوا في البلاد فخاربوا العساكر الاسلامية محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي بقيادة الامير نحر الدين خارب ببسالة كلية . كل ذلك حصل بين الجيشين ببحر أشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة وهم لا يعلمون طريقاً اليها غير النيل فأتى اليهم بعض من غدر من المسلمين وأخبرهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسان جمعية الميكلين وجمعية القديس يوحنا المعمدان بقيادة الكونت روبرتوس دي ارتواز شقيق الملك لويس وهاجت معسكر المنصورة بغتة وكان الامير نحر الدين في الحمام فأتته الاخبار بهجوم الصليبيين فنادى برجاله وخرج للدفاع فأدركه بعضهم فقتله واشتد عزم الصليبيين حتى كادت تدور الدائرة على المسلمين لولا مماليك السلطان الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانقضوا على الصليبيين انقضاء الاسود على فريستهم فقتلوا راول دي كوزي وغويليوم لونكانيه رؤساء الجمعيات المذكورة والكونت روبرتوس أخ الملك لويس ثم باقي الفرسان فلم يبقوا منهم احداً ولما بلغ خبر هذه الواقعة الملك لويس ومقتل أخيه أمر بوجو رئيس الجيوش بالسرعة في المسير الى معسكر المسلمين ومباغتتهم فسار الى ان وصل الى معسكر المسلمين واشتد بينهم القتال تارة بالنبال وأخرى بالرمح ومثلها بالبلطات وبالسيوف وبعد جهاد عجيب وصبر من المسلمين شديد قتل من الصليبيين والي ترشاطو . وهو كز دي اكوسا . وراول دي فنوره . وفاريس دي لوبي وأما ارارد دي ايري فضربه أحد المماليك بسيفه فقتل وجهه شطرين فلاحقهم الملك لويس وقوى عزمهم وقد وقع اخوه الثاني الكونت دي انجو عن حصانه فاراد المسلمون أسره فاحقه لويس وجنده وخلصه من أيديهم واستمر القتال عاماً بين جميع الصليبيين وعساكر المسلمين وقد أعيا الفريقان التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وبعد انقضاء هذه

الواقعة العظيمة نزل بمعسكر الصليبيين امراض رديئة من كثرة جثث المقتولين منهم وتضاعف العفونة فأفسدت الهواء عليهم فكثرت بينهم الموت كآفة وباء ثم أعقب ذلك قناء زادهم واشتد عليهم الجوع وضربهم بسيفه تكميلاً لمصائبهم . لأن عساكر المسلمين وقفوا بمراكبهم في البحر بالقرب للمنصورة . وكما وجدوا مراكب واردة للصليبيين بالقوت هجموا عليها وأخذوها وأرادت ثانياً الى دمياط وكذلك الملك لويس نفسه مرض نخاف جميع الصليبيين ان يموت الملك فاجتمعوا وعولوا على طلب هدية لرفع السلاح أياماً معدودة

﴿ قدوم المعظم تورانشاه وسلطنته وواقعة الصليبيين ﴾

﴿ واسر لويس التاسع وغيره ﴾

في ٢١ القعدة سنة ٦٤٧ قدم السلطان غياث الدين تورانشاه من حصن كيفا فاستولى على سلطنته واشتد عزم المسلمين به وضعفت قلوب الصليبيين ووقع القتال بين الفريقين في البر والبحر فأسر المسلمون ٣٢ مركباً فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم أرسل لويس التاسع يطلب المصالحة على ان يأخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط فرفض الملك المعظم هذا الطلب وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ عزم الصليبيون على الرجوع الى دمياط فمعههم المسلمون حتى أدركوهم غربي فارسكور فاستلحموهم وأخذوا في قتلهم ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ ألفاً وأسروا الملك لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة وقيدوه بالسلاسل الحديدية وكان الملك لويس واخوته وجميع رؤساء جيشه قد انحازوا الى منية أبي عبد الله وطلبوا الامان فأمهم الطواشي بمحسن الصالح ثم احتاطوا بهم وقبضوا على الملك المذكور واخوته وجميع الرؤساء وأحضروهم الى المنصورة وجعلوهم في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشاء نحر الدين بن لقمان ووكل بالملك لويس الطواشي صديح المعظم ثم رحل الملك المعظم من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب بها برجاً من الخشب

﴿ قتل المعظم وسلطنة شجرة الدر واطلاق الملك لويس التاسع ﴾

ثم ان الملك المعظم تورانشاه عزل جميع من كان بيده أزمة الحكومة من أمراء آبيه ومثاليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه واعتمد على رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا وكانوا سفلة أراذل فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور وهجموا عليه بالسيوف وكان اول من ضربه ركن الدين

بيبرس فهرب الملك المعظم منهم الى البرج الخشبي الذي نصب له بفارسكور فاطمقوا في البرج النار فخرج المعظم من البرج هارباً طالباً البحر ليركب في حرا قته فخالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فادركوه واثموا قتله في يوم الاثنين ٢٩ محرم سنة ٦٤٨ وكانت مدة اقامته في المملكة من حين وصوله الى الديار المصرية شهرين واياماً وبموته انقرضت الدولة الايوبية ولما جري ذلك اجتمع الاصراء واتفقوا على ان يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة وان يكون عن الدين ايبك الجاشنكير الصالح المعروف بالتركاني اتابك العسكر وحلفوا على ذلك في ١٠ صفر سنة ٦٤٨ وخطب لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة باسمها وكان نقش السكة (المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل) وكانت قد رزقت من الملك الصالح ولداً اسمه خليل مات صغيراً (فسميت بهذا الاسم) وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل ثم دارت الخبايرة بين رجال الحكومة المصرية وبين الملك لويس التاسع المحبوس بشأن اطلاقه هو ومن معه من الاسرى فتم الصالح على ان يدفع ٨٠٠ الف دينار ويسلم مدينة دمياط ويرحل بسلام وتطلق الحكومة المصرية جميع الاسرى فاستقر الرأي على ذلك وكانت دمياط لم تزل مع الصليبيين والعساكر الاسلامية محاطة بها والمملكة مرغريتا تقيم فيها وهي حامل فوضعت ولداً فسمته تريستان (اي الحزين) وكان الصليبيون الذين معها بالمدينة وهم البيزاويون والجنويون قد عزموا على ان يهربوا من المدينة ويتركوا هذه المملكة فوزعت عليهم جميع ما عندها من الذهب والفضة حتي استمالهم ثم ركب الملك لويس واخوته وبعض الرؤساء وساروا قاصدين دمياط وحوله العساكر الاسلامية للاستيلاء على دمياط واستلام المبلغ المقرر فلما وصلها سالمها للعساكر المصرية ودفع ٤٠٠ الف دينار ونزل هو وباقي الصليبيين وزوجته بمراكب البحر وسار قاصداً عكا فقال جمال الدين يحيى ابن مطروح في ذلك ابياتاً منها

قل للفرنسيس اذا جئته	مقال صدق عن قؤول نصيح
آيت مصرأ تبني ملكها	تحسب ان الزمر ياطبل ريج
وكل اصحابك اوردتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمين الفأ لا ترى منهم	غير قليل أو أسير جريح
الهمك الله الى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح

إذا كان باباكم بذاً راضياً فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن اضمروا عودة لاخذ ثار أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح
﴿ الملك لويس بعكا وسلطنة ايبك الجاشنكير ﴾

ولما وصل الملك لويس التاسع الى عكا ببعض رجاله لان الآخرين سافروا الى
بلادهم اجتمع في جمع باقي المبلغ المقرر وقدره ٤٠٠ الف دينار ولما كمل عنده
ارسله صحبة بعض الصليبيين الى الديار المصرية وطلب اطلاق باقي الاسارى فاستلموا
المبلغ وأطلقوا نحو اربعماية أسير فقط فاغتناظ لويس وأخذ يستعد في تحصين بلاد
سوريا واما شجرة الدر فان الناس لم يرنأحوا الى طاعتها فانفذ السوريون الى الخليفة
العباسي في بغداد يستفتونه في أمر هذه الملكة فكتب اليهم مامفاده (اذا لم يكن
بينكم من يصالح لسلطنة اقدم اليكم فاقم عليكم من يحكم فيكم اما قرأتهم ما قاله النبي
صلى الله عليه وسلم عليهن) فاستمسك بممالك مصر بهذه الفتوى وثار رفقائهم
في دمشق وخاموا طاعة شجرة الدر ويايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف
الايوبي في ٨ ربيع اول سنة ٦٤٨ وقتلوا كل من كان في دمشق من المماليك على
دعوة شجرة الدر وفعل مثل ذلك اهل بعلبك وشميس وعجلون فحشا بسبب ذلك
خصام بين ممالك سوريا وممالك مصر آل الى مواقع حربية فتمكن عن الدين ايبك
في هذه الانقسامات والاستقلال واجبا الامراء شجرة الدر الى الاستقالة فاستقالت
ثم بويع عن الدين ايبك على مصر ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركاني الصالح
وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبا الى حزبه . وبعد قليل انقسم المماليك الى
حزبين عرفا بالمعزيين نسبة الى الملك المعز ايبك وبالصالحين نسبة الى الملك الصالح نجم
الدين وتنازعا النفوذ ففاز الصالحيون .

﴿ سفر اخوات الملك لويس الى فرنسا وسلطنة الملك الاشرف ابن يوسف ﴾

وفي أثناء ذلك ارسلت الملكة بلانشا والدة الملك لويس التاسع ونائبته على
المملكة الى ولدها المذكور بسوريا تطلب منه سرعة سفره الى مملكته فعزم
على السفر فاستغاث به صليبيو سوريا وطلبوا منه البقاء معهم خوفاً من استيلاء
المسلمين على بلادهم بعد سفره فاجاب طلبهم وعادل عن السفر الى مملكته
فلما رأى ذلك اخواه اي عمره على الإقامة بسوريا ركبا البحر وتبعهما باقي

الصليبيين وسافروا الى بلادهم . وأما المماليك الصالحيون فانهم اجبروا ايبك أن يقبل بمبايعة شاب من العائلة الايوبية لم يبلغ الثامنة من العمر وكان في اليمن واسمه موسى مظفر الدين بن يوسف اتسر ملك اليمن فبويع في ٥ جمادى الاولى سنة ٦٤٨ وبايعه الناس ولقبوه الملك الاشرف وامين عن الدين ايبك انا بكاله غير ان ازمة الاحكام ما برحت في يده ولم يكن الاشرف الا اسماً بلا معنى ومن الغريب تأليف هذه السلطنة المزدوجة من أحد سلالة العائلة الايوبية وأحد ممالكها والاغرب من ذلك أن يخطب لهما معاً

﴿ حروب بين المماليك والسوريين واتحادهم مع الملك لويس ﴾

﴿ وتخریب دمیاط ﴾

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق ناصر الدين يوسف الايوبي للاخذ بشار الملك المعظم فدعى اليه اقاربه امراء العائلة الايوبية للتعاقد على ذلك ولتأكيد النجاح بمساعدة طاب من الملك لويس التاسع مساعدته ولما أحس بذلك المصريون أرسلوا الى لويس المذكور مائتي فارس من الأسرى وطلبوا منه عقد معاهدة مقنضهاها ان المصريين اذا انتصروا على صاحب دمشق اعطوا ملك فرانسوا القدس وان جميع البلاد التي يستولون عليها تكون مناصفة بينهم قال الملك لويس الى معاهدة المصريين واعتذر الي صاحب دمشق بأن بينه وبين المصريين هدنة بعشر سنين فاقبل أمر تلك المخبرات بسلطان دمشق فانفذ فرقة من عشرين الف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين فعمثوا بالمصريين في غزاة فمأهضوهم حتى ارجعوه الى الصالحية فانجدهم الفارس اقطاعي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ في العباسية وتقاتلا فانكسر المصريون أولاً فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفارس اقطاعي انهماهما نحو سوريا ومعهما جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شردمة من رجاله فقتلاه وشتتا رجاله فاشتد ازرها فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شردمة قليلة من الجند . أما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الحیوش المصرية المنهزمة فاضطر ناصر الدين الى الفرار بنفسه فنبعا فلم يدركه فعادا الى مصر فرأيا الحیوش السورية قد دخلت القاهرة وخاف اهاليها ظناً منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوه وخطبوا له . الا ان الأئمة لم يوافقوا على تلك المبايعة فلم ينجوا من انتقام ايبك فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جداً وابطلوا

مبايعة ناصر الدين أما هذا فلما رأى أمر انكساره على ما تقدم لم يعد يمكنه إعادة الحرب ثانية فصالح المصريين على أن ينجلي لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس ولكنه ربح من الجهة الثانية ما كان يرومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين . ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من قدوم الصليبيين إليها مرة أخرى فسيروا إليها الحجارين والفيلة فقتلوا هدم أسوارها وحيت أنوارها ولم يبق منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح واخصاص ابتناها بعض الفقراء للسكن في قبائها ودعوا ذلك المكان المنشية . أما دمياط الباقية إلى هذا العهد فابتليت على انقاض تلك

﴿طلب الملك لويس التاسع النجدة من أوروبا ووفاء الأشرف بن يوسف﴾

لما علم الملك لويس بفساد المعاهدة المذكورة واتحاد المسلمين خاف على بلاد سوريا فأرسل إلى البابا برومية يطلب منه المساعدة في إرسال نجدة إلى سوريا وكذلك أرسل إلى والدته بلانشا نائبة الملكة الفرنسية فسار البابا يرسل المنشورات بالحث والتحريض على نجدة لويس إلى ملوك أوروبا فلم ياتفت أحد إلى أوامره وكذلك في فرنسا وذلك لعلم الجميع بما حصل للملك فرنسا وغيره من الملوك وأنه من عهد الحروب الصليبية الأولى وتجريداتهم تذهب هباءً منثوراً . وأما من جهة المصريين فإن الفارس اقطاعي عظم في عيون المصريين لما أظهره من البسالة والاقدام في الحروب الأخيرة فلقبوا أحزابه بالملك وتزوج أخت المنصور سلطان حماه واسكنها في القلعة لانصال جبل قربها بالعائلة المملوكية فأوجس أيبك شراً من انتشار نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرته في الملك فأخذ يسعى للتخلص منه وكان الفارس زعيماً لحزب من المماليك الصالحية وكان يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الأشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقى كثيرين منهم وفي جهاتهم سيف الدين قطوز الذي صار ملكاً بعد ذلك . أما الفارس اقطاعي فقتله أيبك وهو داخل بسراري القلعة ثم خشي الوقوع في شر أعماله فأمر بقفل أبواب القلعة وأبواب المدينة ولبت يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى جاء الأسماء الصالحيون برئاسة ركن الدين بيبرس ومجهمروا على أبواب القلعة وطلبوا الفارس اقطاعي ظناً منهم أنه كان مأسوراً فرمى إليهم رأسه من على السور فلما علموا بقتله ارتفعت قلوبهم فعمدوا إلى الفرار قاصدين باب القراطين فقتلهم وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم شرذمة قبض عليهم وأودعوا السجن . فلما تخلص الملك المعز

ايبك من طائفة الامراء الصالحين قبض على الملك الاشرف وألقاه في سجن مظلم فسات فيه تغيساً بعد ان حكم سنة وشهراً واستقل ايبك بالسلطنة واستوزر شخصاً من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله ابن صاعد الفارزي أحد كتّاب الاقباط وكان قد تظاهر بالاسلام في أيام الملك الكامل وترقى في خدمة الكتابة وكان طبيباً له مشهوراً بالطب والسياسة فلما صار وزيراً قرر على التجار وذوي اليسار وأرباب السقاير أموالاً ورتب مكوساً وهو أول قبضي ولي الوزارة

﴿ انتهاء الحروب الصليبية السابعة ﴾

لما علم الملك لويس التاسع بان أوروبا لا ترسل اليه عساكر صليبية ولا يأتيه أحد من مملكته نفسها خاف من فشله فأرسل الى بلاد المورده ورومانيا وقبرص يطلب الجنود على نفقته فجاءته عساكر منها برواتب شهرية ومصاريف وغيره حتى فرغت خزائنه ولكنه لم يمكنه ان يتقدم لمحاربة المسلمين فحصل له فشل فصرف جهده في تحصين بلاد الصليبيين بسوريا لصد هجمات الهاجين ثم أتاه خبر من فرانسافيد موت والدته الملكة بلانشا نأبة المملكة وطلب سرعة حضوره لاستلام المملكة فخالاً استعداد للسفر ونزل في مراكبه وسار نحو بلاد فرانسافقاصداً مملكته وبذلك انتهت الحروب الصليبية السابعة

﴿ وفاة ايبك الجاشنكير وسلطنة ولده نور الدين ﴾

ولما استتب المقام لايبك وتخلص من المماليك الصالحية وغيرهم ممن كانوا ينازعونه الملك حسب الجود قد خلا له وما دري ان شجرة الدر لا تزال واقفة له بالمرصاد بعد ان صارت له زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها مع علمه باستقلالها من همام الملك على انه لم يستطع احتمال هذا التقييد والباطان في يده فجعل يبحث عن طريقة تنقذه من هذه القيود مع علمه ان مكائد النساء أشد وطأة من ملاقات أبطال الرجال . فادعى انها عقيمة لا يرجو منها نسلاً فاقننى عليها سراري أخريات فولدت له احداً ولدأ دعاه نورالدين علي ثم بلغها انه ساع الى التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد أمسك عن زيارتها فاشتعلت حسداً لعلمها ان هذه الزوجة الأخيرة من بنات الملوك نكحفت ان نخل محايها من العظمة فاقرت على الكيد به . فبينما كان ماراً في ٢٣ ربيع اول سنة ٦٥٥ في الدهليز السري الى دار الحرم وثب عليه خمسة خصيان بيض كانوا قد

كمنوا له هناك وحقنوه بعمامته وكان ذلك بدسيسة شجرة الدر فاشاعت انه مات مصروعاً وكان ايبك ظلوماً غشوماً سفاكاً للدماء . ولم تجسر شجرة الدر تعاطي الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فجاءت بخاتم الملك الى اميرين من كبار الامراء وهما جمال الدين عضو غدى وعز الدين الحلي وطلبت اليهما امام جثة زوجها ان يستلما زمام الاحكام فأبيا . وكان قتل ايبك في داخل السراي ليلاً ولم يشع الخبر في القاهرة حتى الصباح التالي . فلما علم انتخابه من المماليك بما حل به أضمروا على الانتقام وكان سن ابنه نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوه واقبلوه بالملك المنصور وكانت مدة ايبك في الاحكام عشرين سنوات و ١١ شهراً شاد في خلالها بنايات عظيمة وفي جعلها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلاً مخصوصاً للنفقة عليها . وهو اول من أقام من ملوك الترك بقاعة الجبل . ولما بويع الملك المنصور قبض على قاتلة أبيه وعهد بها الى نساء بيته فاماتوها ضرباً بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق القاعة فأكات الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة أما الملك المنصور فلم يحكم الا مدة قصيرة تحت منظره وصيه شرف الدين هبة الله المتقدم ذكره ولم يلبث حتى استبدله بسيف الدين قطوز مع لقب اتابك اي وصي الملك ونائبه ولما تولى سيف الدين هذا المنصب استقدم اليه المماليك الصالحية من سوريا وعقد معهم مجلساً أقروا فيه على عدم لياقة نور الدين للاحكام نظراً لصغر سنه وأذاعوا ذلك فأنزلوا نور الدين في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧ بعد ان حكم سنتين

﴿ استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية ﴾

في أول سنة ٦٥٦ قصد هولاكو ملك التتر مدينة بغداد وملكها في ٢٠ محرم عنوة وقتل الخليفة المستعصم بالله وسبب ذلك ان وزير الخليفة مؤيد الدين العلقمي كان رفضياً وكان أهل الكرخ روافض فجرت فتنة بين السنة والشيعة ببغداد على جاري عادتهم فامر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين دويدار العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر واطمعههم في ملك بغداد وكان عسكر بغداد يبلغ مائة الف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل الى التتر متحصلاً اقطاعهم وصار عسكر بغداد دون عشرين الف فارس وارسل ابن العلقمي الى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم وخرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدويدار والتقوا على مرحلتين

من بغداد واقتتلوا قتالا شديداً فانهمزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم الى جهة الشام ونزل هولاء على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجو وهو مقدم كبير في الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي الى هولاء فوثق منه لنفسه وعاد الي الخليفة المستعصم وقال له ان هولاء يبتكفون في الخلافة كما فعل بسطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر وحسن له الخروج الى هولاء فخرج اليه المستعصم في جمع من اكابر اصحابه فانزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والامثال فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محي الدين ابن الجوزي وأولاده وكذلك بقي يخرج الي التتر طائفة بعد طائفة فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم ثم مدوا الجبر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف في بغداد وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ولم يسلم الا من كان صغيراً فاخذوا أسيراً ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً ثم نودي بالامان وأما الخليفة فانهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقل خنق وقيل غرق في دجلة وقيل غير ذلك وكان المستعصم ضعيف الرأي وكانت خلافته نحو ١٦ سنة وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد وكان ابتداء دولتهم في سنة ١٣٢ وكانت مدة ملكها ٥٢٤ سنة تقريباً وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة

﴿ سلطنة المظفر سيف الدين قطوز وانتصار المصريين على التتر ﴾

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه فهو ابن مودود شاه ابن اخ الملك خراسان فتح التتر بلاده فقتلت عائلته ولما تولى سلطنة مصر لقب بالملك المظفر وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين وأمر بقتله فحاول العلامة شرف الدين المدافعة عنه فصلبه على باب القلعة . ثم لاح له ان دمياط بعدان دكت أسوارها لم يعد شيء يعيق هراكب العدو عن المرور في النيل فامر بردم مصب النيل هناك وبنت بفرقة من الحجارين ففضوا وقطعوا كثيراً من الحجارة والقواها فيه حتى ضاق وتعذر سير المراكب منه الى دمياط وهو على ذلك الى اليوم فان المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيه فنقل البضائع منها الى الجروم والمتواتر على السنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل اورمل مجتمع هناك . ثم كاتب ركن الدين بيبرس البندقداري الملك المظفر قطوز فبذل له الامان ووعدته الوعود الجميلة فجاء بيبرس الى مصر في جماعة من اصحابه فأقبل عليه الملك المظفر واكرمه وانزله في دار الوزارة واقطعه قلوب واعمالها وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائد تترى ناقلاً منشوراً من هولاء

ملك المغول (التتر) حفيد جانكيز خان وكان التتر قد انتشروا في جميع آسيا الشمالية والشرقية واستولوا هولاكو بعد بفسداد الموصل وحلب ودمشق وجميع السواحل البحرية حتى قدم مصر فبعث اليها منشوراً ونصه (من ملك الملوك الحاكم من الغرب الى الشرق أعظم الخانات هولاكو خان فاتح الفتوحات الغربية صاحب الحيوش العديدة الى أهل مصر • فيأهل مصر لا تخاطروا بانفسكم في محاربي لانكم ان فعلتم اذا اتمم مخذولون فاقتدوا بغيركم من سكان حلب والموصل) فلما قرأ قطوز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوحات هذا التتر وما هو عليه من القوة والمنعة اوجس خيفة غير ان جيوشه كانوا قد حاربوا الحيوش الصليبية وانتصروا عليهم ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر واثقة النصر فاستخفوا بقول هولاكو واصروا على القتال فحشدهم قطوز وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليه قبائل العربان وفرق فيهم وفي سائر جيشة نحواً من ٦٠٠ الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاه تصقيع الاملاك وزكاتها واحداث على كل انسان ديناراً يؤخذ منه واخذ تلك التركات الاهلية فكان يجمع منها ٦ آلاف ديناراً سنوياً • ثم سار من القاهرة للقاء التتر في غاية شبان سنة ٦٥٨ • وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت ابيه منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حالاً ليطالب بحقوق الوراثة فماد تاركاً في سوريا قسماً من نخبة فرسانه تحت قيادة نسيه ونائبه كتبوا لمحاربة قطوز فالتقيا في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الجيشان فانهزمت التتر هزيمة قبيحة واخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبوغا واسرابه وتعلق من سلم من التتر برؤوس الحبال وتبعهم المسلمون فأفئوهم وهرب من سلم منهم الى الشرق فأرسل ركن الدين بيبرس البندقداري في أثرهم فتبعهم المسلمون الى اطراف البلاد الشرقية فتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم لان القلوب كانت قد يئست من النصر على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ولانهم ما قصدوا اقلها الا فتحوه ولا عسكرياً الا هزموه فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وفي يوم دخول المظفر دمشق امر بشنق جماعة من المنتسبين الى التتر فشنقوا وكان من جملتهم حسين الكردي طيردار الملك الناصر يوسف وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها تحتوي على ثمن ما نهبه هولاكو من اغنى المدن أثناء فتوحاته

❖ قتل الملك المظفر و السلطنة الظاهر بيبرس البندقداري ❖

وبينا كان الملك المظفر قطوز عائداً من سوريا الى الديار المصرية اتحدت المماليك

الصالحية على قتله ومنهم ركن الدين بيبرس البندقداري وانص مملوك لنجم الدين الرومي الصالحى والمباروتى وعلم الدين صغن أغلى وساروا معه يتوقعون الفرصة فلما وصل قرب الصالحية وقد سبقه العساكر الى الصالحية فيينا هو سار وحوله الامراء اذ مر بين يديه أرنب بري وكان مولعاً بالصيد فسار في أثره في عرض الصحراء وساروا معه الامراء المذكورين فلما بعدوا تقدم اليه انص وشفع عنده في انسان فاجبه الملك المظفر قطوز الى ذلك فاهوى لتقيل يده وقبض عليها فحمل عليه ركن الدين بيبرس حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وذلك في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ ثم دفنوه في قبر صغير قرب قبر خلف نخشي ذوو الفقيد ان تبلغ الموسى لحاهم فنفرقوا في مصر السفلى لا يظهرون على أحد فكانت مدة ملكه احدى عشر شهراً و١٣ يوماً وسار بيبرس بعد ذلك ورفقاءه حتى وصلوا الى الدهليز بالصالحية وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين اقطاعي المستعرب فسألهم نائب السلطنة المذكور وقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال له اقطاعي اجلس يا خوند في مرتبة السلطنة فجلس واستدعيت العساكر للتحايف فحلفوا له في اليوم المذكور أيضاً واستقر بيبرس في السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ثم بعد ذلك غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لانه بلغه ان القاهر لقب غير مبارك وأضاف اليه أبو القتوح وكان يلقب أيضاً بالعلي وبالبندقداري نسبة الى سيده المسمى علاء الدين بندقدار الصالحى ثم سار الملك الظاهر بيبرس الى القاهرة فدخلها وكانت مزبنة للملك المظفر فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس ولما تم له أمر السلطنة جعل بهاء الدين وزيراً وبيلي بك وهو من أعز أصدقائه من المماليك خزانة واستقدم من بقي من عائلة قطوز فامتهم وضمهم اليه واطلق من في السجون جميعاً بغير استثناء وأكثر من العطايا لرجالهم وابطل كثيراً من الضرائب التي كانت قد ضربها سلفه كتصقيع الاملاك وتقويمها وأخذ زكاة ثمنها في كل سنة وجباية دينار كل انسان وغير ذلك وأعلن أمره هذا على لسان الخطباء في المنابر . على انه مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعية لاسيما السوريون فانهم شقوا عصا الطاعة وبايعوا الامير سنجر الحلبي حاكم دمشق ولقبوه بالملك المجاهد فارسل الظاهر بيبرس عسكرياً بقيادة علاء الدين البندقدار سيده لقتال علم الدين سنجر الحلبي فوصلوا الى دمشق في ١٣ صفر سنة ٦٥٩ فخرج اليهم الحلبي لقتالهم وكان صاحب حماء وصاحب

حصص مقيمين في دمشق ولم يخرجوا مع الحلبي لقتال المساكر المصرية فاقتتل الحلبي مع علاء الدين فولى الحلبي واصحابه منهزمين الى قلعة دمشق واقام بها الى ان جن الليل فهرب منها الى جهة بعلبك فبعه العسكر وقبضوا عليه وحملوا الى الديار المصرية فاعتقل ثم اطلق واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس واقامت الخطبة له بها وبغيرها من سوريا مثل حماه وحلب وحصص واستقر علاء الدين ايدكين البندقداري نائباً بدمشق لتدبير امورها ثم رحل صاحب حماه وصاحب حصص من دمشق الى بلادهما ثم ارسل الظاهر بيبرس مرسوم الى علاء الدين البندقداري نائب دمشق بالقبض على بهاء الدين بغدي الاشرفي وعلى شمس الدين اقوش البرلي فبقى علاء الدين متوقفاً الفرص لتنفيذ ذلك فقبض على بهاء الدين وخرج اقوش البرلي من دمشق ليلاً ونزل بالمرج فارسل علاء الدين اليه يطيب قلبه فلم يلتفت اليه وسار الى حلب ودخلها واخرج منها نحر الدين الحمصي بحيلة واستبد فيها وجمع العرب والتركمان واستعد لقتال عسكر مصر ثم ارسل الظاهر بيبرس جمال الدين الحمدي الصالح لقتال البرلي ثم رضي عن علم الدين سنجر الحلبي وجهزه بعسكر وراء الحمدي ثم اردفه بعز الدين الدمياطي بعسكر آخر وساروا الجميع الى حلب لقتال البرلي فطردوه منها

﴿ انتقال الخلافة العباسية الى الديار المصرية ﴾

في رجب سنة ٦٥٩ قدم الى مصر جماعة من العرب ومنهم شخص اسود اللون اسمه احمد زعموا انه ابن الامام الظاهر بالله محمد بن الامام الناصر وانه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها النتر فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه جماعة من الاكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الاعز فشهد أولئك العرب ان هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد بن الامام الناصر فيكون عم المستنصر واقام القاضي جماعة من الشهود اجتمعوا باؤلك العرب وسمعوا شهادتهم ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة فاثبت القاضي تاج الدين نسب احمد المذكور ولقب المستنصر بالله أبا القاسم احمد وبايعه الملك الظاهر بيبرس والناس بالخلافة واهتم الملك الظاهر بامره وعمل له الدهاليز والحدارية وآلات الخلافة واستخدم له عسكراً فاصبحت القاهرة من ذلك الحين مقر الخلفاء العباسيين غير ان سلطتهم لم تكن تعتبر الا من وجهها الديني فقط وكانوا يلقبون بالأئمة وقد رافق نزول العباسيين بالقاهرة

سقط عم سائر القطار فتشاهم الناس بمحاولهم . اما بيبرس فلم يأل جهداً في استجلاب
الاقوات من سائر جهات سوريا وغيرها وتفريقها على الناس فانقصد بلاده من
ضيق عظيم

فتوحات الملك الظاهر بيبرس ووفاة المستنصر وخلافة الحاكم باصر الله

ثم اراد بيبرس ان يسترجع مدينة بغداد للخلفاء العباسيين فانقصد مع الخليفة
المستنصر بالله جنداً عظيماً وبرز معه الظاهر بيبرس وتوجهوا الى دمشق فنزل الظاهر
بالقلمنة ونزل الخليفة في جبل الصالحية ونزل حول الخليفة امرائه واجناده
وجهاز الخليفة عسكره للمسير الى بغداد طمعاً في انه يستولى عليها ويجتمع عليه
الناس فسار الخليفة المستنصر من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودعه ووصاه
بالتأني في الامور ثم عاد الملك الظاهر من توديعه الى دمشق ثم سار الى الديار
المصرية ثم وصلت اليه كتب الخليفة المستنصر بانه قد استولى على عانة والحديثة
وولي عاينها وقبل ان يصل الخليفة ومن معه الى بغداد لا قاهم التتر في الطريق
فخاربوهم وشتموا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الا خمسة اشهر
وعشرين يوماً فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم باصر الله بعد ثبوت نسبه واقامه
الظاهر بيبرس في برج محترزاً واشرك له الدعا في الخطبة لاغير ثم امر السلطان الى
كل من سنقر الرومي وصاحب حماد وصاحب حمص ان يسيروا الى انطاكية وبلادها
للاغارة عليها فساروا اليها ونهبوا بلادها وضائقوها ثم عادوا فتوجهت العساكر
المصرية صحبة سنقر الرومي الى مصر ووصلوا اليها ومعهم ما ينوف عن ثمانية اسير
فقبض عليهم الملك الظاهر بالاحسان والانعام . ثم سار بيبرس بتعجيزة اخرى لفتح
قلعة الكرك انتقاماً من صاحبها الملك المغيث فتح الدين عمرو سبب ذلك ان بيبرس
قبل توليته سلطنة مصر كان قد ترك امرأته عند المغيث فتح الدين وقاية لها مما
كان يقاسيه من الاسفار والعذاب وعهد اليه رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين
والشرف فقتل بها بغير وجه الحق فانصل ذلك بيبرس وكان قد تولي سلطنة
مصر فثار فيه حب الانتقام فجرد العساكر وسار الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت
منية الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين ثم تمكن
بيبرس من القبض على المغيث فتح الدين احتيالا وسلمه الى امرأته فقتلته بالقباقب
على مثل ما قتلت عليه شجرة الدر فأما الكرك بغير رئيس فسلمت وصارت
جزءاً من مملكة مصر فأرسل بيبرس اليها بدر الدين اليسري الشمسي وعز الدين

أستاذ الدار في يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٦٦١ ثم عاد الى الديار المصرية

﴿ محاربات الظاهر بيبرس مع الصليبيين بسوريا ﴾

ولما عاد بيبرس الى القاهرة حشد جيشاً كبيراً لمحاربة الصليبيين بسوريا وسار به في سنة ٦٦٣ الى ان وصل مدينة قيسارية في ٩ جمادى الاولى فحاصرها وضائقها وفتحها عنوة في ١٥ منه بعد محاصرتها ٦ أيام ثم أمر بهدمها ثم سار منها الى ارسوف فنازلها وفتحها في شهر جمادى الآخرة ثم أرسل الملك الظاهر بيبرس قسماً من جيشه الى ساحل طرابلس ففتحوا القلعات وحلب وعرقا ونزل هو على صفد في ٨ شعبان سنة ٦٦٤ فحاصرها وضائقها بالزحف وأقام عليها آلات الحصار وقدم اليه وهو على صفد الملك المنصور صاحب حماء ثم التفتت العساكر بالقلعة وكثر القتل والجرح في المسلمين الى ان فتحها في ١٩ منه بالامان ثم قتل أهلها عن آخرهم وسار الى دمشق فلما دخلها واستقر فيها جرد عسكراً ضخمها قدم عليه الملك المنصور صاحب حماء وأمره بالمسير الى بلاد الارمن فسارت العساكر حتى نزلت على بلاد سيس في ذي القعدة وكان صاحب سيس هيثوم بن قسطنطين قد حصن الدرنيدات بالرجال والمتجنق وجعل عسكره مع ولديه على الدرنيدات لقتال العسكر الاسلامي ومنعه وما انتشب القتال حتى غلبتهم عساكر المسلمين وأوقعت فيهم القتل فأفنتهم عن آخرهم قتلاً وأسراً وقتل احد ولده هيثوم وأسر الآخرون وهو ليفون وانتشرت العساكر الاسلامية في بلاد سيس وفتحوا قلعة العامودين وقتلوا أهلها ثم عادت العساكر وقد امتلأت أيديهم من الغنائم فلما وصل خبر هذا الفتح العظيم الى الملك الظاهر بيبرس رحل عن دمشق الى حماء فقامية حيث التقى بعساكره منصوراً ولما وصلوا بلاد قارا أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم وكانوا نصارى يسرقون المسلمين ويبيعونهم خفية للصليبيين وأخذ صبيانهم مما اليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية فصار منهم جنود وأمراء ثم عاد الظاهر الى الديار المصرية على طريق الكرك فجفل به فرسه عند بركة نريزا فانكسر فخذه وحل في محفة الى قلعة الحيل

﴿ اصلاحات الملك الظاهر بيبرس ﴾

لما رجع الظاهر بيبرس أخذ يستعد لحروب جديدة وينظم داخلية فإبطل ضهان المزر وجهاته وأمر بارقة الخمر وإبطال المنكرات وتمسقة بيوت المسكرات

و منع الخانات والفواحش بجميع أقطار مملكة مصر والشام فظهرت من ذلك البقاع
وعادت البلاد الى الهدوء والرغد فقال أحد الشعراء المعاصرين

ليس لا بليس عندنا أرب غير بلاد الأمير مأواه
حرفته الخمر والحشيش ممأ حرمنا ماء ومرعاه

ثم رأى ان بعض الرعية لا يزالون على ما كانوا قد اعتادوه من الفواحش فامر
بمنع النساء الحواشي من التعرض للبناء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب
أهلها جميع ما كان لهم ونفى بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع
ذلك توقيماً قرياً في المنار . ثم علم ان الطواشي شجاع الدين غنبر المعروف بصدر
الباز يشرب المسكر فشنته تحت قلعة الجبل ولا شك ان الملك الظاهر لم يشدد في
ابطال جميع هذه المنكرات الا لعلهم يقيناً ان استعماها يورث الفقر والذل ويحمد
الهمة ويضعف عزه النفس ويغضب الله

وكان في سنة ٦٦٢ قد بنى دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجاس بها لمرض
العساكر في كل يوم اثنين وخميس وكان ينظر في أمر المتظلمين بنفسه فاذا كان
لاحد مظالمه يأتي بنفسه بدون أحد ينعى ويشكو مظالمه لاسلطان وهو يأمر في
الحال بصرفها بوجه الحق

﴿ فتوحات الظاهر بيبرس ببلاد الصليبيين بسوريا ﴾

في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٦٦ توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره
العديدة الى الشام وفتح يافا وتملكها من الصليبيين ثم سار الى انطاكية ونازلها في
مستهل رمضان وحاصرها وضيق عليها وقتلها وفر صاحبها بوهيموند دي طرابلس
الى طرابلس فشدد الحصار وزحفت العساكر الاسلامية على انطاكية فلكوها
بالسيف في يوم السبت رابع رمضان وقتلوا أهلها وسبوا ذرارهم وغنموا منهم
أموالاً جائلة وفي ١٣ رمضان استولى الظاهر على حصن بغراس وكان أهله قد
تركوه فشحنه الظاهر بالرجال وجعله حصناً للمسلمين وفي شهر شوال وقع الصلح
بين الملك الظاهر بيبرس وبين هيثوم صاحب سيس على انه اذا أحضر صاحب
سيس سنقر الاشقر المأسور عند التتر (كان التتر قد أخذوه من قلعة حلب لما
ملكها هولاء كوكهم) وان يسلم به سناودر بساك ومرذبان ورعبان وشيخ الحديد
يطلق له بيبرس ابنه ليفون فدخل صاحب سيس على ابغا ملك التتر وطلب منه

سنقر الاشقر فاعطاه اياه فارساه الى الظاهر ببيرس وسلم دربساك وغيرها من البلاد المذكورة ما عدا بهسنا وأطاق الظاهر ابنه ليفون وعاد الى الديار المصرية

﴿ حجاج الملك الظاهر ببيرس ﴾

وفي سنة ٦٦٧ عزم الملك الظاهر ببيرس على اداء فريضة الحج وكان طريق الحج من مصر الى مكة المشرفة في صحراء عيذاب فيركبون النبل من ساحل القسطنط الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب الى البحر الاحمر حيث ينزلون فيه الى جدة ساحل الحجاز وهكذا يودهم الى مصر وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق أيضاً وصحراء عيذاب اذ ذاك آهلة بالسكان أمينة المسالك وبقيت طريق الحج على مثل ذلك الى هذه السنة اذ تغيرت بالطريق التي سار فيها الملك الظاهر كما يأتي وأما التجار فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ ومن ذلك الحين قلت أهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد ان كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة . ففي ٢٥ شوال سنة ٦٦٧ رحل الظاهر ببيرس من الفوار ووصل الى الكرك وأقام بها أياماً وتوجه من الكرك في ٦ القعدة الى الشوبك ورحل من الشوبك في ١١ منه ووصل الى المدينة النبوية في ٢٥ منه ووصل الى مكة في ٥ الحجة وبعد اداء الفريضة كما الكعبة بالديباج وكذلك الحجرة النبوية ووقف لهما أوقافاً وعمل لهما مفتاحاً ثم سار منها فوصل الكرك في آخر الحجة سنة ٦٦٧ وفي أول محرم سنة ٦٦٨ سار من الكرك فوصل دمشق بفتح وتوجه منها في يومه فوصل الى حماه في ٥ منه وتوجه من ساعته الى حلب ولم يلم به المسكر الا وهو في الموكب معهم ثم عاد الى دمشق في ١٣ منه ثم توجه الى القدس فزاره ثم رجع الى الديار المصرية فوصل القاهرة في ١٣ صفر وهكذا أتم سياحته الجهادية والدينية معاً ثم سار الظاهر ببيرس بمساكره الى بلاد الاسماعيلية فتسلم مصياف في العشر الاوسط من رجب سنة ٦٦٨ ثم عاد الى حماه ومنها الى دمشق في ٢٨ منه ثم رحل الى مصر القاهرة

﴿ الحروب الصليبية الثامنة ﴾

﴿ في التحريض على الحروب الصليبية الثامنة ﴾

في سنة ٦٥٩ قام الروم على الصليبيين الذين تملكوا على القسطنطينية وقتلواهم

واستخاضوها منهم بقيادة زعيمهم مخايل باليولوغوس الذي أقاموه ملكاً عليها (كانت الحملة السادسة للصليبيين اغتصبوها وصارت تابعة لهم الى ان خلعها مخايل المذكور وعادت للروم) فسافر من نجا من الصليبيين من القسطنطينية الى البابا اقليمندوس الرابع وكذلك لما استولى السلطان الظاهر بيبرس على البلاد السورية من الصليبيين أرسلوا الى البابا المذكور يطلبون منه المساعدة والمعاونة فأرسل منشوراً الى جميع ملوك أوروبا يخبرهم فيه بان الروم استولوا على القسطنطينية وان بيبرس قد استولى على انطاكية وغيرها من بلاد سورية ويطلب منهم مساعدة اخوانهم الصليبيين وتشكيل عساكر صليبية ثامنة لاجل ذلك وخصوصاً لاستخلاص قبر المسيح من أيدي المسلمين (وهي حجبتهم الواهية في كل حرب) وحيث ان ملوك أوروبا علموا بان جميع التجريدات والعساكر التي سبق تشكيلها وأرسالها سواء كان لسوريا أو لمصر أو للقسطنطينية لم تأت بفائدة لأوروبا غير فقد العساكر وافناء المال فلذلك لم يلتفتوا الى منشورات البابا ولا الى نوابه الذين كان قد أرسلهم لهذه الغاية

﴿ تجهيز العساكر الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ﴾

وبعد جهد شديد قبل الملك لويس التاسع ملك فرنسا تجهيز عساكر صليبية ثامنة بقيادته كما فعل أولاً ثم انه أمر بان عقد جمعية في مدينة باريس من عظماء المملكة بقصر لويلا ثم حضر بنفسه هذه الجمعية ومعه نائب البابا حامل بيديه اكيل الشوك الذي تكلم به المسيح (على زعمهم وهو الآن محفوظ في كنيسة صرب العذراء الكاتدرائية بباريس) فقام لويس وقال لمن في الجمعية بانه عزم على تجهيز حروب صليبية ثامنة وطلب منهم مساعدته والتوجه معه ثم قام النائب البابوي وطلب منهم انقاذ اخوانهم المسيحيين بالشرق فاستلم الملك لويس صليب الحرب من يد النائب الرسولي وتبعه ثلاثة من أولاده ثم تبعهم عدد وافر من رؤساء الكنائس ثم يوحنا كونت دي براتانيا • وتيبوت ملك نافار • والفونسوس دي بريانا • والكونتات دي فلاندر • ودي سان بول • ودي مارشا • ودي سواسون وغيرهم وعزم بعض أمراء أوروبا على تجهيز عساكر كما فعل سلطان فرنسا مثل ادوارد ملك الانكليز • وغاسطون ملك بيان • وملك البرتغال وغيره • ثم ان لويس المذكور استعد في تجهيز عساكره للمسير بها وحيث انه وجد نفسه شيخاً كبيراً خاف على مملكته اذا مات هو في الحرب فعزم على تقسيمها على ورثته فقسمها على أولاده الاربعة المذكورين وكذلك على بناته

اللتين لم تزوجا وعلى زوجته مر غربتا وذلك التقسيم يكون بعد مماته ثم اقام وكيان على مملكته بصفة نواب الملك وهما متى دي فاندوم وسمعان دي ناظلا

﴿ سفر العساكر الصليبية الثامنة ﴾

توجه الملك لويس الى كنيسة القديس ديونيسيوس للتبرك بها ثم حضر الذبيحة بكنيسة الكاتدرائية بباريس وسار الى مدينة اغوزمورتاس المعينة لاجتماع جميع العساكر الصليبية بها وكان قبل حضور الملك لويس المذكور الى هذه المدينة قد سافر بعض العساكر الصليبية الثامنة من اقليم اراغون وغيره قاصدين بلاد فلسطين ولما اجتمع الملك لويس وعساكره في هذه المدينة عقد مجلس شورا للحربي للتداول في خطة السفر والبلاد التي يقصدونها فالبعض رأى المسير الى الديار المصرية والبعض رأى المسير الى تونس عاصمة الغرب وكان من هؤلاء الملك لويس لانه قال ان المغاربة طالما تعدوا على بحرية فرانسا وغيرها من أوروبا وبعد المداولات تقرر مسير العساكر الصليبية الثامنة الى تونس ومحاربتها واستعدت بالنزول في المراكب والمسير الى تونس

﴿ وصول الصليبيين الى تونس ومحاصرتها ﴾

سارت العساكر الصليبية في البحر الى ان نزلوا بانقاز مدينة قرطاجنة القديمة وأقاموا فوق طلالها وعملوا خندقا حول معسكرهم وكان صاحب تونس يدعى أبا عبدالله محمد بن أبي زكريا الحفصي الملقب بالمستنصر بالله فجمع أمراء مملكته واستشارهم في صد الصليبيين عن النزول الى البر أو بتركهم ينزلون الى البر ويحاربهم فقال بعضهم اذا صديناهم عن النزول أمام الحماية فرما ساروا ونزلوا على ثغر من الثغور فامتلكوه واستباحوه واستصعبت مغالبتهم فوافق السلطان على هذا وأرسل الى جميع الثغور بالتحفظ ونادى الساطان في الناس بالاستعداد والنفير ثم أرسل الى جميع الممالك التابعة له يطالب المدد فجاءه أبو هلال صاحب بجاية وجاءته جميع العرب وسدويكش وولهاصه وهوارة وقد أمده ملوك المغرب من زناتة وسرح اليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان وعقد السلطان قيادة العسكر الى ستة رؤساء وهم اسماعيل بن أبي كلداس . وعيسى بن داود . ويحيى بن أبي بكر . ويحيى بن صالح وأبي هلال عياد صاحب بجاية . ومحمد بن عبو وأمرهم جميعاً راجع لأمري يحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح واجتمع كثير من المسلمين والفقهاء والمرابطين لمباشرة الجهاد واستعدوا غاية الاستعداد فقال أحد أدباء تونس وهو احمد بن اسماعيل الزيات

يافرنسيس هذه أخت مصر قتيلاً لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير
(فقدّر الله وفاة الملك لويس التاسع وهو محاصر لها كما سيأتي فحسن فألهم)
ثم ان الصليبيين حاصروا مدينة تونس وذلك في شهر القعدة سنة ٦٦٨
* { محاربات الصليبيين ووفاة الملك لويس التاسع } *

بعد حصار مدينة تونس نشب القتال بين الفريقين وكانت الحرب سجالاً وكان
الصليبيون منتظرين قدوم الكونت دي أنجو كارلوس أخي لويس وهو صاحب جزيرة
سيبيليا وفي سنة ٦٦٩ فرغت ذخائر وقوت العساكر الصليبية فاعتراهم داء الدسنتاريا
والحمى الخبيثة وفي زمن قصير هلك منهم نحو النصف وكان ذلك في فصل الصيف
والحر شديد فاضطنعت العساكر الاسلامية آلات يرمون بها الرمل على معسكر
الصليبيين عند هبوب الرياح القبلية فتزل فوقهم كأنها محمية في أتون نار وبما زاد
في مصائب الصليبيين هجمات العرب والسودانيين عليهم حتى أخذهم الضجر والملل
ومات منهم الكونت دي نامورس ودي فاندوما . ودي مارشا . ودي موغرانسي
وودي بيانا وودي برياك ثم لحقهم ابن الملك لويس المدعو تريستان (الحزين) الذي ولد
في مدينة دمياط كما مر (ولد في حصار مدينة وتوفي في حصار أخرى) ثم شارك
الملك لويس التاسع جيشه في الامراض بعد وفاة ابنه المذكور ورقد في فراشه ثم
احضر ابنه البكري فيليبس وورثه على تحت المملكة وأخذ يوصيه بمملكته واخوته
وغير ذلك ثم مات

* { سفر كارلوس صاحب سيبيليا الى تونس وحصول الصلاح

وانتهاء الحروب الصليبية الثامنة } *

وبعد موت الملك لويس التاسع ملك فرانساً ترأس على الجيوش ابنه فيليبس
ثم توارد قدوم مراكب صليبية في البحر ونزل الرجال منها الى البر وكانوا عساكر
كارلوس صاحب سيبيليا وفي أثناء نزولهم الى البر لم يجدوا أحداً من الصليبيين قد
حضر لمقابلتهم فساروا الى ان وصلوا الى معسكر الصليبيين وسار كارلوس الى ان وصل
الى خيمة لويس التاسع فوجده ميتاً فبكى عليه وبعد ذلك عقدوا مجلس مشورتهم
للنظر في أمرهم فقرروا استمرار الحصار والمحاربة وبعد مناوشات جرت بينهم تقرر
الصالح في شهر ربيع الاول سنة ٦٦٩ على ما يأتي بان الساطان المستنصر بالله يخضع

للكارلوس ملك سيسيليا ويدفع له جزية سنوية ويدفع له مصاريف هذه الحروب البالغ مقدارها ٢٢٠ ألف وزنة من الذهب وفي نظير ذلك ينسحب الصليبيون من البلاد التونسية وبعد تمام شروط الصلح التي أمضيت من ملوك فرانس و سيسيليا ونافار سار الصليبيون ونزلوا بمراكبهم وساروا الى بلادهم وفي أثناء مسيرهم فاجأتهم عواصف شديدة أغرقت أكثر مراكبهم ثم ان كارلوس نزل في مملكته ومعه صندوق داخله قلب الملك لويس بصفة ذخيرة ووضعها في كنيسة دير مونتسريال قرب مدينة ساليرنو وأما فيلبس الثالث ملك فرانس فداوم مسيره الى بلاده ومعه جثة والده وأخيه تريستان ولما وصل الى باريس وضعهم في كنيسة القديس ديونيسيوس في مدفن ملوك فرانس وهكذا انتهت الحروب الصليبية الثامنة

﴿ بقية الحروب الصليبية ﴾

من حيث ان الحروب الصليبية الثمانية قد انتهت كما تقدم ولكن بعض بلاد سوريا لم نزل في حكم الصليبيين لذلك التزمنا بمتابعة التاريخ الى افتتاح المسلمين باقي البلاد من الصليبيين وانقراضهم من أسيا كما سيأتي

﴿ باقي فتوحات الظاهر بيبرس ﴾

وفي سنة ٦٦٩ توجه الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية الى الشام ونازل حصن الاكراد في تاسع شعبان وحاصره وضايقه ودام القتال فشدّد حصاره الى ان فتحه بالامان في ٢٤ منه ثم رحل الى حصن عكار ونازله في ١٧ رمضان وجد في قتاله ومملكه بالامان في آخر رمضان وعيد الظاهر عيد الفطر عليه . وفي شوال تسلم قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية ثم سار الى دمشق ومنها الى حصن القرين ونازله في ثاني القعدة وزحف عليه وتسلمه بالامان ثم أمر بهدمه وعاد الى مصر وكان قد جهز اسطولا من عشر شواني لغزو قبرص فتكسرت في مرسى الحيسوس وأسر الفرنج من كان بتلك الشواني من المسلمين فاهتم السلطان بعمارة اسطول بدله

وفي سنة ٦٧٠ توجه الظاهر الى دمشق فاغارت التتر على عينتاب وعلى الروح وقيطون الى قرب قامية فاستدعى الظاهر عسكرياً من مصر بقيادة بدر الدين البيسري فلما اتصل ذلك بالتتر عادوا من حيث أتوا ثم سار الظاهر بالعسكر الى حلب ومنها الى مصر فعاد التتر وحاصروا البيرة ونصبوا عليها المنجنيقات وضايقوها فتجند اليهم

بيبرس وسارت معه فرقه تحت قيادة الامير قلاوون الالفي فالتقى الجيشان عند بيرة واشتد الحرب بين المسلمين والترك واراد عبور الفرات الى بر البيرة فقاتله الترك على المخاضة فافتحم الفرات وهزم الترك فرحلوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها فصارت للمسلمين ثم عاد الظاهر الى الديار المصرية وفي هذه السنة أيضاً تسلمت نواب الملك الظاهر باقى حصون الاسماعيلية وهي الكهف والمينقة وقدموس وفي سنة ٦٧٣ سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بجيوشه الى ارمينيا ففتحوها وغنموا منها غنائم كثيرة ثم عاد الى مصر فنرشوا له القاهرة بالبسط والسجاد الثمين احتفالاً بعوده ظافراً

وفي سنة ٦٧٤ قدم سوريا اباكا خان بن هولاء كو خان وحاصر البيرة ثلثة فلاقاه الامير قلاوون بفرقة من الجيوش المصرية وارجمه على اعقابهِ فسر بيبرس من بسالته واتخذ ابنته غازية خاتون زوجة لابنه السعيد بركة خان ليكون ابنه في المستقبل أمناً في حمى حميه . وفي هذه السنة أيضاً ارسل الظاهر بيبرس الامير اقنقر ومعه عز الدين ايبك الافرم لافتح بلاد النوبة فافتتحوا اصوان بعد ان استولوا على جميع مصر العليا . وفي هذه السنة أيضاً حارب بيبرس برقة وافتتحها وفي رمضان سنة ٦٧٥ سار بيبرس بعساكره الحرارة الى الشام حتى وصل الى حلب ثم الى النهر الازرق ثم سار الى ابلستين فوصل اليها في القعدة والتقى بها جمعاً من الترك بقيادة تناون فتحارب الفريقان في أرض ابلستين يوم الجمعة عشرة القعدة فانهزم الترك واخذتهم سيوف المسلمين وقتل قائدهم تناون وغالب كبرائهم واسر منهم جماعة كثيرة ثم سار الى بلاد الروم ثم عاد منها

﴿ وفاة الملك الظاهر بيبرس ﴾

في يوم الخميس ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ توفي الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات الصالح النجمي بدمشق وقت الزوال عقب وصوله من بلاد الروم وسبب موته انه انكسف القمر كسوفاً كلياً وشاع بين الناس ان ذلك يدل على موت رجل جليل القدر فاراد الملك الظاهر ان يصرف التأويل الى غيره فاستدعى بشخص من اولاد الملوك الايوبية يقال له الملك القاهر ولد الملك الناصر داود بن المعظم عيسى وأحضر قزاً (كاساً) مسموماً وأمر الساقى فسقا الملك القاهر وشرب بعده الملك الظاهر ناسياً فمات الملك القاهر عقيب ذلك واما الملك الظاهر فحصلت له حمى محرقة وتوفي في التاريخ المذكور وهكذا كانا قتيلى الخرافات قبيحها الله ما اضعف

حجتها وما أشد وطأتها وكنتم نأبئ ومملوكه بدر الدين تنليك المعروف بالحزندار
موته وصبره وتركه في قلعة دمشق الى ان تمت تربته بدمشق قرب الجامع فدفن
فيها وارتحل بدر الدين تنليك بالعساكر ومنهم الحفة مظهراً ان الملك الظاهر فيها
وانه مريض حتى وصل الى ديار مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده
بركة خان ولقبه الملك السعيد وجعله ولي عهده فوصل تنليك الحزندار بالحزائن والعسكر
الى الملك السعيد بقاعة الحيل وعند ذلك اظهر موت الملك الظاهر وجلس ابنه
الملك السعيد لاعزاء . وكانت مدة حكمه ١٧ سنة وشهرين وعشرة أيام وكان ملكاً
جائلاً عجولاً كثير المصادرات لرعيته ودواوينه طويل القامة مليح الشكل سريع
الحركة فارساً مقداماً . وترك من الذكور ثلاثة وهم السعيد محمد بركة خان وقد
ملك بعده وسلاش وهذا ملك بعده أيضاً والمسمود خضر . وترك من البنات
سبعاً . ومما فزع الله على يده من أيدي الصليبيين قيسارية وارصوف وصفد
وطبرية ويافا والشقيف والطاكية وبقراض والقصور وحصن الاكراد والقرين
وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلب وقد ناصفهم على المرقب وبانياس وطرسوس
وادنة والمصيصة وغيرها من مدن بر الاناضول وصار الى يده مما كان في أيدي
المسلمين دمشق وبلبك وعجلون والبصرة وصرخند . والصلت . وحصن وتدمر
والرحبة وتل بامر . وصهيون . وبلاطس . وقاعة الكهف والقدموس . والعميقة
والخوابي والرافقة . ومصياف . والقلعة . والكرك . والشوبك وفتح بلاد
النوبة وبرقة

✽ آثار الملك الظاهر بيبرس ✽

ومن أعماله المأثورة انه عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة بيت المقدس وزاد
في أوقاف الخليل وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية ومنار رشيد
وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصبية
وبلبك والصلت وصرخند وعجلون وبصرة وشيزر وحصن وعمر المدرسة بين
القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسنية وجعله الفرنساويون عند مجيئهم الى
مصر قلعة وهو البناء القديم في سكة الظاهر وجعلته الحكومة مخازن للاقوات .
وحفر خليج اسكندرية القديم وبشره بنفسه وبني هناك قرية سماها الظاهرية
وحفر بحر اشمون طنح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة وأعاد اليه الخطبة وعمر
بلد السعيدية بالشرقية بمصر وبني القصر الابق في دمشق ومن آثاره في القاهرة

أيضاً قناطر السباع وهي عبارة عن سلسلة من قناطر ممتدة عرضاً من جوار فم الخليج الى قلعة الحيل ولا بد للمتوجه من القاهرة الى مصر القديمة من أن يقطعها هذا اذا لم يمر من عند فم الخليج فانه اذا ذاك يمر بجانب منشأها وهي تنهي من طرفها الغربي بالسبع سواقي بجانب فم الخليج والسبع سواقي هو بنا قديم فيه سبعة دوايب لرفع المياه من النيل ومحويله الى قناة على ظهر هذه القناطر ليجري الماء فيه الى قلعة الحيل وجعل عليها سبعاً من الحجارة ولذلك قيل لها قناطر السباع والقناطر المذكورة لم يزل يوجد بعضها . وكان محباً لركوب الحيل الحياذ ورمي النبال فانشاء ميداناً دعاه ميدان القبق ويقال له أيضاً الميدان الاسود وميدان العيد والميدان الاخضر وميدان السباق . وكان شاعراً بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الحيل وبين قبة النصر التي هي تحت الحيل الاحمر وبني فيه مصطبة سنة ٦٦٦ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية وكان يحث الناس على لب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان فما بقي أمير ولا مملوك الا وهذا شغله وما برح من بعده أولاده ومن بعدهم يمارسون هذا الميدان بجميع انواع الالاب الحربية وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال بدون أن يسلب الاهالي درهماً واحداً فوق ما اعتادوا دفعه من الخرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائه كانت تساعد كثير في النفقات

﴿ سلطنة الملك السعيد بركة خان ﴾

في شهر ربيع أول سنة ٦٧٦ بايعوا الملك السعيد بركة خان بالسلطنة بعد أبيه الظاهر بيبرس حسب وصيته وأقام بدر الدين تنليك الخزندار اتايكا وكان تنليك (باباي) في الاصل مملوكا ابتاعه بيبرس بشمن بخس الا انه ارتقى في خدمته حتى صار أمين خزائنه (خزندار) ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الامينة أن يكون وصياً على ابنه في مهام السلطنة وكان للملك السعيد ثقة كبرى في تنليك حتى انه اتى اليه كل مهام الدولة فسمعت مصر في بادئ الامر الا انها ما لبثت حتى تمكر كآس صفاتها بوفاة ذلك الوصي الامين الحكيم ولم يكن الملك السعيد وانقاً باحد من امرائه ليعهد اليه بمهام السلطنة لانه كان يظن انهم هم الذين سموا في قتل وصيه ولكنه لم يتأكد ذلك ففر منهم فوقم اختياره على اقسنقر فاتح النبوة فولاه الاتاكية وبعد يسير خنقه في احدى ابراج الاسكندرية فقتل

الامراء عن هذا المنصب

﴿ سفر الملك السعيد والاغارة على ارمينية ﴾

في سنة ٦٧٧ سار الملك السعيد بركة خان الى الشام وصحبته العساكر فلما وصل الى دمشق جرد منها العساكر بحجة الامير سيف الدين قلاوون وجرد أيضاً صاحب حمه فساروا ودخلوا بلاد سيس (الارمن) وشنوا الغارة عليها وغنموا منها غنائم كثيرة ثم عادوا الى جهة دمشق واتفقوا على خلع الملك السعيد من السلطنة لسوء تدبيره وعبروا على دمشق ولم يدخلوها فارسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم ودخل عليهم بوالدته فلم يلتفتوا الى ذلك واتموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم الى مصر وطلع الى قلعة الجبل وسارت العساكر في اثره

﴿ خلع الملك السعيد بركة خان ﴾

وفي شهر ربيع أول سنة ٦٧٨ وصات العساكر الخارجون عن طاعة الملك السعيد بركة خان وحصروه بقلعة الجبل فخامر عليه اكثر من كان معه من الامراء مثل لاجين الزيني وغيره وأخذوا يخرجون واحداً بعد واحد من القلعة وينضموا الى العسكر الذي يحاصرها فلما رأى الملك السعيد ذلك اجابهم الى الانحلاع من السلطنة وأن يطى الكرك فاجابوه الى ذلك وانزلوه من القلعة وخاموه في ربيع الاول وسفروه من وقته الى الكرك بحجة بيدعان التركني وجماعة معه فوصل اليها وتسلمها بما فيها من الاموال

﴿ سلطنة الملك العادل سلامش وخلمه ﴾

بعد خلع الملك السعيد كما تقدم اتفق اكابر الامراء مثل بدر الدين البيمري الشمسي وايتمش السعدي وبكتاش الفخري امير السلاح وغيرهم على سلطنة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس ولقبوه الملك العادل وذلك في ربيع أول سنة ٦٧٨ وعمره اذ ذلك سبع سنين وشهور وأقاموا الامير سيف الدين قلاوون الانفي وصياً عليه وخطب للعادل وضربت السكة باسمه . ولم يكن هم هذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الصغير وفي شهر رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعة فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور

﴿ سلطنة الملك المنصور قلاوون الالفي ﴾

ولما استوى قلاوون على كرسي السلطنة استوزر نحر الدين وكان كاتب سره الخصوصي وكان سنقر الاشقر بدمشق قد استقل بها وحلف له أمراءها وعساكرها وتلقب بالملك الكامل وفي سنة ٦٧٩ هـ جهز الملك المنصور قلاوون عساكر مصر مع علم الدين سنجر الحلبي وبدر الدين بكتاش وبدر الدين الايدمرى وعز الدين الافرم فسارت العساكر المذكورة الى الشام وبرز سنقر الاشقر (الملك الكامل) بعساكر الشام الى ظاهر دمشق والتقى الفريقان في ١٩ صفر فولى سنقر وعساكره الشاميون منهزمين ونهبت العساكر المصرية اثقالهم واستولوا على دمشق وتولى عليها بامر الملك المنصور قلاوون مملوكه حسام الدين لاجين الساجدار . ثم ان سنقر الاشقر كاتب اباكه خان ملك التتر اطعمه في تملك البلاد ثم سار سنقر واستولى على بعض البلاد السورية ثم تصالح مع الملك المنصور قلاوون وأعطاه بعض البلاد مثل الشسر وبكاس

﴿ محاربة التتر ﴾

وفي سنة ٦٨٠ هـ خرج التتر الى سوريا بجيشين الواحد تحت قيادة اباكه خان بن هولاكو والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة أخيه منجوتيمور حتى وصلوا حصن فسار السلطان قلاوون بالجيوش الاسلامية من دمشق الى جهة حصن وأرسل الى سنقر الاشقر يستدعيه حسب اتفاق الصلح فسار سنقر من صهيون ثم وصل الى قلاوون الملك المنصور صاحب حماء ثم وصل سنقر ومعه ايتمش السعدي والحاج ازدمر وعلم الدين الدويداري ورتب السلطان قلاوون عسكره ميمنة وميسرة وكان رأس الميمنة الملك المنصور صاحب حماء ثم بدر الدين اليبسري دونه ثم علاء الدين طبرس الوزيري ثم ايبك الافرم ثم جماعة من العسكر المصري ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين وكان رأس الميسرة سنقر الاشقر ثم بدر الدين ثم بدر الدين بكتاش أمير السلاح وكان بر الميمنة العرب وبر الميسرة التتركان وكان شاليش القلب حسام الدين طرناي ومن أضيف اليه والتقى الفريقان بظاهر حصن في الساعة الرابعة في يوم الخميس ١٤ رجب وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة من العساكر الاسلامية فهزموا من كان قبالتهم من التتر وركبوا قفاهم يقتلونهم وكان منجوتيمور قبالة القلب فانهزم أيضاً وأما ميسرة المسلمين

فأنها انكشفت وتم ببعضها الهزيمة وساق التتر في أثرهم ثم علموا بنصرة المسلمين عليهم وهزيمة جيشهم فولوا منهزمين على أعقابهم فنبههم المسلمون يقتلون ويأسرون ولما وصل خبر هذه الكسرة الى ابا كه خان وهو محاصر الرحبة رحل عنها وكتب بهذا الفتح الى جميع البلاد الاسلامية وسافرت العساكر الى بلادها وسافر السلطان قلاوون الى دمشق والاسرى بين يديه وأما منجوتيمور فإنه مات بعد ايام وفر ابا كه خان الى حمدان فسمه أخوه الثالث تيكودار أوغلان وتولى الحكم بعده وأظهر دين الاسلام ولقب بأحمد خان

* فتح حصن المرقب من الصليبيين وغيره *

في شهر ربيع اول سنة ٦٨٤ سار السلطان سيف الدين قلاوون بمساكره المصرية والشامية ونازل حصن المرقب (الجمعية القديس يوحنا المعمدان) وهو في غاية العلو والحصانة لم يطمع أحد من الملوك قبله في فتحه فلما زحف المسكر عليه أخذ الحجارون يتقبون فيه ونصبت عليه عدة منجنيقات ولما تمكنت النقبوب من أسوار القاعة طلب أهل الامان فاجابهم على ان يخرجوا بما يقدرون على حمله غير السلاح وتسلمه في يوم الجمعة ١٩ منه ونصبت الاعلام الاسلامية بأعلاه وكان يوماً مشهوداً وأمر السلطان بحمل أهل حصن المرقب الى مأمنسهم ثم قرر أمر الحصن ورحل عنه

وفي سنة ٦٨٥ أرسل السلطان قلاوون نائب سلطنته حسام الدين طرناي الى الكرك فحاصرها وتسلمها بالامان وعاد ومعه أصحاب الكرك جمال الدين خضر وبدر الدين سلامش أولاد الملك الظاهر بيبرس فاقاما بمصر مدة ثم اعتقلهما

وفي سنة ٦٨٦ أرسل السلطان قلاوون حسام الدين المذكور الى قلعة صهيون فحاصرها ونصب عليها المنجنيقات وضايقها فاجابه صاحبها سنقر الاشقر الى تسليمها بالامان في ربيع اول ثم سار طرناي الى اللاذقية وكان بها برج للصليبيين يحيط به البحر فحاصر البرج وتسلمه بالامان وهدمه ثم سار الى مصر وأرسل أيضاً في هذه السنة السلطان عسكرياً بقيادة علم الدين سنجر وري المعروف بالحياط الى النوبة فساروا اليها وغزوها وغنموا وعادوا

وفي سنة ٦٨٧ توفي الملك الصالح علاء الدين علي ابن قلاوون وكان ولي عهده وسلطنته في حياته وكان مرضه بالدوسنطاريا فحزن عليه والده حزناً عظيماً

* ثورة المماليك وقتل الرعية *

وتمرد المماليك ونبدوا الطاعة فغضب السلطان عليهم غضباً اعمى بصره حتى لم يعد يميز المجرم من البري فساق الجميع بعضا واحدة وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام متوالية حتى غصت الأسواق بجثثهم رجلا ونساء وأولاداً . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يخففون من غبظه ويبينون له وجهه عسفه فالتبه لما جاءه من الاستبداد الفاحش فقدم ندماً لا مزيد عليه وتكفيراً لذلك أمر ببناء البنايات والتسكيا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام ومن أجل ذلك أيضاً بنا ابنه الملك الناصر المستنفي الشهير المعروف بالبارستان . وكان المماليك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جاهلهم فامر قلاوون أن يغير المماليك ملابسهم فنعهم من استعمال الوشي والزينة بالذهب وعن الضفائر الطويلة التي كانوا يجعلونها في اكياس من حرير وجعل حالتهم من اللباس وغيره كما تقتضيه حالة رجال الحرب

* فتح طرابلس من الصليبيين *

بعد وفاة ولده الصالح علاء الدين علي وحزنه عليه أمر بتجهيز حملة لاقتراح طرابلس من يد الصليبيين تسليمة له عن هواجسه فسار بعساكره في محرم سنة ٦٨٨ الى ان وصل الى مدينة طرابلس فنازلها ونصب عليها عدة منجنيقات ولازمها بالحصار واشتد عليها بالقتال حتى فتحها يوم الثلاثاء ٤ ربيع آخر ودخلتها العسكر عنوة فهرب أهلها الى المينا فنجا بعضهم في المراكب وقتل أكثرهم وسيت ذرايرهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة وكان في البحر قريبا من طرابلس جزيرة يقطنها كثير من الصليبيين فاقتحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم الى الجزيرة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا جميع ما بها من النساء والاولاد

* وفاة الملك المنصور قلاوون وأثره *

بعد فتح طرابلس عاد الملك المنصور قلاوون الى الديار المصرية فجاءه وفد من قبل ملك اراغون الفونس عقد معه معاهدة في ١٣ ربيع أول سنة ٦٨٩ . ثم عزم على فتح مدينة عكا من الصليبيين . غير ان كل ذلك لم يكن ليشغله عن أحزانه وما زال كئيماً فاتاه مرض في العشر الاخير من شوال فتوفي يوم السبت ٦ القعدة سنة ٦٨٩ فاحتفل بجنازته احتفالا حضره جمع غفير من جهادية ومملكية وشيعوه الى البارستان حيث واروه التراب ولا يزال مقامه هناك الى هذا العهد وكانت مدة حكمه

١١ سنة و ٣ أشهر و ٦ أيام

ومن أناره الباقية الى هذا اليوم جامعته الشهير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء
البيارستان الذي يشاهده المار في شارع النعاسين تجاه جامع الصالح نجم الدين ايوب
بعد ان يتجاوز خان الحليلي ولا تزال هذه الابنية رغماً عن تكرار السنين قوية العماد
تتجلى فيها العظمة والقوة ومهارة الصناع الا البيارستان فانه أصبح أقرب الى الاثر
من المين . وفي مقام هذا السلطان مثل ما في غيره جماعات من النساء والاطفال هم في
الغالب من ذوي الامراض جاءوا يطلبون الشفاء وهم يأتون في أيام السبت ولهم
في ذلك أساليب مختلفة فبعضهم يضع الطفل المريض تحت المحراب ويجلس مصلياً
وبعضهم يأتي بشئ من الليمون ويعصره على حجر هناك ثم ياحسه بلسانه طلباً للشفاء
ومن أعماله ميدانه الذي عرف بالميدان السلطاني جعله في موضع بستان الخشب حيث
موردة البلاط وكان يتردد اليه كثيراً ولا يمر عليه من قلعة الجبل حتى يركب قناطر
السباع فتضرب من علوها وقال لمن حوله اني عند ما أركب الى الميدان وأمر بهذه
القناطر ينألم ظهري من علوها وأشاع بعضهم انه أراد بالحقيقة نزع أثار من كان قبله
لبقى الفخري له فامر بهدمها جميعها وبناها ثانية فبنيت ولكن السباع لم توضع عليها
فعند ما رأى السلطان ذلك أمر باعادتها فاعيدت السباع الى أماكنها . ومما يحكى عنه
انه كان يجعل في بنياته أماكن مخصوصة يضع فيها الحبوب طعاماً للطيور . وكان
قلاوون سبياً لاخراج السلطنة من يد نسله كما كان الملك الصالح نجم الدين الايوبي
باستكثاره من الممالك الشراكسة حتى جمع منهم نحواً من ١٢ ألفاً جعل منهم بطانته
وكان يلقب بعضهم بالانفي أي المتباع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك

* { سلطنة الملك الاشرف } *

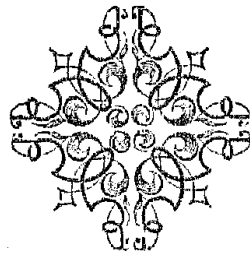
وتولى السلطنة بعد قلاوون ابنه البكر صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف
وكان جلوسه في ٧ القعدة سنة ٦٨٩ ثم قبض على حسام الدين طرناي نائب
السلطنة وفوض نيابة السلطنة الى بدر الدين بيدرا والوزارة الى شمس الدين
محمد بن السلقوس

{ في فتح عكا وانقراض الصليبيين }

وفي سنة ٦٩٠ سار الملك الاشرف بالمساكر المصرية قاصداً عكا وارسل الى
العساكر الشامية وأمرهم بالحضور ومعهم المنجنقات فتوجه الملك المظفر صاحب

جاء وعم الملك الافضل وعسكرهم الى حصن الاكراد وتسلموا منه المنجنقات
وكان هناك منجنق عظيم يسمى المنصوري حمل مائة عجلة ثم ساروا الى ان وصلوا
عكا فزات المساكر الاسلامية عليها (على عكا) في اوائل جمادى الاولى واشتد
عليها القتال ولم يغلق الصليبيون غالب ابوابها بل كانت مفتوحة وهم يقاتلون فيها
فحاصر المسلمون المدينة ونصبوا عليها المنجنقات وفي بعض الليالي خرج الصليبيون
وكبسوا المسلمين فتكاثر عليهم المسلمون فولى الصليبيون منهزمين الى البلد
واشدت مضايقة المسلمين لعكا حتى فتحوها غنوة في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخر
بالسيف ولما فتحها المسلمون هرب جماعة من اهلها بالراكب وغنم المسلمون من عكا
شيئا يفوق الحصر من كثرته ثم استنزل السلطان من تحصن بالابرار من الصليبيين
وقتلهم ثم امر بهدم مدينة عكا ومن غرائب الاتفاق ان الصليبيين استولوا على عكا
من السلطان صلاح الدين الايوبي في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخر سنة ٥٨٧ هـ
وقتلوا من بها فقدر الله عز وجل ان المسلمين يقتحمونها في يوم الجمعة ١٧ جمادى
الآخر سنة ٦٩٠ على يد السلطان الملك الاشرف صلاح الدين وقتل من فيها
فكان التاريخان مثل بعضهما كذلك لقب السلطانين . ولما فتحت عكا التقي الله
الربعب في قلوب جميع الصليبيين الذين بساحل الشام فاخلوا صيدا وبيروت وتسلمها
الشجاعي في اواخر رجب وكذلك هرب اهل مدينة صور فتسلمها السلطان ثم
تسلم عكا في مستهل شعبان وفي هـ منه تسلم طرسوس واتفق لهذا السلطان من
السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد الصليبية بغير قتال وتكاملت بهذه
الفتوحات جميع البلاد الساحلية وانقرضت دولة الصليبيين من الشام والسواحل بعد
ان كانوا قد اشرفوا على أخذ الديار المصرية فله الحمد والمنة

(انتهى)



﴿ الحمد لله أولاً وآخراً ﴾

بعون الله وحسن توفيقه قد تم طبع هذا الكتاب النفيس والسفر الجليل . الذي جمع
 من شتات الحروب الصليبية ما تفرق . ووعى ما عبثت به يد التبديل فكاد ان يتمزق .
 ولا غرو فهو اول كتاب وضع في العربية موضحاً اسماء من ورد ذكرهم في تلك
 الحروب بالضبط الشافي . والاعتناء الكافي . حتى جاء جليلاً في الوضع جميلاً بالطبع .
 لم ينسج له على منوال . ولم يسبق بمثال . تأليف حضرة الكاتب الاديب .
 والمنشيء الارب . سيد افندي علي الحريري . حيث طرزه احسن تطريز .
 وجاء فيه بكل نادر عزيز . مرموقاً بنظر صاحب السعادة
 والاقبال . والفخر والجلال . ذي المجد الباذخ . والشرف المؤئل
 الشامخ . من له الفضل الاعم . سعادتو عبد السلام باشا
 الموياسي الانخم . شكر الله مساهم الجليل . وجزاه
 عن اهل الادب الجزاء الجميل . وقد بزغ
 بالطبع بدر تمامه . وفاح مسك ختامه .
 بالمطبعة السمومية . بمصر المحمية . في
 اوائل رجب سنة ثلثمائة وسبعة
 عشر بعد الالف هجرية .
 على صاحبها ازكى
 السلام وامسى
 التحية .

﴿ اعتذار ﴾

من ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلاً ان تعد معائبه
 وقعت سهواً بعض غلطات مطبعية في كتابنا هذا لا تخفى على الادباء فترجو ممن
 يقع نظره على شيء من ذلك ان يسبل عليه ستر المَعذرة فان العذر عند كرام الناس
 مقبول
 وان تجدد عيباً فسد الحلالا فخلّ من لا عيب فيه وعلا

﴿ فهرست ﴾

﴿ كتاب الاخبار السنية في الحروب الصليبية ﴾

صفحة	
٢	المقدمة
٤	أسباب الحروب الصليبية
٥	مؤتمر مدينة بلاصانس بإيطاليا
٥	مؤتمر مدينة كليرمون بفرانسا
٨	الحروب الصليبية الاولى
٩	دخول الصليبيين أسيا وهلاك هذه الجيوش في نيقية
٩	الحملة الثانية من الحروب الصليبية الاولى
١٠	ما جرى للصليبيين في القسطنطينية
١٢	الصليبيون في أسيا واستيلاؤهم على قونية
١٥	وصول الصليبيين الى طرسوس واختلافهم
١٧	أخبار بودوين علي شطوط نهر الفرات
١٧	محاصرة الصليبيين انطاكية وامتلاكها
٢٠	محاصرة المسلمين انطاكية وظهور الحربة المقدسة
٢٢	مسير الصليبيين من انطاكية قاصدين بيت المقدس
٢٣	محاصرة الصليبيين لبيت المقدس واستيلاؤهم عليه
٢٥	واقعة عسقلان وانتصار الصليبيين فيها
٢٦	انتهاء الحروب الصليبية الاولى وسفرهم الى أوطانهم
٢٦	الحروب الصليبية الجديدة
٢٨	محاصرة غودافرو مدينة ارسور
٢٨	اجتماع الامراء الصليبيين بالقدس وانتخاب قانون لحكومتها
٢٩	موت غودافرو سلطان القدس
٢٩	انتخاب بودوين سلطاناً للقدس
٣٠	خلافة الأمر بأحكام الله وواقعة عسقلان

صفحة	
٢١	بوهيموند أمير انطاكية وما جرى له
٢٢	استيلاء الافرنج على عكا
٢٣	محاصرة مدينة طرابلس
٢٤	باقي ولاية بودوين الاول على القدس
٢٥	جمعات الرهبان الصليبيين
٢٦	في ولاية بودوين الثاني
٢٦	وفاة الامام المستظهر بالله العباسي وخلافة ولده المسترشد بالله
٢٧	واقعة ايلغازي مع الصليبيين بمحدود انطاكية
٢٨	قتل الافضل بن بدر الجمالي وزير مصر
٢٩	محاربة بلك بن بهرام مع جوسلين أمير الرها وأسره
٢٩	محاربة بلك مع بغدوين ملك القدس وأسره
٤٠	ورود اهل البندقية للاشتراك مع الصليبيين
٤٠	استيلاء الصليبيين على مدينة صور
٤١	محاصرة الصليبيين لمدينة حلب واستيلاء البرسقي عليها
٤٢	في خلوص بودوين الثاني ملك القدس من الاسر
٤٢	استيلاء البرسقي على كفر طاب
٤٣	قتل المأمون بن البطاحي وزير خليفة مصر الأمر
٤٣	أخبار الاسماعيليين وامتلاكهم قلعة بانياس
٤٤	محاربة طغتكين أتابك مع بودوين الثاني
٤٤	في الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله العباسي والسلطان محمود
٤٦	وفاة عز الدين البرسقي وولاية عماد الدين زنكي الموصل ومحاصرة الصليبيين حلب
٤٧	قتل الاسماعيليين بدمشق واتحادهم بالافرنج
٤٨	محاصرة الصليبيين دمشق وانزاعهم
٤٨	فتح عماد الدين زنكي حصن الانارب ومحاصرة قلعة حارم
٤٠	وفاة الأمر بأحكام الله وخلافة الحافظ لدين الله بمصر
٥٠	وفاة جوسلين صاحب الرها
٥٠	وفاة بودوين الثاني ملك القدس

صفحة	
٥٠	في تملك فولك دي اليو على القدس
٥١	وفاة السلطان محمود
٥١	استيلاء شمس الملوك على بانياس
٥١	محاربة فولك ملك القدس نائب حلب
٥٢	استيلاء شمس الملوك على حصن شقيف تيرون ونهبه بلاد الافرنج
٥٢	قتل الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله
٥٣	غزو الصاكر الاتاكيه بلاد الافرنج
٥٣	خلع الخليفة الراشد بالله وخلافة المقتفي لامر الله
٥٤	استيلاء المسلمين على حصن وادي بن الاهر
٥٤	استيلاء زنكي على قلعة بعين
٥٥	في مسير ملك الروم يوحنا كومنينوس الى بلاد الشام
٥٧	محاصرة زنكي دمشق واستيلاء الافرنج على بانياس
٥٨	وفاة فولك ملك القدس وتولية ولده بودوين الثالث
٥٨	فتح زنكي مدينة الرها والبلاد الجزرية
٥٩	قتل اتابك عماد الدين زنكي وتولية أولاده
٦٠	عصيان أهل الرها واستيلاء نور الدين عليها
٦١	ابتداء الحروب الصليبية الثانية
٦١	طالب الصليبيين النجدة من البابا ومن ملوك أوروبا
٦١	جمعية فينزالاي بفرانسا
٦٣	تحرير الملك كونراد ملك المانيا باتحاده مع الصليبيين
٦٣	جمعية مدينة ألاميس بفرانسا والاستعداد لسفر الصليبيين
٦٤	سفر الصليبيين واجتماعهم بالقسطنطينية
٦٤	أخبار الصليبيين في القسطنطينية
٦٥	مسير العساكر النمساوية والامانية
٦٦	سفر العساكر الفرنسية
٦٧	المشورة بالحروب الصليبية الثانية
٦٨	محاصرة الصليبيين مدينة دمشق

صفحة	
٦٩	استيلاء نور الدين على حصن العزيمة
٧٠	انهزام الافرنج بيغري
٧٠	قتل رايوند صاحب الطاكية
٧١	وفاة الحافظ لدين الله خليفة مصر وولاية الظافر بامر الله
٧١	أسر جوسلين
٧٢	قتل ابن السلار وزير الخليفة الظافر ووزارة عباس
٧٣	امتلاك الصليبيين مدينة عسقلان
٧٤	استيلاء نور الدين على مدينة دمشق
٧٥	قتل الخليفة الظافر وولاية ابنه الفاضل
٧٦	محاصرة نور الدين حصن حارم
٧٧	انتصار العساكر النورية على الافرنج
٧٨	معاربة المصريين غزة وعسقلان
٧٩	وفاة الخليفة الفاضل بنصر الله وولاية العاضد لدين الله العلوي
٧٩	وفاة الخليفة المقتفي لامر الله العباسي وخلافة المستنجد بالله
٨٠	تاريخ جامع سيدنا الحسين رضي الله عنه
٨١	قتل الصالح بن رزيق وزير مصر
٨٢	وفاة بودوين الثالث وولاية أخيه أموري
٨٢	وزارة شاور ووزارة ضرغام بعده
٨٣	في دخول أسد الدين شيركوه مصر أول مرة
٨٥	فتح حارم
٨٦	فتح بانيساس
٨٧	في دخول أسد الدين شيركوه مصر المرة الثانية
٨٨	معاربة أسد الدين شيركوه المصريين والصليبيين
٨٩	استيلاء أسد الدين على الاسكندرية ومعاربة المصريين والصليبيين
٩٠	في رجوع أسد الدين والصليبيين من مصر
٩١	في معاربة نور الدين بلاد الافرنج
٩١	في تجهيز الملك أموري عسكره للاستيلاء على الديار المصرية

صفحة	
٩٢	استيلاء الصليبيين على بليس
٩٢	محاربة الصليبيين مدينة القاهرة
٩٣	دخول أسد الدين شيركوه مصر ثالث مرة
٩٤	قتل شاور ووزارة أسد الدين شيركوه
٩٦	حكم الملك المنصور أسد الدين شيركوه ووفاته
٩٧	وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف
٩٩	قتل جوهر مؤتمن الخلافة وواقعة المييد
١٠١	محاصرة الصليبيين ثغرمياط
١٠٣	مسير نجم الدين أيوب وباقي عائلته الى مصر
١٠٤	محاربة نور الدين حصن الكرك والزلزلة الكبرى
١٠٤	محاربة صلاح الدين بلاد الصليبيين
١٠٥	وفاة الخليفة المستنجد بالله وخلافة المستضيء بإمر الله
١٠٥	وفاة الخليفة العاضد لدين الله بمصر والخطبة فيها لبني العباس
١٠٨	محاربة نور الدين الصليبيين بناحية حصن عرقه وغيره
١٠٨	يريد الحمام
١٠٩	النفور بين صلاح الدين ونور الدين
١١٠	محاربة نور الدين وصلاح الدين الصليبيين
١١١	فتح بلاد النوبة
١١٢	وفاة نجم الدين أيوب وبعض سيرته
١١٤	استيلاء بهاء الدين قراقوش على طرابلس الغرب وغيرها
١١٥	استيلاء شمس الدولة تورانشاه على بلاد اليمن
١١٥	ظهور المؤامرة وطلب أعضائها
١١٦	وفاة الملك العادل محمود أتاك نور الدين
١١٨	حصار الصليبيين حصن بانياس وعودهم عنه
١١٨	وفاة الملك أموري وتولية ابنه الملك الأبرص
١١٩	ورود أسطول جزيرة صقلية ومحاصرة الإسكندرية
١٢٠	واقعة الكنز وقله

صفحة	
١٢٠	عزم صلاح الدين على المسير الى بلاد سوريا
١٢١	حكم قراقوش وبناء القلعة والسور وغيرهم
١٢٣	مسير الملك الناصر صلاح الدين الى سوريا واستيلاءه على دمشق وغيرها
١٢٦	في استقلال صلاح الدين بالملك وسلطته
١٢٧	حرب السلطان مع الموصلية وهدنة الصليبيين
١٢٨	ماجرى للسلطان مع الحشيشيين
١٢٩	استيلاء تورانشاه على حضرموت واستيلاء قراقوش على بعض بلاد الغرب
١٣٠	حصار حلب وحرب الاسماعيلية
١٣١	تقوية اسطول مصر وبعض فتوحات
١٣١	حرب السلطان مع الصليبيين وواقعة الرملة
١٣٢	محاربة الصليبيين حماه وحارم ورجوعهم الى بلادهم
١٣٣	مسير السلطان صلاح الدين الى سوريا ومحاربة الصليبيين
١٣٣	محاربة الصليبيين بمرج عيون وانتصار الاسطول المصري
١٣٤	تخريب حصن بيت الاحزان
١٣٥	محاربة الاسطول المصري ميناء عكا
١٣٦	وفاة المستضيء بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله
١٣٦	محاربة السلطان بلاد الارمن
١٣٧	وفاة شمس الدولة وورود التشریف للسلطان ورجوعه الى مصر
١٣٨	محاربة عن الدين فرخشاه رانود صاحب الكرك
١٣٨	وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين
١٣٩	في سفر السلطان صلاح الدين الى الشام ومحاربة الصليبيين
١٣٠	محاصرة بيروت برأ وبحراً ومسير السلطان الى الموصل
١٤٠	الصليبيون في البحر الاحمر او بحر القلزم وهلاكهم
١٤١	استيلاء السلطان على حلب
١٤١	في تنازل بودوين الرابع وولاية بودوين الخامس
١٤٢	مناوشات الصليبيين مع العساكر الاسلامية
١٤٢	محاصرة الكرك ودخول السلطان بلاد الصليبيين

صفحة	
١٤٣	مرض السلطان وصاحبه مع عن الدين صاحب الموصل
١٤٣	وفاة بودوين الخامس وولاية غوي دي لوزينانا
١٤٤	حساب المنجمين بخراب الكون
١٤٥	اختلاف الصليبيين وأنجياز رايوند الى السلطان صلاح الدين
١٤٥	غدر رانود صاحب الكرك بالهدنة
١٤٥	واقعة صفورية وحصار الكرك
١٤٦	فتح طبرية ومجلس مشورة الصليبيين
١٤٧	واقعة حطين وأخذ المسلمين صليب الصليبيات
١٤٩	أخذ قلعة طبرية
١٤٩	فتح عكا وغيرها من الحصون
١٥٠	فتح تبين وصيدا وحيل وبيروت
١٥١	فتح عسقلان وما يجاورها من البلاد والحصون
١٥٢	فتح البيت المقدس شرفه الله
١٥٦	إظهار محراب المسجد الأقصى والصخرة المقدسة ومحراب داود
١٥٧	أول خطبة بالمسجد الأقصى بعد فتحه
١٦١	حصار مدينة صور وفتح هونين
١٦٣	في التحريض على طلب الحروب الصليبية الثالثة
١٦٤	صالح فرانسا وانكلترا وتحريضهم على الحروب الصليبية
١٦٥	ضريبة المشور للحروب الصليبية الثالثة
١٦٥	موت ملك الانكليز وتولية ولده ريكاردوس وذبح اليهود
١٦٦	التحريض على الحروب الصليبية ببلاد النمسا
١٦٧	في اتحاد فرانسا وانكلترا للسفر الى سوريا
١٦٧	حصار حصن كوكب وفتح بعض البلاد
١٦٨	فتح جبلة واللاذقية وغيرها وخبر اسطول صقلية
١٦٩	فتح حصن صهيون وغيرها من الحصون
١٧٠	فتح بكاس والشعر والسرمانية وبرزية
١٧١	فتح حصن دريساك وحصن بغراس

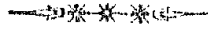
صفحة	
١٧٢	الهدنة ورجوع السلطان عن انطاكية وفتح الكرك وصفد وكوكب
١٧٣	في بناء استحکامات عكا وحصار شقيف ارتون
١٧٤	مناوشات بين الصليبيين وعساكر المسلمين
١٧٦	محاصرة الصليبيين عكا ومحاربتهم ومصارعة الصليبيان
١٧٩	ورود المدد للصليبيين وواقعة عكا الكبرى
١٨٢	وصول العساكر انصورية والاسطول المصري وهجوم الصليبيين على اليزك
١٨٢	احراق ابراج الصليبيين وواقعة الاسطول
١٨٤	الحروب الصليبية الثالثة
١٨٤	سفر ملك النمسا والمانيا الى فلسطين وما جرى له ووفاته
١٨٦	الواقعة العادية على عكا بين الصليبيين والمسلمين
١٨٧	حصار عكا من البحر ودخول الزاد اليها قهراً
١٨٩	احراق منجنيقات الصليبيين ومراكبهم واداء الامانة بعد الموت
١٩٠	واقعات الدبابات والخذق وانكسار
١٩١	في دخول البديل العسكري عكا
١٩٢	سفر العساكر الصليبية الثالثة في البحر وما جرى للملك الانكليز سيسيليا وقبرص وزواجه
١٩٣	وصول الصليبيين الى عكا ومحاصرتهم لها وقتل بعض امراءهم
١٩٥	طلب الصليحي ودخول الصليبيين عكا
١٩٨	رمى علم النمسا في الخندق وسفر ملك فرانس الى بلاده
١٩٨	سفر ريكاردوس من عكا وواقعة ارسوف وتخريب عسقلان
٢٠١	في وقوع ريكاردوس في الاسر ونجاته وعرض زواجه اخته جوانا بالملك العادل
٢٠٢	مراسلة ريكاردوس لصلاح الدين بالصلاح وما جرى بعد ذلك واعمير بيت المقدس
٢٠٣	بناء الصليبيين مدينة عسقلان وما جرى في أثناء ذلك وغضب بعضهم
٢٠٤	في عزيم ريكاردوس على السفر الى بلاده وموت كوزاد صاحب صور وغيره
٢٠٥	في تقرب الصليبيين الى القدس ورجوعهم عنه بقرار مجلس مشورتهم وما فعله السلطان

صفحة	
٢٠٨	استيلاء السلطان علي ياقا ومحاربة ريكاردوس
٢٠٩	في مرض ريكاردوس والهدنة بينه وبين السلطان
٢١٠	انتهاء الحروب الصليبية الثالثة
٢١١	سفر ريكاردوس ووقوعه في الاسر ببلاد النمسا
٢١٢	في التفتيش على ريكاردوس ووجوده في السجن ونقله الى سجن آخر
٢١٢	محاكمة ريكاردوس ظلما واطلاقه من الاسر
٢١٣	سفر السلطان الى دمشق بعد الهدنة وعزمه على الحج
٢١٤	مرض السلطان صلاح الدين ووفاته
٢١٥	تقسيم مملكة صلاح الدين على اولاده وما جرى في اثناء الهدنة
٢١٧	استيلاء الملك العادل على دمشق
٢١٧	ابتداء الحروب الصليبية الرابعة
٢١٧	تخريض البابا وسفر العساكر الصليبية الرابعة
٢١٨	وصول الصليبيين الى عكا واستيلاء المسلمين على ياقا واخذ الصليبيين بيروت
٢١٩	مسير القسم الثالث من الحيوش الصليبية الرابعة
٢٢٠	حصار حصن تبين وقدم العزيز اليه ورجوع الصليبيين على اعقابهم
٢٢١	وفاة الملك هنريكوس السادس وتعيين الملك اموري على فلسطين وانتهاء الحروب الصليبية الرابعة
٢٢١	وفاة العزيز صاحب مصر وتولية ابنه المنصور وما جرى للافضل
٢٢٣	خلع الملك المنصور وسلطنة الملك العادل على مصر وسوريا
٢٢٣	الحروب الصليبية الخامسة
٢٢٣	تخريض البابا اينوشانسيوس الثالث على الحروب الصليبية
٢٢٤	سفر العساكر الصليبية الخامسة واتحادهم مع مشيخة البندقية
٢٢٥	محاربة الصليبيين مدينة زارا والقسطنطينية وغيرها
٢٢٧	ثورة القسطنطينية وامتلاك الصليبيين لها
٢٢٨	توقيع بودوين على القسطنطينية وما جرى للصليبيين بها وانتهاء الحروب الصليبية الخامسة

- ٢٢٨ مناوشاة الصليبيين والملك العادل
- ٢٢٩ موت الملك اموري صاحب عكا وتعيين خلفه والتحريض على الحروب الصليبية السادسة
- ٢٢٩ ابتداء الحروب الصليبية السادسة
- ٢٢٩ التحريض على الحروب الصليبية السادسة والصليبيون الفتيان ومؤتمر رومية
- ٢٣٠ سفر العساكر الصليبية السادسة
- ٢٣١ محاربة الصليبيين مع الملك العادل وسفرهم الى مصر وسفر ملك هونكريا وقدم صليبيين آخرين
- ٢٣٢ محاصرة الصليبيين لمدينة دمياط
- ٢٣٣ وفاة الملك العادل
- ٢٣٣ محاربة الصليبيين بارض دمياط ودخولهم حتى اشمون طناح واتخاذ ثورة المسلمين
- ٢٣٥ قدوم نجدة للصليبيين بقيادة بيلاجيوس وهدم سور البيت المقدس
- ٢٣٥ تشديد الحصار على دمياط واستيلاء الصليبيين عليها
- ٢٣٧ في شقاق الصليبيين وبناء مدينة المنصورة
- ٢٣٧ ما جرى للصليبيين بعد ذلك واستيلاء المسلمين على دمياط
- ٢٣٩ ما جرى للملك فريديريكوس الثاني باوروبا واستيلائه على القدس صالحاً
- ٢٤١ ذكر خلفاء المسلمين
- ٢٤١ مؤتمر مدينة سبولاته
- ٢٤٢ باقى سلطنة الكامل ووفاته وسلطنة ولده العادل
- ٢٤٣ في سجن الملك الصالح نجم الدين أيوب
- ٢٤٣ استيلاء المسلمين على القدس وما جرى للبابا وفريديريكوس
- ٢٤٤ سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر وخلافة المستعصم
- ٢٤٥ محاربة الصليبيين بغزة ورجوعهم الى بلادهم
- ٢٤٥ محاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب وسجن بيمرس
- ٢٤٧ التمر باوروبا ومؤتمر ليون بفرانسا
- ٢٤٨ ابتداء الحروب الصليبية السابعة
- ٢٤٨ سفر العساكر الصليبية السابعة

صفحة	
٢٤٩	وصول الصليبيين الى دمياط ومخبرتهم للملك الصالح أيوب
٢٥٠	في امتلاك الصليبيين دمياط.
٢٥١	استيلاء الملك الصالح على الكرك ووفاته
٢٥٢	محاربات الصليبيين وواقعة المنصورة
٢٥٣	قدوم المعظم تورانشاه وسلطنته وواقعة الصليبيين وأسر لويس التاسع وغيره
٢٥٣	قتل المعظم وسلطنة شجرة الدر وإطلاق الملك لويس التاسع
٢٥٥	الملك لويس بعكا وسلطنة إيبك الجاشنكير
٢٥٥	سفر أخوات الملك لويس الى فرانسا وسلطنة الملك الأشرف بن يوسف
٢٥٦	حروب بين المماليك والسوريين واتحادهم مع الملك لويس وتخريب دمياط
٢٥٧	طاب الملك لويس التاسع النجدة من أوروبا و وفاة الأشرف بن يوسف
٢٥٨	انتهاء الحروب الصليبية السابعة
٢٥٨	وفاة إيبك الجاشنكير وسلطنة ولده نور الدين
٢٥٩	استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية
٢٦٠	سلطنة المظفر سيف الدين قطاوى وانتصار المصريين على التتر
٢٦١	قتل الملك المظفر وسلطنة الظاهر بيبرس البندقداري
٢٦٣	انتقال الخلافة العباسية الى الديار المصرية
٢٦٤	فتوحات الملك الظاهر بيبرس و وفاة المستنصر وخلافة الحاكم بأمر الله
٢٦٥	محاربات الظاهر بيبرس مع الصليبيين بسوريا
٢٦٥	اصلاحات الملك الظاهر بيبرس
٢٦٦	فتوحات الظاهر بيبرس ببلاد الصليبيين بسوريا
٢٦٧	حجج الملك الظاهر بيبرس
٢٦٧	الحروب الصليبية الثامنة
٢٦٧	في التحريض على الحروب الصليبية الثامنة
٢٦٨	تجهيز العساكر الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا
٢٦٩	سفر العساكر الصليبية الثامنة
٢٦٩	وصول الصليبيين الى تونس ومحاصرتها
٢٧٠	محاربات الصليبيين و وفاة الملك لويس التاسع

٢٧٠	سفر كارلوس صاحب سيسيليا الى تونس وحصول الصلح وانتهاء الحروب الصليبية الثامنة
٢٧١	بقية الحروب الصليبية
٢٧١	باقي فتوحات الظاهر بيبرس
٢٧٢	وفاة الملك الظاهر بيبرس
٢٧٣	آثار الملك الظاهر بيبرس
٢٧٤	سلطنة الملك السعيد بركة خان
٢٧٥	سفر الملك السعيد والاغارة على ارمينية
٢٧٥	خلع الملك السعيد بركة خان
٢٧٥	سلطنة الملك العادل سلامش وخلفه
٢٧٦	سلطنة الملك المنصور قلاوون الالفى
٢٧٦	مخاربة التتر
٢٧٧	فتح حصن المرقب من الصليبيين وغيره
٢٧٨	ثورة المساليتك وقتل الرعية
٢٧٨	فتح طرابلس من الصليبيين
٢٧٨	وفاة الملك المنصور قلاوون وآثاره
٢٧٩	سلطنة الملك الاشرف
٢٧٩	في فتح عكا وانقراض الصليبيين



اعلان

﴿ كتاب الاخبار السنية في الحروب الصليبية ﴾

بمؤن الله قد تم طبع هذا الكتاب وهو أول كتاب أنشئ في اللغة العربية جامعاً لثلاث الثمانية حروب صليبية من سنة ٤٩٠ هـ أي من دخول الصليبيين سوريا واستيلائهم على بلاد الشام لغاية سنة ٦٩٠ هـ أي لغاية انقراض الصليبيين من سوريا وتوضيح أسباب الحروب ونشأتها وتحريضات البابوات وتاريخ ملوك الاسلام وحروبهم مع الصليبيين مثل السلطان صلاح الدين الايوبي ومحاربه الملك الانكليز ريكاردوس الملقب بقلب الاسد والملك العادل وابنه الكامل والصالح نجم الدين ايوب وأسر لويس التاسع ملك فرنسا والسلطان الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وهو كبير الحجم يحتوي على ٣٣٠ صفحة وثمنه كما يأتي بخلاف أجرة البريد وهي قرشين صاغ

١٥ صاغ مغلف تغليفاً حسناً

٢٠ ١٧ « مجلد تجليد بروتتي جميلاً

١٩ « مجلد تجليد أفرنكي مذهب

فن أراد الحصول عليه فليرسل قيمته لنا بمنزلة مرة ٧ بمطبعة المطبعة بقنطرة الأمير حسين بمصر أو بمنزل سعادتلو أفندم عبد السلام باشا المويلحي أو بمخبر المعلم حسن شداد بشارع محمد علي . وبيع أيضاً بالمجلات الآتية

بالمطبعة العمومية الكائنة بشارع عبد العزيز بمصر

بمكتبة الترقى « « « « «

بدار البقالة المصرية بالعباسية

بدكان عبد السلام أفندي الصبي البنان بالسكة الجديدة

بدكان الاوسطى حسانين علي الشريف التريزي بالحمزاوي كاتبه

سيد علي الحريري